محمد الطاهر فضلاء

التحريف والتزييف
في كتاب
حياة كفاح

الطبعة الأولى
1402 هـ ـ 1982 م

نشر

دار البعث
للطباعة والنشر
قسنطينة (الجزائر)

محمد الطاهر فضلاء

التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح

الطبعة الأولى
1402 هـ ـ 1982 م

نشر

دار البعث
للطباعة والنشر
قسنطينة (الجزائر)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا

(الآية 81 - الإسراء)

طبـع بمطابـع

1402 هـ ـ 1982 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــداء

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أرواح أولئك الأحرار الأبرار الميامين، الذين حاول صاحب كتاب "حياة كفاح" أن ينال منهم ويدين ذممهم وضمائرهم الوطنية والثقافية والشخصية.. بطريقة وبأخرى:

عبد الحميد بن باديس - محمد البشير الإبراهيمي - الطيب العقبي - مبارك الميلي - العربي التبسي - الأمين العمودي - مصالي الحاج - شكيب أرسلان - عبد العزيز الثعالبي - محيي الدين القليبي - الدكتور موسى - محمد السعيد الزاهري، وغيرهم.

وإلى أرواح أولئك الذين أكرموه - حمية وشهامة - وأدخلوه قصورهم ومقاصيرهم، من أعيان الأسر الجزائرية ونخبتها الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، ثم نبش قبورهم بما لا يذكر به إلا الأشقياء الذين يئسوا من رحمة الله.

ثم، إلى كل الأحياء، من تلاميذ وأتباع ومناصري ورفقاء أولئك الرواد الأحرار، الذين استهان بهم "أ. ت. م" جيما أهان روادهم ونهب تراثهم، ولم يرع لحرمتهم ذمة، ولا لأفضالهم عليه نعمة!

إلى هؤلاء جميعا، أهدي هذا الكتاب، برا بهم، ووفاء لهم، وعهدا مجددا، يبارك الله في علياته، ويثيب عليه بما يجزي به عباده الصالحين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

تاريخ الجزائر لا يكتبه إلا الشرفاء

... تاريخنا يجب أن يكتبه مؤرخون جزائريون "نزهاء وشرفاء"
يكتبونه كمكسب عظيم من المكاسب التاريخية لهذه الأمة،
وليس مجرد بضاعة تزين بها المكتبات، ويتاجر بها في الأسواق. لأن
هذه الحقبة من تاريخ بلادنا تعد من أقدس مقدسات هذا الشعب..

فحذار من العبث بهذه المقدسات لأننا - كما سبق أن قلت - نريد
أن نسجل تاريخ شعب، تاريخ مليون ونصف المليون من الشهداء،
وليس تاريخ فلان وعلان، ممن لا زالوا على قيد الحياة، وهم معرضون
باستمرار لكل أنواع الانحرافات، شأن كل البشر.

يجب أن نكون يقظين في وجه أية محاولة لكتابة تاريخ بلادنا
من الوجهة الضيقة والفردية، التي تؤدي إلى إدخال عناصر
تنجر عنها انحرافات معينة...

الرئيس هواري بومدين

المؤتمر الخامس للمجاهدين

مايو 1978

التاريخ .. هو ذاكرة الأمة وضميرها

... إنّ التاريخ هو ذاكرة الأمة وضميرها، وانّ الشعب الذي يتجاهل تاريخه، ولا يستلهم أمجاده، هو شعب يفقد شخصيته وأصالته، ويصبح عرضة للاستعمار الفكري وللاستلاب.

ولإحياء أمجادنا التاريخية:

أدعو لمواصلة الجهود في كتابة تاريخنا بكل دقة وموضوعية، إذ أن هناك أخطاء قد يمكن التسامح معها، إلا الأخطاء التي تمس بالتاريخ أو تشوه أحداثه أو تحرف وقائعه .. والتاريخ الوطني وحدة متكاملة، ومسيرة تمتد من أعماق الماضي إلى اليوم.

ولقد أردت بحضوري معكم اليوم، أن أعبر لكم عن اهتمامي البالغ بالمبادرات البناءة التي تبذل في مجال كتابة تاريخنا الوطني بكل نزاهة وموضوعية، وخاصة بالجهود المبذولة من أجل تدوين أحداث ثورة نوفمبر المجيدة التي هي تتويج لكفاح شعبنا عبر الأجيال.

الرئيس الشاذلي بن جديد

الملتقى الوطني الأول لكتابة تاريخ الثورة

أكتوبر 1981

مقـــدمــة

لِـم تأخر ظهور هذا الكتاب ؟

مع أن مواضيعه ووثائقه كانت جاهزة منذ حين من الزمن، وكانت مجموعة فى ملف واحد منذ فترة طويلة من الزمن ، أى بعد أن قرأنا كتاب « حياة كفاح » الجزء الثانى ، وبعدما قرأناه فى جزئه الأول منذ أكثر من عامين اثنين .

وقد كنت أحضرت هذا الملف الى « الندوة التاريخية » التى انتظمت لمناقشة ومحاسبة السيد أحمد توفيق المدنى على ما أورده فى كتابه هذا من الترّهّات ... ولكن المركز الثقافى الاسلامى أراد تلطيف حدة هذه الندوة ، فحوّل موضوعها الى موضوع آخر وهو : نشأة جمعية العلماء ، حتى لا يتحرج مع صاحب الكتاب ، حين يدان أمام ملإ من الناس .

ثم ان الاخوة مناضلى جمعية العلماء ، ومعهم العديد من مناضلى الهيئات والاحزاب السياسية والاجتماعية لفترة مـا قبل الثورة التحريرية ــ وقد كان المركز غاصّا بهم ــ رأوا أن من الحكمة عدم فتـح هـذا الملف قبل أن تتهيـأ الاسباب لنشره فى كتاب .

وطبع كتاب ونشره ــ عندنا ــ أبعد منالا من صنع مركبة فضائية تخترق الاجواء نحو الكواكب البعيدة المدى ، لماذا ؟

ذلك ما لا نملك الجواب عليه فى الوقت الحاضر .

وبعــد ،

فهذا كتاب فى الرد على صاحب كتاب « حياة كفاح » بــين أيــدى القراء ، مدعّما بوثائقه وحقائقه ، ليكــون ــ كــما وعدنا ــ ماحيا للاوهام المصرّة على التحريف والتزييف حتى اليوم ، ضمن املاءات صاحبها ومحادثاته ومحاضراته .

وقــد فصّلنا الكتاب الى ثلاثة فصول ، أو ثلاثة أقسام ، وضعنا القسم الاول تحت عنوان « حقائق وأوهام » أدرجنا فيه معظم الوثائق التى أرجأنا التعامل بها فى ردودنا الاولى ، رغبــة مــنا فى عــودة صاحب الكتاب الى الجادة ، واعترافه بالخطأ ، واعلان توبته منه .. فلما تأكد لدينا اصراره عــلى جعل المين صدقا ، والباطل حقا ، والتحريف واقعا ، والتزييف حقيقــة ، لا سيما مــا يخص منــه علماءنا وعظماءنا ورواد مواكب نهضتنا وثورتنا .. آليــنا عــلى أنفسنا ان نمضى فى ردودنا عليه الى أبعد مدى يمكن الوصول اليــه ، فى حدود « الحق » الذى لا يدارى الباطل ، و « الصدق » الذى لا يجامل فى التجنى وقلب الحقائق .

والقسم الثانى من الكتاب ، وضعنا له عنوان « مقالات » ، وفيه اثبتنا كل ما وصــل الينا منشورا فى الصحف الوطنية حول كتاب حياة كفاح وصاحبه .. كما وضعنا فيه المطولات التى نشرناها فى حينها ، وكان لها الصدى البعيد ، نظرا لما لها من الاهمية من حيث موضوعها وأسلوبها .

أما القسم الثالث والاخير ، فقــد وضعناه تحت عنوان : « لواحق » ادرجنا فيه بعض الوثائق التى سبق الحديث عنها فى القسمين الاولين ، وزدناها وثائق أخرى مدعمة لتأكيداتنا

عن (أهمية) الرواد الاوائل لجمعية العلماء ، و (تفاهة) التزييف والتحريف. اللذين سجلهما السيد أحمد توفيق المدنى فى كتابه بكل عنجهية وصفاقة ، فى الوقت الذى رفع فيه من شأن العملاء والسخفاء ، وجعل من بعضهم « ملائكة » يمشون فى الارض ويختلطون بالناس .. وجعل من البعض الآخر « عباقرة ومفكرين » تتفتق أفكارهم وذهنياتهم عن أروع الاعمال ، وابلغ الاقوال !..

☆ ☆

ولكى لا يكون هذا الكتاب عملا فرديا يوسم بالتحامل أحيانا ، وبالتأثر العاطفي والوجدانى أحيانا أخرى ... فقد عرضته على نخبة من تلامذة عبد الحميد بن باديس أولا ، ومن رجال جمعية العلماء ثانيا ، ومن اقطاب الفكر السياسى ثالثا .. وكلهم أثنى على العمل وباركه ، وكلهم دعا الى المزيد من هذا النشاط الفكرى ، لا سيما ما يخص تاريخ المجد الوطنى ورواده .

وقد أبدى بعض الاخوة ، بعض الملاحظات فى قليل من صفحات الكتاب وفقراته ، فما تمسكوا به من الرأى ولم يقتنعوا – فى المناقشة – بغيره – عدّلناه حسب رغبتهم ورأيهم الجماعى ، وما اختلفنا فيه – شكلا ومضمونا – تحملت فيه عبء المسؤولية وحدي مجتهدا ومحتسبا .

☆ ☆

وحول عنوان الكتاب ، كانت مناقشة الاخوة ، مريحة وممتعة ، خففت الكثير من حرارة جو النقاش ، الذى كان يحتد أحيانا حين يتصدى احدهم للرد على رأى يقترح تعويض كلمة حادة بكلمة لينة ... فمثلا : كلمة « الكذب » الواردة في هذا الكتاب احيانا ، وكذلك كلمات : الاستاذ – الشيخ –

السيد ... ففي خصوص الاولى يرى البعض ان كلمة الكذب، تعد من مهاترات الكلام التى ينبغى ان يترفع عنها وعـــن استعمالها هذا الكتاب ، مع استبدالها بما هو أخف وألطف وقعا فى النفس . أما القاظ التشريف الشخصى فيرى الملاحظ أيضا انه لا ينبغى ذكر اسم صاحب كتاب حياة كفاح مجردا منها ، وما فى معناها .

غير أن الردود ، لم تكن فى صالح هذه الملاحظات ، بــل أكدت هذه الردود كلها صدق الكلمة الاولى ــ « الكذب » ــ فى غالب ما ورد فى كتاب حياة كفاح ... اما تفاهة الالقاب المطلوبة للتشريف الشخصى فهى عرف يدخل ضمن البــدع التقليدية ، وهى لا تتفق مع الاساليب العربية الاصيلــة ، ولا مع الآداب الاسلامية السلفية ، فرسول الله (ص) أفصح من نطق بالعربية لم يثبت انه نادى أحد أصحابه بغير اسمه أو كنيتــه ، ومثله الخلفاء الراشدون .

فحول عنوان هذا الكتاب اذن ، وقع نقاش ممتع ، كاد أن يتحول الى نقاش حــاد ، لولا ان الاخ الاستاذ محمد الصالح رمضان ــ استطاع بهدوئه الطبيعى ــ ان يحسم الخلاف ، ويشيع جوا من المرح عند ما قدم لنا قائمـــة من الاسمــاء التقليدية المسجوعة ، لنختار منها عنوانا جديدا للكتــاب ، فكانت هذه القائمة كما يلى :

ــ يد الجراح ، تعمل فى « حياة كفاح » .

ــ كبح جماح ، صاحب « حياة كفاح » .

ــ الرد المباح ، عما فى « حياة كفاح » من جناح .

ــ نور الصباح ، يكشف عن مساوى « حياة كفاح » .

ثم زاد أحد الاخوة الحاضرين عنوانا طلب فى الحاح تسجيله مع بقية العناوين السابقة ، فقبلنا اقتراحه بعد تعديل طفيف . والعنوان هو :

ـ البيان والايضاح ، عما فى كتاب « حياة كفاح » من سفاح !

وقد كان كل الاخوة الحاضرين فى هذه الجلسة الاخوية ـ يعلق على كل عنوان من هذه العناوين ، بما يبدو له من التعديلات ... وأخيرا استقر الرأي على العنوان الذى اخترناه مسبقا ، على ان يصور عنوان الكتاب المنقود بشكله، لكي يكون برسمه دليلا قائما على التحريف والتزييف فيه .

☆ ☆

واني لا أكشف سرا حين اذكر هنا لقائي بالاستاذ الحبيب اللمسي ، الاديب التونسي الشهير ، ومدير دار نشر بها ـ وذلك في الملتقى الأول للكتاب المنعقد بالجزائر العاصمة من 18 ـ 11 الى 3 ـ 12 ـ 1981 ، تحت اشراف الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية التابع لوزارة التعليم والبحث العلمى ، حيث جرى بيني وبينه حديث عن كتاب حياة كفاح وصاحبه، وعاتبته وعاتبت في شخصه ـ أدباء وكتاب تونس الاجلاء ـ على تقاعسهم وسكوتهم على ما ورد فى هذا الكتاب من طمس للحقائق ، واستخفاف باعلام التاريخ الوطني التونسى ، ومن غمط لحقوق جيل الكفاح والنضال فيها . . . فأجابني الاستاذ اللمسى بما طمأنني ، ووعدنى بارسال مقال كتب ونشر فى هذا الموضوع بالذات ...

وكم كنت أتمنى لو أتيحت لى فرصة نشر ما كتب الاخوة التونسيون في هذا الكتاب ، حول الجزء الاول من كتاب حياة كفاح ، ولكن ما لم نتمكن منه اليوم ، لظروفه الخاصة ،

سيصبح متوفرا فى الغد القريب ، وسننتظر المستقبل الكشاف الذى تبادر فيه تونس العزيزة الى تصحيح الاوهام بالحقائق، وازهاق الباطل بالحق ، ليعلم الانانيون والمترددون معا ، والمتواطئون والوصوليون معا : انه مهما خبت أنوار الحق وتنكست أعلامه بالارهاب والعدوان ... فان أهل الحق لا يعدمون الحكمة والشجاعة فى مجابهة كل الظروف الحرجة، وكل الاصنام والاوثان المحنطة ـ بما تستحقه من التحقير والتحطيم . فحبل الكذب قصير مهما طال ، وأمد الباطل مقطوع لا محالة بجبال من الحق والصدق ، وحينذاك ستنجلى الرغوة عن الصريح ، وتنقشع السحب عن اشراقة الشمس فى صفائها ونقائها .

☆ ☆

وليس لي ما أخفيه ان أنا أشرت الى الظروف الحرجة التى قامت دون ظهور هذا الكتاب ، منذ طالبنا بضرورة وضعه بين أيدى القراء ، فهى وان كانت تلبس لباس المنطق وتتزيأ بزي الحكمة ـ الا أنها ظروف معوقة ومثبطة ما فى ذلك شك ... وقد قلنا فى مجابهتها والرد على زارعى شكوكها فى الدرب :

انه ليس من المعقول ولا من المقبول ان نسمى الاشياء بغير اسمائها ، ثم نكسو هذه التسمية الخاطئة برداء من الحكمة والتعقل وحسن التدبير .

انه ليس من الحكمة ابدا ، ان نترك الذئب المتلصص المتحفز ... حتى يغرز انيابه فى كل ضحاياه ـ بحجة ان الذئب يلبس جلد الخروف ، أو يثغو ثغاء الخروف ! .

فليرتد الذئب ما شاء من الاردية ، وليتخذ ما أراد من الاقنعة والدروع ، فانه لا يغنى عن ضرورة الصدع والجأر

بالكلمة الجهيرة المدوية ، بانه ذئب مفترس جائع يجب صده والوقوف في وجهه مهما كانت النتائج ومهما كانت التضحيات.

واذا كان للمعوقات والمثبطات ثقلها ووقرها فى محاولة تعطيل هذا الكتاب ، فان للمشجعات اثرها الكبير فى نفسى وفى دفع الكتاب الى الظهور ... فما كدت أعلن عزمى على طبع مقالاته ووثائقه ... حتى انهالت علي الرسائل والمقالات والتعليقات ــ وحتى الوثائق ــ قصد المشاركة والمساهمة فى أعمال هذا الكتاب ، فمنها ما نشرته هنا ، ومنها ما أرجأته الى حينه بعد صدور الكتاب ، فالى الجميع امتنانى وشكرى وتهنئتى لهم على مواقفهم المجيدة ، وآرائهم السديدة ، وافكارهم المثلى .

اما أولئك المثبطون الذين افتعلوا آراءهم وأحكامهم المسبقة ، وأرادوا احداث الفجوات فى الطريق ، ليتعطل العمل على انجاز هذا الكتاب ، فاننا ندعوهم جميعا الى التأمل معنا فى هذه الآيات البينات من كتاب الله العظيم ، الواردة فى مثل هذا المعنى العظيم ، وهو قوله تعالى :

« ٱلذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ، لِلذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ، ٱلذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا : حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ »
(سورة الاعراف ــ الآية : 173) .

وأخيرا ؟ ولا آخرا !!

لعل بعض القراء يتساءل : ماذا لو قدمتم مع هذا التعداد لمساوىء كتاب « حياة كفاح » ــ قائمة أخرى لبعض محاسنه ؟

اذن ، لكنتم منصفين للكتاب ولصاحبه ، ولكنتم أوفياء لقولكم ـ منذ البداية ـ حين طالبتم بندوة لمناقشة صاحب الكتاب ، وحين قلتم :

ـ ليعرف القراء الشباب ، ماذا يقرأون منه ، وما لا يقرأون ؟

والجواب :

ان رواة « الأخبار » فى التاريخ ، كرواة « الحديث » فى التشريع ، أول ما يشترط فيهم ـ لتعديلهم ـ هو النزاهة وتقوى الله .

وائمة الحديث ـ فى أمة الاسلام ـ رفضوا عددا كبيرا من الاحاديث الصحيحة التواتر ، لأنهم وجدوا من جملة روائها ـ أحد الكذابين ، أو أحد المتقولين ، الذين عرفهم الناس بعدم التحرج من الكذب ، حين يكون الكذب نافعا لهم فى بعض مصالحهم .

وهكذا بطل العمل بهذه الأحاديث ، لأن فيها كاذبا أو فاسقا لا يؤتمن فى الرواية ... والحكم على الراوي الغير النزيه كالحكم على الراوي الكذاب ، فكلاهما غير أمين وكلاهما ساقط فى التعديل ...

وكتاب « حياة كفاح » لا تخلو صفحة منه من الموبقات التالية :

الاثم ـ العدوان ـ التجني ـ التزيّد ـ التقوّل ـ التعالي التطاول ـ الغرور ـ تزكية النفس ـ ادانة الاموات ـ الكشف عن العورات ـ الخ ... هذه القائمة عدّا .

ومن كان هذا شأنه ، فلا تؤمن بوائقه ، ولا تؤخذ روايته ، ولا تعدل شهادته ، فهو ضال مضل ، حتى وان تزيا بزي العبّاد والزهاد ، أو الرهبان والقديسين .

فليقرأ هؤلاء القراء كتاب « حياة كَفاح » في حذر وانتباه ، فانهم سيجدون فيه هذا وأكثر ، وسيجدون أنفسهم ملزمين بوعيهم وبشعورهم بالواجب ــ بضرورة الرد عليه ، والتحذير من تحريفاته وتزييفاته . لان السكوت عن الباطل ممالئة له على حساب الحق . وهو ظلم للنفس وللغير ، مصيره محتوم بحكم صريح من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح .

ومن رآى من هؤلاء القراء ــ غير ما رأينا ، فليبادر بابداء رأيه مشكورا ، وليبين ــ بالحجة ــ وجهة نظره مقتنعا بها ، مؤمنا بما يثبته منها ، غير ممالىء ولا مجامل لاحد .

وعسانا بهذا ، نجد لهذا الكتاب الاسطورى ــ حياة كفاح ــ ما يبين أوجه الحسن فيه ، والا فهو وصمة شائنة ينبو عنها الذوق السليم بله العقل السليم .

« وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ » .

(م. ط. ف.)

القسم الاول

حقائق .. واوهام ..

النـــــدوة التاريخيـــة ! !

في المركز الثقافي الاسلامي : الاحد 8 جمادى (1) 1398 هـ 16 أفريل 1978م
من الساعة 7 مساء الى الساعة الثانية والثلث بعـــد منتصف الليـــل

حول محاضرة توفيق المدني :

عند ما تم طبع الكتاب « حياة كفاح » دعى صاحبـــه السيد توفيق المدني باسم « المركـــز الوطني للدراســات التاريخية » الى محاضرة يلقيها ، وموضوعها التعريف بالكتاب أي بكتابه ، وبلغتني دعوة لحضور هذه المحاضرة ، وكنت لم اقرأ بعد هذا الكتاب لانه لم يدخل السوق بعد ، ولم اكن من المقربين الى المؤلف ، ولا من الشخصيات البارزة التي يقرأ المؤلف لها ألف حساب ـ حتى يهدى الي نسخة من كتابه ...
وهذا نص الدعوة الموجهة من المركز الوطني :

المركـــز الوطـــني
للدراســات التاريخيـــة

محاضرة للسيـــد
أحمـــد توفيـــق المـــدني
عـــن كتابـــه الجديـــد
(حيـــــاة كفـــــاح)

الجزء الثاني الذي يصف حياة النهضة الجزائرية من سنة 1925 الى سنة 1954
يوم الاربعاء 7 ديسمبر 1974 على الساعة السادسة والنصف مساء .

ملحـــوظـــة :

يمضي أحمد توفيق المدني بعد محاضرته نسخ الكتاب (!!؟)

وتعذر علي الحضور لهذه المحاضرة التى أعلم مسبقا الغرض منها ولكنى سارعت بطلب نسختين من السوق ، بعد ان بلغتنى بعض الاصداء مرددة فحوى الكتاب فى جملته ...

وعكفت على قراءة الكتاب ، حتى انى كنت استصحبه معى في غدوى ورواحى فى البيت وخارج البيت ، واضع علـى هوامشه الملاحظات الضرورية التى تسهل علي عملية الرجوع الى النص المطلوب بعد الفراغ من قراءته .

ثم فاجأتنى دعوة الى حضور نفس المحاضرة فى المركـز الثقافي الاسلامي وكنت لم افرغ بعد من قراءة الكتـاب ، فضاعفت الجهد والوقت لذلـك ، فأنهيت هذه القـراءة الضرورية قبيل موعد المحاضرة ببضع ساعات .

محاضرته فى المركز الثقافى الاسلامى :

وفي المركز الثقافى الاسلامى الذى كان يجلس فيه الاقلية القليلة من كبار السن ــ مثلي ــ والاكثرية الكثيرة من الشباب ــ أخذت مكانى فى وسط القاعة ، وكلي أسى وأسف ــ يعلم الله ــ من الموقف الذى يمليه علي الواجب الاكيد ، والـذى سوف اقفه فى الرد على (توفيق المدنى) وفى تفنيد ما ورد في كتابه من التزييف والتحريف . ذلك انى لم اكن اظن انه سيأتى يوم أواجه فيه هذا الرجل بما يكرهه فضلا عن الذى يسوءه ... ولكن ما حيلتي في ذلك، وهو يأبى الاعتراف للزمن نفسه بانه ابن ثمانين فيرفض حتى النطق بها عندما سئل مرة : كم عمرك ؟ فقال عشرون سنة أربع مرات ! ! .

وكنت اسمع وأرى توفيق المدنى ، وهو يعرض فصولا من كتابه فكأننى كنت أرى شخصا آخر غير الشخص الذى كنت

أراه في احترام ، واسمعه في اعجاب ، منذ أربعين عاما أو تزيـــد .

لقد تحول الرجل الى شيء آخر ما في ذلك شك ، ولولا اني كنت اعرفه استاذا حين كنت أنا تلميذا ؟ ولولا اني سمعت اساتذتي وقرأت لهم الثناء عليه في جمل ما أزال اسمع دويها في أذني حينما كان هؤلاء الاساتذة يقولونها أو يكتبونها .. لولا ذلك لتمردت على نفسي ولاتهمتها فيما تنكره لهـــذا الرجل من المحامد ، بعد ان قرأت ما كتبه في كتابه مــن المثالــب .

وانهى توفيق المدني محاضرته ، وفتـــح باب النقـــاش والتعقيب وانتظرت مليا وأنا انظر الى الكبار من رفقاء الطريق في مسيرة النهضة الوطنية ، لعل احدهم يلهمه الله فيكفيني مؤونة القيام بالواجب الاكيد ... ولكن احدهــم لم يتحرك ، وكنت اسمع الشباب يتبارى في اسئلته الهامشية، فزادني الموقف تحرجا ، وأسى ، فرفعت يدي مستأذنا ، ثــم قلــت :

ــ نحن نعرف الاستاذ توفيق المدنــي ، كمــا عرّفه لنــا اساتذتنا وروادنا وقادة نهضتنا ، كان أحدهم يصفه « بأمير البيان » ، فقلنا معه : أجل هو أمير البيان ... وكان الآخــر يسميه : كاتب القطرين ، فقلنا معه : نعم هو كاتب القطرين ... ولكني عندما قرأت كتابه « حياة كفاح » الجزء الثاني ووجدته يتحامل على هؤلاء الرواد انفسهم ويرميهم باشنــع التهم ... وعندما قرأت كتابه هذا فوجدته يثني على شخص أقل ما يقال فيه : انه مشبوه ، فيصفه بانه « ملاك » في ثياب بشر ... في حال يرمي العظيم بالخيانة والخطيب بالأمية ، والامام الرائد بالعي والعجز ... فاننا لا نستطيع ان نسكت

أو نجامل ... لهذا أطالب هذا المركز الثقافى الاسلامى ، وفى مقدمته السيد وزير الشؤون الدينية ، بالدعوة الى نـــدوة خاصة يحضرها توفيق المدنى ويدعى اليها تلامذة وأنصـــار ورواد النهضة الوطنية : عبد الحميد بن باديس ـ الطيـــب العقبى ـ البشير الابراهيمى ـ مبـــارك الميـــلى ـ العربى التبسى ـ وغيرهم ، وفى هذه الندوة نناقش الاستاذ توفيـــق المدنى فيما ورد فى كتابه من التزييف والتحريف ، ليعلم شبابنا ماذا يقرأون من كتابه وما لا يقرأون ..!

ولبى المركز الثقافى الاسلامى هذه الدعوة الملحة ، وقـــرر لذلك يوما ، ثم أجله الى أشعار آخر ، وتكرر التعيين والتأجيل لميعاد هذه الندوة الى حين وجدت صيغتها النهائية فى موضوع :

نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

وذلك ظنا منه ان هذا الموضوع الذى تناوله توفيق المدنى فى كتابه بكثير من التزييف ، هو الذى حدا بنا ـ نحن تلاميذ جمعية العلماء ـ الى اعلان التذمر من هذا الكتاب وصاحبه ، مع اننا حين اقترحنا ندوة لمناقشة توفيق المدنى كنا نريـــد تصحيح ما أورده فى كتابه من التحريفات المشوهة لمســـيرة التاريخ فى النهضة الوطنية والحركة الوطنية ككل ، ومنها طبعا حركة جمعية العلماء وروادها ومؤسسيها الحقيقيين ، الذين أدانهم توفيق المدنى ادانة يندى منها جبين الوطـــن خجلا من صفاقتها .

وفيما يلى نص الدعوة التى وجهها الينا المركز الثقافى الاسلامى لحضور هذه الندوة التاريخية يوم 16 أفريل 1978 :

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

وزارة الشؤون الدينية
مديرية البحوث الاسلامية والملتقيات
المركز الثقافى الاسلامى
12 ، شارع على بومنجل
الجزائر العاصمة
الرقم : 595/98/78/م٠ث٠١٠

مدير المركز الثقافى الاسلامى
الى
السيد الاستاذ المحترم : محمد الطاهر فضلاء
السلام عليكم ورحمة الله

الموضوع :
دعوة للمشاركة فى ندوة ،

فى اطار النشاط الثقافى لوزارة الشؤون الدينية واحياء ليوم العلم يسر المركز الثقافى الاسلامى ان يدعوكم للمشاركة فى الندوة التى سينظمها حول : « نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » بمشاركة عدد من السادة العلماء المعاصرين لها وذلك يوم الاحد 8 جمادى الاولى 1398 هـ (16 أبريل 1978 م) على الساعة السابعة مساء بقاعة المحاضرات 12 ، شارع على بومنجل ــ الجزائر العاصمة .

ونرجو من سيادتكم الاتصال بالمركز بواسطة رقم الهاتف المباشر التالى : 34 ــ 27 ــ 64 للمزيد من المعلومات حول الموضوع .
وتقبلوا فائق الشكر والتقدير .

الجزائر فى : 9 ربيع الثانى 1398 هـ
18 مارس 1978 م

عن الوزير
مدير المركز الثقافى الاسلامى
زياد بوناب

- في جريدة الشعب الوطنية -



نحوة في المركز الثقافي الاسلامى

في اطار النشاط الثقافى لوزارة الشؤون الدينية وبمناسبة ذكرى يوم العلم ينظم المركز الثقافى الاسلامى نحوة بالعربية تحت عنوان ، نشاة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، يشارك فيها بعض المعصرين لنشاة الجمعية والدارسين لها من بينهم الاستاذ احمد توفيق المدنى الوزير السابق الذي عالجت مذكراته الموضوع باسهاب وثار حول بعض ما جاء فيها نقاش حاد وذلك ليوم الاحد 8 جمادى الاولى 1398 هـ / 16 ابريل 1978 / على الساعة السابعة مساء بقاعة المحاضرات 12 شارع على بومنجل ـ الجزائر العاصمة المناقشة حرة كالعادة ـ والدعوة عامة

ر

وانهالت الجموع الغفيرة على هذه الندوة ، وغصت قاعات وردهات وممرات المركز الثقـــافى الاســلامى بالصفوف المتراصة من الجالسين والواقفين ووضعت منصة على سلــم القاعة الكبرى امام المدخل العام ، وتدفقت الجماهير على المركز لحضور هذا الموقف العجيب ، وجلس توفيق المدنى على المنصة وكأنه أمام بوابة الصراط من يوم الحساب ، ليقدم «حسابه» على ما دبجته يراعته من المثالب فى أولئك «الاموات» الذين أعطوا لهذا الوطن كل ما يملكون ولم يأخذوا منه أى شيء من حقوقهم عليه ... وتعاقب المتكلمون فى هذه الندوة . وهم : أحمد حمانى ـ العباس بن الشيخ الحســين ـ محمد الطاهر فضلاء ـ رابح التركى ـ عبد الرحمن شيبان ـ سليمان داود محمد الاكحل شرفاء ـ محمد المليانى ـ محمــــد الصالــح ابن عتيق ، وغيرهم ، وكلهم أدان توفيق المدنى فيما كتبه باستثناء السيد سليمان داود الذى أراد الدفاع عنه فأسكته ضجيج الشباب وضحكاتهم الساخرة ، والشيخ بن عتيق الذى أراد تبرير موقفه بهالة من التوشيحات فلم يكن أقل مــن صاحبـــه .

واستمرت الندوة ، وتحولت الى معركة تتخللها تعليقات وضحكات الحاضرين ومنهم أفراد مــــن « الجيش الازرق » التابع لنادى الترقى فى أيام مجده الاولى بريـــادة زعيــم المصلحين الشيخ الطيب العقبى، وفي مقدمتهم السيد «مصطفى كاوى» الذى كان جالسا فى الصف الاول ووجه الخطاب الى السيد توفيق المدنى من مكانه قائلا له :

ـ أنت أدنت الشيخ الطيب العقبى بكونه أصدر جريدته « أيام الحرب العالمية الثانية ... مع انك أنت الذى اقترحت على الشيخ اصدار هذه الجريدة فى نفس الوقت ، وكنــت

تكتب فيها بقلمك مقالات باجر شهرى ، كنت أنا شخصيا ادفع لك هذا الاجر على رأس كل شهر ... أليس كذلك ؟ فلما حدثتك البصائر بعد الحرب ، وزادتك مبلغا فى الاجر على ما تكتبه لها ، انصرفت عن الاصلاح الى البصائر ، لان البصائر تدفع أكثر من الاصلاح ؟ أليس كذلك ؟ فاجاب السيد توفيق المدنى على هذا بالايجاب ... فسبحان من يدين ولا يدان !!

وفيما يلى نقاط الكلمة التى ارتجلتها فيهذه الندوة وبجانبى « توفيق المدنى » الذى اثنى عليها وعلي بلباقته عندما أراد الرد على كلمة الاستاذ رابح التركى .

وانى اعتذر سلفا اذا أنا قصرت أو نسيت بعض الجوانب الاضافية التى تناولتها هذه الكلمة ، فقد طال العهد بينى وبينها ، وليس لأحد طاقة على تذكر كل التفاصيل فى شىء مر عليه من الزمن قرابة ثلاث سنين ، والكلمة هى :

كلمتي فى الندوة :

أيها الاخوة ،

ـ كنا نود ـ مخلصين ـ ان يكون لقاؤنا اليوم تحت العنوان الذى اختير له : « نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » ـ مقصورا محددا لذكر مناقب هذه الجمعية العظيمة التى استقطبت في ظرف ربع قرن من الزمن كل آمال الامة الاسلامية فى هذا الوطن المسلم .

ـ وكنا نأمل مخلصين وقد اختير لهذا اللقاء ، يوم من تاريخ هذه الامة له ثقله في الصالحات من أعمال الايام ، وهو يوم 16 أفريل من كل عام يوم ذكرى رجل كان في حياته

أمة لوحده ، وأصبح بعد مماته معجزة من معجزات الله في احياء العظام وهي رميم.. وهو الامام عبد الحميد بن باديس.

ـ وكنا نتمنى ان يكون لنا في هذا اليوم وللقائنا هـذا في هذا اليوم ـ معرض للمكارم والمحامد من أعمال هـذا الرجل في ريادة هذه الامة ، وقيادة كتائبها المظفرة في شتى ميادين النهضة الوطنية الكبرى ، التي نتفيأ اليوم ظلالها : تحول الشيء الى ضده ...

ـ وكنا نريد ان نكون في لقائنا هذا في مستوى الشعور بالمسؤولية ازاء هذا اليوم الخالد ، بعد ان توجته السلطـة في بلادنا ، تكريما له ولصاحب ذكراه فينا ـ بنسبته الى العلم عندما سمته « يوم العلم » ...

ولكن ، ولحا الله « لكن » هذه ، لانها تحول بين المرء وقلبه، وتحوّل الشيء الى ضده ...

(ولكن) الظروف المحيطة بهذا الموضوع ، وبهذا اليوم ـ أبت الا أن تجرنا الى هوامشه ، لتشغلنا عـما ينبغي ان نكون عليه ...

فليكن اذن ما تريد هذه الظروف ، ولكن على أساس المبدأ الذي نشأنا عليه من تعاليم الامام عبد الحميد بن باديس في مثل قوله :

« تستطيع الظروف ان تكيّفنا ، ولكنها لا تستطيع ابدا ان تذيبنا وتمحونا ... كائنا ما كانت هذه الظروف لينا وعنفا، ونبلا وسخفا !!

سنتكيف مع الظروف اذن الى حين ، ولكننا سنصنع منها جسرا معلقا نعبر عليه الى المهم والاهم ، من موضوع هـذا اليوم الاغر .

نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين *

هذا عنوان لقائنا اليوم ، فليكن ...

ولكن من أحق الناس بالكلام فيه ؟

ومن أولى الناس بالسبق اليه ؟

لا يجوز أن يكون هنا مكان للحساسيات ، في الاجابة عن هذا السؤال لان الجواب الصحيح ، الفصيح ، الصريح ، يأتى تلقائيا من غير ان نضطر الى ادنى ارتياب فيه .

ان الذى يتولى الاجابة عن هذا السؤال ، هو الذى وضع جوابه قبل اليوم بنصف قرن من الزمن ، وقدر لى ــ وأنا في ذلك الحين طفل ــ ان أحمل اليكم اليوم هذا الجواب منه ، بعد ان سجله في تاريخكم بقلمه :

ــ في الجزء الخامس ، المجلد السابع ، من مجلة الشهاب الصادرة بتاريخ شهر محرم سنة 1349 هـ ، الموافق لشهر ماى 1931 م ــ كتب الاستاذ محمد البشير الابراهيمى نائب رئيس جمعية العلماء آنذاك مقالا هو عبارة عن محضر الجلسات الاولى لنشأة جمعية العلماء ، قال فيه بالحرف :

كيف تأسست جمعية العلماء ؟

على الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذى الحجة الحرام عام 1349 هـ ، الموافق للخامس من ماى 1931 م ، اجتمع بنادى الترقى بعاصمة الجزائر اثنان وسبعون من علماء القطر الجزائرى وطلبة العلم فيه ، اجابة لدعوة خاصة من لجنة تأسيسية متألفة من جماعة من فضلاء العاصمة عميدها السيد عمر اسماعيل احسن الله جزاء الجميع .

وغرض الدعوة هو تحقيق فكرة طالما فكر فيها علماء القطر فرادى وهي تأسيس (جمعية العلماء المسلمين) وقـد لبى الدعوة كتابة بالقبول والاعتذار نحو الخمسين عالما .

كان اجتماعهم بصفة جمعية عمومية لوضع القانون الاساسي للجمعية وعينوا للرياسة المؤقتة الشيخ ابا يعلى الزواوى ، وللكتابة الاستاذ محمد الامين العمودى ، « ووضع القانون » وتلاه كاتب الجلسة على رؤوس الاشهاد فاقرته الجمعية العمومية بالاجماع وانفضت الجلسة على الساعة الحادية عشرة وعلى الساعة الثانية بعد الزوال من ذلك اليوم أعيد الاجتماع العمومي لانتخاب الهيئة الادارية طبقا لمنطوق مادة من القانون الاساسي ، وحيث كان الانتخاب لا يمكن بطريقته السرية والعلنية لتوقفه على الترشيح ، ولاعتبارات أخرى لاحظتها الجمعية،سلكت الجمعية طريق الاقتراح ، فألقى عليها اقتراح باختيار جماعة معينة ووقع الاجماع على اختيارها . وهذه اسماؤهم :

الاساتذة :

عبد الحميد بن باديس ـ محمد البشير الابراهيمي ـ الطيب العقبي ـ محمد الامين العمودى ـ مبارك الميلى ـ ابراهيم بيوض ـ المولود الحافظي ـ مولاى بن الشريف ـ الطيب المهاجي ـ السعيد اليجرى ـ حسن الطرابلسي ـ عبد القادر القاسمي ـ محمد الفضيل اليراتني ـ . وأعلنت الجمعية لهؤلاء المشائخ ان عملهم الآن مقصور على انتخاب رئيس لهم ونائب رئيس ، وكاتب عام ومساعد ، وأمين مال ، ومساعد ، وان يعيدوا النظر في القانون الاساسي ويقدموه للحكومة للتصديق . وانفضت الجلسة على الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم .

وعلى الساعة 8 من مساء ذلك اليوم أيضا ، اجتمعت الهيئة الادارية خاصة ما عدا الاستاذين : باديس ، والطرابلسي الغائبين ، فانتخبت للرئاسة الاستاذ عبد الحميد بن باديس وللنيابة عنه الاستاذ محمد البشير الابراهيمي ، وللكتابة العامة الاستاذ الامين العمودي ، ولمساعدته الاستاذ الطيب العقبي ، ولامانة المال الاستاذ مبارك الميلي ولمساعدته الاستاذ ابراهيم بيوض . وبقية الاساتذة المذكورين للعضوية والاستشارة . وانفضت الجلسة على الساعة التاسعة والنصف مساء وعلى الساعة الرابعة من مساء يوم الاربعاء الثامن عشر من ذي الحجة الحرام عام 1349 هـ ، الموافق للسادس ماي سنة 1931 م ، عقدت الهيئة الادارية أول جلسة بنادي الترقي برياسة الاستاذ محمد البشير الابراهيمي حضرها جميع الاعضاء ما عدا الاستاذين باديس والطرابلسي واعادت النظر في القانون الاساسي فأقرته بالاجماع وقررت ترجمته باللغة الفرنساوية وتقديمه للحكومة طالبة منها التصديق عليه .

وانفضت الجلسة على الساعة التاسعة صباحا .

وعلى الساعة الثالثة بعد زوال ذلك اليوم أقامت اللجنة التحضيرية حفلة شاي في نادي الترقي دعت اليها جميع الضيوف الذين حضروا وأعضاء الجمعية الدينية ، وجماعة من النواب الاهليين ، وهيئة ادارة النادي ، وأعلن رئيس اللجنة التحضيرية السيد عمر اسماعيل انه استدعى جناب مدير الامور الاهلية المستشرق السيد ميرانط فاعتذر عن الحضور .

وبعد ان غص النادي بالمدعوين من جميع الطبقات (ارتجل) الاستاذ عبد الحميد بن باديس خطابا بدأه بشكر اللجنة التحضيرية على ما قامت به من الاعمال وبذلته من الجهود

في هذا السبيل واثنى على السادة العلماء الذين قاموا بواجب تلبية الدعوة ، وثنى بشكر رجال النادى الذين فتحوا أبواب ناديهم في وجوه العلماء وقابلوهم بكل تجلة واحترام، ثم عمم الشكر لجميع أعيان العاصمة على ما أظهروه من الابتهاج والعطف على مشروع العلماء ، وما تلطفوا به من تمهيد المثوى واكرام الوفادة ، وانهم خلدوا للعاصمة ذكرا مجيدا ، واعادوا لنا ذكرى تلمسان وبجاية وتاهرت وغيرها من عواصمنا العلمية الزاهرة فى التاريخ ، ثم اثنى على المستشرق السيد (ميرانط) بما يستحقه رجل مثله خبر الشؤون الاهلية واكسبته معارفه العربية ذوقا لطيفا به عرفنا وبه عرفناه .

ثم افاض الاستاذ فى الاعتذار لنفسه على عدم حضوره في اليومين الاولين وصرح انه قد فاته بفوات ذلك خير عظيم، وتأسى بواقعة (ابى خيثمة) واعتذاره للنبى صلى الله عليه وسلم ، وناشد اخوانه العلماء ان تكون لهم اسوة بالنبى صلى الله عليه وسلم فى قبول عذر ابى خيثمة .

ثم تكلم على الجمعية ومقاصدها وذكر من تاريخها انها فكرة قديمة دعا اليها الكتاب فى الصحف العربية الجزائرية وتداولها المفكرون بالبحث فى المحافل الخاصة والعامة ، وكتب فيها كتاب الشهاب عدة مقالات وبقيت محتاجة الى رجل أو رجال ذوى ارادة واقدام يخرجونها من القول الى الفعل حتى قيض الله لها هؤلاء الفضلاء (أعضاء اللجنة التأسيسية). فكان فضل العمل مدخرا لهم كما كان فضل التفكير والقول لكل من فكر في الموضوع وقال .

وذكر من مقاصدها جمع شمل هذه الطائفة المتفرقة لتتعاون على ما هي مهيأة له من نصح الامة وارشادها لما

ينفعها فى دينها ودنياها . وان من الثمرات الباكرة لهذا الاجتماع تعارف أبناء هذه الاسرة النبيلة ذلك التعارف الذى طالما نشدناه فما وجدناه .

ولقد كان امنية فى النفوس وهوى فى الضمائر ، فأصبح حقيقة واقعة وأمرا ملموسا ولقد كان هما معتلجا فى القلوب وخواطر مختلجة فى الصدور ، فأصبح اليوم صوتا جهيرا ، وأذانا بالحق عاليا ، ولقد كان موكولا الى الصدف والحظوظ والاتفاقات ، فأصبح اليوم ملكا فى ايدينا . وان من مقاصد الجمعية توكيد عرى الاخاء بين أبناء هذه الطائفة وحملهم على نبذ أسباب الشقاق واطراح دواعى التفرق بينهم ، ونسيان كل ما هبت به الافكار مما يدعو الى فرقة أو عصبية وليقدروا انهم خلقوا خلقا جديدا .

ثم وجه الخطاب الى العلماء وحظهم على مؤازرة الجمعية وتشهيرها وتحبيبها للعامة ليكون لها من النفع بمقدار ما يكون لها من السلطان على النفوس ، وانما هو سلطان كتاب الله وسنة رسوله ، وان يكون شعار الجمعية التواصى بالحق والتواصى بالصبر ... وقد اطال الاستاذ فى اسداء النصائح النافعة فليبلغ الشاهد الغائب .

وختمت الجلسة بما قام به تلاميذ المكاتب القرآنية من تلاوة آيات من الذكر الحكيم وانشاد قصائد ومقاطيع شعرية ومحاضرات أدبية بأسلوب روائى وقد كان لذلك المنظر روعة ووقع وتأثير لا يأتى عليها الوصف .

عن جمعية العلماء المسلمين
نائب الرئيس
محمد البشير الابراهيمى

التعليـــــق :

ولعل في هذا المقال الذى اثبتناه هنا أكثر من دلالة على ما نريد قوله في هذا الموضوع ونعود الآن ـ بعد هذا المقال ـ الى الاستاذ توفيق المدنى لنقول له :

ان هذا الجمع الحاشد الذى يملأ الآن هذا المركز بغرفه وردهاته وممراته ومن ورائه كل الاحرار من هذه الامة الجزائرية الوفية جاءوا لمناقشتك الحساب حول ما اثبته في صفحة (172) من كتابك « حياة كفاح » الجزء الثانى ، وما بعد هذه الصفحة من الصفحات التي زيفت فيها الحقيقة وحرفت فيها الواقع، وكنت تظن ان موت ابن باديس والعقبى والابراهيمى ، والعمودى ، والميلى ، والتبسى ، سيعطيك الفرصة الذهبية لتقول ما تريد قوله دون ان تسمع كلمة رد واحدة ... ونسيت ان هؤلاء الرواد انما كانوا يخدمون الله ، والله حي لا يموت ... ثم نسيت أو تناسيت ان لهؤلاء الرواد أبناء بررة يحملون اللواء بقوة ، كما يأخذون كتاب الله بقوة ، ولن يهنوا ولن يفشلوا حتى يلاقوا ربهم .

اننا مع هذا الجمع الحاشد ، نعجب كل العجب لما جاء في كتابك هذا من الاوهام والاحلام حول نشأة جمعية العلماء ؟ فأنت تقول فيه بالحرف : (ص 174) .

وجاء دور التفكير في انشاء مثل هذه الحركة واخراجها من طور الفكر الى طور التنفيذ ، وتداولنا نحن الاربعة (!) في الامر (1) وأخيرا هدانا التفكير الى وجوب جمع علماء

---

(1) والاربعة هم : عمر اسماعيل ـ محمد العاصمي ـ محمد عبابسة ـ أحمد توفيق المدنى • انظر حديثنا عن هؤلاء الاربعة في مقال مناقشتنا لكتاب توفيق المدني صفحة 278 من هذا الكتاب •

المسلمين فى الارض الجزائرية ، أو على الاقل جمع من يلبى النداء منهم ، وتأسيس جمعية اسلامية عالية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقول كلمة الحق ، وتجمع الشعب حول هدف واحد ، وتكون تلك خطوة أولى تليها لا محالة خطوات ، قال العاصمى ـ وكان له فضل السبق فى هذا المقال : ـ

لندعها اذن « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » . الخ.

☆ ☆

هذا مقالك يا استاذ توفيق ، وما قدمناه آنفا ، مقال العلامة الامام محمد البشير الابراهيمى ... فمن الصادق منكما ومن الكاذب ؟

(وهنا ضج الحاضرون قائلين : الصادق هو الشيخ الابراهيمى) ها انتذا ترى يا استاذ توفيق وتسمع ما يقوله الناس ... ثم اسمح لى ان أتوجه اليك شخصيا بهذا السؤال الذى تتفرع منه اسئلة :

ـ هل تصدق الشيخ الابراهيمى فيما كتبه عن نشأة جمعية العلماء ـ منذ خمسين عاما . أم تكذبه ؟

(وهنا سكت الاستاذ توفيق محرجا وعلى وجهه ابتسامة الحيرة) ؟ طبعا يا استاذ ؟ انك لا تملك حق تكذيب الشيخ الابراهيمى اليوم ، لانك قرأت ما كتبه منذ خمسين عاما ، ولم يصدر منك حيذاك ولا مجرد اشارة فى كل ما كتبته ونشرته من كتبك فى التاريخ وغير التاريخ ، تدل على انك أنت صاحب الفضل على نشأة جمعية العلماء أو صاحب الفضل على أحد أو مجموعة من روادها، كما فعلت اليوم فى مذكراتك الوهمية هذه ؟ ! ويبقى الجواب اذن صحيحا صريحا فيما استمعت اليه منذ الآن من هذا الجمع الحاشد ! ...

لقد ذكر الشيخ الابراهيمي فى مقاله الآنف الذكر ، ان الجمعية العمومية لعلماء وفقهاء الجزائر ، انتظمت فى نادى الترقى بقصد وضع القانون الاساسى لجمعية العلماء . ولـم يشر ولا مجرد اشارة الى من وضع بنود هـذا القانون (1) وانفضت هذه الجلسة الاولى بلا خطب، الا ما كان من قراءة بنود القانون الاساسى من طرف كاتب الجلسة، الاستاذ الامين العمودى رحمه الله فى المجاهدين الخالدين .

ثم ذكر الشيخ الابراهيمي الجلسة الثانية التى تمت فيها الموافقة على الهيئة الادارية المقترحة ، ثم الجلسة الثالثـة التى تم فيها ترشيح وانتخـاب « عبد الحميد بن باديس » رئيسا للجمعية وهو غائب ، ثم الجلسة الرابعة التى اقرت بنود القانون الاساسى بعد تعديلها ، كما اقرت ترجمته الى الفرنسية وتقديمه للمصادقة عليه من طـرف الدوائـر المختصـة .

ثم جاءت الجلسة الاخيرة ، وفيها اقيمت حفلة شاى دعى اليها جميع الضيوف ، والنواب الاهالى ، وهيئة ادارة النادى كما دعي اليها « ميرانط » مدير الشؤون الاهلية بالولايـة العامة عن طريق « صديق الجميع » عمر اسماعيل ، وهـو الذي قدم اعتذاره عن حضوره هذه الجلسة .

وفى هذه الجلسة الختامية ، حضر عبد الحميد بن باديس بعد انتخابه رئيسا فى غيبته ، وارتجل خطابـه فى هـذا

---

(1) بل أثبت ذلك صراحة حين قال : « ووضع » القانون الاساسى وتـلاه كاتب الجلسة على رؤوس الاشهاد ، وكاتب الجلسة هو الاستـاذ الامـين العمودى . راجع مقال الشيخ الابراهيمي الآنف الذكر ، وعذرا على هـذا السهو في أمر لا يجوز فيه .

الاجتماع ارتجالا ، وهو مخالف لما اثبته توفيق المدنى فى مذكراته (صفحة 180) حين قال بالحرف :

ـ كان ابن باديس عظيما هائلا شامخا كالطود الاشم ، وقد هيمن بشخصيته الفذة وبساطته المثالية وتواضعه الجم ، على ذلك الاجتماع ، وقد اعجب به خصمه كما اعجب به أصحابه ومريدوه ... (؟!)

لولا اننا قد عرفنا اسلوب توفيق المدنى فى التهويل الخطابى الذى يلازمه حتى فى نقله لحقائق التاريخ ووقائعه ـ لشكرناه على هذه الكلمات الرنانة فى ثنائه على هذا الرجل العظيم ..!

ولكننا نسأله : من أين لك هذه الاخبار ، وأنت لم تحضر هذه الاجتماعات بتاتا ؟ ؟ هل (غشك) بها الاستاذ حمزة بوكوشة الذى تركته فى النادى ملازما غرفة التليفون لامدادك بتفاصيل الاخبار كما اشرت فى مذكراتك ؟ ان كان هذا ، فان الشيخ حمزة الذى رفض الحضور معك اليوم . يبرأ من هذه التهمة ومن غيرها ، وذلك فى مقالته المنشورة بجريدة الشعب اليومية عدد : 4435 ..!

ثم جاء توفيق المدنى بأعجب العجب فى مذكراته حين قال فى صفحة (179) ما نصه :

جاء يوم الاجتماع ، كان يوم عيد ، لم تشهد الجزائر قبله عيدا لها : **وهيأت لابن باديس خطاب الافتتاح بطلب منه ملح ..!**

فهل كان خطابك هذا الذى هيأته يا استاذ توفيق بالحاح من ابن باديس ، هو الخطاب الذى ألقاه ارتجالا بعد ان استظهره كما استظهر فى صباه كتاب الله ؟

أم ان هذا الخطاب الذى هيأته له ــ بالحاح منه ــ رده اليك شاكرا ، فمزقته آنذاك آسفا على جهدك الضائع ؟ ثم جئت اليوم تصفى حسابك معه وتنتقم لنفسك من هذا الموقف الذى أوغر صدرك منذ ذلك الحين ، ولم تطق البوح به حتى مات ابن باديس وكل رفقائه ، ومضت على وفاتهم كل هذه الاعوام ؟

القانون الاساسى لجمعية العلماء :

ونعود الآن الى القانون الاساسى لجمعية العلماء .

يقول توفيق المدنى فى مذكراته (صفحة 177) :

ــ كلفنى الجماعة (ويقصد رفقاءه الثلاثة المذكورين ، ومعهم جماعة من اعيان النادى استدعاهم هو لاعلامهم) بايجاد قانون أساسى بسيط للجمعية (جمعية العلماء) أعرضه عليهم بعد أيام .

ثم يقول فى صفحة (178) :

اما أنا فقد اعتكفت فى مكتبى ثلاثة أيام ، سطرت فيها للجمعية قانونها الاساسى بما لا يخرج عن نطاق القوانين المعروفة الاخرى، وبعد انشاء القانون قدمته الى هيئتنا الرباعية فأقرته (؟) ثم قدمناه ــ من أجل الاطلاع لرجال النادى فابتهجوا به وصادقوا عليه ...

عجبا والله !! لهذه الاوهام المتجنية على التاريخ وعلى الحقيقة المظلومة اذ كيف يعرض القانون الاساسى على (اللجنة الرباعية) لتقره وعلى جماعة النادى لتبتهج به وتصادق عليه، ثم لا يشارك فى الجلسة العمومية أيّ واحد منهم مشاركة فعلية تدل على دوره الايجابى فى عملية النقاش والترشيح والترشح ؟ !

لقد استمعنا ـ منذ لحظات ـ الى مقال الاستاذ الابراهيمى المنشور (فى الشهاب) سنة 1931 حول هذا القانون الاساسى الذى ناقشته الجمعية العمومية التأسيسية واقرته ... والآن أقدم اليكم مقالا آخر ، كتبه الشيـخ الابراهيمى أيضـا ، ونشرته له مجلة أخرى هى مجلة « مجمع اللغة العربيـة » في القاهرة، في الجزء الواحد والعشرين، الصادر سنة 1966 ، وهو الجزء الذى أبّن الشيخ الابراهيمى (المتوفى فى ماى 1965) ونشر له مقاله المطول الذى كتبه ـ على عادة المجمع ـ عندما انتخب عضوا فيه ، قال الشيخ الابراهيمى فى مجلـة مجمع اللغة العربية القاهرية ، الجزء (21) الصفحة 143 .

تكامل العدد ، وتلاحق المدد، العدد الذى نستطيع ان نعلن به تأسيس الجمعية (جمعية العلماء) فأعلنا تأسيس الجمعية فى شهر مايو 1931، بعد ان أحضرنا لها قانونا اساسيا مختصرا من (وضعى) ادرته على قواعد من العلم والدين لا تثير شكا ولا تخيف ... وكانت الحكومة الفرنسية فى ذلك الوقـت تستهين بأعمال العالم المسلم ، وتعتقد اننا لا نضطلع بالاعمال العظيمة ... الخ (1) .

هذا ما كتبه الشيخ البشير الابراهيمى بقلمه ، ونشر فى العدد المذكور من مجلة مجمع اللغة العربية ، بعد وفاة الشيخ الابراهيمى بسنة .

ويضاف الى هذا مقاله في الشهاب المذكور سنة 1931 وكذلك مقاله العظيم سنة 1937 وكل هذا نجد خلاصته كما يلى :

---

(1) كانت لنا رغبة فى نشر هذا المقال كله فى قسم اللواحق مـن هذا الكتاب ، ولكنا عدلنا عن ذلك عند ما علمنا ان المقال سينشر فى الجزء الثالث. من آثار الشيخ الابراهيمي .

1) ـ نشأة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لم تكن نتيجة العبقرية المتفجرة فى ذهن الاستاذ توفيق المـــدنى ، الذى لا يعدو دوره فى هذا التأسيس ـ دور الذى يعد المائدة ويبسط عليها السماط لطعام ناضج حاضر ، فهو لم يذكره الاستاذ الابراهيمى مجرد ذكر ، فى حال يذكر غيره ممـن لا يدانيه علما ولا فكرا ولا خبرة ولا كفاءة .

2) ـ القانون الاساسى للجمعية فى صيغته الاولى ، لا يعدو صيغا رتيبة وضعتها الادارة الفرنسية آنذاك لمثل هذه الجمعيات ومع هذا فان توفيق المدنى لم يضع منه شيئا بشهادة الشيخ الابراهيمى ثلاث مرات :

ـ مقال الشهاب سنة 1931 .

ـ تصدير سجل المؤتمر سنة 1937 .

ـ مقال مجلة المجمع سنة 1966 .

وكلها أدلة لا تقبل النقض ، لان الشيخ الابراهيمى كتبها وتوفيق المدنى حى ، يملك حق ووسائل الرد ، ولم يفعل ، حتى اذا مات الابراهيمى ، جاءنا اليوم مدعيا انه أسس الجمعية ودعا اليها ووضع لها نظامها وقوانينها ... الى آخر هذا التزييف .

ونحن لهذا نقول لتوفيق المدنى اليوم :

ان ما جاء فى مذكراتك هذه مـــن التحريف والتزييف يفرض علينا ـ فى شدة وعنف ـ واجب مراجعة كل ما قرآناه لك منذ أكثر من ثلث قرن ، لاننا أصبحنا نرتـاب فى كـل ما نشرته فيها من الوقائع والحقائق التاريخية والوطنية ...

ثم نتابعك فى كتابك هذا « حياة كفاح » الجزء الثانى ، وكذلك الجزء الاول الخاص بتونس والذى أدنت فيه ـ كعاتك

كثيرا من الشخصيات العلمية والوطنية التونسية ، كان لها الفضل الذى لا ينسى فى نهضة كل المغرب العربى الكبير .

سنتابعك فى هذا الكتاب بالمناقشة والمحاسبة ، نضع الكلمات فى اماكنها مدعمة بالوثائق التى ما تزال عندنا والتى أخذناها أمانة من تلك الايدى الامينة ، وسنحافظ عليها محافظة الكريم النزيه ، وسنورثها ابناءنا واجيالنا كما ورثناها عنهم من غير تحريف ولا تزييف ولا تخريف ...

« وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ » .



هذه صورة تذكارية لاعضاء جمعية العلماء وهم يحتفلون بضيف الجزائر وضيفها الاستاذ العلامة ابراهيم الكتانى ، وهو الجالس بين الشيخين : ابن باديس ، والابراهيمى • فأين (توفيق المدنى) الذى أراد ان يبتلع كل الاعمال والحركـــات الوطنيـة ؟

صحيفة « المنتقد » و مجلة « الشهاب »

وتوفيــق المــدنى فى أوهامــه

جاء فى صفحة (21) من مذكراته « حياة كفاح » الجــزء الثانى ما نصه :

ــ واختليت بابن باديس مرارا ، فكان يحدثنى عن الوسط والمجتمع وعن آفاق الطرقية (وافاض) الي بحديث عما يريده من انشاء صحيفة أسبوعية ربما كان اسمها : المنتقد (وان لم تهيأ أسبابها بعد) كما كان يرجو ان ينشيء مجلة شهريــة : الشهاب ، واتفقنا فى حالة ما اذا برز المشروع ان أتــولى التحرير فى الشهاب واكتب فيه ما يعن لى فى سياسة الجزائر الداخلية والسياسة الخارجية ... الخ .

ويبدو من حديثه هذا ان زعامته وعظمته التى تفــوق ــ فى نظره ــ زعامة ابن باديس ــ كانت ترتدى هذه المرة رداء الدهاء والذكاء حين قفز على الزمن وطوى منه أكثــر من خمس سنين ، ليقول منذ صيف سنة 1925 ، بانه اتفــق مع الامام ابن باديس ان يتولى التحرير فى « الشهــاب » ، ويكتب فيه عن السياسة الداخلية والخارجية .

وكلمة « التحرير » فى دهاء توفيق ككلمة « الامين العام » التى اطلقها على نفسه حين أراد التعريف بها أيام الثـورة التحريرية وهو فى الشرق ، فطبع على بطاقات الزيارة التى تحمل اسمه بانه : أمين عام جمعية العلماء ... ذلك ان توفيق المدنى يعلم ان كلمة الامين العام تعنى ـ فى عرف واصطلاح التعبير العصرى ـ احتواء العنوان على كل ما يتصل بالتكوين والتسيير والاشراف والتدبير ، والتحرير ، والنقض والابرام ... فى المؤسسة التى هو أمينها العام .

فهو من جهة حين استعمل كلمة (التحرير) فى مجلـة الشهاب انما يقصد بذلك ، انه يتولى المكانة المرموقة الاولى فى عملية التجهيز والتسيير ، والا فقد كان من اللائـق استعمال كلمات الكتابة بدل التحرير، والمساهمة، والتخصص فى موضوع ما كالسياسة مثلا ... ولكنه استعمل كلمـة التحرير ليضع نفسه اليوم حيث عجز عن وضعها فى ذلك اليوم ، وهو تصفية حساب نفسى ، ومَوْجِدَةٌ لا شك فيهـا .

هذا من جهة ومن جهة ثانية ، ان كل ما كان يكتبه توفيق المدنى فى مجلة الشهاب التى لم تصدر الا فى سنة 1929 محولة من الشهاب الجريدة التى خلفت جريدة المنتقد المعطلة مـن السلطات الاستعمارية ولم يكن ذلك من جراء ما كانت تنشره من مقالات وتحريرات الزعيم المنتظر الذى وصل الى الجزائر النائمة من تونس الثائرة ، فحرك النفوس الخامدة ، والافكار الجامدة ، وبعث الروح الثورية في صفوف النخبتين من مثقفى الفرنسية وهم (كثر) وقراء العربية وهم (قلة) كما ورد فى كتابه (حياة كفاح صفحة 15) وانما تعطلت الصحيفة ، بعد طول معاناة فى ظروف كان الجزائرى فيها أهون مـن شذاة ، تعطلت الصحيفة لانها كانت « نجومـا للمهتديـن

ورجوما على المعتدين » كما قال مؤسسها ، ولانها كانت تحمل من مقالاتها شواظا من نار ، فى اطار من الحكمة وحسن التدبير ،ويكتب هذه المقالات أولئك الكتاب الجزائريون الاحرار ، الذين لم يقترضوا وطنيتهم من غيرهم ، لا سيما اذا كان هذا الغير شابا فى مقتبل العمر ، يتحمس ويتقمص، ولكنه لا يصدر حماسه عن خبرة ، ولا يكرع (اندفاعه الخطابى) عن حكمة وطول اناة ...!؟

أقول هذا وبين يدى الآن جرد كامل واحصاء تام لنضال الصحيفتين (المنتقد والشهاب) من سنة 1925 الى أواخر سنة 1929 ، وليس فيهما معا طوال هذه السنوات الخمس ، ولا كلمة واحدة ، ولا أقول مقالة واحدة للمحرر الكبير توفيق المدنى لا فى السياسى ولا حتى فى صفحة الاعلانات ... فما الذى منعه من المساهمة فى حركة النضال الوطنى المرير الذى اضطلعت به الصحيفتان وكتابهما ؟ لا سيما ، ومؤسس الصحيفتين كان قد (افاض) أو افضى اليه بسرهما قبل ان تهيأ له اسبابهما (1) ؟؟

فأين توفيق المدنى ، الذى وصل الى الجزائر ، ونزل أول ما نزل فى نزل (فرنسا) بقسنطينة ، وهرع اليه الشبان والشيوخ من النخبة المثقفة ، لا باعتباره منكوبا منفيا نزل ضيفا بينهم يجب عليهم اكرام وفادته ... ولكن باعتباره (المنحة الربانية) التى منت بها على هذا الشعب الموءود ... ولكى يتصور القراء معنا فداحة الامر مما ورد فى كتاب توفيق من التصحيف نورد هنا فى هذا المعنى بعض ما قاله

(1) انظر مقالنا الطويل المنشور فى جريدة النصر ، صفحة 239 من هذا الكتاب وتعليقنا فيه حول موضوع المنتقد والشهاب .

فى هذا الكتاب منذ الصفحة الاولى حينما أورد لنفسه خطاب الاستاذ مبارك الميلى فى قوله (هو) على لسان الاستاذ الميلى :

ـ اذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه ، ان منفاك من تونس ليس مجرد حادث سياسى فى نطاق محلى ضيق ، بل انما هو قدر من الله لكى تبث فى وسط هـــذا الشعب الجزائرى ، المناضل القديم ، العنيد ـ افكارك وآراءك ، ولكى تنفخ فيه من روحك ، ولكى تكون بين افراده الجذوة التى توقد نيران الحمية والايمان فيجتمع حولها الشمل ، وتنبعث منها الحياة .

ثم يزيد (هو) قائلا عن الشيخ مبارك الميلى :

... لكن الجزائر المسكينة المبغوضة، وأكاد أقول الموءودة، فى حاجة قصوى الى جهودك والى جهادك ، والى أقوالـــك وأعمالك ، واذا كانت تونس قد آلمهـــا ابعادك واضربت احتجاجا ، فان الجزائر المدركة قد تفاءلت خيرا بمنفاك . وقلنا جميعا عند ما بلغنا النبأ : ان الله قد أرسل الرجـل المناسب فى الوقت المناسب ... ؟!

نحن ـ جميعا ـ نعلم أن الشيخ مبارك الميلى من افـذاذ علمائنا العاملين المخلصين ، ومن مميزاته صفاء الذهـــن وطهارة القلب وذكاؤه ، ولكن له مع هذا حدة وجرأة وشجاعة تجعله احيانا يصادم الناس من مجرد خاطرة يظن منها ان محدثه أخطأ الصواب ... فكيف يمكن لرجل ذكى مفرط الذكاء كالشيخ مبارك الميلى ـ أن يعجز عن فهم شاب أكثـر ما يمتاز به فى حياته آنذاك ، انه طموح يتطلـــع دوما الى ما يصبو اليه ويبذل فى ذلك أغلى الاثمان ، ولا يبالى ان كان فى ذلك ما يمس علاقته بالآخرين ... ألم يقل هو بنفسه : « أنا دائما مع الواقف » ؟ ! وهذه الكلمة لا يستطيع هو نفسه

تأويلها حتى ولو حاول توشيحها بلباقته ، لانها كلمة أفلتت منه ليتحقق فيه قول القائل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس - تعلم

ولنفرض ان الشيخ مبارك الميلى (وهو فى أوج شبابه أيضا سنة 1925) فاضت مشاعره الاخوية ، فغمر الضيف المبعد بكلمات فيها الكثير من المبالغة والتهويل - وحاشا الشيخ مبارك من هذه الخلال المزرية بالعلماء - أفلا يكون من الاوجب الاكيد على الاستاذ توفيق المدنى ان يتواضع لله ثم للناس ، فيقول ما قاله الشيخ مبارك فى معرض الترحيب والتشجيع ، بكلمات ترفع من شأنهما معا ، ولا تزرى به هو فى آخر المطاف حين عرج عليها فى مذكراته التى كتبها فى السبعينات ... ولكن ما بالطبع لا يتغير (!) وما حيلتنا نحن فى ردودنا على ما ورد فى مذكراته من التصحيف ، حين نضطر الى هذا التصحيح لما قرأناه فى كتابه هذا « حياة كفاح » من الزيف والزيغ والتحريف ، مع الكثير الكثير من الادانات لاحرار امتنا ، وابرار علمائنا ، وأخيار عظمائنا ؟ ؟

الامر الذى لابد من التنبيه عليه ، وفاء بالعهد الذى قطعناه على أنفسنا ان لا نبرح الميدان حتى نؤدى الامانة كاملة أو نهلك دونها .

وعلى هذا سأضع الآن بين أيدى القراء - من ابنائنا وشبابنا - قائمة موجزة لمعالم الطريق من مقالات الصحيفتين النموذجيتين (المنتقد والشهاب) ومعها قائمة لاعلام الكتاب فيهما ، وليس من جملتها وجملتهم أي ذكر لاسم : « أحمد توفيق المدني » .

ثمانية عشر عددا من جريدة المنتقد الصادرة فى عددها الاول ، يوم الخميس 11 ذى الحجة 1343 هـ ، الموافق ليوم 2 جويلية 1925 الى نهاية العدد الثامن عشر الصادر يوم الخميس 10 ربيع الثانى 1344 هـ ، الموافق ليوم 29 أكتوبر 1925 م .

وفى هذه الاعداد (18) نجد العناوين والاسماء التالية :

فى جريدة المنتقد :

أهم العناوين :

- معامل العقول .
- هذه جزائركم .
- أعوان اللصوص يسترهبون الدولة .
- القصيدة العاشورية .
- الحرب الريفية .
- خطتنا مبادينا ، وغايتنا وشعارنا .
- روضة الشعر .
- حسن التعليم أساس كل تقدم
- الكرامة .
- عند تصريح الم ، باتلو فى البرلمان ، وردتهم عن الجزائريين .
- من الناس قوم .
- فى عالم الصحافة .
- نكبات الامة الجزائرية .
- الطمع والحرص علة الانسان
- محادثة ابن عبد الكريم مع مكاتب التايمس .
- ملخص الاخبار ، انباء عن حرب الريف .
- ذكرى زهرة الايام .
- جريدة المنتقد فى نظر الكتّاب .
- شبيبة المستقبل .
- كتاب مفتوح الى جناب الوالى العام .

ـ الصحافة العربية .

ـ المنتقد في نظر الشيب ...

ـ أبناء الجزائر خارج بلادهم.

ـ كيف نعيش سعداء .

ـ الاسبوعيات .

ـ ايطاليا وفرنسا .

ـ عن حرب الدروز في الشام.

ـ الامة الصينية ، تعلمت بسرعة واستيقظت .

ـ حول حرب الريف .

ـ القانون الاساسي للهند في العاصمة البريطانية .

ـ في النقد الادبي .

ـ الى الدين الخالص (1) .

ـ عبرة لمن اعتبر .

ـ حول تصريحات رئيس الوزارة الفرنسية .

ـ تقدم الصحافة .

ـ محاضرة في الاتحاد والتعاون

ـ نحن تاريخ قديم .

ـ حول النادي ، لا تفاهم الا بالعربية .

ـ أيٌّ كذا خلقت .

ـ هل نحن في بداية نهضة ؟

ـ دعاء الى واجب (2) .

ـ خطاب ابن عبد الكريم لمجلس الامة الفرنسية .

ـ المرأة في الاستانة .

ـ الدستور الادبي .

ـ حديث الخميس .

ـ أين الجمعية الودادية ؟

ـ حول الطرق ، الانتقاد العنيف .

ـ العلم نفيس، وهل بالنفائس يشترى الدون ؟

ـ الى المتعجب، رد يصادف محله

ـ بسكرة ، وفضائع البوليس.

---

(1) عنوان قصيدة للشيخ الطيب العقبي نشرت في العدد (8) من المنتقد ومنعت من الدخول الى بسكرة ، اين يقيم ناظمها ـ بامر من السلطات الاستعمارية .

(2) كلمة من جوامع الكلم للامام عبد الحميد بن باديس ، انظر (لوحة فنية) في كتابنا : قال الشيخ الرئيس ... المطبوع بمطبعة البعث سنة 1967 .

ـ بيان لا لبس فيه ، اجابة لصوت الواجب .

ـ قضية المنتقد ، والصحف العربية فى بسكرة .

ـ خطاب وعتاب .

ـ المصلحون والمرجفون .

ـ الموصل ، فيردان تركيا .

ـ يا معشر اللغة الفصحى .

ـ الاغترار بالنفس .

ـ الاسلام والحضارة العصرية.

ـ أفكار معقولة ، وآراء منقولة

ـ رسائل الصغار الى الشعب الجزائرى .

ـ هلموا الى التعلم .

ـ الضلال المبين .

ـ رسائل الوطن ... بسكرة .

ـ الرجوع الى الحق .

ـ عم تطورت مدارس الغرب (وثيقة تاريخية) .

ـ الحرب فى طرابلس الغرب.

ـ علماؤنا اليوم .

ـ بل هو جزائرى صميم .

ـ مسألة الخلافة ، وجمعية الامم الشرقية .
(بتعليق هام لابن باديس).

ـ التقاليد المزرية،من أمراضنا الاجتماعية .

ـ الحرية الفكرية فى الشرق.

ـ مجلة « موران » والاحكام الشرعية .

ـ الاسلام وموقفه ازاء المدنية الحاضرة .

فى جريدة الشهاب :

أهم العناوين :

ـ الشهاب ، لسان الشباب الناهض بالقطر الجزائرى .

ـ العدالة بآثارها .

ـ الى الاصلاح الدينى .

ـ حقوق الامة والاندماج العسكرى .

ـ الفكرة الاسلامية (رد على مقال : أشيل روبير) .
ـ يقولون وأقول .
ـ تأسيس حزب دينى اصلاحى
ـ الصحافة وحاجة الناس اليها
ـ المناظرة ـ والمهاترة .
ـ الانسانية كلية الرحمة .
ـ البرنامج الجزائرى ـ لخدمة النهضة فى الامة .
ـ مدع ، يجهل التاريخ ويقلب الحقائق (؟)
ـ المؤتمر الاسلامى العام للخلافة .
ـ الله أكبر ، خربت خيبر !
ـ ميثاق لو كارنو ـ أسبابه ونتائجه .
ـ حول مؤتمر « الاميار » (رؤساء البلديات وهم من المعمرين) .
مظاهر العداء نحو المخلصين، ومؤتمرات الحيف فى القرن العشرين .

ـ فى بحر عام ، أعمالنا وآمالنا
ـ نداء الى رجال الدين بالجزائر
ـ صوت العلم يناديكم فهل من مجيب .
ـ النهضة الوطنية العلمية فى مزاب .
ـ عيد الحرية 14 جوليت
ـ لبس القبعة .
ـ اقتراح الجمعية الجزائرية للتعليم الثانوى .
بحث فى تعليم اللغة العربية والمدنية الاسلامية .
ـ افحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟
ـ تركيا وحضيرة الاسلام .
ـ أيها المسلم الجزائرى .
ـ منزلة العقل فى نظر القرآن
ـ توحيد التربية والتعليم .
ـ الرجوع الى مذهب السلف .
ـ فى سبيل الاصلاح، الاصلاح فوق الاحزاب .

ـ لا طرق فى الاسلام .
ـ المدارس الحرة والتعليم القومى .
ـ فى سبيل الحياة .
ـ اللغة العربية والمحافظة عليها .
ـ الحياة فى أوروبا ، وأوروبا فى الحياة .
ـ سنة 1927 ـ الحالة السياسية العامة فى فاتحتها .
ـ الى زعيم المصلحين ، عبد الحميد بن باديس .
ـ جمعية التآمر بقتل العلماء.
ـ أطريقة هى أم عصبة أوباش ولصوص ؟
ـ فى ذمة التاريخ افضع حادث
ـ قد سجلته على العدا ذكراك.
ـ مبادى الشهاب تنتصر وتنتشر .
خطوة واسعة الى الاتحاد الذى ننشده .
ـ الاسلام فى نظر الغربيين .
ـ العلم يفسر القرآن ويؤيده (وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) .
ـ مؤتمر المستشرقين 17
ـ حملة الليسانس من شبابنا .
ـ المرأة المسلمة ونهضتها الحاضرة .
ـ الثورة الاجتماعية فى الشرق
ـ فى السياسة الداخلية ، رموز لها معناها .
ـ بماذا تنهض الامة نهضة دينية ؟
ـ مؤتمر التبشير فى فلسطين .
ـ الاتحاد والاندماج ، السياسة المنتجة ، والسياسة العقيمة .
ـ حول مسألة ادخال المسلمين الجزائريين فى الجنسية الفرنسية .
ـ دعوة الى الحسنى فهل من مجيب ؟
ـ حول مباهلة العلامة الاستاذ « العقبى » للطرقيين .

– الترجمة وتأثيرها في الادب .

– الشهاب – من أسماء النبي (ص) .

– نهضة الجزائر الدينية ، وموقف المصلحين ازاء خصومهم .

– يقولون وأقول .

– أبو يعلى ، وخصومه الكبار .

– احتجاجات الامة فى مسألة القضاء الاسلامى .

– أهكذا يدون الفقه الاسلامى

– مسجد باريس ، مسجد للاسلام ؟ أم محل للهو الليلى ؟

☆ ☆

هذه هى « عيون » مقالات صحيفتى : « المنتقد » و « الشهاب الجريدة » ، فهل فى هذه المقالات التى اثبتنا عناوينها من مجموعتيهما المحفوظة .. ما هو بقلم الاستاذ توفيق المدنى ؟ وفيها – طبعا – ما هو منشور بدون توقيع كاتبها .. فهل هذا يجيز لاحد ان يدعى اليوم بعد نصف قرن من الزمن ، انه صاحب المقال المنشور فى المنتقد أو الشهاب ، مثل ما فعل الاستاذ توفيق المدنى ؟

اما الآن فالى القارىء فيما يلى قائمة أخرى باسماء الكتاب الذين ظهرت اسماؤهم مع مقالاتهم فى الصحيفتين المذكورتين ؟

كتّاب « المنتقد » : (بالتسلسل)

– أبو اليقضان

– مبارك بن محمد الميلى

– الطيب العقبى

– (ع . س)

– أخو الرشيد

– محمد الهادى السنوسى

– أبو الضياء

– محمد النجار

ـ منصور فهمي
ـ المولود بن الصديق الحافظي
ـ خبشاش محمد الصالح
ـ الفــرقد
ـ الحاج أحمد البوعوني
ـ محــمد العــزوزي حــوحو العقبي
ـ الغريب (ق. س)
ـ أبو هــلال
ـ خالدي محمد اللموشي التبسي
ـ الجزائــري
ـ عسول بن عــلي بن عســول العبيدي الشريف
ـ الشيخ ابراهيم طفيش
ـ ابن باديس محمد المصطفى
ـ الامير عادل ارسلان
ـ عبد الحــق

ـ محمد العابد الجلالي
ـ الغريب اللقاني
ـ عبد الحميد بن باديس
ـ النخبة (أسرة الجريدة)
ـ مطلــع
ـ أمين ناصر الدين
ـ الامير شكيب ارسلان
ـ بنــوح بن الشيــخ أحمــد القاضي الاباضي
ـ محمد السعيد بن وادفل
ـ محمد القروي النابتي
ـ القسنــطيني
ـ أبو قيس
ـ محمد السعيد الزاهري
ـ الجنيــدي
ـ محمد العيد حم علي

كتّاب « الشهاب الجريدة » : (بالتسلسل)

ـ عمر راسم
ـ محمد حسب الله كيلاني

ـ مسلــم
ـ مبارك بن محمد الميلي

ـ عبد الحـق
ـ مصطفى بن شعبان
ـ ابن بشير الرابحى
ـ اثـرى ، مطلع ، العبسى ، الجزائرى (ع· ب· با)
ـ عبد الحميد باديس .
ـ المولود بن الصديق الحافظى الازهرى .
ـ محمد العملى ، بالجزائر .
ـ خبشاش محمد الصالح .
ـ بيضاو .
ـ محمد الهادى السنوسى .
ـ الطيب العقبى .
ـ معاوية التميمى .
ـ محمد المصطفى بن باديس .
ـ الغريب (ق· س) .
ـ محمد الابراهيمى .
ـ ابن الجزائـر .
ـ مصطفى بن شعبان .
ـ أبو يعلى الزواوى .
ـ ترجمان الشهاب (بوشمال) .
ـ محمد بن العابد الجلالى .
ـ الفرقـد .
ـ أحمد بن عـزوز .
ـ محمد السعيد الصائغى .
ـ عبد الحق بن ابراهيم الخنقى
ـ مفدى زكرياء بن سليمان .
ـ محمد العيد حم على .
ـ النخبة (أسرة الجريدة) .
ـ العربى بن بلقاسم التبسى .
ـ قائـد حمـود .
ـ المولود بن باديس .
ـ محمد علال الفاسى .
ـ محمد الامين العمودى .
ـ مكى اسماعيل الخنقى .
ـ محمد بن الحـاج ابراهيـم الطرابلسى .
ـ اليزيـدى .
ـ محمد بهجت البيطار .
ـ رمضان حمـود .
ـ أبو الحسن ، تلميذ بالقرويين

- الحسن القسنطينى ،
- محمد السعيد الزاهرى .
- محمد ابن أبى بكر السلاوى الفاسى .
- محمد المقرى الفاسى .
- محمد الشريف الزهار .
- ابن حزم الجزائرى .
- صالح سويسى الشريف القيروانى .
- محمد المكى الناصرى .
- محمد تقى الهلالى .
- محمد المصطفى بن باديس .
- محمد عبابسة الاخضرى .
- أحمد بن يحيى الاكحل .
- مصطفى بن حلوش .
- الشريف التلمسانى .
- مزهود الحسين بن الحاج حمانة .
- أبو حفص .
- محمد بن أبى شنب .
- موهوبى السعيد اليجرى .
- حامد بن أبى الخير .
- حسن وارزقى .
- أبو بكر مراح التلمسانى .
- علي بن عمارة الطولقى .
- ابن عمار البوسعادى .
- عبد اللطيف بن على القنطرى
- محمد بن خير الدين .
- سيف الحق العقبى .
- زغياش اسماعيل .

☆ ☆

الحقيقة الناصعة :

هؤلاء جميعا هم كتّاب « المنتقد » و « الشهاب » تضاف اليهم مجموعة كبيرة من الكتّاب الجزائريين والمغاربة والشرقيين الذين كانوا يعملون فى ميادين الجهاد والنضال باللسان وبالقلم ، وهم يضمرون اسماءهم تواضعا لله ولخلق

الله ، لانهم كانوا يحتسبون جهادهم لله ، والله لا يضيع أجر العاملين المخلصين المتواضعين .

فأين « توفيق المدنى » فى قائمة كل هؤلاء الكتاب الاحرار الشجعان الذين كانوا يقولون كلمة الحق مجلجلة صريحة ومدوية بالحكمة وفصل الخطاب ؟

أجل ، اننا نجد توفيق المدنى فى صحيفة الشهاب الجريدة، فى العدد (100) الصادر بتاريخ 9 ذى الحجة 1945 ــ 9 جوان 1927 عند ما أطبقت عليه (كماشة) جريدة «البرق» وصاحبها (الزاهرى) ، فخنقته هو وابن خالته صاحب النديم (1) .. هنا نجد توفيق المدنى يلجأ الى « عنترياته » ــ التى لم تقتل ذبابة واحدة ــ كما قال نزار قبانى ــ ليضفى على نفسه ، هالة البراءة من دم يوسف... وهو المقال الوحيد الذى نشر له فى كل المجموعة التى عندنا ، والتى ينقصها بعض الاعداد فقط وضعناها هدية منا الى قراء التاريخ وكتابه والى كل الباحثين فى مغانيه : فى مكتبة قصر الحكومة الجزائرية ، ومن أراد ان يتثبت مما نقول فما عليه الا ان يزور المكتبة المذكورة ، ويطلب هذه المجموعة من الشهاب الجريدة فى مجلدها ليتأكد ان توفيق المدنى الذى وضع نفسه فى أول قائمة العلماء المصلحين الذين جمعهم (هو) ودعاهم (هو) وأسس لهم (هو) جمعيتهم ، وكان (هو) الرائد الاول لهم، و (الرحمة المهداة) لهم ولشعب الجزائر وأمة الجزائر كلها، ولولاه (هو) فى (نقمة) تونس بنفيه ، و (نعمة) الجزائر فى استقباله ــ لبقيت الجزائر منذ ذلك الحين تتخبط في حوض الفرنسة والتجنس لتتطهر من أوضار شخصيتها وقوميتها

---

(1) انظر تعليقنا بعد هذا الموضوع تحت عنوان : هجوم ورد ، ففيه تفصيل الواقعة كما يرويها شاهد عيان لتلك الفترة .

وعقيدتها ، ولاصبحنا اليوم جيل العشرينات والثلاثينات ـ نتسكع بلا هوية تربطنا بتاريخنا وحضارتنا وكياننا .

فابن باديس ، يعجز عن تحرير خطبة يلقيها في حفل لتكريم جمعية يرأسها ، ثم يعجز مرة ثانية أو يجبن ويحتار أمام موقف لمجابهة مأساة (الاندماج) فيذهب باكرا مع الفجر الى مكتب توفيق المدني ، ويبقى على بابه واقفا حتى يحضر ، ليكتب له مقالا ينشره في الشهاب تحت عنوان « كلمة صريحة » ... ابن باديس هذا ما هو الا رداء من أردية توفيق المدني ، وظل يحكي الصدى لافكار توفيق المدني ... وكيف لا وتوفيق المدني يردد دوما في كتاباته واقواله ، ان ابن باديس كان طريقا يمشي في ركاب (طبول وبنادير) الطرقية الرحمانية ، ويحلق معهم في مقبرة سيدى امحمد بالجزائر العاصمة ليبارك قصاع (الكسكس) ـ بدرس في تفسير القرآن ... فواحر قلباه ! ؟

والطيب العقبي ، يدينه بالخيانة ، ويتهمه بالخور والضعف ، ويجيب عن سؤال وجه اليه من شاب في المركز الثقافي الاسلامي قائلا : ما دام العقبي وقَف ضد الثورة كما تقول ، فلم لم تحكم عليه الثورة كما حكمت على امثاله ؟ قال : لانه كأن مريضا لا يغادر فراشه ليل نهار ... فيا لقلة الحياء والوفاء ؟ !

ومبارك الميلي ، يشارك في كتابة تاريخه ، بوثائق لولاه (هو) لما كان « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » سجلا ذهبيا لامجاد هذا الوطن ..؟

والبشير الابراهيمي ، لولا (لطف الله) قبل طبع كتاب توفيق المدني ، لقرأ الناس منه ، كيف كان (توفيق) اليد

البيضاء التى انجدته فى الوقت المناسب ، واسعفته فى الوقت المناســب ؟ !

والامين العمودى ، لولا أن كتب الله له الشهادة والحسنى وزيادة ، وسقط فى ميدان الشرف شهيدا مبرورا ، لاصبح فى كتاب توفيق المدنى ـ العربيد ، الضائــع ، الشريــد ، الطريد من امانة جمعية العلماء ، ومن المجتمع كله ..؟!

أما الزاهرى العالم ، الاديب ، الكاتــب ، الصحــافى ، الشاعر ، الذى ملا ماضيه بصحائف المجد ، فهو بخطئه الاخير فى خط الثورة التحريرية ... انما هو جان وأي جان ؟ كل ما بناه فى تاريخ النهضة الثقافية والوطنية والاجتماعيـــة والعلمية ... انما هو عبث أطفال (؟!) لا يستحق الا اللعنة بدل الرحمة ، والسخرية بدل الاعجاب ؟

هذه هى أوهام توفيق المدنى ، رسمها حــــروفا وكلمات لمعان مقلوبة مكومة على بعضهـــا كتكوم غثــاء السيـــل . اما الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، التى عاشت فى ضمير هـــذا الوطن وفى ضمير ابنائه ، كما تعيش الشعلة المضيئة فى فكر العبقرى ، فهى ان الاستاذ توفيق المدنى ، منــذ استقــر فى الجزائر العاصمة ، قرر أن يعيش لنفسه (فقط) ... لا يغشى مجلسا الا اذا تأكد ان له فيه مغنما ... لا يخالطه حيف أو سوء ... ولا يحضر اجتماعا خاصا أو عاما ، الا اذا تأكد 100 ٪ أنه سوف يخرج من الاجتماع سليما فى ماله ، معافى فى بدنه بريئا من كل التبعات حتى تبعات اللوم والعتاب .

فهو لهذا لم يدخل حزبا من الاحزاب السياسية ، ولــم يشترك في جمعية من الجمعيات فتحت ميادين المواجهة مــع

الاستعمار واذنابه ، ولم يشرف على مؤسسة وطنية اجتماعية يشتم منها ريح ينذر بعاصفة ، كمؤسسة الكشافة مثلا ؟

فالمؤسسة الوحيدة التي قبل الاستاذ توفيق المساهمة في أعمالها وفي ادارتها، هي «الجمعية الخيرية» برئاسة الشيخ الطيب العقبي حتى بعد انسحابه من المجلس الاداري لجمعية العلماء، وهذه أيضا لم يشترك فيها الا لانها جمعية لا تحوم حولها أية شبهة ، لا سيما وهي تسير على وتيرة « دار الصدقة » الحكومية التي تتغذى بتقطير (القطارات) الاستعمارية ، بعد ان نهبت الحكومة الفرنسية أوقاف المسلمين وجعلتها نهبا مقسما بين أيدي زبانية المعمرين المستغلين ...

ومع هذا يضع الاستاذ توفيق علاقته بالجمعية الخيريـــة وبالشيخ العقبي ـ في قائمة الجهاد والنضال ، وبه يحكم على العقبي بقاصمة الظهر عند ما يدعي انه ضد الثورة ، وان الثورة هي التي ادانته وحكمت عليه ، (انظر مقاله في الرد علينا بجريدة النصر بتاريخ 10 أفريل 1978) .

ونحن لا يسعنا بعد هذا الا ان نضع بين يديه هو ، وبين أيدي القراء من ابنائنا وشبابنا ـ رجال ونســـاء الحاضر والمستقبل ـ عددا من الوثائق التي تدينه (هو) وتحكـــم عليه ، وهي في حكمها على توفيق المدني انما تبرىء كـــل الذين ادانهم توفيق المدني ..!

هجـــوم ... ورد ..

هذا عنوان ورد في كتاب توفيق المدني حياة كفاح (ج 2 ص 126) ـ وهو الموضوع « الذيل » الذي يعرفنا فيه توفيق المدني أنه كتب مقالة في جريدة الشهاب حول المعركة التي

قامت بين صاحب (النديم) حسين الجزيرى ، وصاحب (البرق) السعيد الزاهرى ، والتى انتصر فيها توفيق لابن خالته صاحب النديم ، فرد عليه الزاهرى بما يستحقه .

وبما ان هذا الموضوع لا يمكنني الخوض فيه ، الا بقدر ما يجوز لى الدفاع عن الاستاذ الزاهرى الذى أدانه توفيق المدنى فى كتابه ، فقد لجأت الى من عاش هذه الفترة ، وعايش هذه المعركة بوعي ، وهو الاستاذ حمزة بوكوشة ، فذهبت اليه وطلبت منه توضيحا فى هذا الامر ، فتكلم فيه باسهاب وتفصيل ، وأنحى باللائمة على توفيق المدنى الذى غمس قلمه فى ذمم الاموات ونال من كراماتهم الشخصية ومن سمعتهم الوطنية ومن أعمالهم الخالدة على مدى الازمان ، فى حين كان هو يختبيء وراء بطولاتهم ومواجهاتهم الشجاعة .

وكان الاستاذ حمزة بوكوشة يتكلم فى انفعال وتوتر وهو يذكر افضال الشيخ العقبى والشيخ الزاهرى ، والاستاذ العمودى على توفيق المدنى نفسه ، يوم ان كانوا جميعا يجاملون مواقفه المترددة المتخاذلة والمائعة فى بعض الاحيان .. فاشفقت على الاستاذ حمزة وقلت له : هون عليك ... ان هذه المعانى كلها هى التى عرفناها عن الاستاذ توفيق المدنى ، كما عرفنا عنه مواهبه الكثيرة والمتعددة التى كان بها محل احترام واعجاب ، ولكنه حين كتب هذه المذكرات اليوم ، غاب عنه ما كان لا يعزب عنه بالامس ، ولعل للسن دخل فيما فعل ، ولذلك اطلقنا عما كتبه كلمة « أوهام » وهى أقل ما يقال فيها ... ولكنى أطلب منك ان تكتب لى بقلمك تفاصيل هذه القضية ، لتكون حجة على ما ذهبنا اليه فى ردودنا على الاستاذ توفيق ، فكتب الاستاذ حمزة بوكوشة هذه الصفحات التالية :

مجموع ورد

من كتابه حياة كفاح (ص 126)

تعرض الاستاذ توفيق تحت هذا العنوان لجريدة البرق فقال "وتحرش احد كتابنا بطاقم جريدة النديم، الى ان قال: وكان موقد النار فيها هو السعيد الزاهري، وكان في سياسته "قوس قزح" يتحلى كل حين بلون جديد الى ان جاءت الثورة الجزائرية الكبرى وكان يصدر صحيفة بالعاصمة الجزائرية، من الحكومة مالها وفكرها فحكمت عليه الثورة بالاعدام فاردته قتيلا"

هكذا يحاول الاستاذ توفيق طمس الحقائق او خانته الذاكرة كأنه لا يعلم بالخلاف السائد في الحركة الوطنية عند قيام الثورة، وان الزاهري كان منضما لجماعة السيد الحاج مصالي رحمهم الله وكان يصدر لهم جريدة المغرب العربي

لصالحهم وكان ~~[illegible]~~ بينهم وبين
جماعة الجبهة خلافات، أدت الى
الاغتيالات، وكان الزاهري رحمه
الله من ضحايا تلك الخلافات وهذا
كثيرا ما ~~[illegible]~~ يقع ~~في الثورات في~~
بين الثوار.

اما جريدة البرق وتحرش احد كتابها
بجريدة النديم فان الذي يقرأ المقالات
~~التي نشرتها جريدة البرق يعلم~~
~~ان الزاهري مدافع عن صاحبهم~~
~~[illegible] اذ قابل بها المكي~~
~~[illegible]~~ في العدد الرابع المؤرخ
ب 28 مارس 1927 تحت عنوان (التفرنج
الآثم) ~~جاء في تلك [illegible] في جريدة [illegible]~~
~~[illegible]~~ يعلم ان الزاهري مدافع كبير
عنهما. جاء في تلك المقالات :

قرأنا في جريدة (لادبيش الجريان) مكاتبة جاءت من تونس بحق مسلمة متفرنجة هنالك، قد رقصت في حفلة راقصة، وكتبت سائر الجرائد الفرنسية الا قليلا عن هذه الحادثة مقالات كثيرة كلها حمد وثناء على هذه المرأة المارقة من جنسيتها، وقد حملت هذه الجرائد على جريدة النهضة التي قالت عنها: انها انتقدت هذه المرأة انتقادا مرا وخرجت من ذلك الى سب المسلمين ورميهم بالتعصب وبعداوة فرنسا.
واني لآت بما نشرته (لادبيش الجريان):
« حدث بتونس هذه الايام حادث اخلاقي مهم جدا تحتمل ان يحصل به انقلاب هائل في العالم الاسلامي

حدث في تونس امر لم نسمع بوقوع مثله فيما سلف .
حدث ان امرأة مسلمة تونسية قد ذهبت الى حفلة راقصة اقيمت بمحل المقيم العام ، تلك المرأة هي زوجة حمو قبائلي المسلم المتفرنس والمحامي بتونس ورئيس جمعية المسلمين ~~الم~~ المتفرنسين بها ، ولقد ارادت هذه السيدة ان تبدي لنا ماذا لقيته من مرارة العوائد الاسلامية وما نحس به في هذا الامر فقالت :
(اني تأملت منذ عهد بعيد فيما تجنيه العائلة المسلمة من التجنس بالجنسية الفرنسية فرأيت في ذلك فوائد ادبية كثيرة و~~فيما تجنيه التجنس~~

وذكرت تلك السيدة الفوائد وفيها
تحبيذ التجنيس، فلا نطيل بذكرها،
ثم علق مكاتب لادبيش الجريدة
فقال: ان زوجة قبائلى بمباشرتها هذه
استطاعت ان تنقب نقبا
واسعا ذلك السد الذى لا يزال
حائلا الى اليوم بعمالة تونس بين
النساء المسلمات وبين بقية
العالم، فلنلتفت الى هذا الحادث
ولنفكر فيه وفيما يحصل منه ولننظر
هل يكون له تأثير

وبعد هذا يقول الزاهرى رحمه
الله وهذه التصرفات من هذه
المرأة المسلمة المتمردة عن جنسيتها

ودينها هي ثمرة تعلم البنات المسلمات العربيات بغير لغة القرآن وبغير لغة العرب فتربين تربية ليس بينها وبين التربية الاسلامية من وشيجة اونسب .

وقال : ان بعض الفتيات التونسيات المتعلمات بنفرن من الزي الاهلي وبنفّرن غيرهن باناشيد يغنينها ويغنيها لهن انشباه الرجال ، فكتب صاحب النديم رحمه الله بعدد (305) عن الزاهري بانه كان بتونس يلتقط فتات الموائد ويزاحم الدجاج والقطط الخ. هنا انبرى الزاهري يرد على صاحب النديم فلم يبق ولم يذر

وهنا تدخل الاستاذ توفيق وكتب
مقالا تحت عنوان كلمة الى كتاب البرق
في الشهاب فاجابه فيما اذكر
الشيخ الطيب العقبي رحمه الله
بمقال تحت عنوان بعض كلمة
في ~~نفس~~ الشهاب.
وكتبت جريدة البرق بعدد (13)
تاريخ 30 ماي 1927 ومن جملة ما جاء
في ذلك المقال:
انك تعلم يا احمد توفيق المدني ان
صاحب النديم بدأ ظلما وعدوانا يمس
شرف محرر مقالات التفريج الآثم ويسخر
به ويشوه سمعته بمناسبة وبلا مناسبة
منذ اكثر من ست سنوات نسمع هذا
كله ونراه وكنت تضحك كثيرا ~~للتمزيق~~
لتمزيق ابن خالتك الاعراض البريئة
~~ولما~~ والشخصيات المصونة ولما
حاربناه بمثل سلاحه وكلمناه ~~بلـ~~
بلغته التي يفهمها وتعلمنا ها عنه

جئت انت ندافع عنه وننتصر له

وجاء في مقال آخر بجريدة البرق

~~موجه الى الاستاذ نوفيق~~

1) كيف نفسر تتبع الجزيري للزاهري منذ كان بتونس وتجسسه عليه حتى في ابعد النقط ونشره كل نقيصة تبلغه عنه من اعدائه؟

2) هل دعاك صوت الواجب لخطاب النديم بما خاطبت به البرق على تهكمه بالشيخ معاوية وغيره من التونسيين والجزائريين ؟

3) لم خصصت كتاب البرق في هذه القضية الحاضرة وهم مدافعون واثنيت على الجزيري المهاجم فكأنك امضيت معه سبه الكتاب الجزائريين

4) ما هذا ~~التو~~ التفوق والامتياز الذي ناله الجزيري في عصر المساواة ونزع الامتيازات حتى يترك وشانه في تنقيص

من شاء والويل كل الويل لمن دافع عن نفسه

«واصل»

هذا قليل من كثير من هذه المعركة التي طواها الاستاذ توفيق المدني وماذكرها الا ليشفي ما في صدره، من حقد على الزاهري في قبره،

حمزة بركوشة

التعليق، على التحقيق :

لقد كان في امكاننا ان ننشر كلام الشيخ حمزة بوكوشة مطبوعا فنختصر بعض الصفحات في هذا الكتاب ، ولا نكون قد تقولنا على لسان الشيخ حمزة ما لم يقله لنا ، لان الشيخ ما يزال حيا بيننا ويتمتع بكامل حيويته ، ولان الصفحات التي كتبها ما تزال بين أيدينا بقلمه وبخطه ، ولكننا آثرنا تصوير الصفحات كما هي بكلماتها وسطورها المشطوبة لتكون أبلغ في الدلالة على ما قلناه وكررناه مرارا من ان الاستاذ توفيق في مذكراته حياة كفاحه ... يغلب عليه الوهم احيانا فينسى الحق والعدل ، وينجرف احيانا أخرى مع الضغائن والاحقاد فيتجنى بتسجيل المين والظلم ، وتلك « سخيمة » لا ينجو منها الحانقون الحاقدون .

وعندما جابهنا بهذه الحقيقة الاستاذ توفيق فيما كنا كتبناه عن كتابه ، وما ناقشناه فيه من أوهامه وتصحيفاته ، رمانا بما هو غارق فيه الى أم رأسه ، فاتهمنا باننا ملأنا ردودنا بالسباب والشتائم ، ومعاذ الله ان يصل بنا الغيظ بما كتب من الاباطيل ، الى مهاترات الشتائم والسباب ... ولكن الاستاذ توفيق وضع كلمات : التحريف والتزيف ، والتصحيف والادعاء ، والغرور ، والاستعلاء ... موضع الشتم والسب؟! ولو انه تجرد لحظة من الموجدة والحفيظة ، وعاد الى حظيرة الصواب والحكمة ، لادرك أننا جاملناه كثيرا في مناقشتنا على حساب الحق وما يتطلبه من الصراحة ، ذلك اننا قارنا بين رذيلتي الشتم والمنكر ، فوجدنا ان سكوتنا عن منكر جناه، أهون علينا من مجاراته في شتم الاموات وفضح الاحياء ... ولكن السيد توفيق أبى تحكيم الحكمة في الرجوع الى الحق

والاعتراف بالخطأ ، فيما كتبه من الردود ، وفيما قاله في أجوبته بالندوة التاريخية في المركز الثقافي الاسلامي يوم 16 أفريل 1978 ، بل زاد في العناد والاصرار ، حين صرح بعد الندوة لبعض جلسائه قائلا : لقد انتصرت على الكل ، وظهرت حجتي عليهم فتضاءلوا ... ولم يدر « المسكين » ان هـــذه الندوة أصبحت حديث الخاص والعام وان توفيق المـــدني وكتابه حياة كفاح ، أصبحا حديث المنتقدين في كل نواديهم ... حتى ان « التاريخ » وهو موضوع ، أصبح في معرض (اشاعة) على ألسنة الناس فهم حين يذكرونه يتمثلون معـــه « حياة كفاح » ويقولون : ان التاريخ لا يكتبه الا النزهاء ، ولا يروى أخباره ووقائعه الا الذين ينسون ضمير المتكلــم ، ولا ينجرفون مع التبجح والاستكبار ، ولا يقولون عن أنفسهم فعلت ، ودعوت ، وقلت ، وخطبت ، ولا يعظمون أنفسهم ولا يزكونها، بل يتواضعون ويتصاغرون، وهم حين يضطرون الى الكلام عن أنفسهم يخجلون ويعتذرون ...

هذا هو حديث الناس ، كل الناس ، عن توفيق المـــدني وكتابه حياة كفاح ، وسيكون هذا الحديث وأمثاله معلما من معالم الطريق لما سوف تكتبه الاجيال في هذا الموضوع ، حين يكون توفيق المدني ونكون نحن أبناء هذا الجيل ــ في مكان تؤخذ فيه الحقوق بعدل وقسطاس ، لا نحتاج فيه الى بيـــان لرد شبهة ، أو تفنيد فرية ، أو الكشف عن موجدة وحفيظة .. مثل ما فعلنا هنا في تصحيح هذا التصحيف الذي زيفت بــه الحقائق في كتاب حياة كفاح ، وحينذاك يدرك أحمد توفيق المدني خطاه فيندم ، ولات ساعة مندم .!!

الـــرواد الاوائـــل

لجمعيـــة العلمـــاء !

من أوهام الاستاذ توفيق المـــدنى وتحريفاته للتاريـخ ومحاولة تزييفه :

1) ـ تجاوزه للاحداث بجملة من الافتعالات (الفلكلورية) كلقائه مع نخبة قسنطينة من الاساتذة والطلبة الذين ذكرهم ـ وكلهم ماتوا ـ لكى يضمن لنفسه نوعا من التعاظم والتعالى الذى يبيح له فيما بعد ، ادعاء ما ليس له ، وما ليس فى امكانه الوصول اليه بوجودهم احياء ، وهو ما لم يتمكـن منـه فى حياتهـم .

2) ـ تزييفه للحقائق والوقائع التاريخية ، ليصـل الى الادعاء بانه الفارس المجلى فى حركة النهضة الوطنية ، ولولاه لما أمكن لهذه البلاد ان تفيق من نومها ، أو تتحرك مـن ركودها ، أو تنفض عنها غبار الخمول والاستسلام .. فلما (كَوَّنَ) جمعية العلماء و (ألَّفَ) كتابين من كتبه ، كانت النهضة ، وكانت اليقظة ، وكان الوعى ، وكان الاستعداد والاعداد ... وكل ذلك قاد الى الثورة التحريرية المظفرة ..!

ووقوفا عند خط المسيرة من منهاج الاستاذ توفيق المدني ـ فقد لجأنا الى من بقى من رواد جمعية العلماء الاوائل وهو ـ هنا ـ الاستاذ محمد خير الدين ، وسألناه توضيح هذه المسألة ، بعد أن استأذناه في نشر ما عساه يدلى لنا من تصريحات فى الموضوع ... ثم أخذت من محفظتى مسجلا صغيرا وضعته امامه ، استعدادا لتسجيل تصريحاته الشفاهية فبادرنى هو قائلا :

ـ أنا متأكد من جدّيتك فى هذا العمل ، ومتأكد ان عملك هذا من الاعمال الخالدة التى يثيبك الله عليها ثواب العاملين المخلصين ، لهذا فأني سأقدم اليك فى قضية الرواد الاوائل لجمعية العلماء ـ مخطوطا كتبته ضمن مذكراتى التى سوف اطبعها قريبا ان شاء الله .

ثم قام من مكانه ، وغاب قليلا عنى ، ثم عاد الى وبيده جزء من مخطوطه هذا ، وأشار الى مكان منه وقال : اقرأ هذا، فقرأت عدة صفحات منه ... ثم قلت : وهل تأذن سيدى الاستاذ ، بنقل هذه الحقيقة التاريخية عنك وباسمك لكى تكون كتصدير متأخر لهذا الكتاب وفى موضوع هو من أهم ما ورد فيه ؟ فقال :

ـ خذه واحتفظ به حتي ترده الي .

فأخذت الكراسة منه شاكرا ، وها أنا انقل بامانة من مخطوط الشيخ محمد خير الدين أول مراقب للمجلس الادارى لجمعية العلماء ، وآخر رئيس لها يتمتع حتى الآن بحيوية الرواد الاوائل لهذه الجمعية ، التى لم يشترك فيها « توفيق المدني » لا من قريب ولا من بعيد ، طوال عشرين سنة (من سنة 1931 الى سنة 1951) ، ولم يكن له قليل ولا كثير من

حظوظ : التفكير ، والتكوين والانجـــاز ، ولا حتى حــظ الاستشارة التى يدعيها ... وكل ما له من صلات بجمعيــة العلماء منذ نشأتها حتى سنة التحاقه بها فى (1951 انما هى صلات عامة مثل عموم الناس الذين ابتلاهم الله بمحنـــة (الكتابة والخطابة) باللغة العربية ، وهى محنة ما يــزال يشاركه فيها أبناؤنا من تلاميذ المدرسة الاساسية فى مؤسسات التربية الوطنية .

والى القراء أقدم هذه الصفحات التالية من هذا المخطوط، مع رجائى فى ان يقوم كل مثقف واع بتصحيح ما ورد فى كتاب « حياة كفاح » من الاوهام ، والعدول عما ثبت فيه من التحريف والتزييف والتخريب ، ولله فى خلقه شؤون .

مشاركتي في حركة الاصلاح الاولى بالجزائر
(الـــرواد الأوائـــل)

من مذكرات الاستاذ الشيخ محمد بن خير الدين
منقولة بأمانة من مخطوط بقلمه

المـرحلة الأولى :

منـذ عودتي من تـونس عام 1925
الى تأسيس جمعية العلماء سنة 1931

عدت من تونس الى الجزائر في جوان 1925 م ، وكان والدى قد توفى فى أواخر عام 1924 ، ولم يتجاوز من العمر 49 عاما ، فالفيت نفسى أمام وضع جديد ، كان لابد لى أن أقوم فيـه بتربية اخوتى وتوجيههم التوجيه السليم ، والحفاظ على ما ترك أبى من ثـروة واملاك فلاحية وتجارية والعمـل عـلى تنظيمها وتنميتها .

وقبل ان ادخل الى بلدتنا فى الصحراء ، عرجت على مدينة قسنطينة لزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ولإبلاغـه تحيات من أساتذته بجامع الزيتونة وثنائهم على ما كان يقوم به من جهود في سبيل الاسلام .

وقــد وافقت عودتى الى الجزائر ــ رجوع بعض الطلاب الجزائريين الذين درسوا بالزيتونة ، وكان الامام ابن باديس قد خطا خطوات فى نهضته التعليمية بقسنطينة منذ حل بها عام 1913 حيث تخرج على يده عدد من تلاميذه ، ففكر رحمه اللــه ورضى عنه ، فى توحيد جهوده ، وقد قال لصفوة من انصــاره :

ــ « اني عقدت العــزم على توجيه دعوة الى أبناء الجزائر المتخرجين من جامع الزيتونة ، والعائدين من المشرق العربى لندرس جميعا الحالة الراهنة لشعبنا ، ووضع خطة عمل لانقاذ هذا الشعب العربى المسلم قبل فوات الاوان » .

وكان رضى الله عنه صادق العزم ، فوجه الدعوة سنة 1927 الى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربى ، من الذين رأى فيهم القدرة والاستعداد للعمل فى سبيل الــدين والوطن ، ولبى دعوته هذه الاساتذة المشائخ :

ــ محمد البشير الابراهيمى .

ــ مبارك بن محمد الميلى .

ــ العربى بن بلقاسم التبسى .

ــ محمد السعيد الزاهرى .

ــ وكاتب هذه المذكرات : محمد بن خير الدين

اجتمــاع الــرواد :

واجتمــع هؤلاء الــرواد برئاســة الشيخ عبد الحميــد ابن باديس بمكتبه المجاور لمسجد الاربعين شريفا ، وكانت مشاعر المجتمعين تفيض حماسا وعزيمة صادقة ، واستعدادا للتضحية في سبيل الله ثم فى سبيل الوطن .

وافتتح الرئيس الجلسة بحمد الله والثناء عليه ، وبالصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

- أيها العلماء ، حياكم الله وأمدكم بعونه ونصره ، وبعد : فلا شك انه قد أصبح من المعلوم لدى كل أحد ، ان العدو الاستعمارى الصليبى ، قد اغتصب أرضنا ودفع شعبنا الى السكنى فى الكهوف ومغارات الجبال ، وأصبح شغله الشاغل - اضعاف الشخصية الجزائرية سياسيا فى طريق القضاء على وجودها ، لتحل محلها الشخصية الفرنسية ، من أجل هذا اسرع الخطى الى حشد عشرات الآلاف من الرجال والنساء من مختلف الجنسيات الاوروبية من المسيحيين، ومنهم الجنسية الفرنسية ، ثم أسكنهم العمالات الثلاث « الجزائر - قسنطينة - وهران » من التراب الجزائرى ، وأقطعهم الارض الخصبة التى انتزعها من ملاّكها المسلمين .. ثم مد لهم الطرق ، وأعانهم بالاموال لاجل بناء المساكن وتفجير ينابيع المياه .. ثم واصل سيره فى مخططه هذا باصدار القوانين المتعاقبة للقضاء على الشعب الجزائرى بسهولة ويسر ، فلا تقوم فى وجه المستعمر مقاومة داخل البلاد، ولا تذاع جرائمه خارجها.

وقد رأيت من المفيد ان أقدم الى جمعكم المحترم بعضا من هذه القوانين الخطيرة لتدرسوها وتمعنوا النظر فيها وفى نتائجها ، ولتعرفوا ما يبيّته لكم عدوكم .

واليكم نصوص بعض هذه القوانين الصادرة عن مجلس النواب الفرنسى :

أولا : فى عام 1834 صدر قانون عن مجلس النواب الفرنسى يصرح بأن أرض الجزائر تعتبر أرضا فرنسية .

ثانيا : فى عام 1845 صدر قانون عن مجلس النواب الفرنسى يقضى بتقسيم الجزائر الى ثـلاث عمالات : وهـران ، والجزائر ، وقسنطينة .

ثالثا : فى عام 1848 صدر قانون يؤكد عـلى أن الجزائر جزء من فرنسا .

رابعا : فى عام 1848 صـدر قانون ، استولت بموجبه فرنسا على دور العبادة ، وعلى الممتلكات الموقوفة على الشؤون الدينية الاسلامية وضمها الى أملاك الدولة الفرنسية ، ثم وضعت جميع هذه الاملاك تحت ادارتها ، وأصبـح التعليم العـربى والاسلامى فى الجـزائر لا يمارس الا برخصة منها ، تمنحها للعملاء وللجهال .

خامسا : فى عام 1901 صدر قانون فرنسى ، يقضى بفصل الدين عـن الدولة ، وطبق فى فرنسا ، اما فى الجزائر فلـم يطبـق عـلى الاسـلام ، بينما طبـق بالنسبة لليهودية والمسيحية ، وبذلك بقيـت الشؤون الدينية للمسلمين فى قبضة الدولة المستعمرة ، ليسهل القضاء على دينهم .

سادسا : فى عام 1879 حدث جفاف عظيم بالجزائر ، ترتب عليه نقص كبـير فى محصول الغـلال ، وأصبح المواطنون المسلمون فى حالـة بائسة ، وتفشت فيهم الامراض ، ومات عدد غير قليل منهم ، فخرج الكاردينال «لا فيجرى» يطوف البوادى من الشمال الى الجنوب ، يحمـل بيـده اليمنى : «الصليب» ويحمل بيده اليسرى الخبز والدواء فتمكن بهذه الوسيلة من تحويل اعداد هائلة من مرضى المسلمين والايتام ـ عـن دينهم الاسـلام وادخالهم فى المسيحية .

والآن أيها العلماء :

لقد شاء الله أن يهيئكم ويدخركم لهذا الظرف الخطير لتتحملوا مسؤوليتكم بكل شجاعة وتضحية ... وان يومكم هذا لشبيبه بذلك اليوم الذى وقف فيه البطل المجاهد (طارق ابن زياد) خطيبا فى جيش المجاهدين ، على ربوة جبل طارق بعد ان احرق سفنهم التى حملتهم الى الاندلس وقال قولته الشهيرة : أيها الناس : أين المفر ؟ البحر وراءكم ، والعدو أمامكم ، ولم يبق لكم غير الموت أو النصر !..

وأنا أقول لكم هذا اليوم : لم يبق لنا الا أحد أمرين لا ثالث لهما ، اما الموت والشهادة فى سبيل الله وانتظار النصر الذى وعد الله به عباده المؤمنين ؟ أو الاستسلام ومد أيدينا الى الاغلال ، واحناء رؤوسنا أمام الاعداء ، فتكون النتيجة ـ لا قدر الله ـ ان يجرى علينا ما جرى فى بلاد الاندلس وبعض البلاد الاسلامية حين تركت الجهاد واستسلمت للاعداء.

ـ فأجابه العلماء الرواد قائلين : نحن مستعدون للتضحية فى سبيل ديننا ووطننا والله معنا . فقال الرئيس :

ـ حياكم الله وأيدكم بنصره .

ـ ثم عرض عليهم خطة عمل مؤلفة من عدة نقاط لتنفيذها وهى كما يلى :

1) تكوين لجنة منكم للتسيير والتنفيذ .

2) الشروع فورا فى انشاء المدارس الحرة لتعليم العربية والتربية الاسلامية .

3) الالتزام بالقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين فى المساجد الحرة ، ثم الجولان فى انحاء الوطن لتبليغ الدعوة الاصلاحية

4) الكتابة فى الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب .

5) انشاء النوادى العربية للاجتماعات والقاء الخطب والمحاضرات .

6) انشاء فرق للكشافة الاسلامية للشباب فى كافة انحاء البلاد .

7) العمل على اذكاء روح النضال فى أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخنوع للحكم الاجنبى .. وان مبدأنا الذى يجب ان نتمسك به ونسير عليه هو اتباع هدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذى علم أصحابه عقيدة الاسلام ، ثم سلحهم بالسيوف وأدوات القتال .. فكلا السلاحين لا يغنى احدهما عن الآخر .

ثم عين الرئيس لهذه الجماعة من الرواد الاوائل مهامهم ، وحدد لهم أماكن نشاطهم بالاتفاق معهم ، فكان ذلك كالتالى :

- الشيخ محمد البشير الابراهيمى فى مدينة سطيف وما حواليها (ويتنقل) .
- الشيخ مبارك الميلى بمكتب التعليم العربى ومساجد قسنطينة وعمالتها .
- الشيخ الطيب العقبى فى عمله بمدينة بسكرة وما حواليها.
- الشيخ العربى التبسى فى مدينة تبسة وما حواليها .
- كاتب هذه المذكرات فى (فرفار) وما جاورها من واحات الزيبان ، مع العمل على انشاء مدرسة التربية والتعليم فى مدينة بسكرة ، بالتعاون مع من فيها من العلماء .
- الشيخ السعيد الزاهرى ، للتجوال فى عمالتى الجزائر ووهران .

وختم هذا الاجتماع التاريخي بالدعاء ان يوفق الله جهودنا ويكللها بالنجاح .. ثم التحق كل منا بمكان عمله ، مستنيرا بالروح الاسلامية العالية التى غمرت هذا الاجتماع بفضل الله ثم بفضل تلك النفس الزكية الخالصة لامامنا ورائدنا الاول الشيخ عبد الحميد رحمه الله ورضى عنه .

☆ ☆

التعليق :

هذه وثيقة واحدة من عشرات مثلها ، لعشرات الآلاف من أبناء هذا الشعب الابى ، والذين بفضل ايمانهم وصمودهم واستبسالهم وتضحياتهم ، واستهانتهم بالموت فى سبيل الله وفى سبيل المثل العليا لعقيدتهم وأهداف وطنهم — تفجرت النهضة ، وسارت الجماهير فى مواكب النضال والجهاد ، يحدوها الايمان بنصر الله ووعده الحق فى مثل قوله سبحانه وتعالى : « **وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** » (الآية 56 ، المائدة) .

ولو أردنا ان نجمع من رواد وأنصار جمعية العلماء امثال هذه الوثيقة ، لملأنا صفحات المجلدات ، ولو فعلنا ذلك لكان عذرنا قائما ، وهدفنا واضحا ، وحجتنا لامعة ، بان رواد الحركة الاصلاحية ، وحداة النهضة الوطنية ، كانوا يملاون السهل والجبل ، والصحراء والبحر ، بجهادهم ونضالهم — قبل ان يكون نضال « حزب الدستور » فى تونس وعلى رأسه المجاهد الاول عبد العزيز الثعالبى وصحبه الاحرار ، وقبل ان يتحرر السيد « أحمد توفيق المدنى » من لفائف الرضيع وتمائمه وودعه ؟..

ولكننا نكتفى بهذه الوثيقة الرصينة الواعية ، كتبها رجل واكب الحركة الاصلاحية منذ أولى ايامها ، وكان محل ثقة من

كل روادها ، ورفيق درب أمين لكلِ مناضليها ومجاهديها الى حين استقلال البلاد .. ولكنه مع ذلك لم يملأ أرضنا وسماءنا دويا وضجيجا ومنا ، بانه جاهـد حين قعد الناس ، وواجـه الشدائد عندما تخلـف الناس ، وضحى بنفسه ومالـه ، في الوقت الذى بخل فيـه الناس بدينار ، وآثروا السلامة وراء الستار ، واحتموا بالتقية تارة ، وبالاصحاب والمعارف تارة أخرى ، فعاشوا عمرهم مرفهين منعمين لم يفترشوا الحلفاء في سجـون بربـروس ، والحـراش ، ووهـران ، ولانبيس ، والبرواقية ، ولم يأكلوا «العدس» و «الجلبان» في محتشدات : «بوسوى» ، و «جنـين بورزق» ،،، و «وسـارة» ، و «سيـدى الشحمى» ، وغيرها .

ثم اننا حين ننشر هذه الوثيقة التاريخية للرواد الاوائل ، من رواد الحركة الاصلاحية في هذه البلاد ـ مكتوبة بقلم واحد منهم ، كان لـه الفضل في استلحاق السيد أحمد توفيق المدنى بجمعية العلماء ، ثم بالثورة التحريرية ، ثـم بوزارة الاوقاف في أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال .

وعسى هـذه الوثيقة التى اخذناها مـن المذكرات المخطوطة لصاحبها الاستاذ الشيخ محمد خير الدين ـ تكون كافية للكشف عـن جملة الترهات والاوهام التى تملأ كتاب « حـياة كفاح » لصاحبه وكاتبه السيد أحمد توفيق المدنى ، والا فاننا لا نألوا جهدا في التصدى لكل تزييف وتحريف منه أو من غيره ، حتى يحق الحق ويبطل الباطل ، كما جاء الحق على أيدى هؤلاء الرواد وزهق الباطل ، والله من وراء الجميع محيط .



وهذه صورة من امجاد « جمعية العلماء » في الامة الجزائرية، وهي تسجل احتفال الشعب الجزائري من أقصى شرقه الى أقصى غربه ــ بافتتاح المدرسة الحرة « دار الحديث » بتلمسان سنة 1937 ، فأين هو (توفيق المدني) الذي أصبح يقول في كتابه : انه أسس المدارس وأسس الجمعيات ، ونظم الاحتفالات ، وخطب في المهرجانات ؟ ؟

مواقف الأبطال

إني أعلن أنني لست لنفسي، وإنما أنا للأمة، أعلّم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها.

وإن كل ما يقطع عليّ هذا الطريق، أو يعوقني عن أداء واجبي في هذا السبيل، فإني لا أرضى به، ولو كان ذلك من مصلحة الأمة.

عبد الحميد بن باديس

من جريدة البصائر عدد 33

ديسمبر 1937 م

وثـائــق الإدانــة

لأحمـد تـوفيق المـدنى

لقد قلت للسيد توفيق المدنى فى آخر الكلمة التى نشرتها بصحيفة الشعب الوطنية بتاريخ 16 أفريل 1978 ، ما نصه :

ــ ولنا عودة الى كتاب توفيق المدنى ، متى دعانا داعى الواجب الى العودة اليه ، ولكن الذى نرجوه مخلصين مــن الاستاذ توفيق ان لا يندفع بعد اليوم فى الرد على ناقديــه ومناقشيه ، حتى لا يترتب عن ذلك ما لا نريده له ولا نرضاه مختارين ..!

ولكن الاستــاذ توفيق رفض فريضــة التوبة ، ورفض معها فضيلة الرجوع الى الحق ، فاستمر فى اصراره على ادانة من هم الآن فى ذمة الله ، الامر الذى أكد ضرورة متابعته بما تفرضه « الامانة » من الصراحة التى وان كانت جارحة أحيانا ، الا انها الحق ، والحق أحق ان يتبع .

وفى الوثائق التالية التى ننشرها ، بيان صريح ، وتوضيح لما كنا اشرنا اليه حينما قلنا فى مناقشتنا لكتابه على صفحات الصحف الوطنية :

« من كان بيته من زجاج فلا يرم الناس بحجر » فلم يبق اذن مبرر لسكوتنا عنه ، ولا يجوز أبدا غض الطرف عن اصراره فى التبجح والادعاء ، وما دام هو مصرا على أقواله وادعاءاته ومزاعمه وأوهامه ، فانه لن يجدنا بعد اليوم الا حيث يقتضينا واجب الدفاع عن الحق واصحاب الحق ، مهما كانت ظروف هذا الدفاع لينا وعنفا ، وقوة وضعفا ، وسموا وسخفا ...

ويعلم الله — ويعلم صالحو المؤمنين من عباده — اننا ما تسببنا يوما فى ايذاء أحد ، ولا سعينا — ولا مرة — في تتبع عورات الناس ومعايبهم فكلنا نبوء الى الله بذنوبنا ومعايبنا ... ولكننا عند ما نرى الحق الابلج ، يتردد حائرا على الالسنة ، وعندما نرى الباطل يبنى لنفسه عرشا زائفا عن طريق المغرورين الواهمين ... لا نتردد فى الصدع بما لقننا الله وعلمنا من كلمة الحق ، لا نخشى فى ذلك لومة لائم ولا سطوة آثم .

اننا نعلم من مواهب الاستاذ توفيق المدنى ما لا يعلمه كثير من الناس ، ونعلم من طرائق معاملاته وتعامله ما يعلمه كثير من الناس ... ولكن الذى لا نعرفه ولا يعرفه الناس ، هو ما طلع به على الناس فى مذكراته ، من تتبع عورات الناس والكشف عنها ، ونبش قبور الموتى وتفتيت بقايا عظامهم أمام أعين الناس ، من غير تحرج ولا أدنى تورع يمليه العقل السليم أو حتى الذوق السليم ...

ثم من هؤلاء الذين نبش توفيق المدنى قبورهم ، وبعثر عظامهم ، وشوه أمام الناس حقائق حياتهم باوهامه وآثامه ؟ انهم :

أ ـ أصهاره ، الذين آووه ونصروه ، من أكارم الناس وأعيانهم ، الذين يدينون الله بدينه الحق ، ويعاملون عباده بالخلق الحسن ..؟!

ب ـ واحرار الامة الجزائرية وابرارها، من علماء الاسلام وأدباء العربية ، واعلام الوطنية ، ونماذج التضحية في سبيل الله ثم في سبيل هذا الوطن المسلم العربي .

ج ـ الامة الاسلامية في الجزائر ، وفي المغرب العربي ، وفي كل مكان من العالم ... عند ما عرّض باحرارها ، ونال من دينهم ، ومن ثقافتهم ، ومن وطنيتهم ، ومن مقومات حياتهم .

فعبد العزيز الثعالبي ، أول زعيم اسلامي وطني أنجبته تونس المسلمة العربية ، وأعلن في تونس تمرده على الاستعمار الكافر الفاجر ، وبنى أول لبنة في صرح الحرية والاستقلال ... هذا الزعيم الخالد الذكر، أصبح في مذكرات توفيق المدني « كتلة من لحم وشحم » لولا توفيق المدني بزعامته في قيادة الحزب الحر الدستوري ، لغدا الثعالبي في وطنية تونس ـ مجهول النسبة اليها ..؟! (حياة كفاح ـ ج 1 ص 184 و ص 276) .

ومحيي الدين القليبي ، الذي عاش غريبا ـ كما بدأ الاسلام غريبا ـ ومات غريبا عن وطنه ، في ميادين الجهاد والنضال المستميت ، أصبح « في موقف لا يحسد عليه » ؟ ! (حياة كفاح ـ ص 400) .

فعظماء السياسة وزعماؤها ، وعلماء الدين والثقافة الوطنية ، وشباب النهضة والتضحية ، والمؤسسات والهيئات النضالية ، والتكوين ، والتعليم ، والتوجيه ... كل هؤلاء ،

وكل هذا ، ليس له أى أثر في النهضة والاعداد للثورة ــ حتى منّ الله على هذه الامة ببعث الروح الاسلامية والوطنيـــة والثورية فى شخص توفيق المدنى ، فهو وحده الجبل الشامخ، والعلم الفرد ، والكل له نبرة وصدى ... فيا لسخف التفكير ، ان هو فقد الحياء والتواضع وملازمة الحق وأهله ؟ !

☆ ☆

ولو أن الاستاذ توفيق المدنى ، أكتفى ــ فى مذكراته ــ بالثناء على نفسه ، كما فعل فى الكلمة التى توجها بصورته الشخصية ونشرها فى (طية) الغلاف الاول ما نصه بالحرف :

ــ علم من اعلام العروبة والاسلام والوطنية الصادقة ، ومن ذا الـذى لا يعرفه ؟ كرس كل جهوده منذ شب فى سبيل الاصلاح الدينى واحياء اللغة العربية ومحاربة الاستعمار رغم جميع الاضطهادات التى عرفها (1)، فكان فى كل ذلك قدوة يقتدى بها ... الخ .

لو أن توفيق المدنى اكتفى بهذا أو امثال هذا مما ملأ به مذكراته « حياة كفاح » لوقفنا معه موقف المجاملة وسكتنا ــ ورب سكوت ابلغ من كلام ــ واكتفينا بسكوتنا عما يجرنا اليه الكلام من الصراحة ، وما تضطرنا اليه هذه الصراحة من الصدق الذى لا يجامل ولا يتعامل على حساب الحق .

ولكن توفيق المدنى حين مدح نفسه ، ووضعها حيث يريد ان يكون ــ بحق وبباطل ــ اطلق لقلمه العنان فمضى فى تتبع خطوات الناس ومجالسهم فى كل حياتهم ، وفى البحث عــن معائبهم وأخطائهم وآثامهم ... فلم يتورع حتى عــن نبش

(1) لم نعرف ، ولم يعرف أحد ، ما هو نوع هذه الاضطهادات التى عرفها الاستاذ توفيق طوال السنوات التى قضاها ــ مدللا ــ فى الجزائر مــن سنة 1925 الى سنة 1956 ؟ !

قبورهم وبعثرة عظامهم ، والدخول الى بيوتهم وأسرّة نومهم، كما فعل فى الحياة الزوجية للامام عبد الحميد بن باديس التى قال عنها بانها « زيجة غير صالحة وغير موفقة » (ص 12 من كتابه ، ج 2) وكل هذا من غير ادنى مبرر منطقى بلـه العلمى والاجتماعى ، الا أنه يريد ان يصل الى حياته الزوجية الخاصة فيقول عنها : « زيجة موفقة » (ص 143 من نفس لكتاب) عاش سعيدا موفقا منجبا ، بينما ابن باديس لـم يوفق فى زيجته ولم ينجب منها ... وهذا خلاف الواقـــع وخلاف الحقيقة ، وهو ــ كغيره ــ أوهام وأحـــلام تدينه بالتقول على الناس ، واختلاق هنات لهم حتى فى حياتهـم الخاصة التى لا صلة لها بحياتهم العامة ، وكل هذا من مميزات هذا الكتاب التاريخى (حياة كفاح) ، وهذا الكاتب المؤرخ ؟ (أحمد توفيق المدنى) ... ومن استطاع ان يختلـق فى خصوصيات الناس ما ليس لهم وما ليس فيهم ــ سهل عليه ان يخلق فى عموميات الناس ما لا يصل اليه علمهم ويقينهم، ومن استهان بالصدق والحق فيما يأتيه من أمور الناس ظلما ومينا وبهتانا ــ ابتلاه الله بكل أنواع الهوان ، وهـو عدل لا مناص منه .

مـن وثـائـق الادانـة :

ــ الوثيقة الاولى (أجنبية) :

اننا لم نكن لنعير كبير اهتمام الى ما ورد فى هذه الوثيقة الاولى ، لو لم تتوفر لدينا الوثيقة الثانية ، ذلك أننا نعلم ان الاجانب حين يكتبون عنا ، لا يتحرون الحقيقة بقدر ما يستهدفون النيل منا ، لا سيما اذا تناولوا فى كتاباتهم معالمنا واعلامنا ، فهم فى تحرياتهم اللغوية والتاريخية لا يتحرجون

فى بث البلبلة التى تزيد فى الصدع ثلمة ، لانهم مرتبطون قبل كل شيء بمخططاتهم الاستعمارية .

لقد قرأنا هذه الوثيقة بما تتطلبه من الحـذر ، ولكننا عندما قرأنا ما كتبه الاستاذ أحمد توفيق المدنى فى مذكراته ... « حياة كفاح » ، وما ملأ به هذه المذكرات من المثالب فى الاموات من ابطالنا الميامين ، واحرارنا المكرمين ، وجدنـا أنفسنا فى حل من أمرنا ان نحن نقضنا غزله المبثوث فى شتى الصفحات من كتابه هذا ـ بمثل هذه الوثائق المكتوبة عنه ، لكى يعرف هو أولا وبالذات انه اذا ملك قلما فان للناس اقلاما مثله ، واذا أطلق لقلمه العنان فى ثلب الخاصة والعامة ، فان للناس مـن طبائعهم المختلفة وعقائدهم المتنوعـة ومذاهبهم المتنافرة ... من يفعل فعله وأكثر .

ولو جئنا نبحث عن « هنات » توفيق المدنى فيما يقولـه الناس ويكتبونه ويتداولونه عنه ـ لملأنا صفحات من هـذا الكتاب ولكن دفاعنا عن الحق وأهله ـ يفرض علينا التحرى أولا ، والصدق ثانيا ، والانضباط مع السلوك الأقوم والخلق الأكرم ، من مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى عنه » .

فليقرأ الاستاذ توفيق المدني ما يقوله الناس عنه ، وليقرأ معنا ومع القراء ـ هذه الوثائق المكتوبة عنه ... فان هو اعترف بصدقها فانه لا مناص له من الاعتراف على المـلأ ، بانه اعتدى على الحق بنشر الباطل ، واعتدى على الابـرار والاخيار ، بثلب أعراضهم وتشويه سمعتهم والنيل من ذممهم وتلك رذيلة « القذف » الذى حرم الله .

أما اذا أصر واستكبر ، وأخذته العزة بالاثم ، فان الله الذى لا تخفى عليه خافية ، سينتقم للاخيار الابرار من عباده، وسيأخذ منه حقوقهم كاملة ، وهو عدله المطلق ، وما ظالم الا سيبلى بأظلم ! !

Service, les oulemas envoient un des leurs au Caire auprès des « Frères musulmans ». Ils y créent un « Front de défense de l'Afrique du Nord » et seront représentés dès lors dans tous les comités de libération du Maghreb qui se forment en Egypte.

Compromis avec l'Organisation secrète du M.T.L.D., le successeur de Ben Badis, Brahimi Bachir se réfugie au Caire en 1952; le 1er novembre 1954, il demande au recteur de l'université d'El Azahr de proclamer la guerre sainte contre la France. Le dernier secrétaire des oulemas, Tewfik el Madani, un Tunisien naturalisé français, flirte longtemps avec le cabinet du gouverneur général : monsieur Soustelle, offre ses conseils et ses bons offices, puis un jour de 1956 disparaît pour rallier le Caire et devenir ministre du F.L.N.

هذه الفقرة نقلناها ـ مصورة ـ من كتاب : « الحرب السرية فى الجزائر » صفحة 24 المطبوع فى فرنسا سنة 1977 للكاتب الفرنسى (الجنرال هنرى جاكان) . وفيما يلى تعريب الفقرة الخاصة بتوفيق المدنى :

ـ آخر سكرتير للعلماء توفيق المدنى التونسى ، متجنس بالجنسية الفرنسية (1) ، يتغازل طويلا مع ديوان الوالى العام السيد سوستيل ، ويعرض نصائحه وخدماته الطبية ، وفى يوم من أيام 1956 اختفى ليلتحق بالقاهرة ، وأصبح وزيرا لجبهـة التحرير .

---

(1) لعله من الواجب الاكيد على الاستاذ توفيق المدنى ان يطالب ـ عدليا ـ هذا المؤلف الفرنسى ، ليثبت أو يكذب هذه التهمة ... واذا لم يفعل هذا ، فاننا نحن نطالبه أمام التاريخ وأمام جماهير القراء ـ ان يعلن ـ ـ جهرا ـ تجنيه على القيم الوطنيـة واعرافها ، وسخريته بالوطنيـين المناضلين ، حين كتب فى كتابه هذا (حياة كفاح ، ج 2) من صفحة 158 الى نهاية صفحة 167 فى موضوع (التجنيس ، والعروبة ، والوطنية ، والاسلام) .

ذلك انه تناقض مكشوف بين تجنسه بالجنسية الفرنسية ، وهجومه على التجنيس ، بدعوى العروبة والوطنية والاسلام ... وهو فى نفس الوقت ، تضليل وغش لكل الذين أحرق لهم ـ فى نادى الترقى ـ رسالتهم المكتوبة فى طلب الجنسية الفرنسية ... وهو أيضا مؤامرة محبوكة ضد الذين كانوا يرون فى التجنيس ، الوسيلة الوحيدة للعيش الهنى .

اما « الكلمة الصريحة » المنشورة فى الشهاب لصاحب الشهاب ، فاننا نجلها ونجل كاتبها الحقيقى ـ لا المزيف ـ ، من ان نضعها فى ميزان هذه المؤامرة ... والا فان الواجب يقضى ان نطالب توفيق المدنى بالاعتراف العلنى ، بانه ادعى ما ليس له ، على أنه له ، ولم يقع منه هذا الادعـاء ، الا بعد موت ابن باديس ، وبوشمال ، والميلى ، والابراهيمى ، وغيرهم من الذين يعلمون من أمر هذه « الكلمة الصريحة » كل شيء .

هذا وعندنا من الوثائق المماثلة غير ما أوردناه هنا ، سنعمل على نشرها كلما دعت الضرورة الى النشر ، وكلما ازداد توفيق المدنى اصرارا وتعنتا في التبجح والادعاء ، وادانة الابرار والاحرار من روادنا الاخيار .

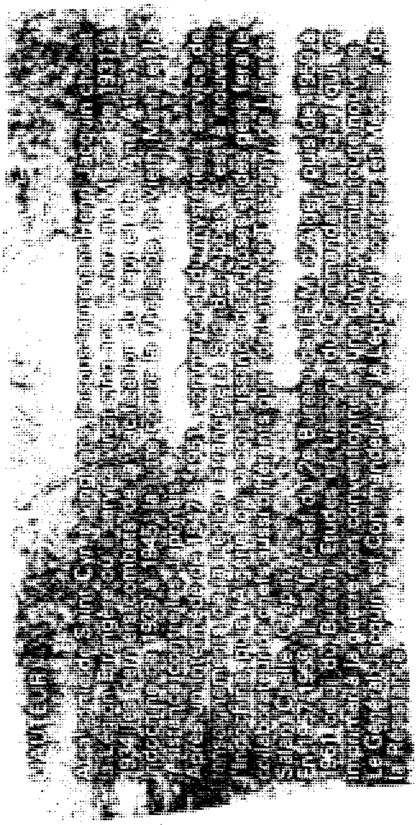
هذا عنوان الكتاب فى سفره الاول ٠

وفى الغلاف الاخير للكتاب جاء هذا التعريف بالمؤلف :



بعد تخرجه من مدرسة « سان سير » فى العشرين من عمره ، اختار الملازم « هنرى جاكان » الفرقة الاجنبية حيث عمل بها مدة 25 سنة ، ثم عاش آخر معارك اضطرابات أعالى الاطلس بالمغرب من 1931 الى 1934 ، وعاش أيضا بالهند الصينية من 1939 الى 1945 الكفاح ضد تايلاندا والفيتمين ، والمقاومة ضد اليابانيين٠

بعد فترة من 1947 الى 1951 ، عاش كقائد لمصلحة المخابرات السرية للفرقة الاجنبية بسيدى بلعباس ، ومن جديد كانت الهند الصينية ، فالجزائر ، حيث ان معرفته للاشياء والاشخاص جعلت منه مساعدا لمختلف الرؤساء امثال : دولاترد وطاسينى ، ولينا ريس ، وصالان ، وشال ، وكريبان ٠



وفى سنة 1957 ـ 1958 ، كان رئيسا للمكتب الثانى للمخابرات بالجزائر ، ثم من سنة 1959 ، الى 1961 ، كان رئيسا لمكتب الدراسات والاتصالات للقائد الرئيسى ، الذى سيطبع بطابع جديد الحرب اللاتقليدية ، وفى هذه الفترة يكون الفريق « جاكان » قائد « كومندور » للفرقة الشرفية ، وحاملا لوسام الشرف للمقاومة ٠

L'AUTEUR

A sa sortie de Saint-Cyr, à vingt ans, le sous-lieutenant Henri Jacquin choisit la Légion Etrangère où il servira vingt-cinq ans. Il vivra au Maroc de 1931 à 1934 les derniers combats de la Pacification du Haut et de l'Anti-Atlas, en Indochine de 1939 à 1945, la lutte contre la Thaïlande, le Vieth Minh, et la résistance contre les Japonais.

Après un intermède de 1947 à 1951, comme chef du mystérieux service de renseignements de la Légion Etrangère à Sidi-Bel-Abbès, c'est à nouveau l'Indochine, puis l'Algérie, où sa connaissance des choses et des gens fera le collaborateur de chefs aussi différents que : de Lattre de Tassigny, de Linarès, Salan, Challe, Crépin.

En 1957 - 1958, il est le chef du 2e Bureau de l'E.M. d'Alger, puis de 1959 à 1961, celui du Bureau Etudes et Liaisons du Commandant en chef qui va imprimer à la guerre non conventionnelle, une physionomie toute nouvelle. Le général Jacquin est Commandeur de la Légion d'Honneur, et Médaillé de la Résistance.

2 ـ الوثيقة الثانية : (أ)

(وطنية صميمة) ـ بالعربية

النقل الحرفي للوثيقة :

الحكومة المؤقتة

للجمهورية الجزائرية

وزارة الشؤون ارخارجية

بعثـــة المغـــرب

الاخ الشيخ محمد خير الدين

انك أرسلت أحمد توفيق المدنى

فى وفد جمعية العلماء للعمل بمصر ،

وعليه يجب اعلامك بما يلى :

قد ثبت عند مخابراتنا العسكرية

انه متصل رسميا بالمدير العام ميرانت

وبالمخابرات الفرنسية ، ومتصل أيضا

بالمندوب الصهيونى اليهودى المســمى

محمود نسيم ، شريك توفيق فى تجارة

الكتب .

وعليه تأمرك بالمراقبة والحذر .

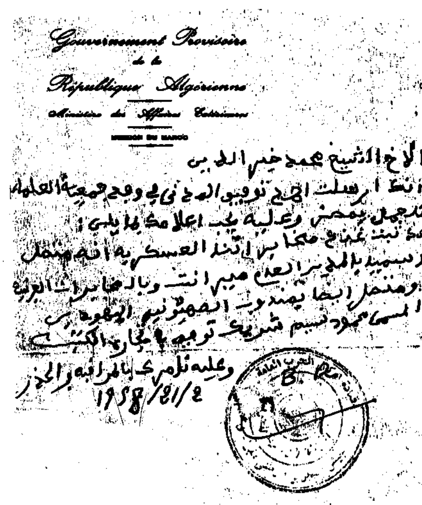
الختــم :

قيادة أركان الحرب العامة ،

اللجنة الوزارية للحرب ،

جيش التحرير الوطنى الجزائــرى

التوقيــع : ب. ر.



Gouvernement Provisoire

de la

République Algérienne

Ministère des Affaires Extérieures

الاخ الشيخ محمد خير الدين

2) الوثيقة الثانية (ب)

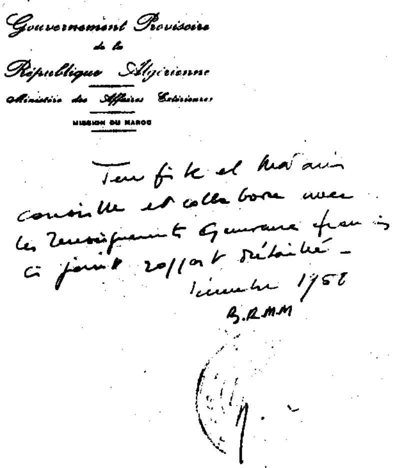
(وطنية صميمة) ـ بالفرنسية

الحكومة المؤقتة

للجمهورية الجزائرية

وزارة الشؤون الخارجية

بعثــة المغــرب


Gouvernement Provisoire
de la
République Algérienne
Ministère des Affaires Extérieures
MISSION DU MAROC

Toufik el Madani
conseiller et collabore avec
les renseignements généraux français -
ci joint rapport détaillé -
Décembre 1958
B.RMM

ترجمــة الوثيقــة :

توفيق المدني ، مشير ، متعاون مـــع الاستعلامات العامة الفرنسية ،

رفقته تقرير مفصل

ـ ديصامبر 1958 ـ

ترجمــة الحــروف :

B.R.M.M.

المكتب الجهوى لبعثة المغرب

نص الختــم :

ـ قيادة أركان الحرب العامة ،

ـ اللجنة الوزارية للحرب ،

ـ جيش التحرير الوطنى الجزائرى ·

التعليـق على الوثيقتـين :

هكذا وبكل وضوح ، يثبت تعاون السيد أحمد توفيـق المدنى مع المخابرات الفرنسية بهذه الوثيقة الوطنية الصميمة قبل وبعد أن يثبت ذلك بالوثيقة الاجنبية الآنفة الذكر .

وتبقى قضية تجنسه بالجنسيـــة الفرنسية التى تثبـت ارتداده عن الاسلام بفتوى أئمة الاسلام . ومنها فتوى الشيخ الطيب العقبى فى فتواه المنشورة بالعدد (77) من جريـدة البصائر ، بتاريخ 21 جمادى الاولى 1356 هـ ــ 30 جـوليت 1937 م ، بعنوان : كلمتى الصريحة . وهى الفتوى الوحيدة التى تحكم ــ كغيرها ــ بارتداد المتجنس عن الاسلام ، ولكنها تفتح له باب التوبة ، حتى وان بقى تحت الحكـم الاجنبى خاضعا لقوانينه رسميا ، وهى القوانين التى تخالف احكـام شريعة الاسلام .

واجتهاد الشيخ العقبى ، المخالف لاجتهادات غيره مـــن علماء الاسلام فى الجزائر ــ لها وجهها الشرعى ، اما تجنس السيد أحمد توفيق المدنى بالجنسية الفرنسية (سرا) ــ كما تفيد الوثيقة ــ وتعاونه مع المخابرات الفرنسية ، وغيرها ، ثم ادعاؤه أو تبجحه بالوطنية والملية والقومية (الجزائرية ، والاسلامية ، والعربية) ، فهو ما لا نجد له أي وجه من شريعة أو قانون ... الا اذا أعلن اليوم توبته (النصوح) وأدان نفسه كما أدان غيره ، وأعلن ــ جهرا ــ ندمه على ما فرط منه ، وعزمه على اصلاح كل ما اثبته فى كتبه من الاوهام والتزّهات ، واصلاح نفسه وسلوكه فيما تبقى من أيام حياته. وهذا لا يصدر الا من مؤمن قوي الايمان، يخشى الله ولايخشى سواه ، ويرجو ثواب الله أكثر مما يرجو ثناء الناس عليه

بحق وبباطل . وعسى توفيق المدنى يحس فى نفسه « لمسة الهداية » فيختم حياته ختم الصديقين التوابين المتطهرين . وهو المصير الذى نرجوه له ولنا ولكل عباد الله أجمعين .

فأقدم ـ على التوبة ـ يا توفيق ولا تتردد ، فالساعـــــة لا تأتى الا بغتة ، ويومئذ يفرح المؤمنون بثواب الله . ! !

اعتماد الثورة للشيخ خير الدين :

فمن هو الشيخ محمد خير الدين ، الذى تطلب منه هذه الوثيقة ان يلتزم المراقبة والحذر فى أمر توفيق المدنى ، وهو الذى بعثه فى وفد جمعية العلماء للعمل فى مصر ؟

ولكى يعرفه القراء بتعريف الثورة التحريرية له ـ نثبت هنا أيضا وثيقة مصورة لاعتماده من جبهة التحرير الوطنى بالقاهرة ، وبها نؤكد كيف التحق توفيق المدنى بصفوف الثورة فى كلمتنا التالية لكل هذه الوثائق :

وفد

جبهة التحرير الوطنية الجزائرية

مكتب القاهرة

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - ت : ٤٥٨٩٤

مصلحة الشؤون الخارجية

بسم الله الرحمن الرحيم

(اعتمـــاد)

بهـذه الوثيقـة تعتمد جبهـة التحرير الوطنى الجزائريــة الاخ الشـيخ محمد خير الدين لتمثيلها والقيام بكل عمل ومسعى لتنفيذ اوامرها ومقرراتها وذلك لدى بلاط صاحب الجلالة محمد الخامس ملك المغرب وحكومته ومختلف الادارات لـــدى المملكة المغربيـــة .

وجبهة التحرير الوطنى الجزائرية ترجو البلاط السامى ورجال الحكومة المغربية ومختلف اداراتها اعتماد الشيخ محمد خير الدين ممثلا للجبهة وعاملا باسمها .

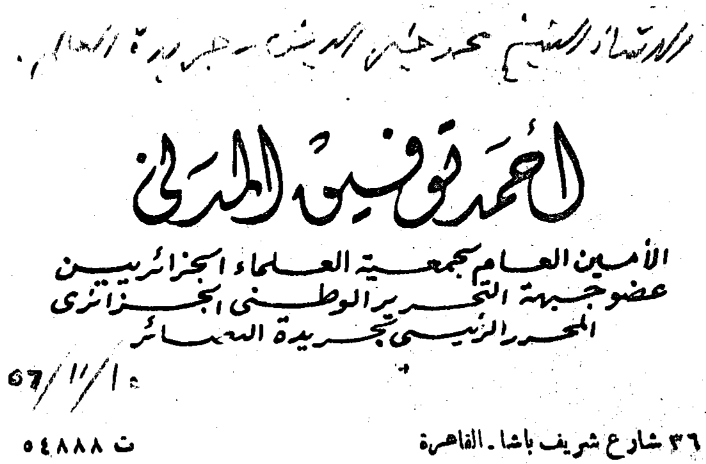
وفـق اللـــه الجميع لما يحبه ويرضاه . والســلام .

القاهرة { ١٥ المحرم ١٣٧٨
{ ١ أغسطس ١٩٥٨

عضو لجنة التنسيق والتنفيذ لجبهة التحرير الوطنى الجزائرية
رئيس مصلحة الشؤون الخارجية
الدكتور محمد أمين الدباغين

ـ الوثيقة الثالثة (تحريفات توفيَق المدنى) :

هذه الوثيقة تحمل اسم وعنوان الاستاذ توفيق المدنى ، كما اثبته هو فى ورقة الزيارة التى طبعها فى مختلف الاحجام وعليهما معا كتابة بخطه وقلمه ، موجه الى الشيخ محمد خير الدين ، فلنترك لهما هذا الحيز من هذه الصفحة ، على ان نعود لتحليلهما في الصفحة الموالية :


الاستاذ الشيخ محمد خير الدين

أحمد توفيق المدني

الأمين العام لجمعية العلماء الجزائريين
عضو جبهة التحرير الوطني الجزائري
المحرر الرئيسي لجريدة البصائر

67/11/10

٣٦ شارع شريف باشا ـ القاهرة — ت ٥٤٨٨٨

وفى ظهر هذه البطاقة كتب بخطه ما يلى :

الحمد لله وحده ، صديقى المحبوب الكريم سيدى الاستاذ محمد خير الدين حفظه الله وابقاه ـ بعد السلام والتحية ، اظنك اتصلت منى بعدة بطاقات كهذه ، اما انا فلم أتصل بأى رد ... فما هذا التجنى ؟ نحن على ما يرضيك والحمد لله صحة وعملا ونشاطا ، وقد اقتربت ساعة النصر بحول الله ، أرجو ان يجد لديك الاخ حامل هذه البطاقة كل الاعانة التى

يرجوها الاخ من أخيه وخاصة لايجاد سكنى لائقة به ، فهو نعم الصديق ونعم الاخ المعين ، وننتظر منه كل خير ، سلامى لكل الاخوان ، بارك الله فيك وأبقاك ، أخوك ، أحمد .

احمد توفيق المدني

الامين العام لجمعية العلماء الجزائريين
عضو جبهة التحرير الوطني الجزائري
المحرر الرئيسي لجريدة البصائر

٣٦ شارع شريف باشا ـ القاهرة ت ٥٤٨٨٨

وفى ظهر هذه البطاقة ، كتب صاحبها كلاما آخر ، مثل ما كتب على الاولى ، وهو دائما يشكو عـــدم الاجابة عـلى مراسلاته

جمعيـــة العلمـــاء وجـــريدة البصائـــر

وتـــوفيق المـــدني

لقد قلت آنفا ، ان توفيق المدني ، عندما استعمل كلمـــة « التحرير » في الشهاب بدل كلمة « الكتابة » انما يعني ان التحرير عنده ليس معناه الكتابة فقط ، كما ان كلمة « أمين عام » جمعية العلماء لا تعني كلمة « كاتب عام » في الاصطلاح العصـــري .

وفي الورقتين المصورتين ، بيان مؤكد لما ذهبنا اليه ، فقد أضاف هذه المرة الى كلمـــة التحرير كلمة « الرئيسي » فقال « المحرر الرئيسي » لجريدة البصائر ، مـــع ان الذي يعلمـــه الناس جميعا ان رئيس تحرير جريدة البصائر هـــو رئيس الجمعية الشيخ الابراهيمي ، وعندما ارتحـــل الى الشرق في سنة 1952 كان الاستاذ تـــوفيق « عضوا » اداريا في جمعيـــة العلماء ، ككاتب عام ، لا كأمين عام ، ويرأسها بالنيابة الشيخ العربي التبسي رحمه الله في الشهداء الابرار .

فما معنى اذن كلمـــة : « المحـــرر الرئيسى » فى بطاقـــة الزيارة التى أثبتها الاستاذ توفيق لنفسه ؟ (1) .

---

(1) بدءا من العدد (338) من جريدة البصائر ، بتاريخ 5 ربيع الاول سنة 1375 هـ ــ 21 أكتوبر 1955 م ، عينت ادارة جمعية العلماء ، الاستاذ توفيق المدنى معتمدا لقلم التحرير بهذه الصيغة :

« كل ما يتعلق بالتحرير يرسل باسم معتمد قلم التحرير : أحمـــد توفيق المدنى » ثم اضافت فى نفس المكان تعيينا نظاميا آخر لقسم المالية بهذه الصيغة :

« كل ما يتعلق بالمالية والاشتراكات يرسل باسم : طالـــب بشـــير السعدى » أما الادارة والامتياز ، فبقيا لرئيس الجمعية : محمد البشـــير الابراهيمى ،،، والتحليل المنطقى والقانونى لهذا الاعلان التنظيمى هو ان توفيق المدنى ، وطالب بشير السعدى ، كلاهما مكلف بتلقى البريد ثم ترتيبه وتبويبه ... ولو كان للاستاذ توفيق ان ينتحل لنفسه اســـم : « المحرر الرئيسى » لجريدة البصائر ، لكان للسيد طالب بشير السعدى ان يضع لنفسه اسم : « الامين الرئيسى » لمالية البصائر .

ثم ان هذا وقع فى شهر ربيع الاول وانتهى فى شهر شعبان من نفس السنة 1375 هـ ، فكيف أمكن للاستاذ توفيق ان يقفز فى ظرف ستة أشهر من المحرر ، الى رئيس التحرير ، من مجرد هذا الاعلان التنظيمى البسيط الذى يحدد بصيغته البسيطة مهامه الجديدة ؟

الامر فى نظرنا بسيط أيضا ، وهو ان الاستاذ توفيق أراد اليوم ان يضع نفسه حيث كان يريد أن يكون فى ذلك اليوم فلم يجد سبيلا اليه ، فلما مات رجال الجمعيه وروادها ، وتوهم ان الباقى منهم فى حكم الموتى ... راح يصفى حساباته مع ذلك العهد وأهله ، وهو نفس ما وقع فى كل احكامه الاعتباطية والعدوانية على احرار الامة وعلمائها ، مـــرّددا بلسان حاله قول القائل :

خلا لك الجو فبيضي واُصفرى ... ثم أنساه الزهو بنفسه فلم يذكر المثل السائر : ان بنى عمك فيهم رماح ... وأى رماح ؟ يا استـــاذ توفيق ؟ ؟ ولو أنك التزمت اليوم سياستك فى الحذر والاحتياط ، وكنت كما عهدناك لبقا أنيقا تتحاشى مواطن الصدام فى فنون الكلام ــ لما الجأتنا الى مجابهتك بما تكره ، ولما وضعتنا ووضعت نفسك فى هذا المازق الحرج من الخصومة المحتدة التى سوف تتناقلها الاجيال عنا حتما ، ثم تكـــون أنت فيها ، حيث ــ كما ــ لا نريد ان تكون .

ان معناها الاول والوحيد ، هــو « البذخ » فى الشمالى ، والمريض به منكوب بنصوص القرآن والسنة ، ومحكوم عليه حكما مبرما ، ان لم يعلن توبته ويطاطىء لله هامته ، ويتواضع لخلق الله تواضعا صادقا فى أقواله وأفعاله . وأنى لتوفيق المدنى بهذه التوبة بعد اعلان اصراره فى ادانة رواد النهضة الوطنية ورميه اياهم باشنغ التهم ؟!

التعليــق على البطاقتــين :

فى البطاقتين السالفتين ، وفى غيرهما ـ يــؤكد الاستاذ توفيق على الشيخ محمد خــير الدين ان يجيبه عــلى رسائله وكتاباته ، ويعتب عليه التجنى فى عدم أجابته على كل رسائله وسألت الشيخ خــير الدين عن الاسباب التى دعته الى عــدم الاجابة على مراسلات توفيق فقال بالحرف :

الاحتياط والحذر ، فرضا علي عدم الاجابة ، لا سيما وقد بلغتنى تحذيرات عدة وعتاب كثير على ارساله فى وفد جمعية العلماء للعمل فى صفوف جبهة التحرير فى خارج الوطن .

فقلت للشيخ محمد خير الدين :

ان ما قرأناه فى كتابه (حياة كفاح) الجزء الثانى ص 411 مخالف تماما لما تقول ، فهو يقول بالحرف :

جمعيــة العلمــاء والثــورة :

ـ علمت بعد ايام من احد موقدى نار الثورة ، انها ستقع يوم غــرة نوفمبر ، وأقسمت له يمينا صادقا اننى لا أبــوح باسمه لأحد ، ولا أتكلم عن ذلك الموعد لأحد ، الا اننى أردت

ان تكـون جمعية العلماء مستعدة لتكون أول مـن يستجيب لذلك النـداء ، وأول من يـدفع رجالـه وشبابه في ميدان التضحية والاستشهاد ... ثم يقول :

فدعوت رجال الجمعية لعقـد الاجتماع الادارى بمـدينة قسنطينة يوم غرة نوفمبر من سنة 1954 فاصبحنا بها ونحن نقرأ أنباء حوادث الانتفاض الاولى ، وقررنا باجماع : انـنا مع الثورة ، وبعثنا لكل رجالنا وشبابنا قرارنا هذا ...

جواب الشيخ خير الدين :

فقال الشيخ محمد خير الدين :

كل هذا لا أساس له من الصحة ، فما كان احد من أعضاء جمعية العلماء يعـلم من أمر الثورة شيئا قبـل اندلاعها ، لا توفيق ولا غيره يعلم .. كما ان توفيق لم يكن هو الداعي الى اجتماع المجلس الادارى لجمعيـة العلماء ، وانما المجلس الدائم هو الذى دعا الى الاجتماع بقسنطينة . وجمعية العلماء في هذه الفترة كان يرأسها ـ بالنيابة ـ الشيخ العربى التبسى وأنا بالنيابة أيضا .. وما توفيق المدنى الا كاتب عام يكتب الاستدعاءات ويوجهها الى أصحابها كما هـى العادة في كـل اجتمـاع .

وهذا الاجتماع الذى تم بقسنطينة ، كغيره من الاجتماعات انعقد في دورة عادية ، وليس له اية صلة بالثورة التى بدأت في نفس اليوم ، وفي أثناء هذا الاجتماع الذى انعقد فـي صباح يوم فاتح نوفمبر بدار الطلبة بقسنطينة ـ دخل الينا موظف مـن موظفي الـدار ، وبيـده جريـدة « لاديبيش »

القسنطينية ، ومنها علمنا أول اخبار الثـورة المتفجرة في منتصف ليلة ذلك اليوم .

وبعد رفع جلسة هذا الاجتماع الادارى العادى ، دعوت الى ادارة المعهد (معهد عبد الحميد بن باديس) كلا مـن الشيخ العباس بن الشيخ حسـين ، والاستاذ ابراهيم مزهـودى ، وتحدثنا ثلاثتنا عن الاخبار التى قرأناها من الجريدة ، وأكدت لهما ان الاخبار لـم تكـن كما تصفها الجريدة الاستعمارية وتعللها ، وانما هى أخبار ثورة بدأت ، ولابد من ان نكون متجاوبين معها تجاوبا كليا ، على ان نستعد منذ الآن للمساهمة فيها بكل ما تتطلبه منا ، وقلت لهما : اعتبرا نفسيكما منـذ الآن وأنا معكما ـ جنودا لهـذه الثورة فى كـل ميادينها .. واتفقنا ثلاثتنا على البدء فى العمل للثورة منـذ ذلك الحين مجندين فيها باسم جمعية العلماء .

وبالاتصالات التى تمت بينى وبـين السيدين « عبـان رمضان» و «بن يوسف بن خدة» اللذين كانا متخفيين فى مكان ما بالجزائر ـ عـن طريق السيد « سعـد دحلب » الذى كان يعمل فى غير خفاء أو اختفاء .. عن طريق هذه الاتصالات تـم تعيين الشيخين : العباس ، ومزهودى للتجول بكل انحاء الوطن للمساهمة فى تجنيد الشعب عن طريق « شعب » جمعية العلماء والمؤسسات والمدارس التابعة لها .

فكان الشيخ العباس مكلفا من الجميع ، بالتجول فى مختلف المدن والقرى ، يهيء المناخ اللائق للثورة التى يجب ان تكون شعبيـة عامـة

وكان الشيخ ابراهيم مزهودى ، المفتش العام لمدارس جمعية العلماء مكلفا بالاتصال بمواقع الثورة فى الاوراس وفى الولاية الثانية ، مع قادة الجيش (جيش التحرير الوطنى) ينقل اليهم ما يحتاجون اليه وما يطلبونه من المعلومات والاخبار ـ كتابة وشفاهيا ـ وينقل منهم الينا تعليماتهم وتوجيهاتهم .

وفى أواخر سنة 1955 ـ كلفت أنا شخصيا من طرف السيدين «عبان رمضان» و «بن خدة» بتعيين ثلاثة من أعضاء جمعية العلماء لايفادهم الى الخارج لينضموا هناك الى اخوانهم فى جبهة التحرير الوطنى ، كما كلفت من طرفهما بالاتصال بالسيد « عباس فرحات » ليوفد هو الآخر ثلاثة من أعضاء حزب البيان .. ليذهب الجميع الى القاهرة .

وعن جمعية العلماء ، عينت : الشيخ العباس بن الشيخ الحسين ، والشيخ توفيق المدنى ، على ان يلتحقا بالشيخ الابراهيمى ليكون ثالثهم مع اخوانهم فى العمل فى صفوف جبهة التحرير .

وكذلك فعل السيد عباس فرحات ، فعين معه السيدين « أحمد فرانسيس » و « أحمد بومنجل » والتحق الكل بالقاهرة ..

هؤلاء هم الذين عينوا ـ بواسطتي ـ للعمل فى صفوف جبهة التحرير الوطني منذ السنة الاولى للثورة .

اما الاستاذ ابراهيم مزهودى ، فقد بقى فى مهامه داخل الوطن حتى القى القبض على الذين كان يتصل بهم من رجال جيش التحرير وهناك التحق هو بالجيش مجندا فيه حتى لا يقع هو الآخر فى يد العدو ، وهناك مع الجيش رقي الى ضابط

بدرجة « رائد » وشارك بنفسه مع اخوانه ضباط الجيش فى مؤتمر الصومام .

وهنا قلت للشيخ محمد خير الدين : والى هنا من كلامك هذا يبقى نوع من الصدق فى قول الاستاذ توفيق بانه كان يعلم أمر الثورة قبل اندلاعها .

فكيف التحق توفيق المدنى بالثورة ؟

فقال الشيخ محمد خير الدين :

لقد ذهبت الى « توفيق » فى مكتبه بشارع لالير واعلمته بأمر قادة الثورة بالالتحاق بصفوف الجبهة فى القاهرة ، للمساهمة فى أعمالها خارج الوطن ، وأمرته بالاستعداد للسفر فورا . فتلكأ كثيرا ، واعتذر عن السفر ، بارتباطاته العائلية والشخصية ، فقلت له فكر فى الامر جيدا ، لان الامر جد ، وهو أمر صادر اليك من قادة الثورة ورؤسائها ، وسأعود اليك فى الغد ، لاسمع منك القرار الاخير .

وفى اليوم الموالى ، عدت اليه فى بيته بسانت أوجين ، فأعاد علي نفس الاعتذار ، مؤكدا ذلك بتغيب زوجته ، فحذرته من مغبة التلكؤ فى تلبية نداء الثورة ، وقلت له :

اما أعمالك وارتباطاتك ومشاريعك الشخصية فليست شيئا بالنسبة لواجب الثورة ، واما زوجتك وأسرتك ، فأنا أضمن التكفل بالانفاق عليها حتى تتهيأ الاسباب للالتحاق بك !..

وهكذا تم التحاقه بالثورة وبجبهة التحرير ، وكان رفيقه اليها هو الشيخ العباس بن الشيخ الحسين ، وهما معا غادرا الجزائر الى فرنسا ، ومنها الى القاهرة ، حيث التحقا فيها برئيس الجمعية الشيخ البشير الابراهيمي رحمه الله .

وكلمتنا مهموسة فى أذن الاستاذ توفيق ؟!

نحن ، ـ ونحن هنا لا للمعظم نفسه ـ جميعا ، نأسف كل الاسف لما جرتك اليه أحلامك ومطامحك وأوهامك ، فسجلت على نفسك التطاول على الاموات ، والتجاهل للاحياء ، ووضعت بذلك قفصا للاتهام ، سجنت فيه كل المبادرات والاحتمالات التى من الممكن ان تجد معها مبررا لمحاولة الابتلاع والاحتواء لكل من كانوا يحمونك ويدرأون عنك السوء ... فنحن لهذا لا نستطيع ان نجاملك بعد اليوم ، لا سيما وأنت تصر ـ حتى اليوم ـ على ما كتبته بالامس .

فلم يبق لك اذن ـ الا ان ترد على هذه الحقائق بمثلها والا ، فان الحكم قاس هذه المرة ، لانه حكم الشعب وحكم التاريخ الذى سيدون بأمانة صفحات المجد من ثورة هذا الشعب .

فاسمع منى هذه المرة نصيحة خالصة ، وهى انك تعلن على الملإ اسماء شهودك من الاحياء ، لا من الاموات كما فى كتابك منذ أول صفحة الى آخر ورقة منه .

فان أنت أشرت الى هؤلاء الشهود بسبابتك ، واستنطقتهم فى اثبات دعواك ، كما فعلنا ـ نحن هنا فى تفنيدها ، فانك ستجد بقية من ماء المحيا ، تستقبل بها هدير الجماهير التى ستقرأ معك هذه الصفحات من هذا الكتاب ، عندما تقف تجاهها معتذرا نادما على انجرافك وراء الطموحات التى لا تبرر مواقف الشباب فى مثلها ، فضلا عن الذى يعد « سن » الشباب أكثر من أربع مرات .

فاذكر لنا اذن ، اسم هذا « الموقد » الذى كان احد موقدى الثورة ، من الاحياء ، أو اذكر لنا من يعرف عنه قوله قبل أو

بعد ان قاله لك ، واقسمت له بعدم البوح باسمه وبسره ... فلقد مضى الوقت الذى استحلفك فيه وحل لك « الحنث » فى يمينك دون ان تترتب عليك «كفارة» بصيام أو بعتق رقبة !.

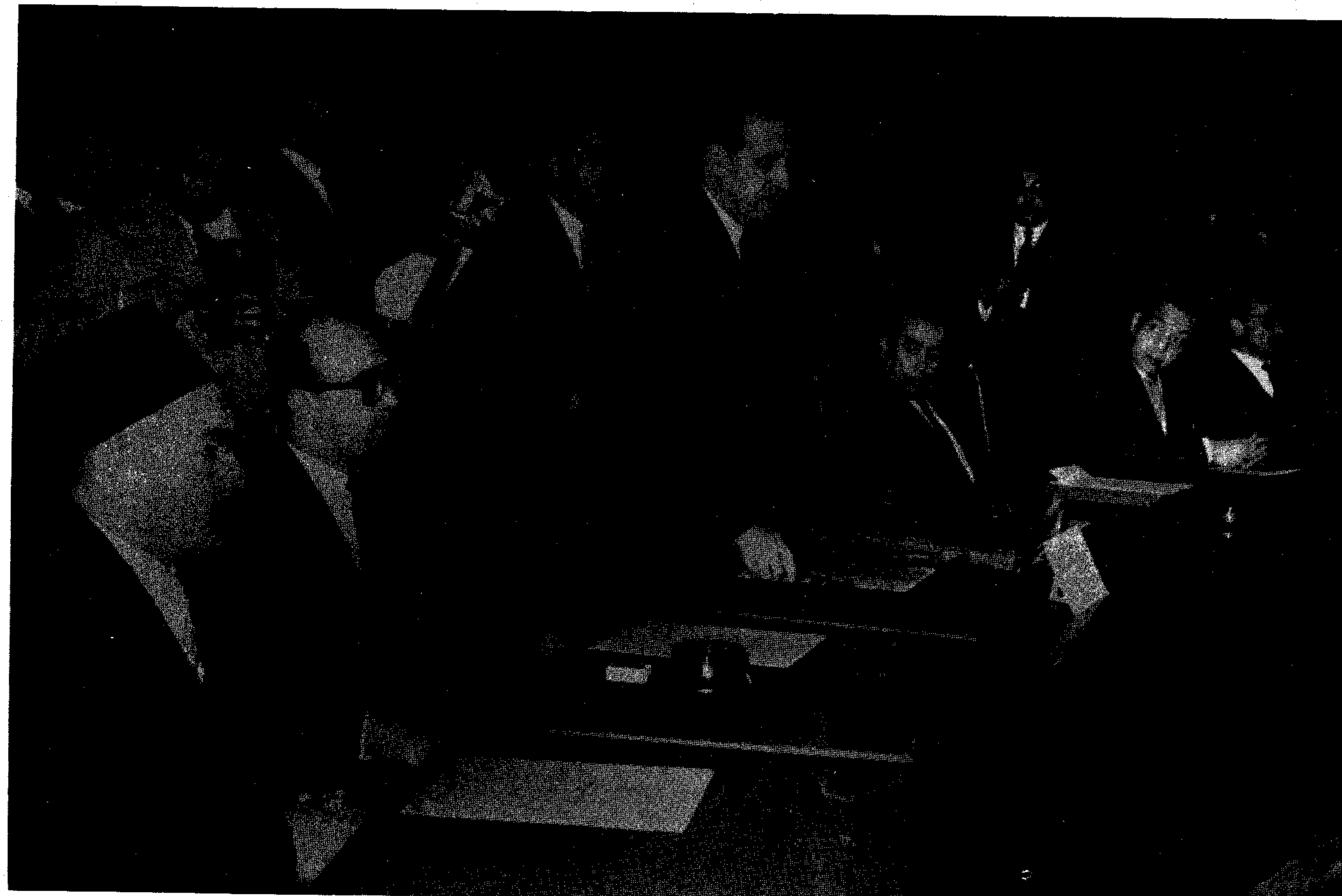
ثم اذكر لنا مع هذا ، ذلك السر الذى اقسمت على عدم البوح به لاحد ، فى أمر جمعية العلماء فى نشأتها الاولى ، مما يربك القارىء البسيط ، ويضلل القارىء الشاب ، ويشعرهما معا ان فى الامر سرا عجيبا لا يعلمه أحد من الناس الا توفيق المدنى ، باعتباره الجامع المانع ، والخافض الرافع ، والزعيم العظيم ، والقمر اللامع ، والمشير المنير .. فى قضية تكوين « جمعية العلماء » !؟

وان ابيت الا اللجوء لاسلوب التغليط كما فعلت فى اجاباتك المائعة ، فاننا نشهد الله وعباد الله ، على اننا سعينا فى غير ما مرة — الى تجنيبك مزالق التردى فى مهاوى أسوإ الخواتم .. فابيت انت الا ان تكون حيث وضعت نفسك فى مواطن الزلل والوحل ، حين استهنت بالاموات فغمست قلمك فى ذممهم واعراضهم ، وسخرت من الاحياء ، فابحت لنفسك احتقارهم شماتة بهم ، وانت تعلم انهم اباة ضيم ، يطلبون المنية ، ولا يرضون الدنية ، شانهم فى ذلك شان اسلافهم الذين زرعوا فى قلوبهم ودروبهم هذه الخلال الزكية ، فعاشوا ما عاشوا ولسان خالهم ومقالهم قول القائل :

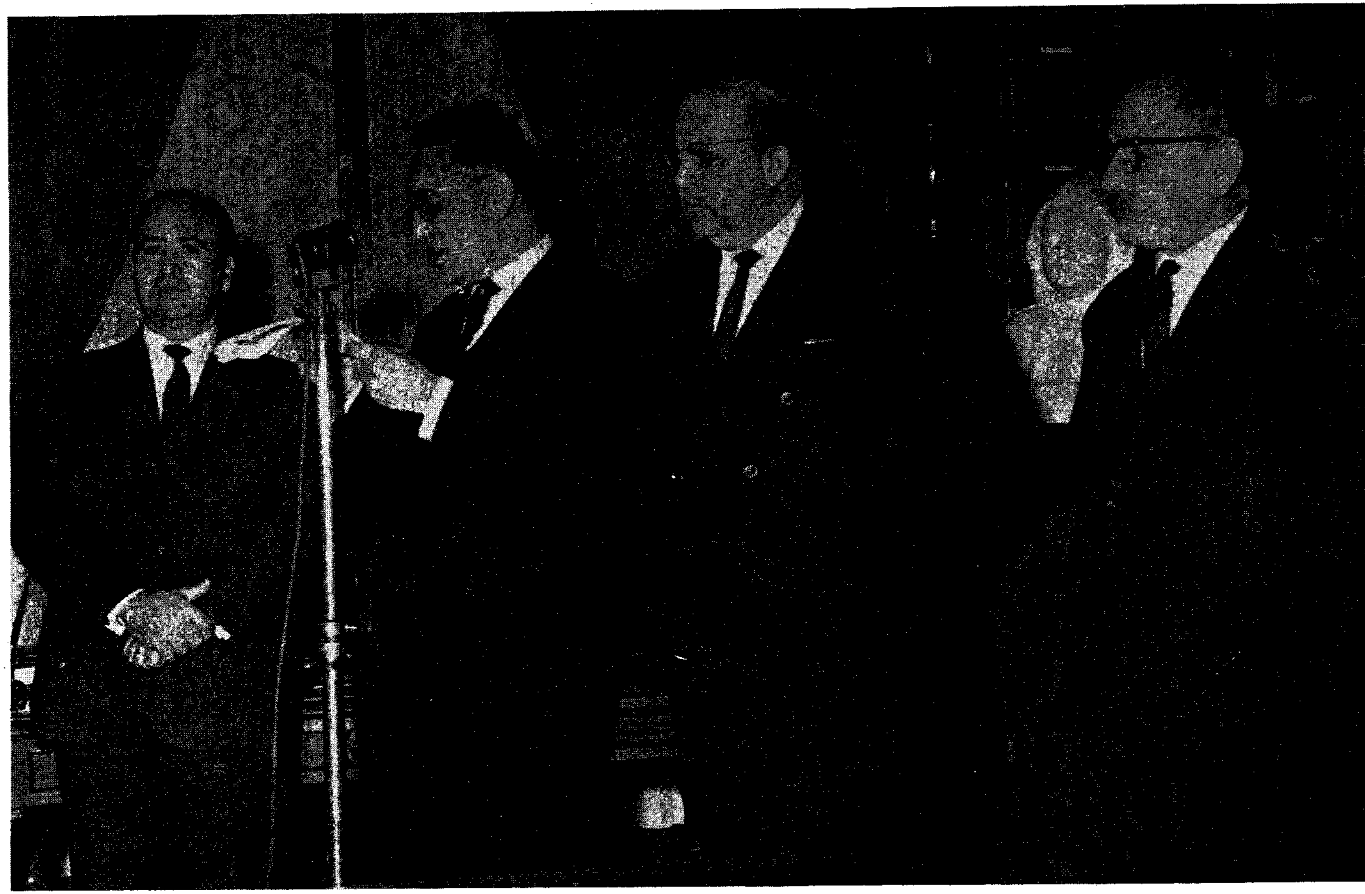
فلسنا على الاعقاب تدمى كلومنا
ولكن على اقدامنا تقطر الدما

فطوبى لمن عرف الحق وذب عنه ، والويل كل الويل لمن يستهين بالاحرار ، ويتخذ الاهه هواه ! !

☆ ☆



وأين (توفيق المدنى) من مؤتمر طنجة لاحرار المغرب العربى الجالسين فى هذه الصورة ، فى الاستماع الى رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، السيد فرحات عباس ؟



رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية السيد بن يوسف بن خدة ، وهو يعلن للشعب الجزائرى وللاحرار في العالم باقة التهانى بالاستقلال التام بعد نجاح مفاوضات (افيـان) وذلك فى قصر الملك محمد الخامس بالرباط . فأين هو (توفيق المدنى) الثائر ؟ الذى يكون حيث تكون الثورة ، وتكون الثورة حيث يكون (هو) ؟ ؟



ثم أين هو (توفيق المدنى) فى الشباب الجزائرى المجند للثورة ، وهو يتدرب على وسائل الجهاد ؟

مالــك بــن نبــى يفنــد مــزاعم أحمــد تــوفيق المــدنى

منذ الصفحة الاولى فى كتاب الاستاذ توفيق المدنى (حياة كفاح ، جزء 2) يبدأ «التزييف» لواقع الاحداث التى ساقها سوق القطيع التائه فى بيداء مقفرة لا ماء فيها ولا شجــر ، فبمجرد نزوله فى مدينة قسنطينة ونزوله فى نزل « فرنسا » وهو نزل من الدرجة الاولى فى ذلك الوقت لا ينزل فيه الا المحظوظون الذين تسندهم ارصدتهم المصرفية ، ومثل هــذا النزل لا يغشاه من الناس الا بعض أساتذة وطلبة (المدرسة الرسمية) من أبناء الذوات ، من الاغاوات والباشاغوات ، أو أولائك المعمرون وذووهم من الذين كانوا يشربون مــن دم الفلاحين والعمال الاهالى .. اما بقية الشعب ، وحتى مــن أبناء الطبقة المتوسطة فوجهتهم حين ينزلون قسنطينة غير هذا النزل طبعا .. واما الشخصيات الدينية والعلمية والوطنية الملية ، فلا يقربون هذا المكان ولا يدنون منه حين مرورهم بالشارع الذى تقوم بنايته فيه ، لانه وكر من أوكار الشيطان والبهتان والطغيان لا سيما اذا كان هؤلاء من نوع عبد الحميد ابن باديس ومبارك الميلى .

ولو ان الاستاذ توفيق احتفظ ببعض ذكائه أو احتياطه المعهود فيه ، وذكر أنه التقى بهما فى « الجامع الاخضر » مثلا، حيث كان الشيخ بن باديس يلازمه مدرسا ، أو فى مدرسة « المكتتب العربى » حيث كان الشيخ مبارك الميلى معلما مرشدا ــ لهان الامــر عليــه وعلينا ، وقلنــا : ان تلميذ الزيتونة « الغير الموفق » قد حملته الذكرى الى زيارة تلاميذ الزيتونة « الموفقين » الناجحين الذيــن تفقهوا فى الــدين وعادوا الى وطنهم مبشرين ومنذرين .. وكفى الله شر المزالق .

ولكن الاستاذ توفيق اعطى لقامته من الطول ما لا تتحمل ومن القوة ما لم يصل اليه مقامه .. فادعى ان مجلسه فى نزل فرنسا كان يغشاه هذان العالمان العاملان المجاهدان ، مع ثلة من الطلبة فى صفوفهم المتواضعة بالمدرسة الرسمية التى أسست لتكوين المترجمين فى المجالس العدلية وفى محاكم الاحوال الشخصية .

وهذا وحده كاف لتفنيد ما زعم ، ولابطال ما ادعى ، لانه خال من المنطق السليم فضلا عن العقل السليم .

ان عبد الحميد بن باديس ، ومعه تلميذه واخوه مبارك الميلى المقيمان فى مدينة قسنطينة سنة 1925 ، كانا يعدان العدة لفتح أبواب النهضة على مصاريعها ، ولم يكن لهم من الوقت ولا من السعة لكى يجلسوا فيه الى السمر مع شباب المدرسة الرسمية ، ليس لهم من التجارب غير الطموح والتطلع الى وظائف تدر عليهم من الاموال ما يعيشون به مرفهين منعمين .. وليس لهم من المسؤولية والوعى ما يدركون به مراقبة الحكم الاستعمارى لتحركات ابن باديس والميلى وغيرهما من الرواد المفكرين .

فالمسامرات والمحاورات التى خلقها الاستاذ توفيق لايام اقامته بقسنطينة فى نزل فرنسا ، ما هى الا أوهام من أحلامه ، ليس لها ادنى مقام فى خيالات كاتب القصة ، فضلا عن حقائق التاريخ ووقائعه واحداثه .

والشخصيات التى ساقها الاستاذ توفيق لمجالس سمره هى شخصيات خيالية ، كان القصد منها ما اسلفناه من طموحاته وتطلعاته الى المقامات الرفيعة التى تقصر عنها قامته ، وتعجز عنها طبيعته ، فيستعير لقصوره وعجزه كمالات

الاكملين ومقامات الخيرين ، ورحم اللـه شاعر العرب الحكيم حين قال فى مثل هذا الموطن من حياة العاجزين :

جـوعان يأكـل مـن زادى ويمسكـنى
لكـى يقال عظيـم القـدر مقصـود !!

ثم ان هـذه الشخصيات الخيالية بالنسبة لاسمار الاستاذ توفيق المدنى فى نزل فرنسا بمدينة قسنطينة . لم يذكرها قط فى كل ما كتبه فى الجزائر فى أكثر من خمسين عاما ـ الا فى هذه المذكرات المذهلات (الآثمات) التى جمع فيها كل ما لم يصل اليه منذ خمسين عاما من الزمن ، الا حين مات جميع من ذكره فى هذه المذكرات وحاول بذكره ان يبنى ما فقده من المجد والسؤدد والسمو فى ميادين العلم والدين والوطنية على احداث هؤلاء الاموات ، ثم لم يتورع ، وهو يبنى هذا المجد ـ عن النيل مـن هؤلاء وأولائك ، واستنقاص هذا وذاك ، والتقليل مـن شـأنهم والاستهانـة بمكاناتهم ومقاماتهـم ، واتهامهم بما كان غارقا فيه من العجز والقصور ، حتى يصل فى النهاية الى التفرد بما يسمى « المجد » .

ولكن طاش سهمه هذه المرة ، وكبا به جواده، وكانت هذه المرحلة الحاسمة من حياته المهزوزة ـ خاتمة بئيسة تتطلب العطف والشفقة ، لو انـه لم يسجل على نفسه العدوان على الاخيار من عباد الله ، ولم يكشف عن سخائم النفس الامارة بالسوء بهذه السلسلة الجارحة مـن الادانات لرواد نهضتنا ، ودعائم ثورتنا ورمز وفخر امجادنا .

وقد نص بعض الفقهاء من أئمة الاسلام ، ان الذى يطلق لسانه فى ذمم العلماء ، ويغمس قلمه فى النيل من اعراضهم بقصد الاساءة اليهم : يموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله ،

وهو ما لا نريده يعلم اللــه ـ لهذا الرجل الذى عاش بيننا محبوبا محترما ، بالرغم مما يشاع عنــه همسا ، وما يتردد عنــه مــن الاقوال التى كان الاخيار مــن روادنا يشجبونها ويصرفون عنها الناس تحرجا وتورعا ورغبة فى اشاعة الخير والفضل بين الناس عملا يقوله تعالى :

« وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْــلَ بَيْنَكُمْ » (237 ـ البقرة) .

ـ اللهم انك تعلم اننا كنا مع هذا الرجل كما ينبغى ان يكون المسلم مع أخيه ، وتعلم اننا اعتبرناه منذ عرفناه من جملة الافاضل الاكارم وعاملناه معاملة التلاميذ المستفيدين مع أساتذتهم المرشدين ، ولكنه ـ فى هذه المرة ولا ككل مرة ـ ابى ان يحافظ على مكانته فينا ، حين جرفته تيارات «التعاظم» فراح يكتال من العدوان ، ليضع منه ركاما فوق ركام ، على اجداث أولائك الابرار الذين آثروا الموت والحرمان على الحياة الرغدة فى متاع الدنيا ، ولم يعد فى طوقنا ان نسكت عــلى الباطل ، انتظارا لعدلك المطلق ، فاللهم لا تؤاخذنا فى فتح هذا الملف الكاشف ، فما أردنا بــه الا احقاق الحــق وازهاق الباطل ، وأنت الحق القائل :

« لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْــرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُــلِمَ » (148 ـ النساء) .

☆ ☆

واقرأ معنا أيها القارىء العزيز ، هذه الكلمات من كتاب الاستاذ أحمد توفيق المدنى (حياة كفاح ، جزء 2 ، ص 12) مــا نصــه :

كــلام تــوفيق :

ــ ثم عدنا الى حديثنا وهو يسمع ، وشارك فى الحديث ، مبارك الميلى ــ معلم أحمد ــ خبشاش ــ دويدة ــ الشاب مالك ابن النبى ــ وشابان يبــدو أنهما مــن الحــزب الشيوعى ــ وجماعة من الحاضرين لا أذكر اسماءهم ، ثم الشيخ عبد الحميد ابن باديس .

ثم لا تنس أيها القارىء العزيز ، ان هؤلاء جميعهم ماتوا (رحمهم الله) ، وهذا معناه فى العرف والمنطق ــ ان الاستاذ توفيق صادق فيما يرويه عن هؤلاء جميعا ، من انهم كانوا فى مجلسهم وفى حديثهم حلقة مــن التلاميذ والاتباع يأخذون العلم والحكمة على هذا الرجل الذى هو « النعمة المهداة » من تونس الى الجزائر ، ومن الحزب الحــر الدستورى الى الشعب الجزائرى « الموءودة » وليس لهم الا ان يتحلوا بأدب التلقى عنه فى ثقة عمياء .. وهو ما يشعرنا به حوارهم الذى دام أكثر من ساعتين ، شارك فيه كل الجماعة ومنهم : الشاب مالك ابن النبى وعبد الحميد بن باديس ، وكان هذا فى شهر جوان سنــة 1925 ؟!

وكــلام بــن نبــى ؟

ثم اقرأ معنا أيها القارىء العزيز ، ما كتبه الاستاذ مالك ابن نبى فى كتابه : « مذكرات شاهد القرن » ترجمة مردان القنواتى ، طبع دار الفكر سنة 1969 ــ فى صفحة 329 ــ حيث قال ما نصه منذ أول الصفحة :

ربما كنا فى شهر آذار (مارس) من عام 1928 .

حططت بقسنطينة قبل ركوب حافلة تبسة ، وكنت أود على وجه الخصوص لو تتيسر لى رؤية الشيخ ابن باديس الذى

غذت مجلته (الشهاب) فى اثناء مقامى فى افلو ، الافكار التى روجتها فى قهوة ابن يمينة فى المدرسة .

حططت عصا الترحال فى قهوة بن يمينة بادى الراى فكانت تحفظ الازدحام نفسه الذى عرفته فيها من قبل ، فاحتفوا بى فيها احتفاءهم باخيهم الاكبر ، « والمشايان » من قلما (كذا) ابتهجا واحتفيا بى احتفاءهما بشيخهما، فعندما كنت مدرسيا كنا نقرأ ونشرح جميعا نصوصا فرنسية أو عربية .

وعندما مر الشيخ ابن باديس بالقهـوة ذاهبا الى مكتبـه تبعتـه اليـه .

كان ثمة عدة أشخاص معه، ولربما كانت تلك المرة الاولى التى رأى فيها ذلك الفتى بنظارات وسراويل و (مسماتين) وراس حاسرة ، فلم يدعنى الى الجلوس .

فتحدثت اليه عن ركام من الاشياء وأنا واقف ، وأذكر انى تحدثت اليه عن مشكلة الارض فى جبل عمور ، فلم يكترث أي اكتراث على ما يبدو ، ولكنه كان شاردا ومهذبا .

فخرجت من عنده تعترينى خيبة الامل بعض الاعتراء الخ

الا ترى معنا أيها القارىء العزيز ــ ان الاستاذ توفيق ، اقحم فى مجلس سمره سنة 1925 شخصيتين متباينتين فى ذلك العهد . وهما عبد الحميد بن باديس ومالك بن نبى ، حيث جلس كل منهما فى مجلس هذا السمر ، تدار عليهما كؤوس الشاى وفناجين القهوة ، بينما كان توفيق المدنى يحركهمـا فى حديث حمي وطيسه ، وعلا ضجيجه ، فى مواضيع هـى من النوع الذى لا يدار فيه الحديث فى مجالس أمينة ، فضلا عن مجلس فى صالون نزل آقل ما يقال فيه انه مكان مشبوه، لا يغشاه الا المضطر من النزلاء من امثال (المبعد السياسى)

توفيق المدنى ــ أو فى المكتب العربى وهو مدرسة حـرة ، اجتماع الجماعة فيه فى مثل هذا السمر ، يعرض المدرسة الى الغلق، وصاحبها الى السجن، ثم لا يجلس هذان الشخصان المتباينان لبعضهما مع هذا السياسى المبعـد فقط ، ولكـن المجلس يضم نحو من عشرين رجلا ، منهم الشيخ ، ومنهـم الكهل، ومنهم الشاب (انظر الكتاب ص 10). وفى هذا المجلس الخليط ــ يتعارف الشخصان المتباينان !

ومالك بن نبى بقلمه وفى كتابـه المترجم والمطبوع فى حياته ، يقول بالحرف : ... ولربما كانت تلك المرة الاولى التى رأى فيها ذلك الفتى بنظارات وسراويل ... الخ .

ومعنى هذا بالضبط ــ أيها القارىء العزيز ــ ان الشاب مالك بن نبى لم يتعرف الى الشيخ بن باديس الا فى شهـر مارس سنـة 1928 أى بعد مجلس الاستاذ توفيق المدنى فى « نزل فرنسا وفى المكتب العربى » سنة 1925 بقرابة ثـلاث سنـين .

ومعنى هذا أيضا ان الشيخ بن باديس لم يحضر مجلس توفيق فى نزل فرنسا ولا فى غيره ، وهو ما يتبادر الى ذهن كل قارىء يعرف ذلك العهد ويعرف الشيخ بن باديس فـى ذلك العهد ، وانما اقحمه الاستاذ توفيق فى مجلسه هـذا ، بعد وفاة كل المذكورين ــ لكى يقال : عظيم القدر مقصود !!

ثم ان السيد مالك بن نبى نفسه يشهد على نفسه بانـه عرف بن باديس وتلاءم مع أفكاره خلال مجلة الشهاب التى كان يقرأها فى محل اقامته بأفلو ، وهو لهذا ، عندما عاد الى قسنطينة ، وكان فيها جليس زملائـه المدرسيين فى مقـهى (بن يمينة) سنة 1928 ، ومر على المقهى الامام بن باديس فى

جمع من رفقائه ، تبعه الى مكتبه ، وهناك تحدث الى الامام فى (ركام) من الكلام ، وتحدث اليه فى مشكلة الارض بجبل عمور ... ولكن الامام لم يكترث به وبكلامه ولم يجبه عنه ، بل بقي شاردا ومهذبا ، ثم لم يدعه الى الجلوس فى مجلسه ، الامر الذى فرض على الاستاذ بن نبى الخروج من هذا المجلس تعتريه خيبة الامل !!

ولماذا ؟ هل كان الشيخ بن باديس يستنكف من مجالسة شاب سعى اليه فى احترام ومحبة وتقدير ؟ ان كان هذا صحيحا مع طالب جزائرى مدرسى ، يتمتع بحيوية الشباب وحماسته ، فكيف يكون حال الشيخ مع شاب سياسى مبعد من تونس ؟ ثم كيف يكون حاله فى مجلس حمى فيه وطيس الكلام ويحتوى هذا المجلس على قرابة عشرين رجلا بين شيخ وكهل وشاب .. فمن الشيخ ؟ ومن الكهل ؟ ومن الشاب ؟

عمر الشيخ ابن باديس فى سنة 1925 ابعد ما يكون عن عمر الكهل ومثله الشيخ مبارك الميلى . اما البقية فهم لم يتجاوزوا بعد سن المراهقة الا قليلا .

وفى هذا المجلس الذى انعقد (فى احلام توفيق المدنى) تحدث الكل عن النهضة ، وعن السياسة ، وعن الاستعمار ، وفى كل موضوع محرم تحريما قطعيا ، لا يمكن لاحد ــ حتى الامام بن باديس نفسه ــ ان ينطق به جهرا الا فى ذلك النمط المتوغل فى الاحتياط الى ابعد الحدود . كان الكلام عن الاستعمار الرومانى فى القديم والاستعمار الفرنسى فى الحديث ، وفيما حاوله هذان الاستعماران معا من مسخ للامة الاسلامية العربية فى الجزائر وابتلاع لكل قيمها العقيدية والملية والقومية ... فواعجبا للاحلام ، حينما تزين لصاحبها الانجراف مع الاوهام ؟!

ثم تعال أيها القارىء العزيز ، نقرأ معا ما كتبه الاستاذ مالك بن نبى فى كتابــه المذكور ، وفى صفحتى 236 ــ 237 حيث قال ما نصه بالحرف :

فذات يــوم (كان) ضيف عمى (مامي) اسماعيل مــدير صحيفة النجاح : توفيق المدنى المبعد من تونس بعد منــع الحزب الدستورى ونفى رئيسه الشيخ الثعالبى ، كان أكثــر اعوان هذا الاخير ، من أصل جزائرى كعبد الرحمن يعلوى وتوفيق المدنى .

وقــد سلك الاول طريق عنابــة حيث كانت (طــريقة) مزدهرة ازدهارا كافيا هى طريقة (ابن عليوة) اعتقد انــه صار احد شيوخها . وسلك الآخر طريق مدينة الجزائر حاطا رحاله فى قسنطينة حيث عرفناه .

وبديهى ان معــرفة مبعد كانت تقتضى معــرفة تاريخه والشرطة التى كانت تراقبه .

وأنا لا أذكر قصته جيدا ، ولكنى أذكر اننا أنا وصديقى الشواط ومدرسيين آخرين صحبناه مع عمى (مامي) اسماعيل الى المحطة حيث ركب قطار الليل الى الجزائر ... الخ .

اذن ، كان الاستاذ توفيق المدنى ، ضيفا على مامى اسماعيل ولكن هذه الضيافة لم يشر اليها فى كتابه ، ولم يتحدث مطلقا على هذا المضيف فلماذا ؟

لعل « مامى اسماعيل » هذا ، احد الجواسيس الذين زاروه فى نزل فرنسا وعرفهم بسيماهم ، فان كان كذلك ، فــلِم نزل ضيفا على مائدته ؟ ثم رضي مختارا بتشييعه الى محطة القطار مع ثــلة من الطلبة المدرسيين الذين تحاول الادارة الفرنسية استغلال شخصياتهم ومواهبهم فى مثل هذه الاحوال،

وقد ذكر الاستاذ بن نبى ، ان الشرطة فى محطة القطار كانت تراقب المبعد السياسى ومرافقيه ، فلما تـم توديعه وركب القطار تقدم احدهم من السيد « مامى اسماعيل » وسأله عن اسماء المرافقين له ، وكتبها فى دفتر الجيب وانصرف .

نعم ، أيها القارىء العزيز ، ان رفقاء الاستاذ توفيق فى قسنطينة هــو مامي اسماعيل صاحب جريدة النجاح ؛ وعبد الحفيظ بن الهاشمى مدير جريدة النجاح ، وجماعة من طلبة المدرسة الرسمية الحكومية من أبناء الموظفين الاهالى (قضاة عدول ، مترجمين ، وكلاء ، الخ) .

اما الاحرار ، واما رواد الاحرار ، وفى مقدمتهم الامام ابن باديس ، فلم يكونوا فى مجلس تــوفيق المدنى ، لا فى نزل فرنسا ، ولا فى المدرسة الحرة ، ولا فى احد الجوامع التى كانت تستقطب دروس وتلامذة الاستاذ الامام ، ولا فى أى مكان مــن مدينة قسنطينة ، وهذا الموقف الطبيعى بالنسبة لذلك العهد هو الذى وجد الاستاذ توفيق مجال الحساب فيــه متيسرا ، بعد موت الكل ، فانجر مع حفيظته ، وراح يضــع الكــل فى قائمة الراكدين النائمين الذين كانوا يغطون فى نومهم ، فلما جاء هو ووصل الى أماكن اقامتهم ، جمعهم كما يجمــع أطفال الاسرة ، ووزع عليهــم التعليمات والمهــام ، فقاموا يتحاورون ويتعاهدون حوله . اما هو فسار فى طريقه الى الجزائر ليؤلف كتاب ، « قرطجنة فى أربعــة عصور » ، **كان ضربة حاسمــة قصمت ظهر المضللين الكاذبين وأخمدت أصواتهم الى الابد ..** (ص 19 من حياة كفاح الجزء الثانى) .

وصدق الرسول الاكــرم (ص) : « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

هذه هي أحلام توفيق المدني وأوهامه ، سجلها على نفسه في كتابه ، ودل بها على ضياعه في مهامه الهوى المردى ، وكان جانيا على نفسه قبل جنايته على غيره .

اما نحن في موقفنا هذا معه ، فلسنا الا مستمسكين بعروة الله الوثقى في خدمة الحق وأهله ، وسنكون دوما حيث يقتضينا واجب الاخلاص والوفاء للعقيدة وللمبدا ، وان جرنا ذلك الى غضب توفيق المدني ، وجيل كامل من أمثال توفيق المدني ، وما دمنا موقنين بنصر الله ، فان الله ناصر من ينصره ، ولو كره الجاحدون والموتورون ، وعند الله تجتمع الخصوم .

ومن الوثائق أيضا ؟

ونطوى هذا الملف (ملف الادانات) ــ وهو باب من أبواب الكتاب ــ بمقالين تسلمتهما أخيرا من اخوين كريمين ، ورفيقين في الدرب منذ أول الشباب وهما : الاستاذ على مرحوم ، والاستاذ محمد الصالح رمضان ، وهما معا من تلاميذة ابن باديس في الجامع الاخضر ، ومن العاملين المجدين المخلصين في صفوف النهضة الوطنية والنضال الوطني ضمن الحركة الاصلاحية الثورية ، ولم يزالا حتى اليوم على حيويتهما ، بارك الله فيهما .

والمقالان معا ، يعتبران من وثائق الادانة المؤكدة لكل ما رددناه مرارا في أبواب هذا الكتاب ، لا سيما وهما من رجلين مثقفين ، عايشا فترة النهضة ورافقا كل مواكبها واعلام كتائبها وعرفا كل ما كان لها وعليها .

فالاستاذ على مرحوم ، تناول في مقاله : موقف توفيق المدني في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حين اثنى على غيره ليصل بعد ذلك الى مدح نفسه على حساب الناس .

أما الاستاذ محمد الصالح رمضان ، فقد اتحفنا واتحف الكتاب بطرف من أقوال العظماء في توفيق المدني (المعظم نفسه) .

وأنا اذ أشكر الاخوين الكريمين على مساهمتهما في هذا الكتاب بهذين المقالين بعد مساهمتهما الفعلية ، بما نقلناه لهما فيه ـ فاني أهيب بهما ـ وبنفسي وبجميع المثقفين الواعين من جيلنا ـ على الخصوص ـ ان لا يسكتوا بعد اليوم ـ عن ترهات الثرثارين المغرورين ، المنتفخين انتفاخ الديك حين يحكي صولة الاسد ، ولن يصير الديك أسدا ، الا متى خلا العرين من صولة الاشبال !..

وفيما يلي نص المقالين :

1 ـ مقال الاستاذ علي مرحوم :

حول التحاق الاستاذ أحمد توفيق المدني بمجمع اللغة العربية في القاهرة

لكل امرئ من دهره ما تعود !..

يصاب بعض الناس في حياتهم بمركب نقص .. من نوع مضاد .. هذا المركب لا يأتي صاحبه من جراء ضعف شخصيته وتفاهتها .. في أي مجال من مجالات الحياة .. كنقص في المعرفة ، أو جبن عن مواجهة الحقائق والاحداث .. أو قصور في ميدان العلم والعمل .. أو نكوص على الاعقاب .. حينما يدعو الامر الى الاقدام وعدم الاحجام .. ولكن المركب الذي اعنيه في هذه الكلمة هو بالاضافة الى ما تقدم « مركب العظمة » التي تطمح اليها بعض النفوس .. أو تطمع فيها على الاصح . ـ والنفس امارة بالسوء ـ من غير استعداد ولا اعداد لادوات هذه العظمة ووسائلها الادبية والخلقية والذاتية

.. وعندما تفقد تلـك النفوس صفات العظمة وميزاتها .. تعمد الى محاولات ودعاوى زائفة .. لا تعتمد على أساس من المنطق والحق .. كحب الظهور الذى غالبا ما يفضى بصاحبه الى العجب والغرور ...

بينما يبعد مـن يصاب بهذه الآفة المقيتة .. عـن خلـق التواضع ، الذى هو من شيم كبار العلماء والعظماء .. الذين جاءتهم هذه العظمة أو سعت اليهم ... دون ان يسعوا هـم اليها .. وقد منحهم الله والناس اياها دون تكلف أو تعسف جزاء وفاقا لما قدموا لابناء قومهم ومواطنيهم من ذات أنفسهم لا يبغون من وراء ذلك عوضا ولا شكرا .. لقد تعلمنا مـن شيوخنا الكبار ـ رحمهم اللـه مثل هذا السمو فى الخلق .. والتواضع في السلوك .. وسمعنا منهم .. وقرأنا لهـم .. فكانوا كلما كثـر عطاؤهم ازداد تواضعهم .. وقرب اجتناء ثمرات أعمالهم ، فى رفق وسماحة .. من غير اعلان عـن النفس .. ولا ادعاء .. كالشجرة المحملة بالثمار .. تنحنى اغصانها .. فيسهل تناول ثمارها .. اما الشجرة العالية أو المتعالية .. فغالبا ما تكون خاوية عـلى عروشها .. بـل انها تغدو معرضة لهبوب الرياح !..

ولا أبالغ اذا قلت ان معظم ما كتب فى « حياة كفاح » من الآراء والافكار والدعاوى هو من نوع هذا المركب .. كشأن ما كتب صاحب تلك « الحياة » فى بعض مقالاته وخطبه .. فى بعض المناسبات .. واذا كان كتاب « حياة كفاح » قـد استهدف للنقد والتفنيد .. من بعض الكتاب الذين عاصروا الكاتب وعرفوه عـن قرب .. معرفة جيدة .. فجاء نقـدهم مطابقا للحقيقة والواقع .. فان ما كتبه المؤلف فى مناسبات أخرى ، يفتقر أيضا الى نقد نزيه يبين الحق من الباطل فيما

كتب.والملاحظ ان فضيلة التواضع .. قد توارت بالحجاب ، في هذا الكتاب .. وطغت عليه الروح الذاتية .. كما كان حظ النفس بارزا فى كتاباته الاخرى .. كما أشرت آنفا .. وقد كان يمكن التغاضى عما أراد الكاتب لنفسه .. لـو لـم يكـن ذلك مجافيا لبعض الحقائـق التاريخية ، التى خانتـه الذاكرة .. عندما تعرض لذكرها .. على غير حقيقتها .. وقد عشنا هذه الاحداث التاريخية بصفـة مباشرة .. وكـنا الى جانب صانعيها .. فى مختلف أطوارها .. واسهمنا فى بعضها بنصيب متواضع .. فرأينا ان نلقى بعض الضوء حولها .. ولهذا بدا لى ان أتناول بالتعقيب موضوعين اثنـين يخصان الاستاذ أحمد توفيق المدنى .. امـا الاول فيتعلق بمناسبة ترشيحه « لمجمع اللغة العربية » بالقاهرة .. واما الثانى فهو مقال كتبه بعنوان : (من سجل الجهاد الجزائرى فى الخارج) (1) ، فى مجلة (الأصالة) بمناسبة الذكرى العشرين لاندلاع الثورة الجزائرية سنة 1964 .. وقد نشر الموضوع الاول فى نشرة اللجنة الوطنية الجزائرية لليونسكو (لمحات) عدد 2 سنة 1968 ، وقد قام بتقديم العضو الجديد الى أعضاء المجمع الاستاذ عبد الحميد حسن .. فالقي كلمة مطولة بالمناسبة .. وبما ان المعلومات التى حوتها هذه الكلمة عن الترجمة الذاتية للشيخ أحمد توفيق قد استقاها المتكلم من المعنى بالامر نفسه ـ ولا شك ـ فقد جاء فيها ما يستحق التعقيب والتصحيح .. وضعا للامور فى نصابها ..

1) قال صاحب التقديم وهو يتحدث عن النشاط الصحفى لتـوفيق :

---

(1) لم اتناول هذا الموضوع فى هذه التعقيبات اكتفاء بما كنت لاحظته عليه فى مجلة الثقافة : العدد (51) بتاريخ ماى ـ جوان 1979 م .

» ونشر يومئذ مقاله الاول ضد التفرنس والاندماج تحت عنوان : (بين الموت والحياة) في صحيفة (الاصلاح) ومجلة (الشهاب) . فكان لهذا المقال دوى عظيم في البيئات السياسية .. وعلى اثر ذلك أخذت الحركة الوطنية تحدد أهدافها ، وتركز معالم سيرها .. ثم استمر نشاطه الصحفي في مجال السياسة الخارجية والسياسة الداخلية بمجلة (الشهاب) ، واستمر طوال خمسة عشر عاما .. الى سنة 1939 « ..

والتعقيب على هذه الفقرات من وجهين اثنين :

أولا ــ ان الحركة الوطنية في الجزائر قد حددت أهدافها وركزت معالم سيرها ، منذ سنين عديدة .. قبل ان يكتب توفيق مقاله هذا في شهر فبراير سنة 1930 ، وقد تحددت أهداف الحركة الوطنية .. منذ أنشأ الامير خالد حركته السياسية الوطنية ، عقب الحرب العالمية الاولى في سنة 1919 .. وعقب اصداره لجريدة (الاقدام) في نفس التاريخ وهذا قبل ان يعرف توفيق الجزائر في شهر يونيو 1925 وقبل ان يكتب مقاله بعقد من الزمن ..

وثانيا ــ ان الحركة الوطنية قد حددت غاياتها .. وتبينت سبيلها بصفة واضحة .. منذ صدور صحيفة (المنتقد) للشيخ عبد الحميد بن باديس ، في شهر يوليو 1925 وجعلت شعارها الذى تكافح لتحقيقه هو : (الحق فوق كل أحد .. والوطن قبل كل شيء ..) وقد عملت بجد وفعالية على الحفاظ على الشخصية العربية الاسلامية للامة الجزائرية .. اما النشاط الصحفي المشار اليه بالنسبة للمعنى بالامر فلم يستمر (15)

---

(2) تحولت (الشهاب) من صحيفة أسبوعية الى مجلة شهرية في سنة 1929 ....

عاما ، وانما بقي حوالى عشر سنين .. أى منذ تحويل (الشهاب) الى مجلة شهرية (1).. اما صحيفة الشهاب الاسبوعى التى ظهرت سنة 1925 فلم يكتب فيها اطلاقا .. واعدادها الباقية شاهدة على ذلك .. ولم يكن يكتب في مجلة (الشهاب) متطوعا .. كما كان الامر بالنسبة لغيره من الكتاب .. الذين كانوا يحتسبون ما يكتبون خدمة للدين والوطن .. وقد كان توفيق المدني الكاتب الذى يتلقى أجرا عن كل ما يكتب فى « الشهاب » وفى « البصائر » وفى « الاصلاح » وغيرها من الصحف .

2) وبنفس المناسبة قال الاستاذ عبد الحميد حسن فى تقديمه :

« وفى سنة 1929 وضع القانون الاساسى ، ومنهاج العمل لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين .. وباشر جمع علماء الجزائر جميعا فى اجتماع عام ، بنادى الترقى .. وبرزت الجمعية التى اسندت رئاستها الى الامام المرحوم ابن باديس .. ونيابة رئاستها الى العلامة المرحوم الشيخ محمد البشير الابراهيمى » الخ ..

والواقع انه ليس صحيحا ان توفيق المدنى هو الذى وضع القانون الاساسى المذكور .. كما انه غير صحيح أيضا انه وضع أى منهاج عمل لجمعية العلماء .. ولم يكن من أعضائها .. منذ تأسيسها .. لمدة عشرين سنة .. (1931 ــ 1951) فكيف يضع لها منهاج عمل ؟

اما القانون الاساسى فيكاد يتفق القول على ان الشيخ الابراهيمى هو الذى وضعه .. وبعضهم قال : ان المرحوم

(3) انتخب توفيق لعصوية جمعية العلماء ، لاول مرة فى حياته فى سنة 1951 بعد 20 سنة من تأسيسها ...

محمد الامين العموذى هو الذى وضعه .. والمؤكد ان هـذا الاخير هو الذى ترجمه من العربية الى الفرنسية .. بعد عرضه على الاجتماع التأسيسى .

ولم يكـن صحيحا أيضا انـه هو الذى جمـع العلماء فى اجتماعهم الذى تكونت فيه الجمعية ، وانما فعل ذلك « لجنة تحضيرية » .. ولعل الاستاذ توفيق كان من بين أعضائها ليس غـير ..

3) وقال أيضا الاستاذ عبد الحميد حسن فى تقديم المعنى بالامـر :

« وبعد ذلـك قد انتخب الزميل الكريم أمينا عاما لجمعية العلماء (3) .. واشرف فيما بين سنتى 1950 ـ 1956 .. عـلى نظامها ، وتنسيق التعليم العـربى الاسلامى فى مـدارسها ومعاهدها ، وتنظيم اعداد المعلمين » ..

ان الحقيقة التاريخية لا تتفق اطلاقا مع هذا القول .. لان الشيخ توفيق لم يقم بأى نشاط .. لا فى مجال تأسيس مدارس الجمعية .. ولا فى نطاق تنسيقها أو الاشراف عليها .. لا قبل ولا بعد ان أصبح كاتبا عاما للجمعية ، فى أوائل الخمسينات (1951) مع العلم بأن الاشراف على جميع المدارس الحرة التابعة للجمعية ، وتسييرها ، واعداد مناهجها ومعلميها .. وكل ما يتصل بشؤون التعليم فيها .. تربويا أو ثقافيا .. كل ذلك ترجع مسؤولية القيام به وانجازه الى « لجنة التعليم العليا » التى انشأتها جمعية العلماء فى شهر سبتمبر من سنة 1948 .. وتتكون هذه اللجنة من 13 عضوا .. ليس مـن بينهم المعنى بالامر طبعا ..

4) ثم يقول مقدم توفيق من ضمن ما قال :

« ثم عينته جبهة التحرير الوطنى (وزيرا للشؤون الثقافية) فى الحكومة المؤقتة .. التى شكلت فى القاهرة خلال شهر سبتمبر 1958 .. واشرف على توجيه « ألف طالب » .. بالبلاد الاوروبية المختلفة » ..

وهذا العدد المحدد « بألف طالب » فيه مبالغة ظاهرة .. اذ ان ظروف الجزائر فى تلك الاعوام .. ونار الثورة ملتهبة على أشدها .. لا تسمح بايفاد ذلك العدد الضخم من الطلاب الى الدراسة فى أوروبا .. حتى ولا فى البلاد العربية ..

هذا ما رأينا من واجبنا ان نعقب عليه من محتوى التقديم .. بغية تصحيح بعض الاخطاء التى وردت فيها .. وهذه الاخطاء .. لا تعزى الى الاستاذ المقدم بطبيعة الحال ، وانما المسؤول عنها هو صاحب الترجمة الذى زوده بمعلومات .. لم تخل من مبالغات ومغالاة .. دعا اليها الحرص على حظ النفس .. والاعجاب بها ، ولهذا أشار المترجم له فى خطابه المكتوب سلفا ـ الى الاعتذار عما أطرى به أو أطرى نفسه به .. فيما كتبه أو قدمه من ترجمة حياته .. وقال فى مستهل خطابه ان أستاذى وأخى .. قد اسدل علي جلباب الرضى .. وهو يقدمنى الى مجمعكم .. لكننى والحمد لله بعيد جد البعد عن الادعاء والغرور .. لا أرى نفسى الا على حقيقتها المجردة .. فأخجل من هذا الاطراء .. ومن هذا التقييم » .. الخ .

فكيف عرف توفيق انه قد أطرى ؟.. وقد سجل الاعتذار عن ذلك مسبقا لو لم يكن هو الذى قال عن نفسه ونسب اليها ما أحب .. مما يجافى الحقيقة .. ولا يتفق مع التاريخ الموثوق به ؟..

☆ ☆

ولننتقل الآن ـ مع أستاذنا أحمد توفيق المدنى ، لنستمع .. أو لنتابع خطابه الذى تقدم به أمام أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة .. وهذا لنعقب بما يبدو لنا أكيدا ، على بعض ما جاء فى ذلك الخطاب .. رغبة فى ايضاح نقاط منه .. خليقة بأن توضح ـ فى رأينا ـ وقد ركز الخطيب فى موضوعه ـ بعد براعة الاستهلال .. والتوطئة اللائقة ـ على شخصيتين علميتين فى وطننا .. وعرف جيدا كيف يحشر نفسه فى زمرتهما .. وهذان هما الامامان : عبد الحميد ابن باديس .. ومحمد البشير الابراهيمى .. فقد أتى الرجل فى خطابه على ذكر الكثير من خصالهما النادرة المثال .. منوها بجهادهما العلمى .. والاصلاحى والوطنى .. وقال :

« فتاريخ الجزائر وأمجادها ، وبطولاتها منذ الازل ، قد اختمرت وتفاعلت فى بطن الاقدار .. فاذا بها تخرج للشعب الجزائرى ، فى ساعة الصفر .. من تاريخه الحديث : صنوين توأمين ، انطلقا كفرسي رهان .. من دم عربى أصيل ، يتباريان فى حلبة البعث والنشور ، ويتسابقان فى ميادين الجهاد والكرامة والعمل الصالح .. ويقتحمان اسوار حكم ألاستعمار العنيد .. التى وضعها حول الشعب الجزائرى فاذا بهما يقوضان من تلك الاسوار .. ما سمح لطلائع النور والامل ، بأن تحل محل اليأس والظلمات .. واذا بهما يستخلصان حياة الجزائر العربية المسلمة من بين براثن البغى الاستعمارى الفظيع .. » الخ .

وبعد هذه الكلمة الاجمالية خصص الخطيب كلا من الرجلين ببسطة هامة عن أعماله وجهوده التى بذلها فى سبيل البعث والإحياء .. وانقاذ الامة من الضياع والفناء .. ولم ينس الخطيب ان ينتهز فرصة هذه المناسبة المؤاتية ليسجل

هدفا .. وليقول : « انه عرف الرجلين العملاقين فى سنة « العشرين الميلادية » يسعى نورهما بين أيديهما .. وكنت يومئذ فى عنفوان الشباب » ..

ثم يضيف قائلا : وصاحبت الرجلين صحبة الصادق الامين .. وسرنا معا على الدرب الذى اختارته لنا العناية الالهية .. فما فرقت بيننا الايام .. ولا اختلفت بنا السبل .. فلم يفرق بيننا الا الموت .. الخ .

وأود هنا أن أقف بالقارىء عند هاتين العبارتين : لأعقب عليهما بما لا يكاد يخفى على كل من يعرف كثيرا أو قليلا من اطوار حياة الشيخين ومراحل جهادهما ، منذ انبثاق فجر النهضة الجزائرية الحديثة فى مطلع العقد الثالث من التاريخ الميلادى .. ففيما يخص معرفة الرجل لهما فى عام 1920 ميلادى .. (فى تونس ..) فانه لم يثبت تاريخيا ان ابن باديس قد زار تونس أو أقام فيها .. اثناء هذا العام .. واما الابراهيمى فلعله عرج على تونس اثناء رجوعه من الشرق فى سنة العشرين .. كما أشار الكاتب .. ولهذا فان زعم التعرف على الرجلين فيه نظر .. زمانا ومكانا .. وذلك لان الاستاذ توفيق لم يسبق له ان كتب عن هذه المعرفة وهذه الملاقاة .. قبل ان يشير اليها أخيرا فى (حياة كفاحه ، ج 1 ، ص 160 ..) فى ثلاثة سطور ونصف فقط ، ومن غير ان يذكر اية مناسبة دعت اليها ولا ان يحدد تاريخها .. ومكانها ؟.. فيما اذا كانت فى تونس مثلا ؟..

واما قوله بانه صاحب الرجلين صحبة الصادق الامين .. وسار معهما على الدرب الخ .. فلا تعدو ان تكون دعوى .. تفتقر الى دليل يبررها .. وانا عشت معظم الفترة المتحدث عنها .. وعاينت أحداثها المتنوعة .. كما عاشها وعاينها غير

واحد ممن لا يزالون بقيد الحياة .. والجميع متفقون على ان هذا الرجل لم يصحب الشيخين صحبة صادق أمين .. ولم يسر معهما .. ولم يكن رفيق جهادهما ـ كما يزعم ـ ولم يلحقه ما لحقهما من اضطهاد الاستعمار وعدوانه .. كما لم يتعرض لاى سجن أو نفي أو اضطهاد .. من جزاء ذلك ، بل انه سكت سكوتا مريبا .. حتى فى بعض المناسبات الهامة ، التى تدعو الى الكلام .. وعلى سبيل المثال : فان توفيق المدنى لم يكتب كلمة واحدة عـن محاولة (اغتيال ابن باديس) فى شهـر ديسمبر 1926 .. مع ان هذه الحادثة الخطيرة .. قد اهتز لـها الكتاب والشعراء يومئذ فى الاقطار الثلاثة .. فما هو الداعى الحقيقى الذى دعا الرجل الى السكوت عن استنكار تلك المؤامرة (العليوية) الاستعمارية المزدوجة ؟؟

وسكت توفيق سكوتا مريبا .. بعد وفاة ابن باديس ، فى سنة 1940 (*) ..

ولم يكتب بمناسبة تلك الفاجعة الاليمة شيئا .. مع انـه كان يومئذ يشترك فى تحرير جريدة (الاصلاح) .. ولـم يتذكر الرجل ان ابن باديس قد سار الى رحمة ربه ـ الا بعد مضى سبعة أعوام على وفاته .. اذ كتب فى (الاصلاح) كلمة عن ذكراه السابعة .. نشرت فى عدد 47 تاريخ أول ماى 1947 .. ولو أردت ان أورد الامثلة فى هذا المعنى .. لاتيت منها بالكثير .. وكلها تشير الى ان هذا الرجل لم يصحب ابن باديس وأخاه الابراهيمى ـ كما زعم ـ صحبة الصادق الامين ، بل الذين صاحبوه وصديقه الابراهيمى .. هم علماء آخرون .. « مِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً .. » ولم يشأ ان يتعرض توفيق لذكرهم أو يشير الى فضلهم .. أو

(*) ولم يشهد تشييع جنازته فى قسنطينة .

ينوه بمصاحبتهم للرجلين ، صحبة الصادق الامين ، الى أن فرق بينهم الموت (1) .. لم يفعل ذلك لأمر في نفسه .

وأضيف الى ما تقدم تعقيبا آخر بشأن الشيخ الابراهيمى .. فقد وفاه حقه ـ والحق يقال ـ من الثناء والتنويه ، كما فعل مع صنوه في خطابه الآنف الذكر .. وكما سبق ان أشرت آنـفا .. ولكن مـاذا كان موقف توفيق المدنى مـن الشيخ الابراهيمى ؟ بعد ما اصدر الشيخ بيانه التاريخى ، فى يوم 16 افريل 1964 ؟؟ لقد حدد الشيخ يومئذ موقفه من المنهج الذى انتهجته سياسة البلاد .. ونصح أولى الامر بلزوم السير فى طريق السداد والرشاد .. وقال الشيخ يومذاك من ضمن ما قال فى هذا المجال ، على سبيل التوجيه للمسؤولين عن سياسة الـوطـن :

« ولكن المسؤولين فيما يبدو لا يدركون ان شعبنا يطمح قبل كل شيء الى الوحدة والسلام والرفاهية .. وان الاسس النظرية التى يقيمون عليها أعمالهم يجب ان تنبعث مـن صميم جذورنا العربية الاسلامية .. لا من مذاهب أجنبية (2) .. الـخ .

بيـد ان بعض المسؤولين القابضين عـلى زمـام السلطة ـ حينئذ ـ لم يرضهم ما تضمنه البيان من النصح والتوجيه .. وشايعهم على ذلك .. أحمد توفيق المدنى الذى كان آنئذ

---

(1) نذكر من بينهم : العالمين الجليلين الشيخ مبارك الميلى والشيخ العربى التبسى .

(2) انظر البيان كاملا ، فى كتاب : « الامام الرائد ، الشيخ محمد البشير الابراهيمى فى ذكراه الاولى وهو لاخينا الاستاذ محمد الطاهر فضلاء ، صفحة 15 طبع مطبعة البعث 1967 .

يحتل منصب « وزير الاوقاف » .. فتنكر للشيخ وهو طريح الفراش .. ومال الى قطيعته .. ترضية لرئيسه .. وزاد على ذلك بأن أوعز الى بعض الموظفين في وزارته ، بأن يتبرأوا من صنيع الشيخ .. ويعلنوا عدم موافقتهم على ما حواه بيانه المشار اليه .. وقد كادوا أن يفعلوا ذلك تحت ضغط السيد الوزير (توفيق المدنى) .. وامتد مرض الشيخ الى مدة تزيد على السنة بعد اصداره ذلك البيان .. قبل ان يتوفاه الله فى شهر ماى من سنة 1965 .. لكن توفيق لم يعده اثناءها ولو مرة واحدة .. ولعله لم يشهد أيضا ذلك الموكب الشعبى العظيم الذى شيع به جثمانه الى مستقره الدائم .. كما لم نقرأ اية كتابة عن حياته العامرة بجلائل الاعمال .. طوال نحو من ثلاث سنين .. سواء فى مناسبات ذكرى وفاته السنوية .. أو فى غيرها .. الى ان حل اليوم الذى رأت فيه الحكومة المصرية ان تعوض به الامام الراحل محمد البشير الابراهيمى .. فى مقعد الجزائر .. (بمجمع اللغة العربية) بالقاهرة .. وعندئذ فقط تيقظ ضمير الرجل وعاودته الصحوة .. فتحدث أمام أعضاء المجمع عن الابراهيمى .. مضافا الى ابن باديس .. كما سبق .. ولكنه لم يفعل ذلك للحقيقة والتاريخ .. بل ليقول لنا . انه كان ثالث ثلاثة .. فى الجهاد الذى قاما به فى ميادين مختلفة .. عن طريق المشروعات والمؤسسات المتنوعة ، التى تناولت العلم والثقافة والاصلاح الدينى والاجتماعي والتربية والتعليم.. وبث الوعى القومى والوطنى .. ومقاومة التجنيس والاندماج والتبشير .. والحفاظ على الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائرى .. العريق فى عروبته وتراثه الاسلامى .. وكل هذا تم بعون الله تحت اشراف (جمعية العلماء) التى لم يكن منها

(توفيق) فى العير ولا فى النفير كما يعرف الجميع .. وكما سجله التاريخ الصادق بين صفحاته الذهبية للعاملين المخلصين.

«وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ».

علي مرحوم

تعليقنا على المقـــال :

كتاب الله هو الحكم !

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ » (الآية 204 البقرة) .

وجدتنى اتلو هذه الآية العظيمة من كتاب الله ، عند ما انتهيت من قراءة مقال الاستاذ على مرحوم ووقفت متأمـــلا الفاظ وكلمات الآية ، وتساءلت فى نفسى : هل للآية دخـل فى الموضوع الذى أنا قرأته، ولكى لا أتيه مع ظاهر المفردات المحددة للمعانى ــ مددت يدى الى الرف وتناولت الجزء الاول من «ظلال القرآن» لـ «سيد قطب» عليه رحمة الله فى الشهداء الابرار ، وفى صفحة (292) طالعتنى الآية فى أوائل الصفحة، فتلوتها وما بعدها من الآيات الى قوله تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ : مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » !

صدق الله العظيم ، صدقت يا ربنا ياإلاهنا وإله كل شيء الاها واحدا . فبلاؤك لعبادك المؤمنين من حكمتك العليا ، لأن بها تطهر ما يعلق بالنفوس البشرية من السخائم .

وتتبعت بعض سطور « الظلال » فوجدت صاحب الظلال يقول :

« وفى هذا الدرس نجد الملامح الواضحة لنموذجين من نماذج البشر ، الاول : نمـوذج المرائى الشرير ، الذلق اللسان ، الذى يجعل شخصه محور الحياة كلها ، والذى يعجبك مظهره ويسوءك مخبره ... الخ .

وأى درس كهذا ؟ لموضوع كهذا ؟ ورجل كهذا ؟

أوتى اللسان الذلق ، والقلم المطواع ، والمظهر الانيق ، ثم هو يجحد النعم ويصرفها الى حيث يجعل من شخصه :

محـور الحيـــاة كلهـا ؟ !

وصدق قول الله في كتابه الكريم : « **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** » (النساء الآية : 82) .

ـ فما بعد هذا البيان بيان !!

ـ وما بعد هذا التعليق تعليق !!

2 ـ مقال الاستاذ محمد الصالح رمضان :

ما يقوله الناس عن توفيق المدنى ؟ !

من هو توفيق المدنى ؟

تحت صورته الشخصية ، فى غلاف الجزأين من كتابه (حياة كفاح) يعرف هو بنفسه ويقول :

ـ علم من اعلام العروبة والاسلام والوطنية الصادقة ، ومن ذا الذى لا يعرفه ؟ . نعم ؟ (ومن ذا الذى لا يعرفه) ؟

ويقول فى ظهر الجزء الاول (ظهر الغلاف) :

ـ مذكرات أحمد توفيق المدنى ... **وثيقة تاريخية قوية فى امانتها !!**

☆ ☆

هـــذا تعريفه (هـــو) بنفسه فى كتابه ، فكيف يصفـــه ، ويعرّف به معارفه من خيرة الشخصيات ؟

1) الامير شكيب ارسلان :

« أحمد توفيق المدنى أديب تونسى ، نفاه الفرنسيون الى الجزائر وكان فى الماضى « انقريا » صرفا (تركيا خالصا) ، وكنت اسمع انه يكره طريقتك وطريقتى وينتقدنا » .

هذا مما كتبه الامير شكيب ارسلان فى رسالة وجهها من لوزان بسويسرا ، الى السيد رشيد رضا فى القاهرة بتاريخ 14/5/1931 م ونشر فى كتاب : رسائل وبحوث أمـــير البيان شكيب ارسلان ، الجزء الثانى ، ص 746 طبع : معهد الدراسات العالية لجامعة الدول العربية سنة 1963 ، والكتاب من تأليف الدكتور أحمد الشرباصى (رحمه الله) .

2) الشيخ البشير الابراهيمى :

أحمد توفيق المدنى « صديق الجميع » :

هذه عبارة بليغة ، جامعة مانعة ، من جوامع كلِم العلاّمة الفيلسوف (كاهن الحي) فيها من التورية ما فيها .. فتوفيق صديق المصلحين والطرقيين ، فى الوقت الذى كانت الخصومة بينهما عـــلى أشدها ـ وتوفيق صـــديق الأحرار ، وصـــديق الحكوميين فى وقـــت واحـــد وصديـــق الوطنيين المخلصين ، وصديق الخونة المارقين فى آن واحد ، فهو صديق الجميع حقا حتي الصهيوني الاول الذى عرفته الجزائر (نسيم محمود) .

3) الشيخ الطيب العقبى :

« توفيق المدنى ، « كالمعزى » ، تعطيك من الحليب بقدر ما تعطيها من الاكل والتغذية » .

وهو يعنى بهذا ان توفيق المدنى (الكاتب) لا يكتب الا بقدر ما يقبض من فلوس .

4) الشيخ العربى التبسى :

«توفيق المدنى ، شر لابد منه ، وفاسد في دنيا الفساد» .

وهو يعتقد ويصرح بانه عميل استعمارى خائن لا يوثق به ، ولكنه مع ذلك « لابد منه » شأنه فى ذلك شأن الموهوب الذى يستعان به أحيانا . و « دنـيا الفساد » فى تعبـيره هى قاعة « دنيا زاد » .

5) الشيخ محمد خير الدين :

« توفيق المدنى ، متلوّن ، كذاب ، صنيعة « المكتب الثانى » للمخابرات (الدوزيام بيرو) ، وصلاته المريبة به معروفة » .

6) الشيخ عبد اللطيف سلطانى :

توفيق المدنى ، يقول الناس عنه كثيرا من الاقوال ، فمنهم من يقول بان الجزائر فى نظره ليست من عالمه ، فهو فى هذا متواطىء مع الاستعمار على اخفات صوتها .. ومنهم من يقول بانه سكت عن الجزائر ، حتى لا تغضب عليه الفئة الباغية ، لان الكلام عنها نشر لمظالمها وافشاء لها .. وغير هذا كثير . والمتأمل في كل هذه الاقوال يجدها معقولة ومحقة .

هذا موجز ما كتبه الشيخ عبد اللطيف في جريدة البصائر حين كان توفيق يكتب فيها « منبر السياسة العالمية » ، وذلك فى العدد 88 من الجريدة بتاريخ 25 جويلية 1949 م .

7) الشيخ مالك بن نبى :

« توفيق المدنى ، جرثومة في صفوف العلماء » .

ـ وفى كتابه : « فى مهب المعركة » يذكر كيف انه قدم مقالا الى جريدة البصائر ، بعد سفر الشيخ الابراهيمى الى الشرق سنة 1952 وكان (توفيق المدنى) رئيس اللجنة المشرفة على الجريدة آنذاك ولم تنشر البصائر مقال بن نبى . فقال مالك بن نبى فى كتابه المذكور صفحة 72 :

« ومما يزيد في هول الموقف انني حاولت بعدما نشر هذا الرد المقنع ، حاولت ان أنشر مقالتي باللغة العربية حتى تؤدى مفعولها بصورة مباشرة ، فارسلت بها الى جريدة جمعية العلماء (البصائر) وأوكلت لها أمر الترجمة والنشر ، فلم تفعل شيئا لان جهازها الصحافى كان تحت تصرف « عملاء » نعرفهم ، واردنا ان نكشف أمرهم في حديثنا مع الشيخ العربى التبسى فى مناسبات مختلفة ، ولكن دون جدوى »

8) الشيخ عبد الحميد بن باديس :

قد يتساءل بعض القراء : واين رأي الامام ابن باديس فى توفيق المدنى ؟ لهذا نبادر بالقول ، بان ابن باديس ، لم يكن يتكلم فى احد بما يسوء ـ حاضرا أو غائبا ـ ولكنه اذا اضطر الى بيان الحقيقة ، فانه يصدع بها بلا تردد .

لقد كتب مرة من يدعى : « السائح العراقى » وهو المسمى (يونس بحرى) كتب فى العدد (210) من جريدة «الشورى»

لمحمد على الطاهر العبارة التالية : « فقيضت العناية الالهية الى الجزائر نخبة من الشبيبة التونسية ، وعلى رأسهم الاستاذ أحمد توفيق المدنى » ... الخ .

ويونس بحرى هذا صحافى عراقى (مغامر) معروف ، وهو من معارف توفيق ، وهو من أشهر صنائع المخابرات الاوروبية (الانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية) وهذه ارحام تتعاطف على حساب الحقيقة وكرامة الشعوب . وبعد نشر مقالة يونس بحرى فى جريدة الشورى ، تصدى الامام ابن باديس للرد عليه رد العلماء الاجلاء ، والعظماء الاكارم فقال فى الجزء الثالث المجلد الخامس من مجلة الشهاب ما نصه :

« فاما السيد احمد توفيق المدني فهو في اخلاقه واعماله كما قال .. واما فى نسبته ، فهو من أبوين جزائريين انتقلا الى تونس فولد لهما أحمد توفيق بها ... ثم نفته السلطة الى وطنه الجزائر ، فالفى بها أقارب واصهارا . وقد تزوج هذه الايام بعقيلة من بيوتات العاصمة الجزائرية ، فهو جزائرى حقيقة وحكما وأصلا وفصلا ..

واما ما عدا هذا الاخ ، فلا أحد من الشبيبة التونسية التى قال السائح الكريم انها (قيضت للجزائر) .. (أو أيقظت الجزائر) (!!) وبعد هذا ، فاننا لا نعرف فى تاريخنا تونسيا رأس حركة جزائرية ، واخواننا التونسيون فى حركتهم الدستورية المشهورة ، رأسهم الاستاذ الثعالبى ، وهو من أبوين جزائريين انتقلا الى تونس ، وانشق من الدستوريين جماعة سموا أنفسهم بالحزب الاصلاحى ، رأسهم الاستاذ (قلاتى) وهو (أيضا جزائرى) .

ثم يختم الامام ابن باديس كلمته بهذه الفقرة :

« القطـر الجزائرى والقطر التونسى ، اخوان شقيقان ، والحقائق التاريخية يجب ان تمحص مع القريب والبعيد . وهذا ما دعانا الى كتابة هـذه الاسطر ، راجين مـن جريدة « الشورى » الغـراء نشرهـا خـدمة للحقيقـة التى هـى غايتنـا (؟!) .

هذا بعض ما اعرفه من أقوال الناس فى توفيق المدنى .. أوردته كما هو ولعلنا سنتمكن من جمع كل ما يتداوله الناس فى شأنه ، منذ وصـل الى الجزائر سنة 1925 الى يـوم الناس هذا . وكل آت قريب .

محمد الصالح رمضان

حـاشيـــة :

تعليقـنا عـلى « الطرف » :

(1) أولا : الامير شكيب ارسلان :

ـ يقول توفيق المدنى فى الجزء 2 من كتابه حياة كفاح ، ص 232 :

ـ كنت وثيق الصلـة بالكاتب العظيم والمفكر الاسلامى الكبير شكيب ارسلان ، وكانت المراسلات الادبية والسياسية والاجتماعية تترى بيننا .. الخ

ـ والامير لا يشير الى ذلك بالمرة فى رسالته الى السيد رشيد رضا ، بـل يتهمه بالتحيز الى حكومة « انقـرة » ، ويقول : « وكنت اسمع انه » الخ ، وهذه الجملة تبين بجلاء ان الامير لا يعرف توفيق المدني ولا يراسله ... لا سيما وتوفيق يؤرخ

لهذا التعارف والتراسل سنة 1923 ؟ وكلمة الامير ، كانت فى سنة 1931 ؟

فانظر يا أخى القارىء الى مثل هذا التطاول ؟ ثم احكم عليه معنا بما سبق ان حكمنا به من معنى قول شاعرنا المتنبى فيـــه :

جوعــان يــأكــل مــن زاد ويمسكنــى

لكــي يقال : عظيم القــدر مقصود !!

ـ ثم يقول توفيق المدنى عن الامير شكيب فى ص 233 :

ـ وحلت سنة 1935 فاذا بى أجد نفسى فى خلاف شديد مع الامــير شكيب ارسلان حول مبدا أساسى أقدسه واتفانى فى تقديسه ، الا وهو مبدا الاستقلال لكل الشعوب ...

ـ ثم يقول بعد أسطر :

ـ كان الامير يميل الى موسولينى ، والى النظام الفاشستى الطليانى ، بينما كنت أقارع الطغيان الاجرامى ضــد ارادة الشعــوب .

ـ أرأيت يا أخى القارىء ؟ أرأيت هذه الجرأة الوقحة ؟ مــع رجل ملأ دنيا الناس كفاحا ونضالا وجهــادا ؟ ثم يأتى توفيق المدنى فى سنة 1978 ـ ليدينه ـ بعد موته ـ بانه كان ميــالا الى موسولينى والى النظــام الفاشستى ؟ وعندما أدرك ـ بحدس المتوجس خيفة ـ انه سيحاسب يوما على هذه المجازفة ويطالب باثبات ذلك بما كتبه فى سنة 1935 حول هذا الخلاف المفتعل وهذه التهمة « المزيفة » كتب بعد ذلك فى صفحة 235 من كتابه :

ـ كنت مخالفا لهذه السياسة على خـط مستقيم ، ولقـد أردت مقاومتها فعلا على صفحات القسم الذى كنت أحرره فى الشهاب ... الا ان أخى وصديقى العلامة العظيم عبد الحميد ابن باديس قد أثنانى (كذا فى الثلاثى) مكرها عـن ذلك ، مذكرا بان صداقة الامـير الجليل تعتبر كسبا ثمينا لا يمكن الزهد فيه ... الخ

وقسما ، لو ان الامير شكيب ارسلان قرأ مثل هذا الكلام السخيف ، لما زاد شيئا عن ازوراره عنه وعن صاحبه ، متمثلا بقول الشاعر العربى الحكيم :

أفى كـل يـوم تحـت ضبنـى شويعر
(ضعيف) يقاوينى ، (قصير) يطاول ؟!

اما الحقيقة التى لا مـرية فيها ، فهو ان توفيق المدنى ، لا يعرف شكيب ارسلان من خلال مراسلاتهما ، ولـم يعرفه وهو فى تونس سنـة 1923 الا مـن خلال شهرته التى طبقت الآفاق ، وكانت محـل تقدير كل العلماء والعظماء امثال : عبد العـزيز الثعالبى ، وعبد الحميـد بن باديس ، والطيب العقـبى وغـيرهم .

واذا كان هناك شىء من مخالفة توفيق للامير ، فان هـذه المخالفة تكون تابعة لمخالفة اقطاب الاستعمار الفرنسى لسياسة الغزو الموسولينى ، ليس الا .

أما انـه حاول ان يكتب فى الشهاب فى قسـم « الشهـر السياسى » فنحن ـ مع الشك الذى يقرب من اليقين فى نسبة ما كان يكتب فى هذا الباب ، الى توفيق المدنى ـ ثم (ثناه) صاحب الشهاب .. فاننا نقول لـه فى العلن لا فى الخفاء :

كنت تستطيع ان تقـول لصاحب الشهاب : امسك عنـك « فلوسك » التى تؤجر قلمى بها ، ثم دعنى اعلن على الملا من الناس ، عقيدتى فى مقارعة الطغيان الاجرامى ضـد ارادة الشعوب (!!)

ولو انك فعلت ذلك يومذاك ، وكتبت منذ ذلك الحين ، ما كتبته اليوم من الادعاء المزيف ... لوجدتنا ساكتين سكوت مجاملـة ، مدخرين حسابك ليـوم الحساب .. ولكنك حـين (تمدح) نفسك على حساب التاريخ ، وعلى حساب (صانعى) التاريخ من هؤلاء الابطال الاحرار ، فانك لن تجدنا الا حيث نقف لك بالمرصاد ، حتى ينجلى الغبار ، ويظهر راكب الفرس من راكب الحمار .. وصدق الله القائل :

« فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ » (الاية 17 ، الرعد) .

(2) ثانيا : الشيخ البشير الابراهيمى :

الشيخ الابراهيمى من أقطاب تاريخنا المجيد ، ونضالنا الشديد ، فعندما كان ربان السفينة قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، مع وبعد الامام ابن باديس .. كنت اذ ذاك شابـا يصطرع مع طموحات الشباب . فكان مكانى من مجالسه مكان التلميذ المستفيد .. ولكنى بعد عودته الى الوطن سنة 1962 ، أصبحت عنده فى مكانة (صفي وأمين سر) يفضى الي بكل شيء ، ويحملنى من شرف المسؤولية واعبائها كل شيء .

وفى خصوص « أحمد توفيق المدنى » كان يكاشفنى بكل شيء فى أمره ، ويطلعنى علي كل صغيرة وكبيرة من أمره ..

وكان لا يذكر (اسمه) فى أى مجلس من مجالسه ، الا باحد القابه .. واكثر القابه عنده هو : « الكابران » وهو لقب عسكرى فرنسي يمنحه الجيش الفرنسي لبعض أهالى المستعمرات مكافاة لمن قضى كل شبابه وكهولته متطوعا فى جيش «المشاة» أو «الحرس» .. وسبب اطلاق هذا اللقب على (صاحبنا) هو تلك « الشطحات الفولكلورية » التى ظهر بها (مهرجا) فى ملابس لم تفصل يوما من الدنيا لامثاله من «النرجسيين» !..

(3) ثالثا : مالك بن نبى :

كنا منذ لحظات ـ وفى هذا الباب (باب الادانات) حين أردنا ان نكشف عن شطحات التعاظم والتعالى التى ظهرت منذ أول صفحات كتاب توفيق المدنى عند نزوله بقسنطينة سنة 1925 ـ أوردنا له من كلام الاستاذ مالك بن نبى ، ما فند به مزاعمه وكذب أقواله وسفه احلامه . ولكنى عند ما قرأت مقال الاستاذ محمد الصالح رمضان ، أصابنى الذهول ، وعجبت لهذا الـ « توفيق » الغير الموفق وقلت : توفيق المدنى لا يفكر حين يكتب ، ولا يراجع ما يكتب .. وتلك من آفاته حين يتطاول ويتعالى ويزهو « بذيل الطاووس » !..

وها هى أقوال مالك بن نبى فى جملة من كتبه ، تفند مرة أخرى ـ كل ما ادعاه توفيق فى مجالسه الموهومة بمدينة قسنطينة ، والتى جنى فيها ـ بالاهمال والاغفال ـ كل مجالسه الحقيقية فيها ، على موائد السيد « مامي اسماعيل » واضرابه ..

(4) رابعا : الشيخ ابن باديس :

هو « الرحمة المهداة » من الله الى هذا الوطن والى أمـــة هذا الوطن ، يحدو قوافلها ، ويشدو بعقيدتها ، ويعزف انغام الجنة وخرير جداول الكوثر ..

هو الذى ايقظ الامة ، وبعثها من مرقدها ، ودفعها الى كل مواطن المجد والسؤدد فى مواكب المجاهدين الابرار .

هذا الامام الفريد من نوعه ، كان يتعامل مع الناس تعامل الصدّيقين الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا سطوة ظالم .. فهو حيي وقور لا يهزل ، ولا يقول الهزل . فهو حين يسمع الهزل المباح ، لا يزيد شيئا عن بسمة تفتر عنها شفتاه ، ثـم لا يلبث ان يعود الى سمته الوقور .

اما اذا استبيح العرين ، أو رأى الحق يتململ مع الباطل ، فحينئذ يتحول الى رجل آخر ، يغضب ويثور ، ولكنه لا يقول الا صدقا وحقا .

ولـــو ان ابن باديس قـــرأ اليوم ما كتبه « أحمد توفيق المدنى » من التطاول على تونس والتونسيين ، وعلى الجزائر والجزائريين ، ولو انه قرأ ادعاءاته المتبجحة على لسانه ولسان أصفيائه ورفقائه لعرف أن الكلمة التى اثارته فى جـــريدة « الشورى » وكتبها صحافى مغامر وقام يـــرد عليها ، لانها (وهم) لا حقيقة فيه ، ولانها (تاريخ) يجب ان يمحص مـــع القريب والبعيد !..

لو قرأ ابن باديس اليوم ما كتبـــه «توفيق» فى كتابـــه ومذكراته ... لخرج ــ للمرة الاولى ــ عن وقاره ، وصـــاح بأعلي صوته :

ـ الحق يا توفيق ما كتبته من الترهات والاوهام ، ودع عنك كتابة التاريخ الوطنى ، فانه أمانة بيد أمناء !!

« **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** » (صدق الله العظيم) .

اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا !

اللهم لا تؤاخذنا بما كتب وكذب (توفيق المدنى) عن تاريخنا وتاريخ ابطالنا واحرارنا . واغفر لنا وارحمنا فأنت خير الغافرين .

المؤتمر الاسلامى الجزائرى
وتوفيق المدنى

مع أحرار تونس :

فى هذه المرة ، خلافا لكل ما جاء فى هذا الكتاب من مواضيع ـ سأتكلم مع الاستاذ توفيق المدنى ، بالاسلوب الذى انتهجه هو نفسه فى كتابه ، فأروى حادثة المؤتمر الاسلامى بالطريقة التى روى هو أحداث كتابه ومذكراته ، فهو ـ كما عرف الجميع ـ يكتب من أوهام ذاكرته واحلامه ، ليجعله واقعا فى حياة الناس ، والناس هنا هم « القراء » من ابناء هذا الجيل ومن سيأتى بعده من الاجيال ، اما قراؤه من جيل الثلاثينات ، فهم عنده أهون من ان يهتم بهم ، لا سيما وقد جرب ذلك فى الجزء الاول من كتابه ، حين ادان أعضاء الحزب الدستورى القدماء ، ورفع من شأن « الشباب » من أعضاء الحزب الجدد ، ولم ير أيّ رد فعل يذكر ... أدرك بحدسه وخيل له ان الامر فى الجزائر سيكون اهون واقل تعرضا للخطر ، مما كان يخاله بالنسبة لتونس .

ومع احرار الجزائر :

ثم انه جرب مرة ثانية ، عندما جس نبض هذا الجيل ـ جيل الثلاثينات ـ فى 16 أفريل 1964 حين استعمار ـ عصا

غيره — ليضرب بها الشعب المسلم فى شخص الشيخ الابراهيمى (رحمه الله) فجمع بعض ضعفاء الارادة وقصار النظر ، وأوهمهم ان جماعة من الموتورين ، أخذوا من الشيخ تصريحا اذاعوه باسمه ، وما هو فيه الا اسم لكتلة من عظام يكسوها جلد لا تبدى من الامر ولا تعيد .. ولكنه مع ذلك مسؤول عما صدر منه أو باسمه ، لذلك عزم هو شخصيا على هجره هجرا كاملا ، مع العمل على ادانته ، « بالبراءة » منه ومن بيانه ، ثم حث الجميع على ضرورة توقيع هذه البراءة من هذا البيان وصاحبه ، وبدا له — حينذاك — من مشايعة بعض الاتباع ، من ذوى الاطماع ، ان هذا الجيل جيل الثلاثينات ، أصبح ضائعا مائعا، لا ينفع ولا يضر ... فهو لهذا اباح لنفسه ان يطلق لقلمه انعنان ، ويكتب ما يشاء ، حين يشاء ، ويدّعى ما يريد ، حين يريد ، دون ان يجد لمشيئته ردا ، ولا لارادته صدا .

وهكذا كتب كتابه فى جزئه الثانى بمثل السخرية والهزء والتطاول الذى كتب به ما فى الجزء الاول من هذا الكتاب « حياة كفاح » .

سأكتب اذن هذا الرد ، حول ما ورد فى كتاب « حياة كفاح » (ج 2) وفى صفحات منه تبدأ منذ صفحة 248 ، وتحت عنوان : اشتداد الحركات : شعب ، بيان ، علماء !!

تناقض توفيق مع نفسه :

لقد عاد « الزعيم الكبير » من تونس بعد ان شحنه « الزعيم الاكبر » بالشحنة المتفجرة ... « عاد الى الجزائر يجر ذيول الخيبة ويندب حظ. تونس العزيزة وهى تتلظى فى أتون الخلاف الحامى (حياة كفاح ص 247) عاد الى الجزائر ، الى

ميدان العمل الديني السياسي الجديد ، متفقا الاتفاق التام المطلق مع امثال : ابن باديس ، والميلي ، ومختلفا في الوسائل وفي الهدف مع العقبي !! اما (علاقته) مع الابراهيمي يومئذ فعلاقة ود وصداقة ، وأدب ، وعلاقة علم ودين (حياة كفاح ص 248) .

يا لغرائب النفوس حين ترديها « الموجدة » وتشوهها « الحفيظة » ؟ والا فكيف كان اختلافه مع العقبي منذ 1934 ، والعقبي في أوج عليائه ومجده ؟

وكيف كان اتفاقه مع ابن باديس والميلي، وهما معا متفقان شكلا وجوهرا مع العقبي الذي يختلف معه ؟ .

اما الابراهيمي « الحكيم » ـ كما سماه ابن باديس ـ الابراهيمي الذي ارسى قواعد جمعية العلماء منذ ايام نشأتها الاولى رغم مكر الماكرين وكيد الكائدين ، وايعازات « الايدي الآثمة » من الولاية العامة الجزائرية ، من أصدقاء توفيق المدني وعمر اسماعيل ... الابراهيمي الذي تشظت صدفة عبقريته وحكمته ودهائه عن الامجاد الوطنية منذ ترئيسه لعبد الحميد بن باديس الى حين تكوين معهد عبد الحميد ابن باديس ، هذا الابراهيمي يذكره توفيق المدني كعالم وكأديب ، تربطه به علاقة أدب وعلم ودين ، ومعنى هذا بالصراحة ودون لبس وتحريف ، ان الابراهيمي في نظر توفيق ليس له ادنى صلة (بالعمل الديني السياسي الجديد) الذي عاد من تونس الى الجزائر من أجله ، واتفق في ميدانه واختلف ؟!

اما العقبي الذي اختلف معه في الوسائل والاهداف ، فاقسم بارا غير حانث ان توفيق المدني ، لم يتفق مع أي واحد من العلماء اتفاقه مع العقبي ، ولم يثق في احد من العلماء

ثقته فى العقبى ، ولكن الشيخ العقبى الذى عاش مع توفيق المدنى شريفا نظيفا وفيا ، بالرغم مما يعرفه منه وعنه من التلونات و « قضاء الحاجات » ... هذا الشيخ العقبى أصبح اليوم : « الهدف المأمون الجانب » لسهام الحفيظة والموجدة التى اكتوى بنارها السيد توفيق المدنى ، عندما كان (ظلا) للشيخ العقبى فى نادى الترقى والجمعية الخيرية وحفلاتها فى (الماجستيك) .. ذلك أن الشيخ العقبى اليوم ، أصبح فى ذمة اللـه ، وبجوار المناضلين المغمورين فى مقبرة شعبية ، اختارها مدفنا له دون تأبين ، ودون ضجيج المؤبنين .. وليس له ــ فيما يظن توفيق ــ فى دنيا الناس هذه ، من يملك (عصا) يهوى بها على رأس من يحاول النيل منه ، هذا كل ما فى الامر وهذا كل ما جعل أحمد توفيق المدنى يصوب سهام موجدته وحفيظته الى شخص العقبى العظيم الذى عاش عظيما ، ومات عظيما ، ولن يضيره أبدا عند ربه ، حقد الحاقدين وحسد الحاسدين !..

☆ ☆

تحريف توفيق للتاريخ :

ونمشى مع توفيق المدنى خطوة خطوة مع أوهامه فى « المؤتمر الاسلامى الجزائرى » المنعقد بالجزائر العاصمة سنة 1936 م ..

يقول الاستاذ المؤرخ « لنفسه » على حساب التاريخ العام (ص 250 وما بعدها) ... « واتفقوا على ان يعقدوا مؤتمرا عاما لاول مرة فى تاريخ الجزائر يشمل النواب كافة ، والشيوعيين والمناضلين وجماعة من العلماء باسمهم الخاص ، لا بصفتهم أعضاء بجمعية العلماء !..

ونحن نقول للمؤرخ الكبير : من أين لك هذا ؟ ما هى وثائقك (التاريخية) التى تؤيد بها قولك ، بان العلماء دخلوا

المؤتمر بصفتهم الشخصية ، لا بصفتهم جمعية تمثل الامة بقضها وقضيضها ؟!

واحذر ـ في هذه المرة على الاقل ـ ان تلجأ الى المغالطة والسخرية وتقول ما كنت قلته في بعض أجوبتك ، من انه ليس من المعقول ان تقول لمن لقيته : اعطني وثيقة مكتوبة تثبت اني لقيتك ، حتى اذا طالبني أحد (الناقدين) بالدليل استظهرت بها .. لانك في هذه المرة تثبت على نفسك بقلمك انك (محرف) للتاريخ « مزيف » لحقائقه بأوهامك والا فما تقول في هذه الحقائق ؟

يـوم الجـزائر :

في الجزء الرابع ، المجلد الثاني عشر ، من مجلة الشهاب الصادر في ربيع الثاني 1355 هـ ـ جويلية 1936 م ـ حين كنت أنا ما أزال يافـعا اقـرأ اسـم (توفيـق المدني) في صحف ابن باديس وجمعية العلماء ، وانظر الى الاسم بكامل الاعجاب والتقدير ـ في هذا العدد من مجلة الشهاب ، مقال من الادب الرفيع ، والتاريخ الصادق ، والحـق المبـين ، تحت عنوان « يوم الجزائر » جاء فيه ، ما لو اجتمعت أقلام القطرين مـع « كاتب القطرين » لعجزت عن الاتيان بمثله .. ذلك هو قلم الشيخ الابراهيمي في 23 صفحة من صفحات المجلة ، وفيـه يقـــول :

ـ من الوفود ؟ تترامى بهم قطر الحديد ، من كل فج سحيق وتتهادى بهـم السيارات ، مـن مختلف النواحي والجهات ، تهوى افئدتهم الى مدينة الجزائر . ولو كان وراء البحر مطلب لخاضوا البحر اليه ، أو كان في أعماقه مثارب ، لغاصوا في لججه عليه ...

من الوفود ؟ تواردت توارد القطا على منهل ، وتزاحمت تزاحم الحجيج على منسك ، تحدثك عنهم سيماهم انهم قوم تنازعتهم آمال دافعة ، وأشغال قاطعة ، فهجروا الاشغال ، وانقادوا للآمال ...

من العلماء ؟ يزجون المواكب ، ويقودون الكتائب ، ويقدمون الصفوف ، ويمهدون لانفسهم مكان العامل في الجملة ، والطليعة من الحملة ، والبسملة من اللوح ، يشاركون في الرأى ، ويساهمون في المشورة ، ويرتجلون الفتيا في المشاكل المستعصية ، فتأتي كفلق الصبح ، وتعلوا أصواتهم بالدعوة الى الاجتماعات ، والخطابة في المجتمعات ، يراع حمى الدين ، فاذا هم « ذادة » وتدعى الامة الى العظائم فاذا هم « قادة » ، ويمثلون للامة علماء سلفها الذين كانوا معاقلها المنيعة عند حلول النوائب ، واعلامها الهادية عند اشتباه المسالك ، ومراجعها اذا ناب خطب أو حزب كرب ، بعد ان كان الظن بهم انهم قراء (فواتح) وكتاب (خواتم) واحلاس (معابد) أكبر شأنهم في الامة ، ان يقولوا : هذا حرام وهذا حلال !!

☆ ☆

هذه فقرات من مقدمة المقال سقناها حجة عليك ، بعد ان عزمنا على مجاراتك في أسلوبك ، لتعرف ـ يقينا ـ اننا لم نتجن عليك حين جابهناك (بكلمة الحق) التي بخست حقها في غيرك ، واخسرت الكيل والميزان فيها لغيرك .

والعلماء ـ يا أستاذ توفيق ـ في جمعية العلماء ، هم « الذادة » ، وهم « القادة » وهم « المعاقل المنيعة » وهم « الاعلام الهادية » .

وهم مع هذا وبعد هذا ـ منبع الفكرة اللامعة ، والدعوة الجامعة الى المؤتمر الاسلامي الجزائري !! واقرأ معنا في هذا

المقال التاريخى صدق المقال ، لنبيل الفعال ، تتبين صدقنا فى ردودنا عليك مما كتبته من الاوهام .

فكـــرة المـؤتمر :

يسجــل التاريخ المنصف فـكرة عقــد المؤتمر الاسلامى الجزائرى للاستاذ الشيخ عبد الحميد بــن باديس ، فقد كان نشر في جريدة (لاديفانص) فى عددها الصادر فى 3 جانفى سنة 1936 آراء له فى السياسة الجزائرية ، كان لها وقع عظيم ومن تلك الآراء ألتى ارتآها الاستاذ : عقد مؤتمر اسلامى جزائرى ، فكان أول من فكر في عقد هذا المؤتمر قبل فــوز « الجبهة الشعبية » باشهر ، وللاستاذ حفظه اللــه ــ آراء فى شؤون الامة الجزائرية ترجع فى مردها الى هذا الاصل ، وهو ان المرجع فى مسائل الامة هى الامة ، والواسطة لذلك هى المـؤتمرات .

... كانت الدعوة الى عقد هذا المؤتمر العام ، من قسنطينة وكانت قــوية مؤثرة بقــوة مصدرها ومكانته فى الامــة ، ومصدرها : رئاسة جمعية العلماء التى هيأت الامة للاستجابة لدعوة الحق ، بعد ان علمتها الحق ...!!

جمعية العلماء هى الامــة :

جمعية العلماء ، ورئيس جمعية العلماء ــ يا أستاذ توفيق ــ ومن ورائهما كل الامة الجزائرية العربية المسلمة ــ هــى صاحبة الفكرة وهى الداعية الى المؤتمر ، فكيف تدعو الجمعية برئاستها ورئيسها الى مؤتمر ، ثم لا تكون فى هذا المؤتمر ، الا ممثلة بجماعة منهــم باسمهم الخاص ، لا بصفتهم أعضاء بجمعية العلماء ؟!!

ما هذا التخريف فى التاريخ ؟ بل ما هـذا التحويف للتاريخ ؟ كيف يكون هـذا التاريخ الذى يكتبه الاستاذ (أحمد توفيق المدنى) من « قصره الخيالى » ومن « مكتبه التاريخى » المطل على نهج لاليـر ؟ وهو لا يكتب الا أوهاما تزيف مسيرة التاريخ لشبابنا الدارسين ، وابنائنا الباحثين ؟

ثم ، ما فائدة الاستاذ (أحمد توفيق المدنى) فى تحريف الصدق وفى تزييف الحق ؟ وهو يعلم ان تاريخ جمعية العلماء ليس هو تاريخ أفراد ، بقدر ما هو تاريخ أمة درجت مع دين الله الحق ، وناضلت به ، وجاهدت باسلحته ودروعه .. ومحال ان تفرق يد الشيطان ــ بخيله ورجله ــ ما جمعته يد الله وحفظته بارادته !!

توفيق المدنى يهدد المؤتمر :

ثم نمضى مع كتاب (أحمد توفيق المدنى) ونقرأ مما ورد فيه من هذه السطور :

ــ واجتمع المؤتمر يوم 7 جوان 1936 ، وما كنت (راضيا) عن المطالب المقدمة ، وما كنت (مصيادقا) على الوسائل المبذولة وكنت أقول لكل الجماعة ... الخ

وأنا شخصيا لا اسمح لنفسى باعادة أقواله فى هذا الحيز من القول ، لان أقواله هذه ما هى الا أوهام وخيالات كتبها من مخيلته فى السبعينات لا فى الثلاثينات ، ذلك أن الحقيقة العارية المجردة من كل مين ولبس وتزييف .. هى ان (أحمد توفيق المدنى) لم يحضر ولا اجتماعا واحدا من اجتماعات المؤتمر ، ولم يحضر فى اية لجنة من لجانه ، ولم يتكلم مع أى واحد من المجتمعين والمشاركين فى المؤتمر . ولو انه (ادعى) بانه التقى ــ بمحض الصدفة ــ باحد المشاركين أو المؤسسين

وتبادل معه الحديث حول « المطالب الاندماجية » وأبدى رأيه الخاص فى كل مطالب المؤتمر .. لو فعل هذا ، وكتب هذا فى كتابه بهذه الطريقة وهذه الصيغة ، لشككنا فى صدق ما يرويه ، لان الذى يتكلم فى مطالب المؤتمر ، ويبدى رأيا فيها انما هم ممثلو الامة ، والسيد توفيق المدنى كان عاجزا عن تمثيل (نفسه) انذاك فضلا عن تمثيل الامة ، وان الذى يمكنه ان يتكلم بهذه الجرأة التى أثبتها فى كتابه هذا ، هو من كانت لـه الايادى البيضاء على المؤتمر واعماله ولجانه وتنظيماته واجتماعاته .. والسيد توفيق المدنى لم يكن فى أى شىء من كل ذلك ، ولم يطلبه لذلك ولا واحد من ممثلى الامة .. ولعل هذا هو الذى فرض عليه السفر الى تونس حتى لا يصاب من غيظه بسكتة قلبية ... هذا اذا لم يكن سفره الى تونس فى هذه الفترة (مشبوها) كسفرته الى تونس فى ليلة حوادث 8 ماى 1945 الاليمة ؟!

ثم ، ألم يقل آنفا : « وكنت متفقا الاتفاق التام المطلق مـع أمثال : ابن باديس والميـلى ؟ (انظر صفحة 248 الآنفة الذكر) فما باله بعد صفحتين فقط يقول (فى صفحة 251) وبعد اعلان عدم (رضاه) وعدم (مصادقته) على مطالب المؤتمر كلها ... يقول : « وقال لى ابن باديس بطم طميمه : لم تحن الساعة بعد لهذا . ويكفينا الآن ان نحرز على استقلال الدين وحرية العربية » ... ثم يقول :

« فقلت لهما ولكل من كان يستمع الى : سأحضر المؤتمر ، وسأخاطب المؤتمرين ، وسأقنعهم بسداد رأيي » ... ثم يقول (فى صفحة 252) : « أخيرا اتفقنا على شىء : (هو) **ان لا أحضر المؤتمر ، وعذرى اننى تونسى دستورى لا أتدخل مباشرة فى**

الشؤون الجزائرية وسأسافر الى تونس أيام المؤتمر،حتى يخلو الجو للحاضرين ، فلا أحرج أحدا ، ولا يحرجني أحد (!!)

يا للكارثة ؟ أحمد توفيق المدنى (بطم طميمه) لا يحضر المؤتمر ؟ اذن ، فما جدوى هذا المؤتمر ؟

والعجب كل العجب من هذا الكلام المتطاول المتعالى الى أعلى من (صرح هامان) .. ان توفيق المدنى لم يقـل منـه حرفا واحدا ، فى كل ما كتبه أو ادعاه من مقالات ومؤلفات طيلة أربعين عاما .. حتى اذا انتهت الاحزاب والنواب ، والمؤسسات التى مثلـت فى المـؤتمر ، وانتهى الـرواد ، والـزعماء والشخصيات ، من الذين نظموا المؤتمر .. ولم يبق من كل ذلك الا شباب المؤتمر (مثلى) ، جاء السيد توفيق المدنى فى كتابه ومذكراته ، ليقول (لجيل الاستقلال) : هذا تاريخكم فخذوه منى ـ محرفا ومزيفا ـ كانه تنزيل من حكيم حميد .. لانى أنا وحـدى الوطنى الصادق المخلص المجاهد الثائـر ، وغيرى من كل الاحزاب ، والمؤسسات ، والنواب ، والشباب من الذين دعوا الى المؤتمر ، وشاركوا فيه .. انما هم (ضعفاء عقل ودين ووطنية وخبرة وكفاءة) بما فيهم فرحات عباس ، وابن باديس ، **اللذين هددت المؤتمر كله فى شخصهما عندما قلت لهما : سأحضر المؤتمر وسأخاطب المؤتمرين ، وسأقنعهم بسداد رأيى !!**

يا سلام ! رأى توفيق المدنى فى مطالب المؤتمر مغاير لكل المطالب التى تقدم بها ابن باديس باسم جمعية العلماء وباسم الامة ، وتقدم بها كل النواب المتطرفين والمعتدلين ، ووافقت عليها الامة فى نادى الترقى ، وفى الملعب البلدى ، وفى كل المجالس (البلدية والعمالية والمالية) ، كل هذه المطالب ، يجب ان تشجب وتمحى من صحائف المؤتمر ، وصحائف التاريخ ،

ولا يبقى منها الا (مطالب) أو (مقالب) أو (مخالب) توفيق المدني ، والا فان توفيق المدني ... (ماذا ؟) يسافر الى تونس حتى لا يحرج أحـــدا ولا يحرجه أحد .. وليبقى فى تونس « يجتر كآبته » .. بينما ينعقد المؤتمر فى الجـــزائر ويكون « ناجحا حقا » وتسند رئاسته الى عبد الحميـــد بن باديس ، احتماء بمركزه الديني ، وقيمته العلمية ، وسمعته العالية !.

فلم اذن ـ يا سي توفيق ـ كل هذه الشطحات الفولكلورية وكل هذه الاقوال الرنانة التى مـــلات بها (جوف طبل) مـــن كتابك ، وانت تقر على نفسك باجترار الكآبة ، في تونس بينما ينعقد المؤتمر الاسلامي بالجزائر وينجح نجاحا حقا ؟؟

ولماذا تمـــلأ صحائف كتابك بكلمات التطاول والتعالى ، وتحاول بها الصعود على أجداث الموتى ـ وقد تحللت عظامهم في قبورهم وعادت الى أصلها الاصيل ؟

اتق الله يا رجل ، اتق الله في نفسك وفينا ، لقد عرضت نفسك لما لا نريده نحن لها ؟ وعرضتنا نحن الى مجابهتك بما تكره ؟ ويمينا في غير حنث ما أردنا لك هذا المصير المهـــول الذى دفعت اليه نفسك دفعا عنيفا ، ولكن ما حيلتنا معك ، وانت تـــريد بـــناء مجـــدك عـــلى امجـــاد الابرار والاحرار والاخيار ؟؟ وبقيت حتى الآن ، (حتى اليوم) تملى على الطلبة والطالبات والباحثين والباحثات ، انك صاحب الفضل في كل شيء وان غيرك لم يكن أي شيء ؟!

ورحم اللـــه عبـــدا عرف قـــدر نفسه ، وسار على نهـــج « الصديق » (ض) حين قال بعد ان سمع ثناء عليه :

« اللهم انت اعلم بى من نفسى ، وانا اعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنى خـــيرا مما يحسبون ، واغفر لى برحمتك ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون » .

فاقبل منا النصيحة يا أحمد ، يا توفيق ، يا مدنى ، والدين النصيحة : لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ، ونصيحتنا اليك اليوم : ان تكتب مقالة فى بضع صفحات ، تعلن فيـــها توبتك ، وتغسل بها حوبتك ، وتثبت فيها أوبتك ، فان فعلت هذا فاننا سنسارع الى طبعها والحاقها بكتابك ، ثم نسرع الى شكرك وتكريمك والثناء عليك ، كتائب من الذنب ، ضائق بالاثم ، آيب الى الحق والى الصواب ، وستجد بعد ذلك الراحة والاطمئنان فى رحاب رضا الله ورحمته بالتوابين المتطهرين وهو القائل في كتابه الكريم : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » (82 ، طه) .



صورة تاريخية لاعضاء « اللجنة التنفيذية » للمؤتمر الاسلامي الجزائري ، أخذت لهم بنادي الترقي •
فأين (توفيق المدني) فيها ، وهو صاحب المطالب الوطنيـة الصادقة ؟ التي أدانت المطالب الاندماجية للمؤتمر ؟ • سجل
يا تاريخ ! واشهد يا وطن ! ؟

توفيق المدنى وأسبوع الجزائر فى العراق

عندما قلـت فى النـدوة التاريخية المنتظمة فى المـركز الثقافى الاسلامى لمناقشة الاستاذ توفيق المدنى عما ورد فى كتابه من الزيف والتحريف ، عندما قلت فى آخر كلمتى : ان مـا قرأناه فى هـذه المذكرات عـن الجزائر والتى قبلها فى خصوص تونس ، يفرض علينا مراجعة كل ما قرأناه له من الكتب منذ أكثر من ثلث قرن ، لا سيما ما يتصل بالتاريخ ، حتى لا نستمر فى الزيف الذى تبيناه أخيرا فيما يكتبه ...

وعندما نزلت من على المنصة ، واخذت مكانى فى مواجهته نظـر الي وقال : معنى كلامك هذا ان كـل كتبي لا تصلح للتاريخ ولا لغـيره ، فأجبته بداهة : أوهام .. كلها أوهـام وأحلام ... ثم ضاعت على شفتيه ابتسامته الحائرة ، فى خضم التوتر المكبوت أمـام تلك الضحكات الساخرة التى دوت فى القـاعـــة .

اما أنا فقد تألمت منذ ذلك الحين لهذا المصير المهول الذى آلت اليه علاقتنا الاخوية والودية مع الاستاذ توفيق المدنى بعد ان كنا نجلـه كرجل موهوب فى ميادين العـلم والثقافة والسياسة .. ولكن ، ماذا نملك بازائه ، وقد تجرأ بالتطاول على مقامات الابرار الخيار من رواد هذه الامة ؟

ولكي لا يشك في صدقنا أحد ممن تستهويهم لباقة الاستاذ توفيق فينسون الواجب المؤكد في الوقوف بجانب الحق ، نورد هذه الحقائق الناصعة من قصته في العراق ، كما كتبها بقلمه وحكم على نفسه فيها بأنه رجل مظهري تؤثر فيه المظاهر فينجرف معها على حساب الحق والواجب .

وفي هذه القصة حجتان ، وكلتاهما مدينة له ، احداهما فيما كتبه بقلمه ، اما الثانية فمما سجلناه لبعض من رافقه في هذه الرحلة التي توهم فيها الاستاذ توفيق المدني ان العراق لم يقف بجانب الجزائر في ثورته الحاسمة .

ــ في العدد (51) من مجلة الثقافة التي تصدر بالجزائر عن وزارة الاعلام والثقافة ــ مقال بعنوان : من وثائق الثورة الجزائرية ، الاسابيع الجزائرية في البلاد العربية ، كتب المقال الاستاذ علي مرحوم ، وذكر فيها عددا من الاسابيع التي انتظمت في كل عواصم وقرى البلاد العربية والاسلامية ، ومنها أسبوع الجزائر في العراق ، قال الاستاذ علي مرحوم في العدد المذكور من مجلة الثقافة صفحة 58 ، ما نصه :

مقال الاستاذ علي مرحوم في مجلة الثقافة :

ــ وفي هذا النطاق يحسن تسجيل ملاحظة تاريخية ، استرعت انتباهي عندما قرأت مقالا للاستاذ أحمد توفيق المدني ، بعنوان : « من سجل الجهاد الجزائري في الخارج » نشر في مجلة (الأصالة) عدد 22 في نوفمبر 1974 العدد الخاص بالذكرى العشرين للثورة .. فلقد تحدث في هذا المقال باسهاب عن جهاده (هو) في الخارج .. وعن زياراته للعراق ، ولكنه لم يشر بكلمة واحدة لوقائع أسبوع الجزائر في العراق .. كجزء مثلا من جهاد الجزائر في الخارج .. مع ان وقائع هذا الاسبوع

التاريخي ، جديرة بالتنويه ، وبالتسجيل ... فقد قال عن العراق بالحرف الواحد :

« جئت بغداد سنة 1957 ، ايام وزارة علي جودت الركابي ، وما كانت في الحقيقة وزارة ، ولا كان رئيسها رئيسا ، بل كانت حكومة انتقال ، تدير شؤون البلاد ريثما يعود الرئيس سيء الذكر نوري السعيد ، من اجازته في لندن . وقابلت علي جودت ، وتحادثنا ، فقال لي همسا : لا تنتظروا الكثير من النظام الحاضر ، فهو غير حر ، ولا يعبر عن رأي العراق . ولربما تغيرت الحالة ، وعندئذ ترون حقيقة شعب العراق ، وروح العراق ، وسخاء العراق ، ورجعنا بكلمات فاترة لا لون ولا طعم لها ... » .

والى هنا لم يشر الشيخ توفيق المدني اشارة الى أسبوع الجزائر في العراق ، ولا الى ما تجمع فيه من المال ، مما يعادل نحو ثلاثمائة ألف من الدينار الجزائري .. أو ما يساوي ثلاثين مليونا من الفرنك القديم ، في اليوم الاول من الاسبوع .. وسواء جاء توفيق بغداد ، قبل انتظام الاسبوع المذكور وقبل امداد العراق فيه الجزائر بهذه المبالغ الهامة ورجع خائبا .. أو جاء بعد ذلك ورجع بخفي حنين .. فانه من حق التاريخ عليه ـ وهو يكتب موضوعه في سنة 1974 ـ ان لا يهمل حق العراق في الثناء عليه ، والاشادة به لما اسداه للجزائر ، منذ شهر مايو 1957 .. كما انه ما كان ينبغي ان ينسى خطاب الابراهيمي ، الفريد من نوعه في ذلك اليوم المشهود (1) من أيام الجزائر في تاريخها النضالي ، وجهادها في العالم الخارجي ..

---

(1) انظر : نص الخطاب ، في قسم الملحقات من هذا الكتاب .

ويواصل توفيق الحديث عن العراق فى مقاله ، فيذكر ان وفدا سار الى العراق ، تحت رئاسة رئيس الحكومة المؤقتة ، فى افريل سنة 1959 .. وبعد ان يتحدث عن صورة الاستقبال التى استقبل بها الوفد . قال : « واناط بى الاستاذ فرحات عباس مهمة الافصاح عن رغائب الجزائر ، ووضعية كفاحها ، وحاجتها الملحــة الى المدد السريع الفعال . فشكرت العــراق شعبا وحكومة على ما ابداه من روح ثورية عالية ، (ونددت بما كانت ابدته حكومة ما قبل الثورة من تقاعس عن المدد) لا يتجانس مع روح العراق ، ولا يتفق مع عاطفته الملتهبة نحو الجزائر .. » — على حد تعبيره — .. فهل من المنطق ان يندد بحكومة ما قبل الثورة فى العراق ، بعد ان رأينا ما قدمته من بذل وعطاء فى أسبوع الجزائر ؟.. فى شهر مايو سنة 1957 — كما تقــدم ذكره — وكان كــرم العراق يتفق يومئذ مــع عاطفته الملتهبة نحو الجزائر ... بما فى ذلك الحكومة والشعب — بصرف النظر عــن السياسة الداخلية — ان هذا التنديد والوصف بالتقاعس لحكومة مــا قبل الثورة غــير مقبول ولا معقول ، بل لعله يعد نكرانا للجميل .. لا سيما وقد كتب هذا الكلام فى سنة 1974 .

التعليــق عــلى المقــال :

— هذه حجــة أولى على أوهام توفيق المدنى فيما يكتبــه للوطن وللتاريخ ، وهى مأخوذة مــما كتبه عنهما فى مجلــة الاصالة التابعة لوزارة الشؤون الدينية سنة 1974 . أتدرى أيها القارىء الكريم لماذا لم يشر الاستاذ توفيق الى أسبوع الجزائر فى العراق سنة 1957 ؟! ذلك ان هذا الاسبوع لــم يحضره توفيق المدنى ، ولم يلق خطابا (تاريخيا) فيه ، ولم يكن له أيّ اتصال به ... لهذا ، فهو أسبوع جدير بالاهمال ،

وان تصدره الامام الابراهيمى ، وملك العراق انذاك ، والدكتور فاضل الجمالى مندوب العراق فى الامم المتحدة آنذاك ؟..

فياويح التاريخ ، وحقائق التاريخ ، ووثائق التاريخ ، ان هي حاولت الدنو مما يكتبه توفيق المدنى لتاريخه هو ؟ انها ستتحول حتما الى ركام من المهملات فى سلة المهملات .

اما الحجة الثانية التى نوردها فى هذا المقام لمواقف الاستاذ توفيق المدنى على حساب القيم السلوكية لمبادىء التاريخ فهو ما رواه لنا الاستاذ بن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سابقا ، ورئيس وفد جبهة التحرير الوطني الى العراق ، سنة 1957 بينما كان توفيق المدنى عضوا فى هذا الوفد ، قال الاستاذ بن يوسف بن خدة :

جواب السيد بن يوسف بن خدة

كنا ثلاثة في منزل السيد بن خدة ، وكان صاحب المنزل جالسا على أريكة مقابلة ، حين كنت اقرأ عليه ما كتبته ، وقبل أن أنتهي من قراءة النص ـ نزل من على أريكته ، واستوى جالسا على سجاد الارض مسندا ظهره الى الاريكة ، وعندما وصلت الى آخر كلمة من النص ، ونطقت باسمه ، قال :

الجواب :

ـ الحقيقة التى يجب ان نذكرها للتاريخ ، ولا يمكن ان يهملها التاريخ ، هو ان العراق حكومة وشعبا ـ كان مع الثورة الجزائرية منذ بدايتها ، وقدم لها من العون والتأييد ما لم يقدمه الا الاقلون ، لا سيما العون المالى ، فلقد كان العراق من

البلاد العربية القليلة ـ ومنها السعودية والكويت ـ التى قدمت من العون المالى كل ما وصلت اليه قدرتها ، بل فوق ذلك احيانا .

● وسألت : كيف كان سفركم الى العراق ؟ فأجاب السيد ابن خدة :

ـعندما كان السيد/الامين الدباغين ـ وهو رئيس البعثة والوفد الجزائرى فى القاهرة ـ غائبا فى مهمة لدى هيئة الامم المتحدة بأمريكا .. كنت أنا شخصيا أنوبه فى رئاسة الوفد لجبهة التحرير الوطنى مدة غيابه .. ففكرت فى تنظيم رحلة الى بعض البلاد العربية ، ونفذنا الفكرة ضمن وفد يضم ثلاثة : بن خدة ، أحمد بودة ، توفيق المدنى ، وفى العراق استقبلنا استقبالا حافلا وكذلك الكويت ، والسعودية ولبنان ، وسوريا .. والبلد الوحيد الذى رفض منحنا تأشيرة الدخول فى ذلك الوقت ، هو : اليمن .

فأنا لا أذكر ان حكومة العراق تلكأت فى الترحيب بنا وتأييد ثورتنا وتقديم العون لها فى كل وقت ، قبل أو بعد هذه الرحلة ، ولعل الاسبوع الذى ذكرته آنفا ونظم فى العراق وحضره الاستاذ الشيخ الابراهيمى ، وخطب فيه مع الملك فيصل ، والرئيس فاضل الجمالى ـ كان قبل أو بعد هذه الرحلة ، ولكنى أستطيع أن أعطيك التواريخ بدقة عندما أراجع الوثائق وأصححها مع الاخ سى أحمد بودة الذى كان ممثل الثورة فى العراق .

● ثم سكت السيد بن خدة ، كمن يحاول ان يتذكر شيئا فى الموضوع ، فقال جليسنا الثالث :

ـ وقبل ذلك أرجو ان تذكروا له زيارتكم للنجف الاشرف في هذه الرحلة ضمن هذا الـوفد الذى كان توفيق المـدنى عضـوا فيـه .

فقال السيد بن خدة :

ـ ذهبنا الى النجف باقتراح من بعض المسؤولين العراقيين وهناك رأينا من اللائق ان نزور « امام الشيعة » في مقره ، واستقبلنا الامام بحفاوة بالغة ، وفى حضرته فوجئت بالسيد توفيق المدنى يقول فى تحيته : الامام عـلى صلى اللـه عليه وسـلم (؟) وشعرت بقشعريرة تسرى في جسدى كله ، لان هذه الصيغة ـ كما اعلم ـ لا تكون الا في حق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

ولما خرجنا من حضرة الامام ، قلت للسيد توفيق : ما هذه التحية التى نطقت بها ؟ أليس هذا مخالفا للسنة النبوية ؟ فقال : نـعم ولكنى فعلت هذا لانه مـن تقاليدهم وممارسة شعائرهم ، فقلت : ألـم تلاحظ الامام وهـو يبتسم لتحيتك هذه ، لانه يعلم انك غير صادق فيها ؟

● وهنا قلت لسيد بن خدة :

معذرة ان أنا قاطعتك في حديثك الممتع هذا ، لاعود الى الموضوع الذى كنت قرأت لك منه بعض السطور في خصوص تصريح الشيخ محمد خـير الدين عن التحاق السيد تـوفيق المدنى بالثورة التحريرية عن طريق السيد عبان رمضان وانت شخصيا .. فقد علقت انت عـلى ما كتب هناك ، بان تعيـين السيد توفيق المدنى فى وفـد جمعية العلماء لـم يكن يعنى تعيين شخص ، بقدر ما هو يعنى تعيين الهيئة التى يمثلها ، وقـد تم هذا فعـلا باسم الجمعية ، فما رأيك ان علقت انـا

بالتالى على هذا الحادث المتصل بالعقيدة الاسلامية السلفية ، وأقول : ان تحية توفيق المدنى لإمام الشيعة بهذه الصيغة ، ملزمة لجبهة التحرير التى يمثلها فى الوفد ، فهلا قلت له فى ذلك الوقت : اذا كنت لا تلتزم فى عقيدتك بالسنة وبمذاهب السلف فيها ، ، فانه لا يحق لك ان تتصرف خارج مبدا جبهة التحرير الوطنى ؟

● فقاطعنى الجليس الثالث : قائلا :

– ما دمت تذكر التزام السيد توفيق المدنى بمبدا جبهة التحرير فى ذلك انوقت ، فانى أطلب من السيد بن خدة ان يروى لنا (قصة الهدايا) التى قدمت اليهم فى المملكة العربية السعـودية .

● فقلت : وما نوع هذه القصة ؟ قال السيد بن خدة :

– فى السعودية : استقبلنا الملك (سعود) ابن عبد العزيز استقبالا رائعا ، واهدى الى كل واحد منا ، أنا ، وأحمد بودة وتوفيق المدنى ، عباءة سعودية ، وعقالا ، وساعة من ذهب ، وغيرها . وقـد قررنا ان تكون هذه الهدايا ضمن ممتلكات الجبهة ، وفعلا فقد قدمت أنا وبودة هذه الهدايا ، الى صندوق الجبهة ، اما سى أحمد توفيق المدنى فقد اعتبرها شخصية ، وأظنه احتفظ بها .

فقال الجليس الثالث : وهذه أنانية وانتفاعية على حساب الثورة ، فى وقت هى فى أشد الحاجة الى المال .

فقلت : اما أنا فلا اعلق على هذا كبير أهمية ، ولكنى مع هذا اذكر انى قرأت فصلا فى السيرة النبويـــة حين بعـث الرسول (ص) من يجمع الصدقات (الزكاة) فلما عاد وقدم الى الرسول ما تجمع لديه منها ، واحتفظ ببعضه قائلا : وهذه

هدايا أهديت الي ، فقال الرسول محتدا : هلا جلست في بيتك حتى تأتيك هذه الهدايا ؟ وأمر (ص) باضافة « الهدايا » الى مجموع « الصدقات » ... وقد كان من الواجب على السيد ابن خدة ، وهو رئيس الوفد ان يقوم بدوره حينذاك في جمع هذه الهدايا من أصحابها وتقديمها الى حساب الجبهة ، وهو حين لم يفعل هذا ، فانه يتحمل مسؤوليته مع السيد توفيق المدني ... ومع هذا ما زلت احتفظ برأيي في ان أمر هذه الهدايا لا أهمية له ، بالنسبة لغيره من المواقف .

فقال السيد بن خدة :

ــ وهذا صحيح ، فالمسألة ليس لها كبير أهمية ، لا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار ، ما كان الناس يعلقون به علينا عندما سلمنا هدايانا الى صندوق الجبهة ، حيث سمعنا بعضهم يقول : ان تسليم الهدايا الشخصية واعتبارها ملكا لمكتسبات الثورة ، لا يخلو من البلادة والغفلة ...

فقال الجليس الثالث : اما أنا فاعتبرها استغلالا فاحشا لجبهة التحرير وثورة التحرير ، فان السيد توفيق المدني لم يستقبله الملك السعودى لانه توفيق المدنى ، ولكنه استقبله عضوا في وفد الجبهة ، ومن أجل تجميع العون للثورة ، وبهذا تكون هذه الهدايا ضمن الاموال المتجمعة للثورة ، ولا حق لأحد فيها .

وأمّن السيد بن خدة على هذا الرأي ، ثم قال : لقد أخذنا السيد توفيق المدني في هذا الوفد ، الى بعض البلدان العربية لانه يتكلم اللغة العربية احسن منا ، وهو الامر الذى فرض مرافقته لكثير من أعضاء الجبهة في القاهرة ، ليتولى التعبير عنها في مختلف المقابلات والاستقبالات ... ولكن

السيد توفيق عرف كيف يستغل هذا الموقف فى كثير من تحركاته ، حتى جاء حادث « الطائرة » المحولة الى الجزائر ، وفيها الخمسة من أعضاء الجبهة ، فافتضح أمره ، وتعرض الى توبيخ شديد اللهجة .

فسكت السيد بن خدة قليلا ، كمن يستعرض ـ فى ألم ـ ما بقى عالقا فى ذاكرته من هذا الحادث ، فقلت له :

ـ ان انس لا أنسى أبدا ذلك اليوم المشؤوم الذى أصبح فيه المستوطنون الاجانب ، هنا فى عاصمة الجزائر ... لقد أصبح كل جزائرى وجزائرية وعلائم الأسى والألم تعلو وجوههم ، بينما كان الاجانبّ يهنىء بعضهم بعضا، ويتبادلون التحيات والتهانى فى كثير من البهجة والصخب ... وحتى الموظفون منهم تركوا وظائفهم واماكن أعمالهم وملأوا الشوارع بجماهيرهم ، وسياراتهم تطلق أبواقها بنغمة رتيبة تعلن فى ضجيج شعار : « الجزائر فرنسية » ... واستمر هذا الحال وقتا غير قصير لا يفتر الا فى الهزيع الاخير من الليل .

فقال الجليس الثالث :

ـ وبما ان السيد بن خدة ، كان غائبا عن القاهرة مع السيد الامين الدباغين ، فانى أرى ان الذى سيفيدك بهذا الموقف الشاذ الذى وقفه توفيق المدنى فى القاهرة ، وبايعاز من المخابرات المصرية آنذاك ، « فتحى الذيب » و « عزت سليمان » وغيرهما ... فالذى يفيدك بتفاصيل هذا الموقف ، هو « الشيخ العباس » الذى كان حاضرا فى القاهرة .

فقلت : ولكن ما دخل المخابرات المصرية في شؤون جبهة التحرير ، وجيش التحرير ، وتوفيق المدني ؟

فقال الجليس الثالث :

ـ وهذا أيضا مما سيفيدك به الشيخ العباس .

☆ ☆

وبعد فترة وجيزة من الزمن ، وقبل ان اتمكن من مقابلة الشيخ العباس لاستطلاع رأيه في مواقف السيد توفيق المدني مع المخابرات المصرية في القاهرة ، ومع الثورة التحريرية في أيامها العصيبة ، وصلتني من السيد بن خدة ، المعلومات التالية التي أخذها هو الآخر من السيد « أحمد بودة » :

لقد كان وصول السيد بن خدة على رأس وفد جبهة التحرير الى العراق في أواخر شهر ديسمبر 1957 ، وبقي هناك حتى أوائل يناير 1958 ، وكان الوفد يتركب كما اسلفنا ـ من السيد بن يوسف بن خدة رئيسا للوفد ، والسيد أحمد بودة ممثل الجبهة في العراق ، ثم السيد أحمد توفيق المدني عضوا في الوفد .

وفي العراق ، قابل الوفد ، السيد « خليل كنه » وزير المالية في حكومة العراق انذاك ، وقدم اليه باسم الحكومة العراقية مبلغ خمسين ألف دينار عراقي ، وهو ما يعادل ـ وقتذاك ـ سبعين مليون فرنك قديم .

وكان العراق قبل ذلك ، نظم أسبوعا كاملا للجزائر وثورتها ، افتتحه الملك الشاب فيصل ورئيس الحكومة بتقديم العون التالي :

ـ 30 ألف دينار عراقي من الملك .

ـ 80 ألف دينـــار عراقى مـــن الحكومة ، مع شحنة كبـــيرة ومعتبرة من مختلف الاسلحة ، ثم توالت عملية جمع التبرعات والبذل من كل فئات الشعب العراقى فى مختلف المستويات .

وبأمر من الملك والحكومة العراقية آنذاك ـ تكونت « لجنة خاصة » للعمل على دعم ثورة الجزائر بالمال والسلاح عـــلى ان تتولى هذه اللجنة دفع كل ما يتجمع لديها لمسؤولى جبهة التحرير الوطنى مباشرة ومن غير اية واسطة .

وتعليقـــــنـا :

وان تعجب أيها القارىء ـ فعجب ما يكتبه السيد توفيق المدنى للتاريخ ولحقائقه المجردة من كل لبس ؟؟

وراجع معى أيها القارىء العزيز ـ ما كتبه (ويكتبه) هذا (المؤرخ) المحرف للحقائق بذلك الاسلوب الملتوى الذى يهدف من ورائه الى ابتلاع أعمال الناس وأفكارهم ، ليبقى (هو) بعد ذلك (الفرا) الذى يحوى كل صيد ؟!..

وانه ليتأكد في كل مرة ، ما كنا وما زلنا نردده مـــن ان هذا المؤرخ الذى قال مـــرة في معرض حديث عـــن « اعادة كتابة التاريخ » :

ـ انني سأكتب لكم تاريخا للجزائر ، يكون بمثابة «مصحف عثمـــان » (؟!) .

ومعنى هذا انه سيكتب تاريخ امجاد الجزائر ، يمحو به كل كتب التاريخ التى كتبها ويكتبها غيره ؟!

فراجع اذن معي أيها القارىء العزيز ما كتبه توفيق المدنى في مقاله المنشور في مجلة « الأصالة » العدد الخاص بالذكرى

المشرين لثورة التحرير الصادر في شهــر نوفمبر 1974 م ، ويبدأ المقال هكذا :

ـ كنت أميــنا عاما لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وكان المجلس منعقدا في مدينة قسنطينة المكافحة يوم غــرة نوفمبر 1954 حينما هتفــت البشائــر بانبثاق نــور الثــورة واندلاع نارها الموقدة ، فلبينا دعــوة النـــور ، واصطلينا بحرارة النار ، وأعلنا منذ الساعة الاولى اننا نكون من ركب التحرير في الطليعة ... الخ .

ثم تعال أيها القارىء نقرأ معا ما كتبه بعد هذا المقال في كتابه « حياة كفاح » صفحة 411 حيث يقول :

علمت بعد ايام من احد موقدى نار الثورة ، انها ستقع يوم غــرة نوفمبر ، واقسمت له يمينا انني لا أبوح باسمه لاحــد .. الخ .

ثم انظر معي أيها القارىء قوله في مقاله : « وكان المجلس منعقدا ... حينما هتفت البشائر بانبثاق نــور الثــورة » ، وقــوله في كتابه : « علمت بعــد ايام من احــد موقدى نار الثورة » ... الخ . فانك ستدرك معي ان الرجل ـ وان بدا لبقا ذكيا ـ لا يعني ما يقول حين يلقي الكلام على عواهنه ، شانه في ذلك شان المستهترين بحقائق التاريخ ، ما دام هذا التاريخ لا يكون (في ركاب) الأنانية والانتهازية والوصولية وغيرها من (فضائل) هذا العصر .

اما عندما نصل الى موضوع « أسبوع الجزائر في العراق » والذى وضع له في مقالــه بمجلة الاصالة صفحة 30 عنوان : « العراق والمدد المنظم » قال بالحرف :

ـ جئت بغداد ، سنة 1957 ايام وزارة على جودة الايوبى ... وقابلت عــلى جودت الايوبى وتحادثنا ، فقال لى همسا : لا تنتظروا الكثير من النظام الحاضر فهو غير حر ... ورجعنا بكلمات قاترة لا لون ولا طعم لها !!؟

اللهم انا نبرا اليك مما فعــل توفيق المدنى ، الذى كان يمثلنا فى جبهــة التحرير الوطنى ، يمثلنا نحــن « جمعيــة العلماء المسلمين الجزائريين » ، ولكنــه بمواقفه المنحــرفة والمحرفة لحقائق التاريخ ـ أصبح يمثل بنا ، ويسخر مــنا ، ويعرّضنا لما نحن براء منه !..

جئت بغــداد ..؟ هكذا يقــول ، « وقابلت عــلى جودت الركابى ؟ » هكذا كتب ، « فقال لى همسا » .. هكذا واللــه بهذه الصيغة كتب كل مقاله ، واثبت كل مواقفه الوهمية .. وهو يعلم أكثر منا ان الذى جاء بغداد ليس هو توفيق المدنى ، والذى قابل مسؤولى العراق ، ليس هو توفيق المدنى .. وانما الذى جاء ، وقال ، وقيل له .. هو وفد جبهة التحرير الوطنى برئاسة السيد بن يوسف بن خــدة الذى لــم يذكره (المؤرخ الكبير) توفيق المدنى ، بتاتا حين جاء (هو) معه فى وفــــد يــرأسه .

ووفــد جبهــة التحرير هذا ، هو الذى قرأت مــمى أيها القارىء العزيز منذ لحظة ، ما قاله رئيسه السيد (بن خدة) من انه استقبل من طرف المسؤولين فى العراق ، واستقبل من طرف وزير المالية العراقى وقدم اليه عشرات الملايين ، بعد ان قــدم العراق قبل هذا مئات الملايين (ملــكا ، وحكومة ، وشعــبا) !!

فما هو نوع هذا الاستهتار ، الذى ادان به توفيق المدنى ، شعب العراق ، وحكومة العراق ، وملك العراق ؟

انه فقط : التحريف والتزييف ، والتغليط والتخليط ، كان السبب فيه ، الرغبة فى الانحراف مع (فضيلة) التعاظم الذى (يتنازل) معه دوما السيد أحمد توفيق المدنى ، وينسى نتائج ذلك فى غمرة من النشوة حتى يصدم بالواقع الـذى ينشد مع القائل قوله :

اعيـذهـا نظـرات منـك صـادقـة
ان تحسب الشحـم فيمن شحمه ورم !!

« فاللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا » !

وهـا نحن قـد تبينا اخطاء المؤرخ المتعاظم ، وتـزييفه للحقائق وتحريفه الصواب آلى الباطل .. ووثائقنا فى الكشف عن كـل هذا مما كتبه بقلمه ، وثائـق لا تقبـل النقض ، وشهودها لا تقبل تقويلها ما لم تقل ولا تسكت عنه ان وقع ، لان شهودنا على ما سقناه مـن الحجج والبراهين ــ احياء منا ومعنا ، وفى امكان كل واحد ان يتوجه اليهم ليصحح صدق ما أوردناه .

اما توفيق المدنى ــ فى احلامه وأوهامه ــ فليس له مـن الشهود الا الادعاء والتعاضم (بتاء) المتكلم المعظم نفسه .

ومن كان هذا شأنه وديدنه ، فى كل ما يقوله ويكتبه ، كان فى نظر « العدل » سفيها يحجر عليه ، حتى لا يتسبب فى اضاعة الحقوق ، واشاعة العقوق .. ثم نقول : حسبنا (الله) مما نالنا منـه ، وحسبنا صدق النـذير من قولـه تـمالى : « وَلَا تَحْسِبَنَّ ٱللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّالِمُونَ » (42 سورة ابراهيم) .

هذا ، وسنمضى فى استجلاء الحقائق التى حـاول السيد تـوفيق المـدنى طمسها وتحريفها بافتعالاته وتاويـلاته ،

والتواءاته ، وسنجابهه بكل ما يكره ، مـن تكذيب ما هـو (كذب) ، وتسفيه ما هو (سفه) ثم لا يضيرنا بعـد ذلـك ان يقول عنا اليوم ما قاله بالامس ويتهمنا باننا ملانا ــ ردودنا عليه ــ سبا وشتما ، متظاهرا بالحكمة فى أجوبته التى حاول بها تمييع كلامنا وكلامه ، حتى يختفى (الحق) من كلامنا ، ويبقى (الباطل) من كلامه ، وهيهات هيهات !!

☆ ☆

ردود الشيـخ العبـاس

ــ الشيخ العباس بن الشيخ الحسين الفقيه الخطيب المدرس العضو الادارى لجمعية العلماء ، واحـد أساتذة معهـد عبد الحميد بن باديس انتدبته جمعية العلماء لعضوية وفد الثورة التحريرية فى الخارج سنة 1955 ، وكان ثانى الثلاثة وهم : الشيخ البشـير الابراهيمى ، الشيخ العباس ، الشيخ توفيق المـدنى .

وقد أدى الاولان مهمتهما كاملة فى الوفـد ضمن بعثات الجبهة فى القاهرة ، وفى كل البلاد العربية ، فكانا معا مثـال التضحية ونكران الذات طوال سنوات الحرب التحريرية .

اما السيد توفيق المدنى ، فقد أراد ان يكون فى الخارج كما أراد ان يكون فى الجزائر « صديق الجميع » ، واصدقاؤه المفضلون فى كل مكان يكون فيه ، هم « رجال المخابرات » ، فما يكاد ينزل فى بلد ويستقر فيه ، حتى يجد نفسه ــ تلقائيا ودون عنـاء ــ امام هؤلاء وجها لوجـه ، (يتغازل) معهـم ويتودد اليهم حتى ترتفع بينهم الكلفة ، ويصبح كواحد منهم اذنا تتسمع،وذاكرة تعـي ، وخزانة تعبىء وتخبىء ليـوم الكـريهة .

وفى رد الاخ الاستاذ بن يوسف بن خدة ـ الآنف الذكر ـ ورد ذكـر « المخابرات المصرية » ، وارتباط توفيـق المدنى بقطبين مـن اقطابها ، فذهلت حينذاك وسألت : مـا دخـل المخابرات المصرية فى وفد جبهة التحرير بالقاهرة ؟ فتحـول الجواب عن سؤالى يومذاك الى الشيخ العباس كما اسلفت .

وحين أتيحت لى فرصة الاجتماع بالشيخ العباس ، كان أول سؤال يتردد على لسانى ، هو :

ـ كيف أمكن للسيدين : «فتحى الذيب» و «عزت سليمان» على رأس المخابرات المصرية ان يورطا السيد أحمد تـوفيق المدنى فى قضية ترشيح نفسه لرئاسة وفد الجبهة فى القاهرة وفى غياب رئيسه فى مهمة ؟

ولكن الشيخ العباس الـذى قـرأ كتاب توفيق المدنى كما قرأناه نحن بدأ حديثه هكذا :

الشيـخ العـباس يتكلـم :

ـ يقول أحمد توفيق فى كتابه ، بانه علم بتوقيت الثورة قبل اندلاعها ، وان واحدا من (موقدى) نار الثورة اخبـره بذلك .. ونحن نقول له : انه كعضو فى جمعية العلماء انذاك والجمعية مجتمعة فى قسنطينة ، حين بلغنا نبا اندلاع الثورة ، وهـو الذى كان يقـرأ لنا من جريدة الصباح أخبار المعارك الاولى ، فلم ذهل مثلنا للنبا ؟ ولماذا تساءل معنا عن مدى صدق هذه الاخبار التى حملتها جريدة استعمارية ؟ حتى ان بعضنا شك فى الامر الى درجة اتهام السلطات الاستعمارية بتدبيرها كمكيدة للايقاع بنا .

والحقيقة التى لا يشذ عنها الا « أحمد توفيق » هى اننا لم نعلم بأمر الثورة ، ولم يتأكد عندنا أمرها ، الا بعد مدة من

الزمن قد يكون طولها شهورا عديدة .. وهذا طبيعى جدا ، اذ لو كان الذين فجروا الثورة فى غرة نوفمبر ـ تكلموا لاحد أو مع أحد من الناس ، لما كانت ثورة بالمرة ، ولما امكن لهذه الثورة ان تنجح .

فقلت للشيخ العباس : اذن انت تكذّب توفيق المدنى فى ادعائه العلم بتوقيت الثورة قبل اندلاعها .

فـأجـاب :

قلت لك ان هذا لا يمكن وقوعه فى منطق الثورة نفسها ، ثم سمه انت كذبا أو ادعاء كما شئت ، ان توقيت الثورة بيوم فاتح نوفمبر ، لم يبح به أحد من مفجرى الثورة القليلين ولو وقع هذا ، لاجهضت الثورة منذ أيامها الاولى .

فقلت للشيخ العباس :

انى أراك تحتاط فى اختيار الكلمات التى تستبدل بـهـا ألفاظا بألفاظ حتى لا تتحرج ، فانا اذ أرى لك عذرا فى ذلك فانى أرى ان أسلوب (المجاملة) فى قضية كهذه ، لا يقل عن رذيله الكذب والادعاء ، وبما ان هذا الموضوع قد تناولناه بما يستحق فى غـير هذا المكان مـن الكتاب ، فان لى سؤالين هامين ، أرجو اجابتك عليهما ، بما يتطلبانه من الصراحة ..

وســألت :

كيف التحق توفيق المدنى بالثورة ؟

فسكت الشيخ العباس ، وهو يلهو بسبحته بين أنامله حتى خلته لم يسمع منى صيغة السؤال ، ثم نظر الي وقال : لقد رأت جمعية العلماء ان توفدنى الى القاهرة فى مهمة نقـل أخبار الثورة الحقيقية الى الشيخ الابراهيمى لكى لا يتورط

مع مختلف التحركات التى تريد ابتلاع الثـورة ، وكذلك لأقوم هناك بالعمل الجـدى لجمع كلمة الوطنيين الجزائريين والمغاربة ـ وراء الثورة ، ومـع موقديها الحقيقيين داخـل الوطن ، وقد نجحت بحمد الله فى مهمتى ، وعدت الى الوطن بانباء « وحدة الصف » .

وبواسطة الشيخ خيرالدين،وبحضوره ـ اجتمعت بالسيدين : عبان رمضان وبن يوسف بن خدة ، وعلمت ان الثورة تعتمد ـ لاعمالها الناجحة ـ الوحدة الوطنية عن طريق كل المؤسسات الممثلة للشعب الجزائرى ، وبهذا تقرر ايفاد ثلاثة من جمعية العلماء ، وثلاثـة من حزب البيان ، لينضموا الى اخوانهم فى القاهرة ، ويشكلوا بمجموعهم وفد الثورة فى الخارج ، وبهذا تـم تعيينى أنـا ، والسيد تـوفيق المدنى للالتحاق بالشيخ الابراهيمى ، وليكون ثلاثتنا أعضاء فى وفد الثورة ، وكذلك عين السيد فرحات عباس معه ، الدكتور أحمد فرانسيس ، والاستاذ أحمد بومنجل ، وهم ثلاثة يمثلون فى الوفد حزب البيـــان .

وتولى الشيخ محمد خير الدين نقل أمـر هذا التعيين الى السيد أحمد توفيق ، فسافرنا معا عـن طـريق فرنسا ثـم سويسرا ، وهكذا التحقنا بالقاهرة .

فقلت للشيخ العباس :

توفيق المدنى .. مسؤول كبير !

ان السيد توفيق المدنى ، يقول فى مقاله بانه عندما وصل الى القاهرة استقبله أعضاء الوفد بترحيب كبير ، وقدموه الى

السلطات المصرية « كمسؤول كبير » ، فما نوع هذه المسؤولية الكبيرة ؟ هل هي مسؤوليته الكبيرة في الجزائر ككاتب عام لجمعية العلماء ، أم هي مسؤوليته الكبيرة في وفد جبهة التحرير الوطني ؟

فقال الشيخ العباس :

ـ ليس هناك مسؤولية كبيرة ، ولا مسؤول كبير .. هذا مجرد تهويل ومبالغة في القول ، نزلنا بالقاهرة نزولا عاديا ، واستقبلنا استقبالا عاديا ، والتحقنا بالوفد كأعضاء عاديين في وفد الثورة ، نؤدي مهامنا في حدود امكانياتنا ، ومن غير ان يقدم احدنا كمسؤول كبير ولا صغير ، فليس هناك بيننا كبير وصغير .. وانما هناك مسؤوليات موزعة ، واجراءات تنظيمية لا غير ، فانا لم أعرف ولم أعلم ان أحدا من أعضاء الوفد قدم السيد توفيق المدني الى السلطات المصرية كمسؤول كبير .

وهنا وصلت مع الشيخ العباس الى السؤال الاهم . وقلت :

حادث الطائرة وتوفيق المدني :

ـ في حديثي مع السيد بن خدة ، جرى الحديث عن الطائرة المختطفة من قبل القراصنة الاستعماريين وفيها الوطنيون الخمسة ، وبعد اعلان تحويل الطائرة والقاء القبض على من فيها قام السيد توفيق المدني باعلان نفسه رئيسا لوفد الجبهة وبايعاز أو أمر من المخابرات المصرية .. فكيف كان هذا الموقف منه ؟ وما دخل المخابرات المصرية في ترئيس توفيق المدني ؟

فقال الشيخ العباس :

ـ الشيء الذي أذكره ـ ولا أنساه ـ اننا نحن أعضاء الوفد في القاهرة فوجئنا ببيان أحمد توفيق المدني عن طريق

الاذاعة المصرية .. وهو ينصّب نفسه رئيسا للوفد ، وينصّب الدكتور هــدام رئيسا للشعبة العسكرية .. واجتمعنا مــع بعضنا وتداولنا الرأي ، فرأينا من الحكمة ان ننتظر عــودة الدكتور الامــين والدكتور فرانسيس مــن تركيا ، وبعــد عودتهما اجتمعنا بهــما وبتوفيق المدنى الذى لامــه الجميع بشدة ، على هذا الموقف الشاذ ، الذى ظهر به فجأة ، ولعلــه ــ كما قلت آنفا ــ كان قــد تلقى التعليمات أو النصائح أو التوجيهات من بعض المصادر الاجنبية التى كان دائم الاتصال بها .. ولكن الموقف حسم بعد ذلك ، وعاد كل شيء الى مجراه ، وعاد الدكتور الامين رئيسا للوفد كما كان ، وتحددت المهام أكثر ، واتسع نطاق التنظيم والمسؤوليات ، وسارت الامور كما يجب ان تسير .

وقلت للشيخ العباس :

المجاملــة والصــراحة :

لقد عدت ثانية الى أسلوب المجاملات .. والا فــما معنــى قولك « المصادر الاجنبية » ، هكذا دون تحديد المسؤولية ؟ ودون الاشــارة الى « المخابرات » والى اقطابها المذكورين في حديث السيد بن يوسف بن خدة : « فتحى الذيب » ، «وعزت سليمان» ؟

فأجاب الشيخ العباس :

ــ ليس هناك مجاملات فى الحق وفى التاريخ ، وانت تشهد انى وان كنت أوثر الخير والفضل بــين الناس ، الا انى فى الحق لا أميل الى ما تسميه المجاملة ، وحديثى لتوفيق المدنى فى الندوة التى نظمت فى المركز الثقافى الاسلامى منذ فترة زمنية ، كان صريحا وواضحا الى أبعد الحدود ، كما ان موقفي

معه عندما تولى وزارة الاوقاف بعد الاستقلال ، كان أكثـر وضـوحا !..

وأنهينا الحديث بيننا عنـد هذا الحـد ، وكادت مداعبات الشيخ تذهب منى حدة التصميم ، ولكننى تماسكت وقلت فى عزم واصرار :

تعـليــــق :

ـ ان التاريخ الذى حاول الاستاذ توفيق المدنى تحريفه وتزييفه فى كل صفحات كتابه ، والادانات والاهانات المباشرة وغير المباشرة التى ملأ بها مذكراته فى هذا الكتاب .. تتطلب منا جميعا مجابهته بالشدة والحزم ، دون اية مجاملة ، لان فى هذه المجاملة جناية عـلى التاريخ الوطنى فى أدق واحـرج مراحله ، لا سيما وهو يتصل بجوهر هذا التاريخ من اعلامنا وروادنا وائمتنا ، والذين لولاهم ولولا ما اجـــراه الله على أيديهم من وسائل التعبئة وامكانات الاعداد والاستعداد .. لتأجلت الخطوة الحاسمة ، وتأجلت معها « المعجزة الكبرى » الى أجيال أخرى من أبنائنا وأحفادنا ...

واذا كان الاستعمار الجديد فى مختلف مخططاته الجديدة ، يعمل بجد عـلى غزونا فكريا وحضاريا لاستلاب أصالتنا فى تاريخنا ... فان مثل هذا التحريف والتزييف الذى اضطلع به كتاب « حياة كفاح » لتوفيق المدنى ـ يأتى ـ فى الخطورة ـ مع هذا الغزو جنبا الى جنب ، ليحول مسيرة أجيالنا المتعاقبة الى وجهات تعاكس تماما خطـة امجادنا فى تاريخنا النضالى المجيد ، بعد تأكد التشويه الذى أصابه مـن جراء التغليط فيما يقرأه مـن هذا التاريخ المشـوه بتحريفات وتزييفات

وأوهام وأحلام السيد أحمد توفيق فى كتابه الاسطورى « حياة كفاح » .

واذا كان هناك في الجزائر اليوم ، من كان ينبغي ان يجامل هذا السيد صاحب هذا الكتاب ، فهو « انا » ومن هو في وضعي وسني . ولكن « الحق » ، وما يتطلبه من الصدق والصراحة ، أولى وأكبر وأجل وأعظم من توفيق المدنى ، الذى أصبح اليوم أكثر اصرارا على التحريف الذى اثبته في كتابه هذا ، فالخصومة بيننا وبينه ليست خصومة شخصية بقدر ما هي خصومة تاريخية ومبدئية وعقيدية ووطنية ، فهو كشخص ما زلنا نقدر فيه حيويته ونشاطه ومواهبه وكفاءته واطلاعه وثقافته ، ونحب فيه لياقته ولباقته واناقته ... ولكنه في مذكراته هذه من كتابه هذا (بجزئيه) لم يترك لنا ولا فرصة واحدة للمحافظة على الصلات الاخوية والودية التى كانت بيننا فى أعلى مقام .. وسوف نذهب الى الله جميعا ونحن على هذه الخصومة العنيفة ، ما لم يعلن توبته مما كتب من الاهانات والادانات ، وما أثبته لنفسه من المقامات المنهوبة من غيره ، من الذين أفضوا مع أعمالهم الى ربهم ... وبما ان هذا المقام العظيم الذى ندعوه اليه (مقام الاعتراف بالذنب والتوبة منه) لا يتاتى الا لمن أراد الله له الحسنى وزيادة .. فسبق الى الخير وسارع الى الفضل الاكبر ، يعفو حين القدرة ، ويصفح عند قيام الحجة ، ويتواضع لله في خلقه بخدمة الصالحين القانتين المجاهدين من عباده .. يرفع مقاماتهم فوق مقامه ويصدر عن آرائهم فى حكمه ، ويستشيرهم مطيعا لهم ، ويجلس اليهم فى أدب ، ويستمع اليهم فى انتباه وتقدير واحترام .. وانى يكون هذا عند صاحبنا ، وقد عرفناه تمام المعرفة بعد ان كشف على نفسه وتجرد حتى من ثياب لباقته ولياقته ، وراح يكيل

للاحرار الابرار من رواد الامة هنا وهناك ، كل كيل مُـزْرٍ ، يقوِّل هذا ما لم يقل ، ويدّعى لنفسه ما قاله ذاك ، ويضـع نفسه وصيا عليهم ، لانهم فى نظره عجزة وهو وحده القوى ، وجبناء وهو وحده الشجاع ، وبكم خرس ، وهو وحده الفصيح البليغ . وبما ان هذا شأن صاحبنا ، فانه لا يتاتى معـه الا مجابهته بقول الحق مجلجلا مدويا حتى يسكت باطله ويضمحل زيفه ، أو يحكم الله بيننا وبينه وهو خير الحاكمين .



أحـرار الجزائر فى وفد جبهة التحرير الوطنى فى القاهـرة ، يحيطون بأبيهم الروحى الشيخ الابراهيمى . فأين هو توفيق المدنى ؟ لعله فى مهمة (خطيرة) مع « عزت سليمان » ؟!

المهرّجون

تمثيلية سياسية من نوع "الفالس"
في أربعة فصول

تأليف المؤلف المسرحي الكبير

أحمد توفيق المدني

كتب السيناريو ووضع الحوار
المؤلف والممثل والمخرج المسرحي

محمّد الطاهر فضلاء

الفصـــل الاول

تجـرى حوادث هذه التمثيلية فى مدينة الجـزائر

الـوقت : أكتوبـر 1942

* *

المشهـــد (1)

القــاضى ـ أحمـد

(جــرس الهاتف)

احمـــد : (يتناول السماعة) آلو .. آلو ، نعم ، نعـم هو .. فمن أنت ؟

القــاضى : (من الجانب الثانى) أنا ؟ قاضى قمّ !

احمـــد : قد عزلناك ، فقم !

القـــاضي : تعزلني ؟ وانا أعينك وزيرا منذ اليوم ؟

أحمـــد : تعينني وزيرا ؟ أين ؟ في حكومة « الأماجد » الثـلاثة ؟

القـــاضي : الأماجد الثلاثة ؟ ومن هم أماجدك الثلاثة ؟

أحمـــد : سأصفهم لك ، وأنت وحدك تعرفهم .

القـــاضي : حسنا هات .

أحمـــد : الاول : شيخ عالم ، أديب ، واسع الاطلاع ، كثير الالوان ، يسير مع كل قوم حسب هواهم.

القـــاضي : اذن هذا مفلس لا يعتمد عليه ، وقد عرفته ..والثاني ؟

أحمـــد : الثاني ، عـامي ، ذكـي ، طموح ، قليـل المعلومات ، غزير الافكار ، دؤوب العمل ، يقال انه اثرى أثناء الحرب العالمية من تجارة وراء الستار .

القـــاضي : هذا سنحتاج اليه في بعض « الحانات » لدفع معلوم الجوائز التي نوزعها بين الشاربين لمن يشرب « الانزيت » أكثر . وقد عرفته أيضا .. والثالث ؟

أحمـــد : الثالث ، شاعر فحـل ، لا يشق لـه غبار في اللغة العربية ، وفي لهجتها المحلية ، وكان مصلحا لا يستهان به ، وكان يمتاز بنشاط كبـير ، وسرعة حركـة غـريبة ، ويتحمس فيلقي به الحماس أحيانا في متاهات بعيدة .

القـاضي : هذا « مدّاح » فى فرقة « الطبل » «والبندير» وقد عرفته ..

احمـد : اذن عرفت الثلاثة ؟ فمن هم ؟

القـاضي : لا بهذا الوصف الذى وضعته لهم ، لا نستطيع ان نذكر اسماءهم على التليفون ، أنسيت المثل : الحيطان لها آذان ؟! انتظر حتى نخلو لأنفسنا ، ونضمن غيابهم وغياب معارفهم وأصدقائهم .

احمـد : وتسمى هذا احتياطا ، أم ترصدا لتوقيت الهجوم ؟

القـاضي : لا ترصدا ، ولا تحسبا .. فهم اهون من كل ذلك .. والآن ؟ (يقولها بحدة) .

احمـد : والآن ماذا ؟ لقد أزعجتنى بحدة استفهامك .

القـاضي : ويزعجك الاستفهام الى هذا الحد ؟ فكيف يكون حالك فى الحساب ، يوم الحساب ؟ عندما يسألك الرب فى علاه : ماذا فعلت بقولى فى كتابى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا » ، (الآية) .

احمـد : حينذاك أقول له : ان فى أمثالنا قولا يقول : من خالط قوما أربعين يوما ، تخلّق بخلقهم ، وانا بحكم مخالطتى لقاضى .. قمّ ..

القـاضي : (ضاحكا) يا خيب...ر بتصريف الكلام .. رايح تطيح فى مول الفول يا سى أحمد ، احذر .. فلكل شيء آفة من جنسه !!

أحمـــد : هذه شتيمة لا أقبلها منك ، هذب كلامك أيها القاضى .

القـــاضى : ستقبلها ، وتقبل غيرها منى ، عندما تعلم ان صاحبك القاضى يفــكر فى مستقبلك بما لا تفكر انت فيه ؟ والآن ؟ اسمع ..

أحمـــد : (فى فزع) وما زلت تردد فى هذه (الآن) الملعونة ؟ بهذه اللهجة المجنونة ؟

القـــاضى : اسمع اسمع ، هناك قضية خطيرة جدا ، أود مخاطبتك فيها سريعا ، فهــل تاتى الى ؟ أو آتى أنا اليك ؟

أحمـــد : هذه لهجة في الاصطلاح (الدبلوماسى) معناها : انا انتظرك ؟

القـــاضى : لم يخطىء فيك ظنى ، انت رجل (دبلوماسى) .. أنا فى انتظارك اذن .

أحمـــد : وأنا قادم اليك فى الحال .. (يضع السماعة ، ويسمع اصطفاق الباب) هذا الرجل ، عظيم حقا ... ولكن هذه العاهة الخلقية فيه ، وهى ادمانه على بنت الحان ـ ستحول دون مطامحه وأحلامه .. ولكنى مع هذا أثق فيه ، وأجد نفسى مرغما على محبته واحترامه ، ولكن ، ماذا عساه يهيىء لي هذه المرة ؟ أنا أعلم انه بذكائه وبمقامه ، ينطوى على كثير من المطامع والمطامح ، وأنا أبارك فيه هذه الخلة ، لأنى أجد لها مكانا فى نفسى ، الا انى لا أستطيع

مجاراته الى حد التهور .. آه . لقد وصلنا سالمين والحمد لله (يطرق الباب) .

القـــاضى : (من داخل المكتب) ادخل ، سى أحمد .

احمــــد : (يدخل) احتراماتى ، سيدى القاضى .. لخير دعوتنى ان شاء الله ؟

القـــاضى : اجلس ، (يلغق الباب بالمزلاج) .

أحمــــد : الله ؟ هى قضية خطيرة فعلا ، الى درجة ان تغلق الباب بالمزلاج الحديدى ؟

القـــاضى : لا تضيع من وقتك ووقتى شيئا ... ها هى القضية :

لقـــد علمت من مصدر واســـع الاطلاع عميقه ، ان الجيش الامريكى سيصل قريبا الى المدينة ، وسيحتل كامل الشمال الافريقى ، وان ممثل أمريكا هنا ، قد اتصل باحد كبار أصحابنا وقال له :

ممثل أمريكا : (من عالم بعيد) أنا مكلف من طرف القيادة الامريكية بان أعلمكم بالامر عـــلى ان يبقى سرا بيننا وبعض الخواص ، وان الامريكيين يرغبون فى ان يشكل (الاهالى) فيما بينهم حكومة مـــؤقتة تهتم بأمورهم خاصـــة ، وان يشكل الاوروبيون فى (البلاد) حكومة خاصة لهم ، تهتم بأمورهم ، وان تكون بين الحكومتين لجنة اتصال ، لتسوية المشاكل ، ريثما تتـــم الحرب ، وتستقل (البلاد) ، وتقع انتخابات

عامـة ، ويـؤلف مجلس مشترك . وعندئذ تتألف الحكومة الموحدة .

أحمــــد : (يضحك مقهقها) .

القــاضي : الله ؟ ما بك ؟ علام تضحك ؟

أحمــــد : اين سهرت بالامس ؟

القــاضي : ولم هذا السؤال ؟

أحمــــد : كم شربت من (الريكار) مساء الامس ؟

القــاضي : (في حدة) اسمع . الجدّ جدّ، و (الهلس هلس) ولا خلط بين الاثنين ، هذه القضية مستعجلة وقـد عرض الامر علي ، وكلفت مـن طرف الرئيس ان أعرض الامـر عليك ، حتى اذا (وافقت) ان تكون معـنا ، عقدنا اجتماعا مصغرا ، وتفاهمنا فى القضية بحكمة وتعمق وحاشاك ان تفر من مسؤوليتك فى مثل هذا الظرف الحرج ..

أحمــــد : اذن أنت تتكلم بالجد ؟

القــاضي : نعم ، جد ، وعين الجد ،

أحمــــد : حسنا .. وهـل يوجد (مـن الاهالى) غـيرنا يضطلعون بالامر ؟

القــاضي : الرئيس يقول : ان المهمة سريـة وخطيرة ، وسريعة ، وانه علينا نحن ان نعمل اللازم فى كل شيء ، فهم (أى الامريكان) ليسوا مطلعين علي تفاصيل حياتنا الداخلية ، ويريدون ان

يكون كل شيء جاهزا عندما يصلون ، حتى لا يضيع الوقت .. (سكته) ما بك ؟ سكوتك هذا يريبنى .. فانت حين تسكت تخيفنى ؟

أحمد : وهل أنا حقا مخيف ؟ وهل ترانى ارهابيا أخيف ؟

القاضي : لا ، أنا لا أخاف الارهابى ، بقدر ما أخاف القلق ، الكثير الحذر والتفكير .. فخذ برأى ابن زيدون ، واقدم . فالخيبة مع الاقدام ، خير من النجاح فى التردد والاحجام .

أحمد : وماذا يقول ابن زيدون فى رأيه ؟

القاضي : يقول :

فالمقادير سهام والمحاذير قياس

ولقد ينجيك ايناس ويرديك احتراس

أحمد : حسنا .. قبل كل شيء ، أنا أريد ان أعرف من هو الرئيس الذى تشير اليه ؟ ومن هو رئيس الحكومة الفرنسية ؟ ومن سيكون معنا فى الاجتماع ؟

القاضي : (فى حدة وحماس) رئيس حكومتنا هو الكولونيل بن داود .. واما رئيس الحكومة الفرنسية (الجزائرية) فهو الجنرال (فان هيك) .. وسيكون الامر فى الاجتماع الاول قاصرا علينا نحن الاربعة :

الكولونيل ، وانـا ، وانـت ، والامـين العمودى ، ثـم نوسع الدائرة بعـد الاختيار ... فما رأيك ؟

أحمـــد : طيـب ، لنجرب هـذه المغامرة ، فأنا رفضت التعامل مـع الالمان لكرهى لهم وعدم الثقة فيهم ، لكننى لم اجرب الامريكان .

القـاضي : أنت تكـره الالمان حـقا ، أم انـت تمـالىء أصدقاءنا الفرنسيين فى كـرهك لاعـدائهم التقليديين ؟ وما دمـت لم تجرب الامريكان والتعامل معهم فهل نفهم من هذا انك جربت التعامل مع الالمان ؟

أحمـــد : سؤالك هـذا يبعث عـلى الشك فى أقـوالى وتصرفاتى ؟

القـاضي : أنت تزرع الشك حولك، بأقوالك وتصرفاتك، ثم لا تريد ان يشك الناس فيك ؟

أحمـــد : لـم أجرب الامريكان ، ولكنـى أطمئـن الى سياستهم الحرة الغير العنصرية ، وسيكونون لا محالة حكما بيننا وبين الفرنسيين .

القـاضي : ماذا أنت تقول ؟ سياسة أمريكا غير عنصرية ؟ ما هذه المجازفة فى الاقوال يا سى أحمد ؟

أحمـــد : حسنا ، دعنا الآن من تعليقاتك ، فمتى يعقد الاجتماع ؟

القـاضي : غدا على الساعة الرابعة مساء .

أحمـــد : فليكن .. والآن ؟

القــاضى : (فى فزع) ماذا أيضا ؟

أحمـــد : (ضاحكا) آ.. أرأيت ؟ أنــت أيضا تخيفك (الأذن) الاستفهامية ..

القــاضى : اذن هذه بتلك ؟

أحمـــد : والبادى اظـلم ، (ضاحكا) الى اللقاء اذن (يتهيأ للخروج) .

القــاضى : وهو كذلك (يفتح لـه الباب ثم يغلقها وهو خارج) .

ـ فاصل لمؤثر زمني ـ

الفصـــل الثـــانى :

المشهـــــد (2)

أحمد ـ القاضى ـ الامين ـ الكولونيل

أحمـــــد : (يطرق الباب)

القـــاضى : (من الداخل)ادخل .. انطرى ، انطرى !!

أحمـــــد : (يدخل) مساؤكم سعيد .

الأمـــين : فانك ، والمساء ، وضيق وقت
ثقيل ، فى ثقيل ، فى ثقيل !!

أحمـــــد : ما هذا الاستقبال يا أستاذ ؟ هل تضطرنى ان أردد المثل : وكل إناء بالذى فيه ينضح ؟

الأمين : هو لا ينضح الا بالجعة ، فان شئت فاشرب ، وان شئت فدع ..

أحمد : أعوذ بالله من الخمرة فهى ، مفتاح الشرور !

الأمين : انت تتظاهر بكرهها ، ولكنك تتحرق شوقا اليها ..

القاضى : ما هذا ؟ ما هذا الكلام ؟ احترموا المقام .. فى مجلسنا اليوم ، الهمام بن الهمام ، الكولونيل بن داود .. سيدى الكولونيل ... هذا هو المشير الخفى الاشهب :

سى أحمد توفيق المدنى !!

الأمين : (يترنم) سعيد أبو بكر ، وأحمد توفيق !!

أحمد : أش ... لا تزد شيئا عما قلت .

الأمين : لا تخف ، لقد قلبت البيت الثانى على صاحبه وهو فى منفاه بآفلو .. أتريد ان تسمعه ؟ انه مدح جميل فيكما معا .

الكولونيل : بو نچور ، سى أحمد ، انا سمعت عنك أشياء كثيرة ، ولكن لم يسبق ان تعارفنا ..

احمد : مساء الخير سيدى الكولونيل .. أطلب عفوك .. لقد التبس علي الامر ، فعند ما رأيتك ملتفا فى هذا البرنس الرمادى ، خلتك قاضيا أو مفتيا ، أو شيخ اسلام !!

الأمين : أهذا مدح أم ذم ، يا أستاذ توفيق ؟

أحمـــد : اسمع يا حضرة القاضى ، كـف عنى سلاطـة لسان هذا ، أو اسمحوا لى بالانسحاب .

القــاضى : الاستاذ الامــين ؟ لا أحـد يستطيع ان يكف لسانه عن الكلام ، كما انه لا يستطيع أحد ان يكف قلمك انت عن الكتابة .

الأمـــين : والفرق كبير بين ما أقوله أنا من الحق ، وما يكتبه هو من الباطل ...

أحمـــد : عجبا .. أنا أكتب الباطل ؟ أنا أكتب الروائع .. فكل كتبى روائع الروائع !..

الأمـــين : اسكت يا سى أحمد .. قل هذا لغيرى .. اما أنا فانى أعلم من أمـر كتبك كل شىء .. أعلم المصادر ، وأعلم الموارد ، وأعلم الشوارد .. وان شئـت قدمـت اليـك مصادر منقولاتك ومترجماتك .. أهذه هى الكتب التى تمن بها علينا وتجعلها روائع الروائع ؟

أحمـــد : سيدى القاضى .

القــاضى : (كمن يفيق) آ... اعذرانى .. كنت مشغولا بقراءة نص قـدمه لى سيـدى الكولونيل .. اطلب عفوكمـا فى الانشغـال عنكمـا .. والآن ؟

أحمـــد : أيـضا ؟!

القــاضى : لا تخف فما بعد الآن آن ... فالكلمة الآن ، للسيد الكولونيل .

الكولونيل : (يتنحنح متهيئا) لا شك ان الشيخ القاضى قـد شرح لكما تفاصيل القضية ، اما الآن ، علينا ان نختار رجال الحكومة المـؤقتة وهـم عشرة ، ثم نختار مجلس « السينات » لكـي نعرض ذلك سريعا عـلى ممثـل أمريكا كـي يصادق عليه ..

أحمـــد : والفرنسيون ؟ ماذا فعلوا يا سيدى الكولونيل ؟

الكولونيل : الفرنسيون ، قدمـوا اليـوم صباحا للممثل المذكور ، قائمة باسماء حكومة (فان هيك) وقائمة باسماء أعضاء مجلس « السينات » ، اما نحن فيجب ان نتم العمل اليوم .

القـــاضى : اما أنا ، فسأكون وزير العدل .

الأمـــين : واما سى أحمد توفيق ، فسيكون وزير المعارف

الكولونيل : واما أنت يـا سى العمودى ، فستكون رئيس مجلس « السينات » .

القـــاضى : فلنبدأ فى وضع القائمة فورا .

أحمـــد : نـذكر اسماء الرجال اللامعين مـن مختلف الطبقات : كبار رجال حزب الشعب ، والحزب الشيوعى ، وجمعية العلماء ، ورجال وحـدة النواب ، ونخبة من أشهر الاسرائيليين .. اما أعضاء الحكومة ، فانا أرشح الاسماء التالية :

عباس فرحات ـ للداخلية

أحمد بومنجل ـ للمالية

أحمــد فرنسيس ـ للاعــلام والاتصال مــع حكومة الفرنسيين

الدكتور بن جلول ـ للشؤون الاجتماعية

الدكتور تامزالى ـ للتجارة والاقتصاد

الشيخ الابراهيمى ـ شيخ الاسلام

الأمــــين : مــا هذا يــا سى أحمد توفيق ؟ أتأخذ لنفسك وزارة المعارف ، وترشح الشيخ الابراهيمى لمشيخة الاسلام ؟ وهو منصب لا وجود له فى قاموس الوظائف الا فى دواوين الاتراك ؟.. قسما ، لو يعــلم الشيخ الابراهيمى بهذا ، لأركبك حمارا اجرب ، وأمر بالطواف بك فى سوق (الحراش) مقيد اليدين مصفد الرجلين ، والاطفال حــولك يهتفون بمــلء حناجرهم بالبيتين اللذين لصقا بك وبرفيقك ولازماكما ملازمة ظليكما ...

الكولونيل : طيــب ...

اذن ، بقى علينا الآن ، اعداد الخطاب الذى سألقيه أنا بالراديو ، باللغة الفرنسية ...

أحمــــد : وألقيه أنا باللغة العربية ، على ان أصوغه ، فى قالب يأسر الالباب .

الأمــــين : (فى سخــرية) ولكنــه يخــرب الضمائر ، ويكشف الستائر ..

أحمــــد : أجل ذلك ما سأفعله فى خصوصك يوما .. ان لم تكف عنى لسانك !!

الكولونيل : ما هـذا ؟ ما هـذا ؟ دعونا فى الجد ، ما لكم « تقجمون » (!!) .

القـاضى : مرحى .. لقد استعملت الكلمة فى محلها يا سيدى الكولونيل

الكولونيل : اية كلمة تعنى ؟

القـاضى : كلمة « تقجمون » بدل تمزحون .. ما رأيك يا سى أحمد ؟!

أليست الكلمة الدارجة ابلغ من الفصحى ؟

الأمـين : اذا كانت الكلمة « تركية » كما اتوهم ، فان سى توفيق سينقلها الى الفصحى رغم انف كل العرب العاربة والمستعربة .

أحمـد : أنا مسلم أولا ، وتركى ثانيا ، ولا فخر .

الأمـين : لا ، هذا غير صحيح ..

أحمـد : ما هذه الوقاحة ؟ الناس مصدقون فى انسابهم ... انت تنكر علي نسبى التركى «الشريف» ؟

الأمـين : انـت لست مسلما تـركيا ، ولكنك مسلـم فرنسى ...

الكولونيل : آ ... هذا صحيح يا سى أحمد ، لقد غلبك سى العمودى هذه المرة .. والآن دعونا نتفـرغ لكتابة الخطاب الرئاسى الذى سألقيه باسـم الحكومة الجديدة ...

أحمـد : لا تنس فى خطابك هذا قضية اعلان العفـو العام على كل السياسيين والمسجونين والمبعدين

...على ان تعطيني الخطاب لتعريبه في الوقت المناسب .

الكولونيل : حسنا ... اذن الى اللقاء مساء اليوم على الساعة 9 لاقدمكم الى رئيس الحكومة الفرنسية الجنرال (فان هيك) .

القاضي : كيف نخاطب رئيس الحكومة الفرنسية ؟ باسم الرئيس ؟ أم بلقب الجنرال ؟

الكولونيل : لا هذا ولا ذاك .. نخاطبه باسم الزعيم « شاف » .

أحمد : ولكننا نحن لا نعترف به زعيما علينا .. انت وحدك زعيمنا .

الكولونيل : هيا سى أحمد .. ليس الوقت وقت مجادلات .. هكذا يجب ان ندعوه الآن ، لانه زعيم الفرقة الفرنسية التى تشكل الحكومة ، وتعمل على تيسير دخول الامريكيين دون مقاومة ... هيا ، اذهبوا واستعدوا .

الأمين : فى أى يوم نحن من التاريخ ؟

القاضي : ولم هذا السؤال يا سى الامين ؟

الأمين : لابد من التدقيق فى معرفة هذا اليوم التاريخى الذى تؤسس فيه أول حكومة لـ ...

أحمد : لـ ...

القاضي : لماذا ؟ يا سى العمودى ؟

الأمين : للجزائريين .. الفرنسيين ..

القـــاضى : أ ... وهو كذلك . اليوم يا أخى 26 أكتوبر .

الأمـــين : 26 أكتوبر سنة 1942 ميلادية .. أكتب يا سى أحمد ، سجل فى مذكراتك ... حتى لا تنسى الحقائق ، فتملا مكانها بالاوهـام والاحـلام كعـادتك ..

احمــد : (غاضبا) الى متى ، وأنا أتحمل هذه الشتائم .. أنا انسحب

الأمـــين : هذه ليست شتائم يا سى أحمد .. هذه أوصاف تلازمك فى كـل كتاباتك . وستبقى ملازمة لك الى الابد على ما يظهر .. اسمع .. (يدنو منه سرا) فى الحقيقة .. انا اثق فيك أكثر مما أثق فى القاضى والكولونيل معا .. وأرى ان هذه الحكومة التى سنؤلفها بعد حين، والتى ستكون فيـها « وزيرا للمعارف » انما هـى « حكومة مهرجين » .. سجل ، سجل عنى هذا فى مذكراتك .. (جهرا للجميع) الى اللقاء اذن فى المساء .. احتراماتى سيدى الكولونيل .. تحياتى سيدى القاضى ...

الكولونيل : أنت ولا شك .. ستتهيأ لمقابلـة الزعيم فى هذا المساء ؟

الأمـــين : سنتهيأ كلنا يا سيدى الكولونيل ..

الكولونيل : لا ، قصدى ، انك سترتدى غير هذه العباءة (القمراية) البالية .. ستلبس بدلة محترمة .. أو ...

الأمين : وهل تركت لى سياسة «الانديجان» فرصة لاكتساب بدلة ، أو حتى عباءة أو .. (قندورة) محترمة ..؟ تأكد يا سيدى الكولونيل انى لا أملك غيرها .. غير هذه العباءة (القمراية) البالية !!

الكولونيل : اذن .. خذ منى هذا البرنس ، وضعه على منكبيك حتى تختبىء هذه العباءة البالية وراءه ...

الأمين : انت كريم يا سيدى الكولونيل ... سوف لا أنسى لك هذه المبرة .. انت حقا فى مكان الرئيس .. غير ان لى سؤالا تصحيحيا ارجو أن تسمح بالقائه عليك ؟

الكولونيل : تفضل .

الأمين : انت حقا فى رتبتك العسكرية كولونيل ؟ مبلغ علمى حتى الآن انك كومندان .

الكولونيل : ابى هو الكولونيل .. اما أنا فما زلت كما تقول .. ولكن بحكم الوراثة وتغليب الاول على الاخير ... غلب علي لقب الكولونيل ...

الأمين : صحيح .. ومن الذى لا يعرف الكولونيل ابن داود ؟ حتى المثل الشعبى المتداول ، ما يزال يقول :

العربى عربى ، ولو كان الكولونيل ابن داود !!

القـــاضي : ولكننا الآن فى العهد الجديد .. والكومندان ... اقصد الكولونيل ... سوف ينعم عليـه بالقاب الفخر ونياشينه ، عندما يصبح أول رئيس للحكومة ...

أحمـــد : مـا هذا يـا سى الامين ؟ لقد اصبحت بهـذا البرنس الرمادى الذى انعم به عليك سيادة الكولونيل كانك « باش آغا » تنقصه النياشين.

الأمـــين : انت تعلم انى لا امقت شيئا فى حياتى ، مثل مـا امقت « القياد » وكـل ما يتصرف مـن الكلمة .. ومجموعة جريدتى «الدفاع» تشهد بذلك يا سى أحمد ، ولو كنت أريـد منصب « الباش آغا » لما سبقنى اليه أحد ، حتى «شيخ العرب» اما انت يا سى توفيق فتشبه فى هذه البدلة الضيقة ، الممثـل الكوميدى « شارلى شابلان » لولا هذا الطربوش التركى ...

أحمـــد : لقد عـدنا الى فلسفة التراشق .. اسمحوا لى انا بالانسحاب فورا . (يفتح الباب ويخرج)

الأمـــين : بون دي بارا !! (ضاحكا)

الفصــــل الثــالــث :

المشهـــــد (3)

شخصيات الفصل الثانى ، ثم الحاجب والخادم ثم الزعيم .

الحــاجــب : تفضلوا . . . (الشاف) فى انتظاركم

أحمــــــد : انظر هذا يا أستاذ العمودى

الأمــــين : ماذا ترى ؟

أحمــــــد : نحن فى قصر فاخر ، كانه من قصور ملــوك فرنسا . . عصر لويس السابع عشر . .

الأمــــين : لعل هذا هــو لويس الثامن عشر ، الذى لــم يكتب عنه التاريخ شيئا ؟

أحمـــد : انظر هناك ...

الأمـــين : انه هو ... الزعيم ... الشاف !!

أحمـــد : انظره كيف يجلس فى كبرياء وغطرسة

الأمـــين : انه ملكى النزعة ، وصديق المسيو « داستى » الذى يرأس حزبا ملكيا ويسعى لتعيين مدعى الملكية الفرنسية « الكونت دى بارى » على رأس الشمال الافريقى ، تمهيدا لوضعه فى قصر فرساى ...

أحمـــد : انظر ... انه يستقبلنا فى عنجهية الاسپاد ، المغرورين ... انه ما يزال فى أحلام الملوك .

الأمـــين : وأنا وأنت ، ما نزال فى أحلام المطامح والمطامع .. والا فما وجودنا فى هذا المكان ؟

الكولونيل : شـاف !

القـاضى : شـاف !

الأمـــين : شـاف !

أحمـــد : شـير مسيو !

الجنـرال : مرحبا بكم ... تفضلوا ... (يصفق)

الخـادم : (يدخل وهو يجر عربة المشروبات «الروحية»)

الجنـرال : قدم أولا : الكونياك ... تفضل

أحمـــد : لا أنا لا أشرب الا الماء البارد

الخـادم : زجاجة فيشى ؟

احمـــــد : حسنا فيشى !

الأمـــين : (همـــسا) انـــت بشذوذك هــذا ، تفضحنا وتفضح نفسك ...

احمـــــد : ولكنى لا أشرب الكحول ...

الأمـــين : هذا ما تدعيه دائما .. خذ الحياة كما هى يا أخـــى .. فدارهم ما دمت فى دارهم !..

احمـــــد : وعلى فرض انى لا اتحرج فى كاس ... فليس هذا مكانها ..

الأمـــين : ليس هذا اذن مكانك ...

احمـــــد : اسكت ... انه يتكلم ...

الجنــرال : هيه ماذا عندك ، مسيو بن داود ؟

الكولونيل : ها هى ذى قائمـــة الحكومة ... وهـــذه قائمة مجلس « السينات » ... وهذا هـــو الخطاب الذى سألقيه فى الراديو ...

الجنــرال : حسنا ... اشربوا ، اشربوا .. املا الكؤوس يا نـــادل ... ما هذا الجـــو الفاتر ؟ اطلقوا الحان الموسيقى .. ما بكم ؟

(موسيقى سانفونيات)

احمـــــد : مالك سيدى القاضى منذ الليلة ؟ انى أراك معتدلا فى الشراب خلافا لعادتك ...

القـــاضى : وانت ؟ ما لك تتحرج مـــن الشراب ، خـــلافا لعادتك ؟ (ضاحكا) .

أحمـــد : (يجاريه فى الضحك) انت تعلم انى لا أشرب

القــاضى : وانت تعلم اني لا أصدقك .

أحمـــد : انت حـر .

القــاضى : وانت عبد ... للتقاليد ، يا سى أحمد ؟

أحمـــد : وانت عبد للزق ، يا شيخنا القاضى ؟

الأمــين : (من بعيد) انت أكرم من عرفت ، يا جنرال ؟

الجنـرال : (وهو ثمل) وانت أظرف من رأيت يا مسيو عمـودى ؟

قلت لك : عندما جاءت فرنسا الى هذه البلاد كان السكان فيها لا يتجاوزون المليون .. اما اليوم ، فهم قرابة سبعة ملايين ..

أحمـــد : لا ، عفوا ، بـل كـان تعداد السكان عنـد الاحتلال ـ عـشرة ملايـين حسب الـوثائق الـرسمية .

الجنـرال : (وهو ثمل) وما هى الوثيقة التى تتكلم عنها .. يا سى أحمد ؟

أحمـــد : كتاب « المرآة » لحمدان عصمان خوجة ، وكان مـن كبار رجال الدولة قبـل عدوان 1830 ، وهو بحث قـدم لاعضاء لجنة البحث الملكية بـباريس .

الجنـرال : (يصفق معربدا) مرحى .. أنـا أخاف مـن رجال الاطلاع !!

الأمين : (من بعيد) ولكنه كثير المطامح والاطماع !!

القاضي : هذا صحيح .. الا ان مطامحه واطماعه تكتسى دوما ، ثياب الشرعية والمنطق .

الأمين : أجل ، فيما يدعيه من غير بينة ...

الجنرال : حسنا ... لم يبق اذن الا ان أودعكم ، وأقول لكم الى اللقاء ، فى ذلك اليوم الكبير !

الكولونيل : وهو كذلك ، يا سيدى الجنرال ، الى اللقاء .

الأمين : شكرا على كرمك (مون جنرال) .

الجنرال : انت رجل هائل يا سى العمودى ، أنا مسرور بمعرفتك .

الأمين : العفو .. (مون جنرال)

أحمد : احتراماتى ، سيدى الرئيس .

الجنرال : مع السلامة ، السيد .. وزير المعارف ؟ ارجو أن أراك قريبا ...

أحمد : أنا فى خدمتك ، سيدى الرئيس ...

الجنرال : تفضلوا ... وعليكم بكتمان الامر ، حتى حلول « اليوم الكبير » ...

القاضي : حتى نزول (السادة) الامريكان .

الجنرال : وهو كذلك ... نزولهم مؤكد يوم 8 نوفمبر .. الى اللقاء

الجميع : الى اللقاء ...

الأمين : أراك مسرورا (جذلا) يا سى توفيق ؟ أظنك شربت معنا بعض الكاسات ، حيث لم يرك أحد منا ...

احمد : لا ، ولكنى جذل مسرور كما تقول .. لقد اعترتنى نوبة من النشوة الفكرية لا أستطيع ان أصورها ...

الأمين : طبعا .. ستغدو بعد قليل من الايام ، وزيرا للمعارف ...

القاضي : وانت يا سى الامين ، ستعود الايام ضاحكة فى وجهك عندما تصبح رئيسا لمجلس النواب .

الأمين : انا كما تعرفنى ، لا أثق كثيرا بالوعود ، لا سيما وعود الفرنسيين ..

أحمد : صحيح ... ولكن هؤلاء ليسوا كبقية الفرنسيين انهم أحرار فى المقاومة ...

الأمين : ان الفرنسيين حين تعتريهم نشوة الحرية ، لا ينسون أبدا ان الجزائر مستعمرة ، وان الجزائريين كلهم (انديجان) !

أحمد : لا تتشاءم .. انا (بحاستى السادسة) أدرك اننا على أبواب عهد جديد ... لهذا ترانى (جذلا مسرورا)

الأمين : لقد انستك النشوة بوزارة المعارف ـ ما يجب علينا من الحذر والحيطة .. فلا تتفاءل كثيرا .

أحمـــد : انا مسرور كما تقول بمنصب وزير !! ... لا سيما وزيـر المعارف ... ولكنى مسرور أكثر ، بانهيار الاحلام الالمانية الايطالية فى بـلادنا ...

الأمــين : تنهار الاحلام الالمانية الايطالية ، ليخيم على انقاضها كابـوس الاخطبـوط الامريكـانى والانكليزى والفرنسى ... الكفر ملة واحدة يا سى أحمد .

الكولونيل : سى الامين وسى أحمد .. انتما لا تجتمعان الا للتفرقة ، ولا تتناجيان الا بالمؤامرة ..

القــاضى : صحيح .. هـذا صحيح ، لا يجتمـع الامـين العمودى وتوفيق المدنى ، الا وثالثهما شيطان يحرضهما على بعضهما ...

الأمــين : فاحذرهما اذن على منصبك الجديد ...

الجميــع : (بتضاحكون)

الكولونيل : الى اللقاء اذن .. انتظروا أول اشارة منى ..

القــاضى : وهو كذلك ... الى اللقاء (مون كولونيل)

الجميــع : الى اللقاء ...

الفصـــل الــرابـع

ـ المشهـد (4) ـ

الامين ـ أحمد ـ القاضى

أحمـــد : قامت القيامة .. ولم يحرك احـد ساكنا .. لقـد مرت أيام عـلى نـزول الامريكان فى شواطىء (سانت أوجـين) ، ولم يصلنا شىء مـن أخبـار الجنرال ، ولا أي اتصـال مـن الكولونيل .

الأمـــين : لقـد نزل (الاحتلال) هـذه المرة بشواطىء سانت أوجين فى خطة مدروسة ... الا ترى ذلـك ؟

أحمـــد : وكيف ذلك ؟

الأمـــين : لانهم يعلمون ان المكان الاكثر هدوءا وامنا ، هـو هذا الحـى الذى يأوى وزراء الحكومة المزعومة ... أحمد توفيق المدنى ، وزيـر

المعارف ، وعبد الرحمن شاندرلى ، وزير العدل .

أحمـــد : والامين العمودى ، رئيس مجلس السينات (ضاحكا)

الأمـــين : ولا تنس الشيخ العقبى الذى لم يخف يوما كرهه للالمان ، ولرئيسهم (ادولف هتلر) .

أحمـــد : انت تعلم ان هذا شرف للشيخ العقبى .. ولكنك أردت ان تحشره فى الزمرة ـ وهو منها برىء ، لان حفيظتك عليه ما تزال متأججة ، منذ طردك من المجلس الادارى لجمعية العلماء .

الأمـــين : كما طردك انت من نادى الترقى ، وفوت عليك (الامارة) فيه ..

احمـــد : انظر ... ان السيد القاضى يغادر مكتبه (يناديه) انتظرنا يا سيدى القاضى .. لقد وصلنا .. (يسرعان فى السلم) .

القـــاضى : هذه مواعيد العرب .. انتظرتكم ساعة وبعض الساعة ، وهو وقت كاف للوصول الى صقلية .

الأمـــين : وهناك ، ستتأكد بالعيان ، من أوهام سى أحمد توفيق فيما كتبه عنها منقولا مما كتبه المستشرقون والاجانب .

القـــاضى : (يفتح الباب) ادخلوا ، ليس هذا وقت مزاح .. (يدخلون) لقد خدعنا فيما يبدو .. لقد بحثت عن الكولونيل فى بيته فلم أجده ...

أحمـــد : (ضاحكا) لعلـه فـر بحكومتنا الجزائرية ، وبمجلس السينات ، فعلينا ان نلحـق بـه ، لكى نفتكها منه على الاقل ...

الأمـــين : ايا مـن بالوعود اجبتمونا
شفاها فى المجالس أو كتابه
تبـين منكم اخلاف وعـد
خجلنا منه عنكم بالنيابه !!

أحمـــد : الآن أتأكـد ان هذين البيتين لـك ، لانـك تنشدهما بطلاقتك وفصاحتك المعهودة .

الأمـــين : وهـل انا مثلك يا سى توفيـق ، فى انتحال أقوال غيرى ، بعد ان اسبغ عليها من أسلوبى ولهجتى ؟.. لا يا أخى ان البيتين لصاحبهما ، وصاحب الامتياز فيهما هـى جمعية العلماء وجريدة البصائر .

أحمـــد : ولم هذه الثورة يا أستاذنا العزيز ؟ انا مـا اردت الا خيرا !..

القـاضى : اسمعا .. ساخذ الآن سيارة ، واذهب للبحث عن (بن داود) . ويجب ان أجده فى الارض أو فى السماء .

أحمـــد : اذن ، خذ طيارة ، لان السيارة لا تستطيع ان تخترق أجواء السماء ..

(يسمع طرق على الباب)

القــاضى : من ؟ المحكمة فارغة ! اليوم عطلة .. لا أحد فيــها .

(يعود الطرق)

ادخل .. (يعود الطرق) .. انطرى ؟..

(يفتــح الباب ويــدخل الكولونيل فيندهش الجميع)

الكولونيل : لقــد علمت انكم هنا جميعا .. لهذا جئــت بنفسى لأراكم (يضحك) ما بكــم ؟ أراكــم واجمين محزونين ؟ لا تبتئسوا .. (الشغــل المليح يبطا) كما يقول المثل ، أليس كذلك يا سى أحمد ؟..

أحمـــــد : اذن نفهم مــن كلامك هذا ، ان آمالنا قــد تبخرت دفعة واحدة وانهارت أحلامنا أمــام نور الحقيقة الساطع ؟..

القــاضى : أين الوعد ؟ كيف هى الحالة ؟

الكولونيل : لقد وقــع ما لم يكن فى الحسبان .. فقــدوم الاميرال دارلان وتمكنه من الحكمين المــدنى والعسكرى قــد غــير الحالــة ، والامريكيون يقرأون حسابا للــرأى الــعام الفــرنسى ، وللمقاومة الفرنسية ... فهم يودون ان يكون كــل الفرنسيين معهم ضــد الالمان ، ساعــة الهجوم الاكبر .. لهذا فهم لا يرون الآن ان يغيروا في الشمال الافريقى ساكنا ، وستبقى الادارة والحكومة وكل المرافق، بيد الفرنسيين

الى ان تنتهى الحـــرب ، وعندئذ يصفى كــل حساب .

الأمـــين : وهكذا تنتهى المسرحية ، ويسـدل الستار ، وينصرف الممثلون فى جنــح الظلام وكلهــم متـــدثر (بدرباله) منصرف الى (خربته) ولسان حالهم قول ذلك العربى القديم :

أطــوّف مــا أطــوف ثــم آوى
الى بيــت ، قعيــدته لــكاع !!

هيا يا سى أحمد ... انفض يديك من وزارة المعارف ، واذهــب الى (قصرك) فى ســلاليم نهج لالير ، تجر اذيال الخيبة والبله !!..

الكولونيل : على كل ، سنذهب الآن لمقابلة الجنرال ، فهــو فى انتظارنا بمكتبه ، وستستمعون منــه الى تفاصيل القضية .

✡ ✡

المشهـــد (5)

(شخصيات المشهد المتقدم ، ثم الجنرال)

الأمـــين : ما هذا يا سى توفيق ؟ لقد تبدلت الارض غير الارض والسماوات كيف وقع هذا ؟

أحمـــد : مـاذا وقـع ؟

الأمـــين : الا ترى ؟ كل شيء تغير .. حتى القصر ، يبدو عاديا ، لم تعد فيه مظاهر الملكية ، ولم يعـد الخدم فى ازياء لويس السابع عشر ؟..

أحمـــد : ولم تعد الموائد الجرارة ، تحمل الصهباء .. صافية كطعم الفلفل !..

الأمـــين : أراك تأسف عليها الآن بعد ان فاتك كل شيء ولم يبق لك الا ان تنشد مع الشاعر :

(وما حب الديار شغفن قلبى)

ولكنى احـب بها « الدنانا » ؟

أليس كذلك ، يا .. سى توفيق ؟

أحمـــــد : انــى أراك بــارعا فى ارتجــال التضمين ، براعتك فى احتساء بنت الدنان !!

الآمـــين : يــا مــن يعيرنى بالكاس اشــربها
ويمــلأ الفــم بالتسبيح بهــتانا !

لئــن شربت دم العنقود عن سفــه
فقدّ شربت دمــاء الناس طغيانا !

فأينا قــد جنى الآثــام موبقــة ؟
واينا كان عنــد اللــه اتقــانا ؟!

الكولونيل : (من بعيد ينادى ومعه القاضي) هيا بنا .. اسرعا ، اسرعا ما لكما ثقيلان فى مشيكما ؟ هيا ، الحقا بسرعة ...

الآمـــين : لم يعد سى توفيق يطيق نقل قدميه .. لقــد كبلتهما الخيبة ، وأوهنه تبخر الحلم الجميل ... هيا ، تحرك يا أخى ، الدنيا ما تزال بخير والدهر يلد العجائب ، فلا تاس على ما فات ..

الكولونيل : (يطرق الباب ثــم يفتحه ويبــدا بالتحية) مساء الخير سيدى الجنرال ..

الجنــرال : (من بعيد على مكتبه) أهلا ، أهلا .. تفضلوا ادخلــوا .

الآمـــين : الم اقــل لك ، ان كــل شيء تبــدل .. حتى الجنرال ، لم يعد يمثل الملكية .. لقد عاد كما كــان ، ضابطا فى الجيش بسحنته وهيئتــه الصارمــة .

أحمـــد : نعـم ، هـو كما تقول ، لقـد تبخر الحلم ، واستيقظ النوام !..

الأمـــين : وعادت لعترها لميس !!

الجنـرال : لقد اخبركم السيد بن داود بلا شك ، فـلا داعى للاعادة .

القــاضى : طيب ... ونحن ؟

الجنـرال : يجب ان ننتظر أياما ريثما تستقر الحالـة ، وتهدا الخواطر ، ثـم نذهب جميعا لمقابلـة (الاميرال دارلان) .. وهناك نقـدم لـه مـا ترغبون فيه من مطالبكم .

الأمـــين : رجعنا الى سياسة تقديم المطالب اذن ؟ ولـكن الشعب الجزائرى يعرف من يمثله بعد اليوم .

أحمـــد : اذن ، دورنا نحن قد انتهى منذ الآن ؟

الجنـرال : مع الاسف ، أقول نعم .. انتهى دوركم فعـلا ... هذه هى ظروف العمل ، يا سى أحمد .. وفرنسا لا تنـسى لكـم هـذه الخدمـة التى قدمتموها ... والى اللقاء .

الأمـــين : (سرا) اكمل جملة الجنرال يا سى توفيق .

أحمـــد : وما هى الجملة ؟

الأمـــين : أنسيت قـوله فى المرة السابقة وهو يودعنا ويقول : الى اللقاء فى « اليوم الكبير » ؟..

الجنـرال : اذن مـع السلامة يا سى أحمـد ... لا تنس افادتنا بالوثائق التاريخية كلما عثرت عـلى

الخفايا منها ... أنا أعلم انك (جرذ المكتبات)
فاذا انت وقفت على ما يصحح مسيرتنا ، فافدنا
به ... ونحن لا ننسى لك خدماتك .. مع
السلامة ...

(يخرج الجميع ما عدا بن داود)

احمد : أرأيت يا سي القاضى ، كيف تكون الاعيب السياسة ؟

الأمين : واين هي السياسة يا سى توفيق ؟ هيا افق .. لقد نمت طويلا على أحلام وزارة المعارف .. صحة النوم يا سى توفيق ... وادرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح ...

* * *

والمناقشة :

أيها الاخوة القراء !

ان التقاليد المتبعة فى العروض المسرحية الحديثة ، هى ان كل عرض مسرحي ، تعقبه مناقشة ، وجمهور القراء كجمهور قاعة المسرح ، له الحق فى المطالبة بهذه المناقشة ... ولكن ما حيلتنا فى المحافظة على هذا التقليد ، مع الشروط السابقة واللاحقة التى وضعها المؤلف لمسرحيته هذه ؟ فهو يرفض مناقشة مسرحياته ومحاضراته ...! القى محاضرة فى باتنة ، وعندما انتهى الى آخر كلمة منها ، اعتذر احد المرافقين له بكون السيد المحاضر ، لا يمكنه البقاء فى القاعة نظرا للارهاق الذى يعانى منه ... والارهاق الذى كان يعاني منه ، هو علمه بأن في القاعة مجموعة من الاساتذة ، جاءوا

لمناقشته الحساب ، ومثل هذا وقع فى محاضرة له بمدينة قسنطينة .

اما المناقشة المتوقعة على هذه المسرحية التى وردت فى كتابه (حياة كفاح ، الجزء الثانى) من صفحة 345 الى صفحة 355 ، فقد قطع المؤلف دابر كل مناقشة حولها فى شروط المنع التالية :

1 ـ أشخاص المسرحية ، كلهم ماتوا ، ولم يبق منهم الا المؤلف نفسه ، وهكذا يبقى وحده : الشاهد ، والخصم ، والحكم ... فلا داعي لمناقشته ، ولا فائدة منها .

2 ـ مجموعة الشخصيات الاربعة المختارة لتمثيل هذه المسرحية كان الهدف منها منذ تعيينها ، هو اذاعة نبا هذه الحكومة الجزائرية الموهومة .. هكذا يقول بالحرف (ص 355 حياة كفاح ، ج 2) :

ـ القاضى ، بواسطة المحكمة .

ـ أحمد توفيق ، بواسطة النادى .

ـ الامين العمودى ، بواسطة موكليه العديدين .

ولكن الثلاثة المهيئين لإذاعة النبإ ، (نبا الحكومة الجزائرية الموهومة) خيبوا فال (الفرنسيين والامريكيين) بمحافظة ثلاثتهم على السر ، فلم يعلموا به أحدا ، بل بلع ثلاثتهم السر .. الى ان جاء صاحب الكتاب ، فكشف عنه بأسلوبه المسرحي البارع ..! وهكذا ضاعت كل الوثائق والمواد التى ترتكز عليها المناقشة ، ويقيت المسرحية وحدها بدون حل لعقدتها ... ولكن الامل وطيد فى ذكاء القارىء (الغير العادى) فهو وحده في تحليلاته الدقيقة ـ سيجد الحل لهذه المسرحية ،

عندما يكتشف ان كتاب : « حياة كفاح » ان هو الا مجموعة أوهام وأحلام ، كتبها صاحبها تحت عنوان «مذكرات» أملتها عليه الذاكرة الناسية ، والحافظة الخائبة ، والعقـل الخرف ، الذى يطرق باب الهرم بشدة ، فهو يأخذ صورة الماضى البعيد بمنظار تخـرم اطاره ،وتهشَّمَتْ مِرْآتُهُ ، وتعتمت ظلالـه ، فاستوت فى رؤيتـه الانوار والظلم ، والقواعد والقمـم ، فاصبح صاحبه كالمنبتّ ، لا ظهرا ابقـى ولا أرضا قطـع .. وتلك خاتمة مـن يبيح لنفسه اهدار دم الاخيار ، مـن عباد الله الاحرار ، بعد انتقالهم جميعا الى جوار الواحد القهار !!

القسم الثانى

مقـــــالات

مناقشة (1)

الاستاذ توفيق المدنى
فى كتابه «حياة كفاح» (ج 2)

بقلم : محمد الطاهر فضلاء

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
على طرف الهجران ان كان يعقل

ويركب حد السيف من أن تضميه
اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

☆ ☆

فى التعقيب عن المحاضرة التى ألقاها الاستاذ توفيق المدنى فى المركز الثقافى الاسلامى يوم (9 ـ I ـ 78) وقدم فيها الى الجمهور كتابه الثانى (حياة كفاح) ـ طالبت باسمى الخاص وباسم تلاميذ الحركة الاصلاحية والنهضة الوطنية وروادها الاوائل: عبد الحميد بن باديس، والبشير الابراهيمى والطيب العقبى ، وغيرهم ـ بضرورة عقد ندوة عامة يدعى اليها هؤلاء التلاميذ ويحضرها الجمهور من الشباب وغيرهم ،

(1) نص المقال الذى نشرته جريدة « النصر » الوطنية فى حلقات ابتداء من 23 صفر 1398 هـ ـ 2 فيفرى 1978 ·

نناقش فيها كتاب الاستاذ توفيق بمحضره ـ مناقشة من يستهدف الكشف عن الحقائق التي اغفلها المؤلف ـ عمدا أو خطأ ـ وتعديل بعض المفاهيم مما ورد فيه من الادانات وحتى الاهانات ، في حق الرواد الاوائل للنهضة الوطنية ضمن اطار الحركة الاصلاحية لجمعية العلماء .

وقد اجاب الاستاذ توفيق على هذه الملاحظة بانه سيحضر هذه الندوة متى دعي اليها ، ثم علق على بعض الملاحظات والتعقيبات بما أكد موقفه في كتابه ، لا سيما بعض الادانات التي أثبتها فيه .

وبما أن أمانة السلف في أعناقنا جميعا ، تسلمناها منهم « راية بيضاء » يجب علينا ان نسلمها نحن بدورنا الى ابنائنا وأحفادنا كما هي من غير اجحاف ولا مبالغة لانها خلاصة النضال المرير والكفاح المستميت الذى خاضه هذا الشعب في مسيرته وراء هؤلاء الرواد الاحرار ـ فاننا سنتابع مناقشة الاستاذ توفيق ـ شفاها في المجالس أو كتابة ـ حتى يعرف الشباب من ابنائنا ، وتعرف الاجيال المتعاقبة في هذا الوطن حقيقة أصالته وأصالة ثورته المظفرة .

وسيعلم الجميع ان التاريخ لا يجامل ، ولا يمين ، ولا يتحامل ، ولا يغمط للناس حقوقهم ، مهما طغت الاهواء في تسجيل الاحداث التي يراد اقحامها عليه .

وان تاريخ النهضة الوطنية والحركة الاصلاحية فيها ـ لا يمكن ان يكون في نصاعته وصدقه وصفائه الا فيما خلفه هؤلاء الرواد الاوائل مما كتبوه واذاعوه في صحفهم ومنشوراتهم ، أو فيما يرويه عنهم تلامذتهم وانصارهم

وحوار يوهم بامانة الصدق ورفقة الطريق من غير مبالغة ولا تهويل ، ومن غير تحذلق ولا تأويل .

وعلى هذا الاساس سنتابع كتابك يا أستاذ توفيق بالمناقشة والمقابلة والتعليق ، مبينين فيه الاخطاء التى كان فى امكانك ان تتجنبها لـو كنـت محترسا ـ كعادتك ـ لخطـوك ، بـدل التحمس والاندفاع .

ومعذرة اليك منـذ البـدء ، فانه يعز علينا مجابهتك بما عساه يؤلمك ، ولكنه يعـز علينا أكثر تضييع جوهر الامانة التى تلقيناها من تلك الايدى الامينة ، لا سيما وهى كـل تراثنا وتراث اجيالنا مـن رواد هذه النهضة الوطنية التـى نتفيء اليوم ظلالها حرية وسيادة .

وسنبدأ مناقشتك بما بدأت بـه رحلتك ، لانـه مطلـع القصيدة الزاحفة ، وبداية الآية المصحّفة .

ـ مفـتي قسنـطينـة ـ

بسعي مـن هذا المفتى (الملاك) منـع الامام عبد الحميد ابن باديس من التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة ، وحـرم بهذا المنع الجائر ، عشرات بل مئات من طلبة العلم ومريديه من الاستفادة من هذه الدروس .

ومفتى قسنطينة هذا هـو الذى بـقي مناوئا لعبد الحميد ابن باديس كرائد للامـة الجزائرية فى عقيدتها الصحيحة ، ولغتـها وسيادتـها .

ويا ليتـه كان يناوىء الحركة الاصلاحية وجمعية العلماء وعبد الحميد بن باديس ـ عن اقتناع منه بوجهة نظر يستمد رأيه فيها حتي مـن البدع التي يحميها أو من الخرافات التى

كان يذيعها بين الناس . ولكنه كان يصدر في مناوئته ـ عن تعليمات كان يتلقاها من اذناب الادارة الفرنسية الممثلة لمصالح المخابرات الاستعمارية ، وهو الامر الذي من أجله يرتكب حماقات في اللجاج والخصومة كهذه الحماقة التي سجلتها عليه جريدة « السنة » لسان حال جمعية العلماء في عددها الثاني بتاريخ 17 افريل 1933 تحت هذا العنوان :

كاد فضيلة المفتي بقسنطينة أن يوقع فتنة بالجامع الكبير !!

نحيل القراء على هذا العدد من الجريدة ضمن مجموعتها الكاملة وهي بين أيدينا تحت الطلب ، ليدركوا حقيقة هذا الرجل الذي تحدث عنه الاستاذ توفيق في بداية كتابه اذ يقول :

ـ لو كان الملائكة يمشون على الارض ، ويختلطون بالناس ويغشون المجالس ، لكان ... (يعني المفتي) واحدا منهم .

ويقول أيضا في غير ما تحرج :

ـ ولقد كان (المفتي) قبل ابن باديس واضرابه واصحابه أوّل من بشر بالاصلاح الاسلامي قولا وكتابة ... الخ .

يا للهول ؟ أكان مفتي قسنطينة مصلحا قبل عبد الحميد ابن باديس واضرابه ، ثم يكون مفتيا يتلقى تعليماته من الادارة الاستعمارية ، ويبعث اليها بتقريراته التي يطالب بها في كل فترة ، مثل هذا التقرير الذي نشرته له مجلة الشهاب (جزء 12 ، مجلد 10) الصادرة بتاريخ 9 نوفمبر 1934 م وهذا نصه بالحرف :

تعريب ترجمة عرض حال الديانة الاسلامية
الى لجنـة الاصلاحات الاهليـة
أثناء شهر جويلية 1934

تعليـق الشهـاب :

أعظم مسألة اهتزت لها الامة الجزائرية ، هى مسألة تحجير المساجد على العلماء (1) ، وقد اعربت عن استنكارها لذلك بالمظاهرات التى اقامتها فى القطر كلـه ، لمـا حاولت لجنـة (ميرانت) المعروفة ان تجعل ذلك التحجير قانونيا من الحكومة العليا بباريس . وها نحن اليوم نعرض على الامـة ما يحاوله صاحب هذا التقرير من زيادة التضييق والتحجير والاستبداد ببيوت الله فى فصله التاسع ، حتى انه يريد ان يجعـل اذن الحكومة غـير معتبر الا بموافقته هو ومثله ، وقـد علمنا ان أكثرية لجنة الاصلاحات كانت ضده ، وان بعضهم اشتد فى الانكار عليه . ونحن لا نرى الحكومة بعد ذلك الا معرضة عن تقريره ، غير عاملة به ، وذلك هـو صالح الجميع ، (انتهى التعليق) .

هذا هو مفتي قسنطينة (الملاك)،وهذا هو مفتي قسنطينة الذى سبـق عبـد الحميد بن باديس الى الاصلاح كما يـراه الاستاذ توفيق ، وهذا تقريره الذى كتبه ووجهه باسم الاسلام الذى يمثله ، وباسم المسلمين من (موظفى) المساجد والمعابد الاسلامية ... الى من ؟ الى رئيس الجمهورية الفرنسية .

---

(1) قرار (ميشال) « پريفى » عمالة الجزائر : صـدر فى 18 فيفرى 1933 وصدر بعده قراز بحل الجمعية الدينية برئاسة السيد محمود بن صيام فى 27 فيفرى من نفس السنـة ، لان هذه الجمعية الدينية احتجت على قرار ميشال المدعم من « ميرانت » مدير الشؤون الاهلية بالولاية العامة الجزائرية آنذاك . و « ميرانت » صديق توفيق المدنى ورفيقه فى خدمة الولاية العامة في الجزائر .

أي والله : الى رئيس الجمهورية الفرنسية ، ليطلب منه واليه ـ اعتبار القرار الجائر الذى أصدرته (ادارة شؤون الاهالى) بالولاية العامة فى الجزائر ضد علماء الاسلام الاحرار ، تمنعهم به من ممارسة التدريس والوعظ بالمساجد ـ قانونا حكوميا يصدر كمرسوم يحدد تحديدا نهائيا ظروف واطار هذا التحجير ، ثم يزيد عليه فضيلة مفتى قسنطينة فى بنده التاسع من هذا التقرير اقتراحا يوصى الحكومة الفرنسية فيه ان لا تمنح أى اذن ولا ترفع أى تحجير الا بعد استشارته هو واضرابه ، واعتبار تحرياتهم هى الشهادة الحقة فى التجريح وفى التزكية .

وهذا كله بعد ان يقدم شواهد الاخلاص ، ويعتبر فيه فرنسا الاستعمارية فى مقدمة الدول التى تحمى الدين الاسلامى وتقوم بواجب العناية والحماية لرعاياها المسلمين .

أى والله يا أستاذ توفيق !

هو ما كتب وامضاه مفتى قسنطينة (الملاك) باسمه الصريح الذى تحرجنا فى ذكره احتراما لجلال الموت الذى يفصل بيننا ، ويابى هو الآن يعلن عن اسمه فى هذا التقرير الذى يقول فيه بالحرف :

ـ سيدى رئيس الجمهورية :

(الجمهورية الفرنسية طبعا يا أستاذ توفيق)

أتشرف بان أقدم لكم (هكذا) بالنيابة عن أصحاب الوظائف الدينية ـ تحياتى الاحترامية ، فهذه عواطف فرضها علي الدين الاسلامى الذى فرض على معتنقيه ، الانقياد لكل حكومة تحترم عقائدهم وعوائدهم واخلاقهم ... فأشهد ان الحكومة الفرنسية قائمة غاية القيام بتلك المامورية ... كما

أشهد ان فرنسا منذ احتلالها الوطن أى منذ قرن ، لم تقصر فيما التزمت بـه ، فلذلك استطيرت الامـة فرحا وسرورا لما زارها أول موظفى الجمهورية بمناسبة الاحتفال المئاوى .

مائة سنة استلاء ! مائة سنة جهودا مثمرة !!

اليس فى ذلك دليلا حاسما لكل (مراء) على ان الحكومة الفرنسية « تغذى » أكرم العواطف نحو المسلمين الذين هم يعتبرون أنفسهم من جملة أبناء (أم) الوطن .

ثم يقول فضيلة المفتى (الملاك) فى آخر تقريره هذا ما نصه بالحرف :

ـ تلك أمانى التى أتشرف بعرضها عليكم

لتحيا فرنسا ! لتحيا الجزائر الفرنسية !

(ابن الموهوب) (1)

هذا هو الملاك يا أستاذ توفيق ، وهذا هو المصلح الذى سبق أئمة الاصلاح ...!

ولولا انك انطلقت من مدحه الى القدح فى أئمة الاصلاح الحقيقيين الذين هـم رواد النهضة بحـق ـ لمـا تحدثنا عن (ملاكك) هذا بالمرة ، ولتركناه لك ولاعتباراتك الشخصية ... اما وقد اضطررتنا الى ذلك بمغالاتك فى المدح والذم ، وبأسلوب ارتجالى غير سليم فاننا لم نجد بدا من ذكره بما ذكر بـه نفسه فى هذا التقرير الذى نشرته مجلة الشهاب ، ثـم نستغفر الله على مجاراتك هذه المرة فقط ـ فى نبش القبور ، وعسانا لا نضطر الى مثلها ونحن نتتبع بالمناقشة كتابك هذا فى أهم أخطائه .

☆ ☆

(1) انظر نص هذا التقرير كاملا فى قسم اللواحق من هذا الكتاب .

رسالة الشرك (1) ، وجريدة المنتقد :

ثم نمشى الهوينا فى صفحات هذا الكتاب ، فنقف وقفة قصيرة عند الشيخ مبارك الميلى وكتابه « الشرك ومظاهره » وعند قول الاستاذ توفيق فى صفحة 22 :

---

(1) حول هذا الموضوع ، وصلتنى الملاحظات التالية من الدكتور «شرفى أحمد الرفاعى » الاستاذ المساعد بمعهد الآداب والثقافة العربية بجامعة قسنطينة ، وكنت عازما على نشرها ـ ملحقا بنصها وخطها ـ مصورا ، كما فعلت فى بعض الوثائق ، كمقال الشيخ حمزة بوكوشة ، ولكنى عدلت عن ذلك ، وعمدت الى تلخيص ما ورد فى ملاحظات الدكتور ، بأمانة ونزاهة ، احقاقا للحق الذى اعتدى عليه الباطل من اوهام وتزييفات صاحب كتاب « حياة كفاح » وبيانا وتوضيحا لما اثبتناه منذ ردودنا الاولى عليه ، حيث أشرنا مرارا الى جملة الافتعالات التى تدخل فى مجال « الكذب » و «التزيد» فى التاريخ بقصد التضليل أولا ، والتعالى والتطاول ثانيا .

وفيما يلى ملاحظات الدكتور شرفى ملخصة :

ما كتبه الدكتور شرفي :

ـ يقول الشيخ أحمد توفيق المدنى فى سياق حديثه : « وكنت مؤيدا له من حيث المبدا ، انما انتقدت بصراحة ما فى الكتاب من غلو فاحش .. » (حياة كفاح ص : 22) .

والشيخ مبارك الميلى ، يقول فى جريدة البصائر سنة 1935 :

« وقد تحرينا فيما تخيرنا من أطراف هذا الموضوع ، وطرق عرضه والابانة عنه ، ما رأينا حاجة شعبنا اليه أقوى ، وأسلوب العصر له ادعى ، فكل أمة وحاجتها ... ولم أحتذ فيما كتبت الا ما تخيله فكرى ، ولم أسبح فيما جمعت على منوال غيرى .. فهذه رسالة فى موضوع بور ، على أسلوب عندى بكر » ... (فأين رأي توفيق سنة 1925 من قول الشيخ مبارك سنة 1935 ؟) .

وفى الرسالة نفسها فى صفحات : (ج . د) ورد تقرير المجلس الادارى لجمعية العلماء بقلم الشيخ العربى ، جاء فيه :

« وان المجلس الادارى لجمعية العلماء يقرر باجماع أعضائه ـ أحقية ما اشتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة ، ويوافق مؤلفها على ما فيها ويدعو المسلمين الى دراستها والعمل بما فيها ، فانه العمل بالدين .. (فأين « الغلو الفاحش » الذى أشار اليه توفيق المدنى ؟؟) » =

... وكنت مؤيدا له من حيث المبدا ، انما انتقدت بصراحة ما في الكتاب من غلو فاحش !

= 1 ـ من المستبعد ان يتجاهل الشيخ مبارك الميلى نصائح الشيخ توفيق المدنى المتعلقة بالغلو الفاحش الذى يزعمه ·

2 ـ لا يذكر الشيخ مبارك انه اهتم أو كتب فى موضوع الرسالة قبل سنة 1935 ·

3 ـ يتضح مما سبق أن الشيخ توفيق المدنى لم يطلع قطعا على كتاب : الشرك ومظاهره سنة 1925 كما ذكر ، للاسباب التالية :

أ ـ الشيخ مبارك رحمه الله ، فى التاريخ المذكور ـ كان مهتما بتاريخ الجـزائـر ·

ب ـ تصريحه بانه فكر فى موضوع الرسالة سنة 1935 ·

ج ـ انه فى الاصل كتبه مقالات ، ولم يكن فى نيته ان يؤلف رسالة ولا كتـابـا ·

د ـ ان القراء هم الذين اقترحوا ، ولبى رغبتهم ·

هـ ـ انه بعد كتابة الرسالة لم يطلع عليها الشيخ أحمد توفيق المدنى وانما الذى اطلع عليها وقيمها هو المجلس الادارى لجمعية العلماء ·

و ـ ان رأي الشيخ أحمد توفيق المنشور فى كتابه ، ليس رأيـه فى الكتاب الذى زعم انه اطلع على فصوله أو بعضها ، أو الكتاب كاملا ·· وانما هو رأيه فى رسالة الشرك ومظاهره ، وهو رأي يخالف فيه رأي المجلس الادارى لجمعية العلماء ·

واذا كان هذا موقف الشيخ توفيق من الشيخ مبارك الذى اثنى عليه ، فكيف يكون رأيه وموقفه ممن اتهمه أو عرّض به ؟

ان هذه الزلـة الكبيرة ، تفقد كـل آراء الشيخ أحمد توفيق قيمتها تماما ، وتجعلها من لغو القول ، حتى ولو اعتبر القارىء ان الذى أوقعه فى مثل هذه الزلات ، هو كبـر سنه ، وبعد العهد بينـه وبين الاحداث التى حاول تسجيل انطباعاته عنها ، ذلك ان واجبه فى هذه الحالة ان ينبه الى احتمال خطئه بسبب النسيان أو ضعف الذاكرة ·

وقضية رسالة « الشرك ومظاهره » ليست مما يمكن ان يعتذر له فيها بذلك ، وانما فعل ذلك عمدا ، ولسبب يعلمه هو ، ويمكن التعرف عليه بسهـــولة ؟!

(**تعليـق**) اجل ، هو ما عرفناه منذ قرأناه لاول مرة ، وعرفنـا بـه القراء منذ ردودنا الاولى عليه ، فهل فى هذا زيادة لمستزيد ؟ ولكن ؟

ومـن البلية عـذل مـن لا يرعوى * عـن غيه ، وخطاب من لا يفهم !!

فنقول : اننا مع علمنا بان رسالة الشرك ومظاهره لـــم ينشرها الاستاذ الميلي الا في سنة 1937 ، وعلى فرض أنه كتب منها بعض الفصول ، أو تصميما ملخصا لبعض الفصول فان ذلك لا يمكنه من عرض ما كتبه على الاستاذ توفيق في أقل من أسبـــوع يقيمه بقسنطينة وفي مجالس محدودة تــدار فيها كؤوس الشاى ثم تنسى على المائدة في جو من المناقشة وتبادل النكت ، كما اننا نعلم جيـــدا طبيعة الحـــدة التي يمتاز بـــها الاستاذ الميلي لا سيما حين تمس عقيدته من قريب أو من بعيد أو يوصف ما كتبه عن خبرة وعن اقتناع (بالغلو الفاحش) ، ولو كان هذا صحيحا كما رواه الاستاذ توفيق لروى لنا معه كيف ثار عليه الشيخ مبارك وأفحمه بالحجة وبالمنطق بــــدل ان يتساهل معه مترددا متخاذلا شاكا في صحـــة ما كتبه ... ولعـــل هذه الحكاية مـــن قبيل الحدس الذى تزخر بـــه قريحة الاستاذ توفيق الشعرية الخيالية الجامحة . وما أكثـــر جموح (الخيال النرجسي) عند الاستاذ توفيق في كتابه هذا ، فهـــو حين يقف متفرجا بين قلبه وقلمه ، هذا يوحي وذاك يكتب ، لا يتدخل بينهما بعقله الا حين يرهقانه في الجموح ... ينسى أو يتناسى حدود الزمن وقيود التحرى فلا يتمكن من كبـــح جماح الخيال ، مثل ما وقع له في صفحة 21 عندما قال :

ـ واختليت بابن باديس مرارا ، فكان يحدثني عن الوسط والمجتمع ، وعن آفات الطرقية ، وافاض الى (لعله أراد ان يقول : أفضى اليّ) بحديث عما يريده مـــن انشـــاء صحيفة أسبوعية كان اسمها المنتقد ، وان لم تهيأ أسبابها بعد .. الخ .

فلننظر ـ على مهـــل ـ كيف ينسى الاستاذ توفيق حقائـــق التاريخ وهو يروى عن ابن باديس (في شهر جوان سنة 1925) رغبته في اصدار صحيفته الاسبوعية المنتقد (التي لم تهيـــأ

أسبابها بعد) مـع ان جريدة المنتقد صدر أول عـدد منها فى بداية شهر جويلية الموالى مـن نفس السنة ، فكيف كان هـذا الحديث عن صحيفة لم تهيأ أسبابها ؟ هل نضع فيه ابن باديس موضع الحذر اليقظ الذى لا يريد ان يفضى بحقيقة الامر مبالغا فى التخفى مع كاتب يقاوضه فى أمر الكتابة بها ؟ أم اننا نضع الاستاذ توفيق موضع الاتهام فيما يرويه عـن ابـن باديس ، لا سيما وقد فاتحه فى نفس المجلس برغبته فى اصدار مجلة الشهاب الشهرية ، مع ان الشهاب كانت جريدة أسبوعية خلفت المنتقد التى عطلتها الحكومة ، بعد العدد الثامن عشر ، وبعد أربع سنوات من صدورها صحيفة أسبوعية تحولت الى مجلـة شهرية سنة 1929 ؟!

وعذرا يا أستاذ توفيق على هذه الحقائق التاريخية التى جمح بك الخيال فنسيتها ، وألجأتنا الى تصحيح ما كتبت فى شأنها من غير ان نقصد الاساءة اليك بها ، لاننا لا نستطيع مجاملتك على حسـابهـا .

الكشـف عـن العـورات :

ونمر مسرعين بصفحات الكتاب التى تسجل الفكر القديم والظروف القديمة ، بأسلوب الفكر الحـديث وظروف الحياة الحديثة التى نعيشها ويعيشها الاستاذ توفيق بعد ستة عشر عاما من الاستقلال الوطنى .

ثم نمر – مر الكرام المتألمين – على الصفحات التى شـرّح فيها عددا من المعارف والاشخاص وحتى الاقرباء والارحام – تشريحا كشف فيه عن العورات مما هو داخل فى الحياة الخاصة للافراد والجماعات . الذين حموه بجاههم مـن (الجواسيس) ومن رؤسائهم ، ثم اكرموا وفادته ، وانزلوه المنزل الرحب فى

بيوتهم وعلى موائدهم ، ثم زوجوه احدى كرائمهم ليكون انجاله منها حفدة لهم .

ولو جئنا نناقش الاستاذ توفيق على كل ما ورد فى كتابه من شأنهم ، لوضعنا بين يديه رصيدا هائلا من الوثائق المدينة لموقفه منهم . ولكننا نكتفى فقط بقولنا :

وما هى مصلحة القارىء من شبابنا اليوم ، وما هى مصلحة الوطن فى حاضره ومستقبله ـ فى كشف ما ستره الله من هذه الفئة من الناس ـ شيوخا وشبابا ـ الذين فقدوا الحماس الدينى بعد ان فقدوا ظروفه ، فانحرفوا وراء التيار الاستعمارى الوبيئى فى التحلل وعدم التحرج من المعاصى وكبائر الآثام ؟

ولو ان الاستاذ توفيق نشر فى كتابه هذا ما كان قد كتبه حينذاك من مذكرات ـ لوجدنا له عذرا من تأثير ظروفها عليه ، ولكنه كتب ما كتبه اليوم بعد مضي نصف قرن من عمر الزمن . وكتب عن أشخاص تحللت عظامهم فى قبورهم فاصبح حسابهم على الله الذى كتب على نفسه الرحمة .

أليس من الفضيلة ترك ما لله لله ؟!

كل الصيد فى جوف الفرا :

ولكننا بالرغم من ذكره الاموات بما لا يجوز ان يذكروا به ، وبالرغم من اضاعته وقت القارىء الشاب وتضليل مسيرته فى البحث عن التراث ، بما لا يبنى له مجدا ، ولا يصحح له عقيدة ـ فاننا نمر على هذه الصفحات ونتجاوزها الى ما هو ادهى منها وأكثر خطرا ، وأشد اثرا ... ذلك هو احتواء الاستاذ توفيق على جميع أسباب النهضة ووسائلها من حركات ، ومؤسسات ، واجتماعات ، وجماعات .

فما تنظمت حـركة ، ولا تكونت جماعـة ، ولا قامت مؤسسة ، ولا تأسست جمعية ، ولا برزت صحيفة ، ولا نشط انسان ، ولا فكر مفكر ، ولا خطب خطيب ، ولا كتب كاتب ... الا وللاستاذ توفيق المدنى فضل التفكير ، والتكوين ، والتوجيه ، وفى كل ميدان من ميادين الحياة فى هذه النهضـــة .

فعلماء الدين ، واعـلام العـلم والادب ، ورجال السياسة والاجتماع والاقتصاد ، وأبطال الاعمال والنضال ... كلهم بلا أى استثناء ـ كانوا فى غمرة من الحياة الرتيبة ، لا يحركون ساكنا من لسان وقلم ، ولا يتحركون الا فى جو من الجمود البارد والنظر الشارد ... حتى جاء الاستاذ توفيق فقعقع الشن بينهم ، ودوت صرخته بين ظهرانيهم فاستفاقوا ، ثم نهضوا ، ثم التأموا !...

واننا حين نقول هذا ، لـم نجار الاستاذ توفيق فى مغالاته وجموحاته ، بل نقول هذا وقوفا عنـد تصريحاته المتبجحة . وهى كثيرة جدا ومبثوثة فى شتى الصفحات من كتابه ، ويكفينا هنا كمثال واحـد ، ما جاء فى صفحة 276 وهـو يتحدث عـن صولاته وجولاته فى مدى عشرة أعوام من اقامته بالجزائر :

... اما فى السياسة الداخلية ، فكنت أكثر الناس صراحة واشدهم جـرأة ، وأقدرهم عـلى محاربة الظالمين والخائنـين، والمفســدين ...

مـع أن الذى نعلمه عـلم اليقين ويعـرفه كـل المناضلين الجزائريين ان الاستاذ توفيق المدنى منذ أن استقر به المقام فى الجزائر العاصمة وعرفته النخبة فى مكتبه المطـل عـلى شارع لالير ، من سنة 1925 حتى حوالى 1950 عندما أصبح مديرا للصالة السنمائية (دنيا زاد) ـ كان فى هذه الفتـرة كلها لا يشترك فى مهرجان شعبى الا كواحد من الشعب ، ولا يقـود حركـة دينية أو سياسية أو اجتماعية أو حتى رياضية وفنية . وكـل ما كان من أمره فى كل هذه الميادين ان له علاقات وديـة مـع بعض العلماء والسياسيين ورجال الاعمال والنضال ، لم تكن

باردة فتفتر ، ولم تكن حارة فتدفع الى الظهور . واحيانا تكون هذه العلاقة قائمة على المصلحة المتبادلة كعلاقته بنادى الترقى ، وجمعية العلماء ، والجمعية الخيرية . اما علاقته بمجلة الشهاب وجريدة البصائر من بعد ، ثم جريدة الاصلاح ، ايام الحرب العالمية ، كما كانت علاقته بجريدة النجاح من قبل ـ فهى علاقة المفيد والمستفيد يكتب لها ما تطلبه منه ويأخذ هو تعويضا ماليا عما يكتبه حسب الاتفاق ، وكل هذا ليس عليه أى غبار ولا أى حرج بالنسبة للطرفين معا ما دام الاتفاق محددا للواجبات وللحقوق حسب الاعراف الصحفية المعلومة .

اما ان يلجأ الاستاذ توفيق بعد هذه الفترة الزمنية الطويلة الى نشر ما كانت نشرته هذه الصحف باسمها من غير أي توقيع على انه من حقوق تأليفه فهو ما يطالبه به الورثة الشرعيون لاصحاب هذه الصحف ، وما لا يقره عليه قراؤها وحماتها واصحاب الحق الادبى فيها .

ثم يبالغ ملحا فى المبالغة والمغالاة الى درجة الاجحاف بحقوق الغير لا سيما حين يكون هذا الغير ميتا ـ فيدعي (والبينة على المدعى) **بانه هو الذى كون نادى الترقى ، وهو الذى فكر ونظر ودعا الى تأسيس جمعية العلماء ، وانه صاحب الفضل الاكبر فيما آل اليه مشروع الفرنسة والاندماج ، وانه هو الذى قاوم التبشير والتكفير ، وانه هو الذى نظم ودعا الى تأييد فلسطين بالمال والرجال ، وكون لذلك لجنة وطنية (لم يكن عضوا بها) ، وانه هو الذى جمع الاحزاب والهيئات الوطنية فى المؤتمر ، وشباب المؤتمر ، وجبهة الدفاع عن الحرية ، وانه أسس المدارس الحرة ، ومعهد عبد الحميد بن باديس ، ولجنة التعليم ، وانه هو وحده الذى يعلم سر اعلان الثورة ودعا المجلس الادارى لجمعية العلماء الى الاجتماع فى قسنطينة يوم**

فاتح نوفمبر ليتولى بعد ذلك اعلان انضمام جمعية العلماء الى الثورة التحريرية ... الى آخــر هذه القائمة مــن التهويلات والمبالغات ، فهو ما لا أساس له من الصحة مطلقا ، ولا وجود له في عالم الوجود .

واننا حين نناقش الاستاذ توفيق فيما تورط فيه مــن هذه المغالاة المهولة ــ انما نريد ان نصحح للقراء الشباب مسيرتهم الطــويلة في الدراسات والبحوث التاريخية والادبية ضمــن دائرة النضال الوطني منذ الربع الاول من القرن العشرين الى حين اندلاع الثورة التحريرية المظفرة . ورجاؤنا من الاستاذ توفيق ان يدرك بعقله هذه المرة مسؤوليته ومسؤوليتنا بازاء هذا التصحيح التاريخي الهام ، فيعمل على تدارك ما فاتــه ، ومثله من يدرك ان الرجوع الى الحق فضيلة من فضائل العظماء والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

الجــزائر ليست فرنسا :

في الجزء التاسع ، المجلد الثالث عشر ، من مجلــة الشهاب الصادرة في شهــر نوفمبر 1937 م كتــب الاستاذ عبد الحميد ابن باديس بأسلوبه الصريح تحت عنوان : كلمات صريحة ، قــال فيهــا :

ــ ان الامة الجزائرية ليست فرنسا ، ولا يمكن ان تكــون فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هي أمــة بعيدة عن فرنسا كــل البعد ، في لغتــها ، وفي اخلاقها ، وفي عنصرها ، وفي دينها ، لا تريد ان تندمج ... الخ .

وكتب الاستاذ توفيق المدني في كتابه حياة كفاح صفحة 61 وما بعدها يقول بان هذا الكلام هو الذي كتبه في مجلة الشهاب من غير أي توقيع ، ولم يذكر عدد الشهاب الذي كتب فيــــه

ونشرته الشهاب على مسؤوليتها ... ثم ذكر ان المحقق الفرنسي (اندرى جوليان) نسب هذا الكلام خطا الى الامام ابن باديس ...

ونحن نقول للاستاذ توفيق ان الكاتب الفرنسي ـ وهو معروف بتحقيقاته النزيهة ـ لم يكن هو من نسب هذا الكلام الى الامام ابن باديس ، وانما ابن باديس نفسه هو الذى اثبته لنفسه فى العدد المذكور آنفا من مجلة الشهاب ، وما اندرى جوليان ، وما غيره من الكتاب الجزائريين والعرب وغيرهم ، الا نقلة عن ابن باديس فيما كتبه منذ خمسين عاما مضت .

فكيف اباح الاستاذ توفيق لنفسه نفى نسبة هذا الكلام الى الامام عبد الحميد بن باديس ، ويضيفه لنفسه ، ثم لم يذكر حتى عدد مجلة الشهاب التى نشرته من غير توقيع على مسؤوليتها كما أسلفنا ؟!

ذلك ما كنا نود ـ مخلصين ـ ان لا يورط الاستاذ توفيق نفسه فيه بعد هذه السنين الطوال ، والا فان أمانة الاسلاف التاريخية والوطنية ، تغدو نهبا لكل من تسول له نفسه ـ لغرض أو لآخر ـ تشويه الحقائق المجردة من تراثنا وهو ما لا يتأتى أبدا السكوت عليه .

☆ ☆

لجنة الاصلاحات الاستعمارية :

ونعود الى موضوع هذه اللجنة التى افرد لها الاستاذ توفيق حيزا واسعا من كتابه ، ص 168 وما بعدها وسماها لجنة الاذناب.

نعود الى هذه اللجنة (ذات الاذناب) بعد ان اثبتنا سابقا ما نشرته عنها مجلة الشهاب فى عدد 9 نوفمبر 1934 ـ لنؤكد

مرة أخرى أخطاء الاستاذ توفيق فى (مدحه) من لا يستحق المدح ، لنصل بذلك الى (قدحه) فيمن لا يستحق القدح .

لقد روى الاستاذ توفيق فى كتابه هذا كيف ان هذه اللجنة التى كونها الوالى العام من اذناب الاستعمار كان أغلب أعضائها من المفتين ، والرجال المنسوبين الى الدين ، وعلى رأسهم مفتى العاصمة الذى خطب فى الجامع الكبير ، وبمحضر الوالى العام (بورد) فقال :

ان المسلمين يوالون فرنسا قلبا وايمانا ، ويطيعونها اطاعة مخلصة خضوعا لأمر دينهم الذى يقول : « أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ » فانظر وتأمل ... الخ

وانظروا ـ أيها القراء ـ وتأملوا كيف ينسى الاستاذ توفيق ما كتبه من الغلو فى المدح ، حينما سلك (مفتى قسنطينة) فى سلك الملائكة (صفحة 19 من كتابه) فى حال ينسب اليه بالتبعية لقب (الذنَب) بالفدح ، وهو صادق فى هذه المرة ، عند ذكره أعضاء هذه اللجنة من المفتين و (رجال الدين) الذين كذبوا على الله فى تأويل آيات كتابه ، وكذبوا على الامة الاسلامية الجزائرية فى التحدث باسمها ، وفى ظرف هو من اعسر الظروف الوطنية واحرجها .

فهلا ادرك الاستاذ توفيق هذا الموقف وهو يكتب عن لجنة الاصلاحات هذه والتى انشئت لتقوم بمهمتها قبل وبعد واثناء الاحتفالات القرنية التى تحدثْ بها فرنسا مشاعر الامة ، ودفعت مفتى الجزائر ومفتى قسنطينة ومن لف لفهما الى اعلان الولاء لفرنسا ـ باسم الاسلام والمسلمين ـ وفى مواقف رخيصة كموقف مفتى قسنطينة فى تقريره الذى قدمه الى هذه اللجنة ونشرته مجلة الشهاب كما اسلفنا .

فاين الصدق ؟ واين الصراحة ؟ واين الامانة التاريخية المقدسة ؟ التى يرددها الاستاذ توفيق فى شتى المواضيع من كتابه هذا ؟!

كيف تكونت جمعية العلماء :

فى دوامة من التناقضات العجيبة التى يزحم بعضها بعضا فى قسوة وعنف ـ وجدت نفسى وأنا اقرأ الصفحات 172 ـ 183 من كتاب الاستاذ توفيق . ولم انته منها الى نهايتها حتى اعترانى (دوار) من جراء هذه التناقضات المشحونة بتيار مكهرب يفرض الارتياب فى وجود ما هو موجود فى عالم المحسوس .

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الجمعية العتيدة التى اشعلت فتيلة النهضة الوطنية ، ورفعت راية الكفاح والجهاد خفاقة فى كل بقعة من بقاع الوطن وخارج الوطن ، ثم دفعت عجلة الحياة الحرة الكريمة فسارت من ورائها مواكب الامة الجزائرية جحفلا وراء جحفل ، كانها القضاء المحتوم ، عجل بنهاية الاستعمار والاستغلال فى مدى ثلث قرن من الزمن .

هذه الجمعية العظيمة فى عظمة القدر ، سيقرأ الناس فى كتاب الاستاذ توفيق هذا ـ انها وليدة العبقرية التوفيقية لا غير . ولو لم يبعث الله بالاستاذ توفيق المدنى منفيا من تونس الى الجزائر حيث أصبح فيها : « رفعة المشير الخفي الاشهب » كما روى ذلك عن نفسه ـ لما تكونت « جمعية العلماء » هذه ولما كان العلماء فى الجزائر الا كما كان جنرالات تونس وسيوف اليمن . « هذه لا تنفع فى الحرب ، وتلك لا تقطع فى الضرب » كما قال الاستاذ الابراهيمى عليه رحمة الله .

سيقرأ الناس اذن في هذا الكتاب ان (فكرة) جمعية العلماء تمخض عنها فكر (مفرد علم) ، ثم تناولها بالتنفيذ ثـلاثة من اقطاب (السلبية) في تاريخ النهضة الجزائرية ، ثـلاثة يصفهم الاستاذ توفيق نفسه هكذا بهذا التناقض :

الأول : شيـخ ، عالـم ، أديـب ، واسع الاطلاع ، كثير الالوان ، يسير مع كل قوم حسب هواهم ... (أعوذ بالله) !؟

والثاني : عامي ، ذكي ، طموح ، قليل المعلومات ، غزير الافكار ، دؤوب العمل .. يقال انه اثرى اثناء الحرب العالمية الاولى من تجارة وراء الستار ... (ما شاء الله) !؟

والثالث : شاعر فحـل لا يشق له غبار باللغة العربية في لهجتها المحلية ، مصلح لا يستهان به ، يمتاز بنشاط كبـير ، وسرعة حركة (غريبة) ، ويتحمس فيلقى به الحماس احيانا في متاهات بعيدة ... (حفظنا الله واياكم) !؟

هؤلاء الثلاثة ، هـم الاثافي الثلاثة التي استـوت عليها (قدر) التفكير (التوفيقي) فانضجت وجبة كاملة اسمها : «**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**» ... فانظروا وتأملوا .

اما أنا فلست في حاجـة الى التعليق عـلى هـذه الفذلكة القصصية ، بقدر ما أنا في حاجة الى تذكير القراء وتوجيههم الـــى :

1) العدد الثالث من جريدة الشهاب الصادرة في سنة 1925 وفيه نـداء وجهـه الاستاذ عبد الحميد بن باديس الى العلماء والادباء وذوي الرأي والفكر في الجزائر ، يدعوهم الى التفكير ـ ايجابيا ـ في ضرورة تكوين جمعية دينية علمية اجتماعية ثقافية ، تعنى بتصحيح العقيدة ، وتعليم الامة وتوجيهها الى الفضائل والمكارم .

2) العدد التاسع مـن جريدة الشهاب أيضا ، وفيـه بيان توضيحي للنداء الاول المشار اليـه ، كتبـه الاستاذ المولود الحافظي الفلكي الازهري ـ بين فيه ضرورة هذه الجمعية ، ودل فيه على كيفية تكوينها ، واعطى بسطة عن مهمتها فـي مواد صالحة كنواة للقانون الاساسي لها .

3) وأخيرا ـ وليس آخرا ـ سجـل مؤتمر جمعية العلماء المطبوع بالمطبعة الاسلامية الجزائرية بقسنطينة سنة 1937 م ، وفيـه تصدير كتبـه العلامة الشيخ البشير الابراهيمي في عشرات الصفحات وبـين فيـه باسهاب كيف تكونت جمعية العلماء ، وليس فيه ايـة اشارة ـ مجـرد اشارة ـ الى هذه العبقرية التوفيقية التي تمخضت عن ولادة جمعية العلماء .

واعتقد ان هذا كاف في التعليق على فذلكة الاستاذ توفيق القصصية . والا فان مجموعات جريدة الاصلاح الصادرة في بسكرة ، ومجموعات جـرائد المنتقد ، والشهـاب الجريدة ، والشهاب المجلة ، والسنّة ، والشريعة ، والصراط ، والبصائر كلها تثبت الوثائق ـ تاريخيا وعلميا ـ وتدين كـل ادعاء يأتي بعدها بأكثر من ثلث قرن . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وعبد الحميد بن باديس رئيسا :

اما ما ذكره الاستاذ توفيق في هذه الفذلكة عن ابن باديس في قـوله :

« كان ابن باديس عظيما ، هائلا ، شامخا كالطود الاشم ، وقد هيمن بشخصيته الفذة ، وبساطته المثالية ، وتواضعه الجم ، على ذلك الاجتماع ، وقد اعجب به خصمه كما اعجب به أصحابه ومريدوه . فما هي الا جولات بسيطة وخطب هادفة مركزة حتى جاء دور انتخاب الهيئة الادارية ، ووزعت على الحاضرين القائمة التي كنا هيئناها نحن الاربعة ... » (!!) .

أما نحن فنقــول :

أين يكمن صدق الاستاذ توفيق فى هذا الكلام ؟ هل هــو فى الاوصاف التى وشح بها عبد الحميد بن باديس ؟ — وهو قطعا يستحق أكثر منها — أم هو فى هيمنته على هذا الاجتماع حيث يجمع الخصم والصديق على الاعجاب به ؟

اما الحقيقة التى هي الصدق كله والواقع كله ، فهي ان عبد الحميد بن باديس لم يحضر مطلقا الاجتماعات التى تمخض عنها انتخاب القائمة التى وزعت على الحاضرين ، وانما حضر بعد انتخاب المجلس ، وانتخابه هو رئيسا للمجلس ، وكل هذا وقع بسعي حثيث من رئيس هذه الاجتماعات الاستاذ محمد البشير الابراهيمى .

فاين اذن الصدق التاريخي وحقائقه فيما رواه الاستاذ توفيق فى كتابه ؟

انه ولا شك قــد ضاع بين أوراقه التى تركها في مكتبه الذى لازمه طيلة هذه الاجتماعات ، ولم يحضر جلسة واحدة منها لكى لا يتهم الجزائريون بانهم (عملاء) اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستورى التونسى ...

فيا لسخرية التاريخ ان هو اعتمد على هذا التخريف !!

الشيــخ الطيــب العقبــى :

لم تعرف الجزائر المسلمة — من بين علمائها — عالمـا فى مثل براعته فى الخطاب ، وقوة حجته فى الدعوة الى الاسلام الصحيح ، وشدة تأثيره فى الجماهير على اختلاف افكارهــم ومستوياتهم ، فهــو — بحــق — داعيــة الاصــلاح الــدينى بلا منازع ، والعالم المؤمن المخلص الذى لا يقبل المساومــة

فى دينه ولا يرضى الدنية في دنياه ، وقد عاش مكافحا مناضلا فى سبيل المثل العليا التى يؤمن بها ، وتعرض فى حياته المليئة بجلائل الاعمال ـ الى كثير من الاخطار التى لو تعرض غيره الى بعضها القليل لانهار وانمحى ، ومع ذلك بقى كما كان قويا عظيما يدافع عن فكرة يؤمن بجدواها ، ولا يستكين لرأى يعتقد انه الخطأ حتى ولو أداه ذلك الى أوخم العواقب .

هذا هو الشيخ الطيب العقبى فى كلمات ، وما مثله فى العلماء العاملين من تفي بمقامه العالى مثل هذه الكلمات .

وقد كنا نعتقد أن الاستاذ توفيق المدنى ، وهو من أعرف الناس بالعقبى واكثرهم صلة به ، وأقربهم الى افضاله الكثيرة ونعمه الجمة ، وخيره العميم ، كعالم عامل عاش نظيف الذمة والضمير حتى لقى ربه ، لم تدنس راحته بأوضار الدنيا الدنية ، ولم تهن همته لاساليب الترغيب والترهيب ، حتى خرج من الدنيا مترفعا عنها وعن أوضارها لم تعلق به وصمة فى دينه ، ولم يبع آخرته بدنياه ... كنا نظن ان الاستاذ توفيق هو الذى يستطيع ببيانه ، ان يجلو للناس ما خفي عنهم مما كان عليه الشيخ العقبى من الطبع الكريم كالمعدن الكريم الذى لا تكيفه الظروف ولا تلونه الاحداث الجسام . ولكن الاستاذ توفيق الذى عرف الشيخ العقبى ، مدة اقامته بالجزائر العاصمة واشترك معه فى نشاطاته الاجتماعية والدينية والثقافية فى نادى الترقى ، والجمعية الخيرية ، ومدرسة الشبيبة ، حيث نعلم ويعلم الجميع انه لولا الاستاذ الطيب العقبى كمحاضر بنادى الترقى ، ورئيس للجمعية الخيرية ، وأب روحى لمدرسة الشبيبة لما امكن للاستاذ توفيق المدني ان يعرف الجمهور أو يعرفه الجمهور كخطيب يثير فى

نفسه شتى الانفعالات الحماسية واننا نتحدى من يأتي ببينة على خطأ ما نقول .

ثم يستمر هذا الاتصال بين الشيخ العقبى والاستاذ توفيق حتى بعد اعلان الحرب العالمية الثانية عند ما اصدر الشيخ العقبى جريدته الاصلاح متحديا بها قرار جمعية العلماء فى تقريرها السكوت وتعطيلها تعطيلا اختياريا لكل صحفها وهو التقرير الذى استقبلته الحكومة الفرنسية بعدد من الاحكام والمراسم التعسفية ، كنفى الشيخ الابراهيمى الى آفلو والشيخ السعيد صالحى الى (جنين بورزق) وفرض الاقامة الجبرية على الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وغير هذا مما هو شعارات فخار لهؤلاء الرواد الاحرار .

وماذا كان موقف الاستاذ توفيق ازاء هذه الاحداث ؟ هل وقف مع جمعية العلماء واعضائها الذين تعرضوا للبلاء وقدم الى الشيخ العقبى مجرد عتاب على موقفه المتصلب فى خرق اجماع جمعية العلماء ؟ ذلك ما لم يكن قط ، بل بقي الاستاذ توفيق متصلا بالشيخ العقبى ملازما له فى جريدة الاصلاح ، وفى النادى وفى الجمعية الخيرية وحفلاتهما السنوية والدورية فى قاعة النادى وفى صالة (الماجستيك) وفى غيرهما ومجموعة جريدة الاصلاح لهذه الفترة كلها تشهد على ذلك وهى بين ايدينا أيضا تحت الطلب ، واذا كان الاستاذ توفيق يرى ان وجهة نظر الشيخ العقبى أسلم وانفع ، وانه بملازمته ومجاراته فى الكلام عن طريق الخطابة فى المجالس والكتابة فى الصحف طيلة أيام الحرب العالمية وما بعدها حتى حين التحاقه بجمعية العلماء ككاتب عام فى آخر سنة 1951 فلماذا اذن يدين الشيخ العقبى لمجرد تمسكه بالسنة فى نحر الاضحية ؟ ولماذا يروى عنه انه لا يرى ان الثورة المسلحة

هى طريق الاستقلال الوطنى ؟ ويرى هذا ضده من غير أي بيان منطقى أو عقلى أو تاريخى ؟!

ان الذى يقف بجانب الشيخ العقبى فى جميع تحركاته منذ أعلن استقالته من المجلس الادارى لجمعية العلماء سنة 1938 الى غاية 1952 ـ لا يجوز له مطلقا ان يحكم بادانته ، والا فان هذه الادانة ستورطه حتما ، لا كرجل مبدئى يرى رأيا مثاليا يجب احتذاؤه ـ ولكن كرجل مقلد يرى ان مصلحته (هو) فى متابعته ومجاراته والتأمين على أقواله وأفعاله .

ونحن ـ كتلاميذ للشيخ العقبى ـ أخذنا من توجيهاته دروسا فى الوطنية الحقة وفى التضحية والبذل ، وفى العقيدة الصحيحة وفى العمل الجدى مع التواضع وعدم تزكية النفس ـ نروى عن الشيخ العقبى الكثير والكثير جدا مما يشجب روايته ، و (يدين ادانته) !!

ان ما يمتاز به الشيخ العقبى من الخلال هو الصدق ، والصراحة ، والنزاهة ، والشجاعة ، والجرأة ، مع قوة الحجة وسلامة المنطق ، ونصاعة البيان ، وهذه خلال لا يتمتع بها الا من قوي ايمانه بالله ثم بنفسه ، لهذا نجد الشيخ العقبى فى كثير من مواقفه لا يأبه لرضا الناس وسخطهم ما دام هو معتقدا قيام حجته وسلامة رأيه .

ففى أوائل شهر فيفرى سنة 1956 حينما سقط الاستاذ أحمد رضا حوحو وجمع من اعيان مدينة قسنطينة فى ميدان الاستشهاد على يد محافظ الشرطة ـ ذهبنا الى زيارة الشيخ العقبى فى بيته ـ وثلاثة من الخمسة الذين ذهبوا معى ما يزالون فى الحياة الى اليوم ـ وبمجرد دخولنا اليه وهو فى غرفة نومه بالدور الاول بادرنا بقوله :

ان ترويع الآمنين والنائمين فى بيوتهم لا يعد شيئا مذكورا أمام الفضائح التى اصبحنا نتعرض لها بين أسرنا وأولادنا ... لقد دخلت الينا فصيلة من المضليين الفرنسيين ولم يتركوا فى الدار ركنا الا وداسوه باقدامهم ، وبعثروا كل ما فيه وكسروا وخربوا وهم يلفظون اقبح واشنع عبارات الاهانة والشتم .

فقلت على الفور : هذه نتيجة اعمالكم فى هذه الامة يا سيدى الاستاذ ، انتم بذرتم بذور الثورة فى هذه الامة ، وأشعلتم فتيلتها ، وهاهي الثورة تتفجر على رؤوس الظالمين المستغلين . ولابد للثورة من ضحايا وشهداء بله الترويع والازعاج والفضيحة والاهانة .

انهم يريدون اليوم باهانتك واهانة كل جزائرى وجزائرية أن يطفئوا نور الله بافواههم . وهيهات .

والشيخ العقبى بازاء كل هذا يجب ان يحنى هامته لله حمدا وشكرا على ان مد فى اجله حتى اليوم ليرى بعينيه نتيجة جهاده الطويل في تعبئة النفوس بالايمان ، وما يستتبعه هذا الايمان من الشجاعة والاقدام .

وسكت الشيخ العقبى راضيا ، وانطلقت اسارير وجهه بعد العبوس ، وراح يروى لنا عن تاريخ الثورات والثائرين، ثم قال : اما انا فقد انتهيت ولن اغمض عيني على الاستقلال ، واما انتم ــ فاوصيكم بتقوى الله حق تقاته ، فان التقوى خير زاد وهى كفيلة بتسديد خطاكم نحو كل النجاح ، ثم تلا قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** » .

واننا اذ نروى هذا عن الشيخ العقبى ، فاننا نرويه صادقين ولنا عليه شهود من الناس أحياء ، وشهادات مما خلفه

العقبى من تراثه الكثير ، فى صحف جمعية العلماء وحتى فى جريدته الاصلاح أيام الحرب العالمية الثانية ، وهى كلها عدول لا تغالى ولا تحابى .

اما رواية الاستاذ توفيق عن الشيخ العقبى فى الثورة وفى الاستقلال فهى تحتاج الى بينة ، والا فحكمها شرعا حكم القاذف من غير بينة ، « **ومن كان بيته من زجاج فلا يرمي الناس بحجر** » ...!

ولنا عودة الى الشيخ العقبى فى متابعة هذه المناقشة من هذا الكتاب .

☆ ☆

كتب الاستاذ توفيق :

ويتحدث الاستاذ توفيق عن كتبه الكثيرة ، ويروى لنا فى كتابه هذا فقرات مما كان قد كتبه فى هذه الكتب ليبين بذلك ان هذه الكتب وحدها هى التى نسخت كل سنن الاستعمار فى هذا الوطن . مع ان الحقيقة فى غير ما ذكره على طول الخط .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نذكر ما قاله عن كتابه (الجزائر) ، ونذكر حول ذلك الحقيقة الثابتة . يقول الاستاذ توفيق فى صفحة 198 ما نصه :

لقد كان كتاب الجزائر فتحا مبينا نزع عن الشعب (كل الشعب) غشاوة الجهل المطبق الذى فرضه الاستعمار فيما يتعلق بالبلاد الجزائرية وكشف الزيف الاستعمارى الخبيث الذى وضع الاباطيل والخرافات موضع الحقائق ، وقد اطلقت لقلمى العنان دون مواربة ودون حذر ، فاذا بى — ولا فخر — أقيم صرحا شامخا للحق واذا بى أحطم أساطير فاجرة نسجتها حماقة الاستعمار ورعونته ... الخ .

وان القارىء ـ الشاب ـ حين يقرأ هذا الكلام يتصور فى ذهنه ان هذا العملاق الاسطورى الذى بعثه اللـه الى الجزائر فأقام صرحا شامخا للحق ـ بلا فخر ـ وحطم تحطيما كامـلا أساطير الاستعمار فى الحزازات العنصرية ، والاختلافات المـذهبية .

لو لم يمن الله به على هذه الامة لاستطاع هذا الاستعمار ان يمحو كل معالم الحياة فيها ، لهذا يجب ان نقف قليلا هـنا لنناقش الاستاذ توفيق فى هـذا الغلو والعلو (باعجام الغين واهمالها معا) فنقول متأكدين مما نقول :

ان كتاب الجزائر لم يكن فى موضوعه الا قطرة من بحر ، أو لبنة فى قصر ، ولم يكن لهذا الكتاب كبير فضل فى محاربة الوباء الاستعمارى ، لا فيما ذكره الاستاذ ولا فى غيره مما لم يذكره . وانما الفضل كـل الفضـل فى محاربة الرذائـل الاستعمارية التى عرسها الاستعمار فى هذا الوطن وما زلنا ناكل الحصرم منها حتى اليوم ، يرجع أولا وبالذات الى تلك الحملات المنظمة والمدروسة التى نظمتها جمعية العلماء عـن طريق شعبها ومدارسها ونواديها ومساجدها ثم رجالها .

ويـرجع الفضل فى محاربتها أيضا الى يقظة الامـة التى نهضت وافاقت عن طريق تلاميذ ابن باديس المنبثين فى كـل أنحاء الوطن ، ومعهم شباب الامة المندفع مع مواكب النهضة المجندة فى خلايا الهيئات والاحزاب وحتى المنظمات الرياضية والفنية كالكشافة الاسلامية الجزائرية مثلا .

هذا هو الذى حطـم أساطير الاستعمار فى خرافة العنصر البربرى ، والخلاف المذهبى فخرج من البربر الامازيغ أمثال الشيخ (أبو يعـلى الزواوى) فى خطبـه ومقالاته وتنقلاته

بنفسه بين جبال الامازيغ ، والشيخ الرزقي الشرفاوي الازهري في دروسه ومواعظه في شتى زوايا القبائل الكبرى والصغرى . والشيخ السعيد البهلولي صاحب الرسالة في الرد على الطرقيين القائلين بوجوب تلقين الاوراد ، والشيخ يحيى حمودي ، والشيخ السعيد اليجري ، والشيخ عمر دردور ، والشيخ أبو اليقظان ، والشيخ بيوض والشاعر مفدي زكرياء ، وغيرهم ، وكلهم أعضاء عاملون في جمعية العلماء وعلماء أحرار واجهوا الاستعمار بشتى أنواع وأساليب المواجهة ، فحطموا ما بناه ، وخربوا ما شيده من غير ان يقولوا ــ مجرد القول ــ : كشفنا الزيف الاستعماري الخبيث وحطمنا أساطير نسجتها حماقة الاستعمار ورعونته .

ان الكتب وحدها يا أستاذي العزيز ما هي الا اثقال من الورق تتراكم عليها اثقال من الحبر ، ان لم تجد من يستخرج للناس دفائنها ، ويجلي عن لئالئها ، ويدل على منابع الخير فيها ــ ستبقى في رفوفها وخزائنها كالاجسام المحنطة لا تبدي ولا تعيد . وأؤكد لك يا سيدي الاستاذ ان كتابك «الجزائر» وكل كتبك لو لم يقيض الله لها من ذكرت ومن لم أذكر من رجال جمعية العلماء ــ لما عرفتها النخبة فضلا عن عامة الشعب فاذكر لأهل الفضل فضلهم ، يذكرك الله في العاملين المخلصين.

البرقية الملعونة :

ويتحدث الاستاذ توفيق عن هذه البرقية الملعونة في صفحة 261 ولا يروي عنها وعن ظروفها الا ما يرويه عامة الناس ممن لم يحضروا اجتماعا خاصا وعاما عنها ، مما يدل على انه لم يتحدث عنها الا ليؤكد أدانته للشيخ العقبي ــ وهو صاحب الافضال الكثيرة عليه شخصيا كما أسلفنا .

وبما اننا عشنا هذه الفترة من تاريخ النضال الجزائرى فى نهضته الكبرى ، فاننا سنذكر أمر هذه البرقية بشيء من التوضيح متجنبين ما استطعنا نقط الحساسيات الشخصية لا سيما بالنسبة للاموات الذين نبش الاستاذ توفيق قبورهم وبعثر عظامهم فى غير ما مرة من كتابه هذا .

ان أمر هذه البرقية لم يأت من الجاسوس الذى تحدث عنه الاستاذ توفيق وتحاشى ذكر اسمه ، ولا من الجاسوسة ، وهى (الحية الرقطاء) التى لا تكاد تفترق عن قرينها الجاسوس المشار اليه ، ولكن أمر البرقية طبع فى فرنسا نفسها ، ثم وضع لها تصميم التنفيذ فى ادارة الشؤون الاهلية بالولاية العامة بالجزائر ، واختير لتقديمها رجل ينتسب الى العلم ويتولى منصب الاستاذية فى جامعة الجزائر يدعى (وينشون دورف) وبدعوة من هذا الاستاذ اجتمع فى منزله كل من الاساتذة : عبد الحميد بن باديس ، الطيب العقبى ، الامين العمودى ، ومعهم اثنان من الاعيان . وفى هذا الاجتماع تولى الاستاذ الفرنسى المذكور اقتراح هذه البرقية على جمعية العلماء ، وقرأ نصها الفرنسي وتولى الاستاذ العمودى تعريبه ثم وقع النقاش حول صيغتها وتعديل بعض العبارات فيها . وسار الحديث حول هذا الموضوع هادئا متزنا ختمه الاستاذ ابن باديس بانه سيعرض أمر هذه البرقية على المجلس الادارى لجمعية العلماء فى اجتماعه المقبل الذى يستعد فيه للجلسات العمومية السنوية . وهكذا انتهى المجلس الاول الذى انعقد فى منزل هذا الاستاذ الفرنسى من غير ان تعرف الادارة الفرنسية وجهة نظر العلماء فى شانها ، وهو الامر الذى كشفت من أجله مساعيها لدى بعض الاعضاء الاداريين لجمعية العلماء رغبة منها فى الحصول على هذا التأييد الذى يكون

ـ لو وقع ـ ولاء الامة الجزائرية لفرنسا أمام تهديدات الحرب العـالمية .

ولم يكن الشيخ العقبى وحده عارضا على المجلس الادارى أمـر اقرار هذه البرقية وضرورة ارسالها ، ولكـن المجلس الادارى لجمعية العلماء باغلبية أعضائه ، رفضـوا فى ابـاء هذه المساومة المقنعة ، ولم يبق من المقتنعين بها المجندين لها من ملك الجرأة والقوة غير الشيخ الطيب العقبى .

وفى الجلسة العمومية فى نـادى الترقى ـ تحدث الشيخ العقبى بالرغم من محاولة اقناعه بعدم التعرض لهذا الخلاف الداخلى ، واندفع فى تأثر وانفعال يعلن انسحابه من المجلس الادارى لجمعية العلماء على ان يبقى عضوا عاملا فيها ، وطلب من الاعضاء العاملين ان لا يصوتوا عليه فى القائمة ، حتى لا يضطر الى الاستقالة عن طريق الصحف اليومية .

واحتد النقاش بين من فى المنصة مـن العلماء ، والاعضاء العاملين والمؤيدين فى قاعـة الاجتماع ، فتحدث كـل مـن الاساتذة : الطيب العقبى ، عبد الحميد بن باديس ، الامـين العمودى ، العـربى التبسى ، ولازم الصمت المطـلق بقيـة الاعضاء الى نهاية الجلسة التى لـم يحضرها الاستاذ تـوفيق مطلقا ، ولم يشارك فى هذا النقاش لا من قريب ولا من بعيد .

وتم انتخاب الشيخ العقبى مـع بقيـة الاعضاء المرشحين وانجز هـو استقالته التى قدمها الى الرئيس ونشرتها بعض الصحف اليـومية الفرنسية ، وحـاول الاستاذ عبـد الحميد وزملاؤه اقناع الشيـخ العقبى فى الرجوع عـن استقالته ، ولكنه أصر عليها اصرارا علله بحججه المنطقية التى لا تقبل الرد ، مع اعلانه البقاء عضوا عاملا في الجمعية التى ساهم فى

تكوينها ، وعمل على نجاحها فى مهمتها ما لم يعمله الا الاقلون من أعضائها .

ولم يعمل الشيخ العقبى بعد ذلك على الاستقلال بالنادى كما أشار الاستاذ توفيق ، ولم يعرّض بالجمعية لا فى دروسه ولا فى خطبه ، بل بقى محاضرا بالنادى ، وبقى النادى مركزا لجمعية العلماء ، فيه المجلس الدائم ، وفيه مندوب جمعية العلماء الدائم ، وفيه بقية اللجان العاملة ، فما معنى تحامل الاستاذ توفيق عليه واتهامه بانه كان يعرّض بالجمعية ويستنقص رجالها بأقواله ؟

وعلى فرض انه كان كذلك ، فان الجمعية بمجلسها الادارى كله ، وبلجانها المختلفة ، وباعضائها العاملين المنبثين فى كل شبر من أرض الوطن ، هم الذين كان عليهم ان يدافعوا عن الجمعية وعن أنفسهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، لانهم كانوا لا يرون من موقف الشيخ العقبى الا ما رآه رائد الشعر والشعراء فى الجزائر الاستاذ محمد العيد حين قال (ويعنى العقبى وبن باديس) :

خصمان فيما يفيد الامة اختلفا
ايـاك ان تنقص الخصمين اياكا !

كلاهما فى سبيل الله مجتهد
فلا تذمن لا هذا ولا ذاكا !!

واذا كان الاستاذ توفيق يعبر عن رأيه الخاص فى ادانته للشيخ العقبى فى أمر هذه البرقية وفى استقالته من الجمعية وفى تعريضه بها واستنقاصه لاعضائها بأقواله ... فلماذا بقي مواليا وملازما له بعد هذه المحنة التى تعرضت لها الجمعية واعضاؤها ؟

ولماذا لم يكتب فى الشهاب أو فى البصائر أو فى غيرهما يدينه ــ وهو حي ــ بمثل ما اداته وهو ميت ؟

وهل كان سكوته منذ سنة 1938 حتى سنة 1976 عندما كتب كتابــه هذا وملازمته للشيخ العقبى والكتابة فى صحيفــته (الاصلاح) الصادرة أيام الحرب العالمية الثانية ، ثم ملازمته فى النادى وفى الجمعية الخيرية حتى سنة 1952 ... هل كان هذا الا دليلا قاطعا لا يقبل النقض على تحبيذه لموقف العقبى مــن جمعية العلماء فى عهدها الاول برئاسة ابن باديس حتى سنة 1940 ، وفى عهدها الثانى برئاسة الابراهيمى ؟!

ولماذا لم يكتب فى البصائر عندما كان احد محرريها قبل الثورة التحريرية ، يدين العقبى ، أو يحــكم بالخيانة عــلى الزاهرى ، وبالانحلال الخلقى عــلى العمودى ، أو بالتفاهــة الثقافية والفكرية على مصالى ؟ حتى اذا مات الجميع ومضى أكثر من ثلث قرن ، طلع على الناس بكتابه هذا يدين الاموات ويسخر بالاحياء ، فى وقت كان عليه ان يجمع الناس كلهم على محبته واحترامه ، ولكن ما فى الطبع لا يتغير !!

الاستاذ الامــين العمودى :

وبغاية الاسف نعود مــع الاستاذ توفيق فى كتابه هذا الى كشف العورات التى أمر اللــه ــ بكتبه ورسله وكل اعراف خلقه ــ ان تستر ما لم يكن فى سترها تعطيل حــد من حدود الله ، فقد قال تعالى فى كتابه ومحكم آياته :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ آمَنُــوا ، لَهُــمْ عَذَابٌ أَلِيــمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ، وَاللّٰــهُ يَعْـلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (سورة النور ، الآية 18) .

ورسول الله الاكرم (ص) يقول : « من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في جوف بيته » (أو كما قال) .

ونعود ونكرر ما قلناه سابقا : ماهي فائدة القارىء الشاب اليوم في معرفة أساليب الحياة الشخصية التي يختارها الانسان الواعي لنفسه ؟ وما هي المصلحة التي توخاها الاستاذ توفيق حينما ذكر العمودي في صفحة واحدة وعدة مرات بانه شارب للخمرة مدمنها ، وبإدمانه للخمرة أسفّ مع قرناء السوء ، وطرد من الكتابة العامة لجمعية العلماء وأخيرا نخرت عظامه وقادته الى أجله المحتوم . واي أجل محتوم ؟

اذا كانت (الشهادة) التي شرفه الله بها في ميدان الاستشهاد على أيدي المنظمات الاستعمارية ايام اشتداد الحرب التحريرية هي الاجل المحتوم الذي قادته اليه الخمرة ، فيا حبذا هذه الخمرة التي تختم حياتنا بالاستشهاد .

ويا حبذا ــ ألف مرة ــ لو ان الاستاذ توفيق كبح جماح قلمه هذه المرة ولم يسجل على نفسه هذا الزيغ في حق رجل ختم الله له بالسعادة .

اما الاستاذ الامين العمودي فقد اخلص دينه لله وضحى بكل متاع الدنيا من أجل مبادئه وفي خدمة أمته ، ولو كان العمودي من الذين يبيعون آخرتهم بدنياهم لاستطاع بكفاءته وثقافته وذكائه ان يتسنم ذرى الوظائف الادارية في العهد الاستعماري ، ولكنه آثر جانب أمته ، ووقف معها في محنتها ، وجابه الفقر والحرمان والطغيان ، وفتح وحده واجهة للدفاع عن الجزائر في عقيدتها ولغتها وكرامتها وشخصيتها لم يستسلم ولم يضعف ولم يحن هامته ولم يطلب من المخلوق

الغفران ـ حتى التحق بجوار ربه وهو ينشد مع عنتر العبسى فى عزته وشموخه :

ولقد أبيت على الطوى واظله

حتى أنال به كريم المأكل !

اما انه طرد من الكتابة العامة لجمعية العلماء بسعي من الشيخ الطيب العقبى فهو ما لا علم لاحد به ، وكل ما نعلمه ان الاستاذ العمودى اختار لنفسه الكفاح السياسى السافر ، فلم يرد أن يورط الجمعية فى اختياراته الخاصة ، فانسحب من عضويتها الادارية مع احتفاظه بالعضوية العملية الى آخر نفس من حياته . الامر الذى كان به على أحسن علاقة مع كل أعضاء جمعية العلماء ، وفى مقدمتهم الشيخ العقبى الذى كان ملازما له طيلة حياته .

فمن أين تسرب للاستاذ توفيق هذا النبأ الكاذب ؟

ان كان حقا من الانباء الواردة عليه ، فانه من الواجب عليه ذكر مصدره ، اما ان كان شطحة من شطحات قلبه الموحى ورسما من قلمه المؤتمر بهذا الوحي الذى ما انزل الله به من سلطان ... فما أكثر لغو هذا القلب الذى يوحى ، وهذا القلم الذى يكتب ، من غير ان يضبطهما منه ضابط من العقل !

الحزب الشيوعى و (شاتينيو) فى حوادث 8 ماى :

ونمر بعد هذا مسرعين فى صفحات الكتاب لا لان هذه الصفحات ليس فيها ما يناقش ، لا والله ، هناك الكثير مما لابد من توضيحه ، وما لابد من تصحيحه ، ولكننا لا نرى كبير نفع في متابعة كل العشرات من هذا الكتاب ، ولعلنا سنعود الي ما اغفلناه عن عمد ، لا مجاملة للاستاذ توفيق ولكن تخفيفا

عن القارىء الذى سيتتبع هذه المناقشات وسترهق ذهنه وفكر وان كانت ستفتح أمامه طريق الخلاص من الزيغ ، غـير ان قضية تتصل بالنهضة وتتصل أكثر بالكفاح والنضال فيها ، لابد مـن كلمة واحدة تلفت النظر ، وترد سير الحوادث الى مسارها التاريخي الذى لا يخضع للمحاباة ، ولا يجنح لسنن المجاملة ، ذلك هو موقف الحزب الشيوعى الفرنسى بالجزائر ، ولا أقول الحزب الشيوعى الجزائرى ، والوالى العام شاتينيو فى حوادث 8 ماى 1945 .

يقول الاستاذ توفيق فى كتابه : واسهم فى ذلك الـوالى العام مسيو شاتينيو الذى أخـذ على غرة ، وعمل جاهدا فى سبيل التهدئة .

وهذا بعد ان تحدث عن استعداد الجيش الفرنسى لضرب الحركات التحررية فى الجزائر ، بالتخلص من رؤسائها ومن أكبر عدد ممكن من انصارها المسلمين الجزائريين فقال :

ففى نفس ذلك الوقت ألقى القبض فى الجزائر على فرحات عباس والشيخ الابراهيمى وثلة غفيرة من انصار البيان ومن العلماء ، وسيقوا الى السجن ، والحقت بهـم تهمـة المؤامرة الكبرى ، وكانوا يريدون إعدامهم لا محالة .

لكن الحق لا يعدم أنصارا ، فتعالت رفيعة مدوية صيحات الاحتجاج والاستنكار ، سواء بالجزائر أو بفرنسا ، وبرز فيها بصورة مشرفة الحزب الشيوعى ، وان لم يكن مواليا لنا .. الخ

هنا عدة أخطاء لابد من تصحيحها ، ولا أظـن انها ستثير حساسية مـا فى نفس الاستاذ توفيق ، لانها صريـح الحـق ولباب الواقع :

أولا : الحزب الشيوعي بالجزائر لم يقف موقفا مشرفا ولم يقف مع الجزائر فى محنتها هذه ، بل تجاهلها تماما فى مدى شهرين متتابعين ، ففى الوقت الذى كانت الطائرات تقنبل القرى والمداشر ، وجنود المظلات وكتائب الطوابير المتوحشة فى مدن سطيف وخراطة وقالمة وغيرها تحرق على العائلات بيوتها وتسوق الرجال والنساء الى الشعاب والوديان وتفتك بهم فتكا ذريعا ــ كانت صحيفة « الحرية » لسان حال الحزب الشيوعى بالجزائر تدعو الناس الى قوائمها الانتخابية البلدية وتتحدث عن حقوق العيش وأكل الخبز للفلاح الجزائرى الذى يموت محترقا فى (دشرته) مع ابنائه وحيواناته .

أهذا هو الموقف المشرف يا أستاذ توفيق ؟

ثانيا : لم تعل صيحات الاحتجاج والاستنكار لا فى الجزائر المنكوبة ، ولا فى فرنسا المغلوبة ، وكل ما هنالك بعض المقالات كتبها على هامش الحوادث بعض الفرنسيين مع كثير من التحفظ ازاء رفع العلم الجزائرى فى المظاهرات والمناداة بالاستقلال الوطنى ، **ذلك ان هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن الحوادث بعد أوانها بفترة طويلة ــ كانوا لا يخفون عواطفهم مع خرافة الجزائر الفرنسية .**

أهؤلاء يوضعون فى قائمة نصراء الحق يا أستاذ توفيق ؟

ثالثا : الوالى العام (شاتينيو) هو الذى القى القبض على السيد فرحات عباس ، والسيد الدكتور سعدان ، فى قاعة الانتظار بمكتبه بالولاية العامة (قصر الحكومة حاليا) عندما ذهبوا لمقابلته يوم 8 ماى بالذات لا قبله ، وليقدموا له التهنئة على استسلام المانيا للحلفاء وانتهاء مأساة الحرب ، فكان جزاؤهما جزاء سنمار فى المثل العربي .

ثم أصدر تعليماته باعتقال الشيخ الابراهيمى فى السجن العسكرى ، والشيخ العربى التبسى والشيخ خير الدين ، والشيخ السعيد صالحى وغيرهم بالآلاف من جمعية العلماء وحزب البيان وحزب الانتصار وسيقوا جميعا الى السجون المدنية فى الجزائر ، ووهران ، وقسنطينة ، والى مختلف المحتشدات الجهنمية .

أهذا هو الذى أخذ على غرة ، وعمل جاهدا فى سبيل التهدئة يا أستاذ توفيق ؟

ليس لنا أمام هذه الاخطاء ، الا ان نتمثل بما بدآنا به هذه المناقشة من قول الشاعر العربى :

اذا أنت لم تنصف أخاك وجدته
على طرف الهجران ان كان يعقل
ويركب حد السيف من أن تضيمه
اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل !!

الجزائر فى 20 يناير 1978

(محمد الطاهر فضلاء)

نظـرة أولى فى كتـاب :

ـ حيــاة كفــاح ـ (1)

بقلم : حمزة بوكوشه

حياة كفاح ، اسم كتاب اطلقه الاستاذ الكبير أحمد توفيق المدنى ، على مذكراته ، فأصدر القسم الاول منها فيما يتعلق بكفاحه بتونس ، والقســم الثانى فيما يتعلق بكفاحــه فى الجزائر منذ حل بها سنة 1925 ، الى ان قامت الثورة الجزائرية سنــة 1954 .

ولو ان هذه المذكرات كانت خاصــة بحياته الشخصية ، وذاكر مناقبه ومآثره ولم يمس فيها أحدا بسوء ، لا من قريب ولا من بعيد ، لتركناه وشأنه ، لكنــه عرّض بأناس ، وجرّح فى آخرين ، وربما فى بعض الاحيان ، رام نفعا فضر من غير قصد ، أو عن قصد ، محاولا ان تكون مذكراته سجلا تاريخيا وان يكون كشاهد أمام التاريخ . لهذا ، نرى لزاما علينا ان نتعقب بعض ما فى هــذه المذكرات بتوضيحات وتعليقات ، خدمة للحقيقة ، وتذكيرا للاستاذ ان نفعت الذكرى ، والذكرى تنفــع المؤمنين .

---

(1) نشر فى جريدة الشعب الوطنية فى 30 صفر 1398 هـ ـ 8 فيفرى 1978 م ، ص 8 .

ولنقتصر فى هذه النظرة الاولى على مناقشته فى مسألتين :

1 ــ جمعية العلماء .

2 ــ الشيخ الطيب .

(1) ـ جمعيــة العلمــاء :

ــ جاء فى صفحة 172 ، وما بعدها من المذكرات ، ما يشعر ان الاستاذ توفيق هو أول من فكر فى تأسيس جمعية العلماء وتفاوض فى هذا الموضوع مع رفقائه الشيخ محمد العاصمى والسيد عمر اسماعيل ، والسيد محمد عبابسة ، حيث قال : كنا أربعة رجال لا خامس لنا ، وانتحينا مــن نــادى الترقى زاوية ، كان الثلاثة الجالسون حولى ، الشيخ محمد العاصمى ، والسيد عمر اسماعيل ، والسيد محمد عبابسة ، ثم حمــى وطيس الحديث شيئا فشيئا فقلت : ان الجزائر فى مجموعها ، كما رأيتها ، وكما تشهد به اقلام كتابها ، والسنة علمائها ، وشعرائها وعواطف كل طبقات شعبها ، ما عدا الذين يحترفون السياسة ، عربية اسلامية ، لهذا فان الحركة التى يجــب ان نفكر فى انشائها ــ وسننشئها فعلا ــ يجب ان تكون صورة من روح الشعب ، وقبسا مــن يقينه ، وايمانه . الى ان قال : وجاء دور التفكير فى انشاء مثل هذه الحركة ، واخراجها من طور الفكر الى طور التنفيذ ، وتداولنا نحن الاربعة فى الامر وأخيرا هدانا التفكــير الى جمــع علماء المسلمين فى الارض الجزائرية ، وتأسيس جمعيــة اســلامية عاليــة ، قال عمــر اسماعيل : عليّ ان أقدم هدية ألف فرنك لمن يتوصل الى انجاز هذا المشروع ، قلت للعاصمي : اكتب للشهاب وبشر بالموضوع.

ـ قرأنا هذا المقال الذى يقول الاستاذ توفيق انه أمر العاصمي بكتابته بالعدد السابع من الجزء الاول من مجلة الشهاب المؤرخ بشهر فيفرى سنة 1931 ، وهو من غير امضاء تحت عنوان : هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء فينال جائزة مالية مع تخنيد ذكره (1) . ولم نجد ما يدل أو يشعر في المقال ان كاتبه هو صاحب الفكرة أو ان الفكرة بنت هذا المقال ، وغاية ما فيه بعد التحريض على تأسيس جمعية العلماء ان الكاتب يقول : والداعى الى اعادة بحث هذا الموضوع ان احد الفضلاء التزم بدفع ألف فرنك كجائزة لمن يوفق من العلماء لتأسيس جمعية تحت اسم جمعية العلماء .

وهذا يدلنا على ان الفكرة قديمة وبعثت من جديد ، وقد ينكر الاستاذ توفيق هذا ، ولكن ماذا يقول اذا تحديناه وقلنا ان الفكرة وجدت قبل ان يؤسس نادى الترقي ، حيث اجتمع الاستاذ برفقائه وفكر وقدر ، بل وجدت قبل ان يبعد الاستاذ توفيق من تونس الى الجزائر ؟

ولنضع بين يدي القراء ما كتبه الاستاذ محمد البشير الابراهيمى فى صفحة 46 من كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تحت عنوان : جمعية العلماء فكرة . قال الاستاذ الابراهيمي : زارنى الاستاذ عبد الحميد بن باديس وأنا بمدينة سطيف زيارة مستعجلة فى سنة أربع وعشرين ميلادية فيما أذكر واخبرنى بموجب الزيارة فى أول جلسة هو انه عقد العزم على تأسيس جمعية باسم « الاخاء العلمى » يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة العاصمة العلمية ، وتكون خاصة بعمالتها.الى ان يقول:ثم حدثت حوادث عطلت المشروع .

(1) انظر نص المقال كاملا فى قسم اللواحق .

واذا تصفحنا جريدة الشهاب فاننا نجدها في العدد الثالث من سنتها الاولى المؤرخ 26 نوفمبر سنة 1925 ـ تنشر تحت عنوان : دعوة للعلماء المصلحين ، ما نصه :

ـ أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائرى ، ان التعارف أساس التآلف ، والاتحاد شرط النجاح فهلموا الى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديني محض ، غايته تطهير الدين مما الصقه به الجاهلون من الخرافات والاوهام والرجوع الى أصل الكتاب والسنة وما كان عليه في عهد القرون الثلاثة .

اننا نرغب من كل من يستحسن هذا الاقتراح ويلبى هذه الدعوة من أهل العلم ، ثم من كل محب للاصلاح ان يكاتبنا لادارة الجريدة ببيان رأيه حتى اذا رأينا استحسانا وقولا من عدد كاف شرعنا في التأسيس والله ولى التوفيق .

ويلبى هذه الدعوة الشيخ المولود الحافظى رحمه الله (1) بمقال تنشره جريدة الشهاب بعددها التاسع المؤرخ 7 ديسمبر 1925 تحت عنوان حول اقتراح تأسيس حزب دينى اصلاحى فبعد ان نوه بهذه الفكرة وأشاد بها قال في آخر مقاله : والذى أراه بصفتي احد المحبذين لهذه الفكرة ان تكون أعمالنا في هذا الخصوص على ما يأتى :

1 ـ تأليف الهيأة الادارية من سائر العناصر وفى مقدمتها اخواننا الاباضيون .

2 ـ تأسيس قانون لهذا الغرض تبين فيه اعمال الحزب يكون محترما أمام الهيئة .

3 ـ ان يكون من أصول هذا القانون جمع ما تيسر من الزكاة بأنواعها .

(1) انظر نص المقال في قسم اللواحق .

4 ـ تأسيس مدارس ابتدائية ومكاتب قرآنية لتعليم الدين الصحيح مع ما تيسر من اللسان الفرنسى .

5 ـ تأسيس فروع فى المدن والقرى .

6 ـ ان يستعان فى نشر الدعوة الاصلاحية بطبع الكتب ونشر المجلات العلمية والمحاضرات الاخلاقية والخطب المنبرية .

7 ـ بعد الحزب عن الاشتغال بالمسائل السياسية التى من شأنها ان تعود على الحزب بالضرر والابطال .

8 ـ ان يكون لهذا الحزب نفس الامتيازات التى تتمتع بها الاحزاب الدينية غير الاسلامية . هذه هى الاحوال التى أرجو ان تصادف قبولا من اخواننا المحبذين لهذه الفكرة الاصلاحية ... فهل بعد هذه البراهين الساطعة والادلة القاطعة نصدق ما يدعيه الاستاذ توفيق بأنه فكر هو ورفقاؤه الثلاثة فى تكوين هذه الحركة بنادى الترقى .

اظنه نسي وما أنساه الا الشيطان ، أو اشتبهت عليه النفقة بالحضانة كما يقول الفقهاء ، فخانته الذاكرة ، لان الاستاذ ورفقاءه ما كانوا الا هيئة تحضيرية لتأسيس جمعية العلماء (1) .

---

(1) فليسمح الاستاذ حمزة بالتعليق على مقاله لأبين أمرين : الاول ، هو توارد الخواطر بينى وبينه فى أمر هذه اللجنة التحضيرية ، والثانى ، هو ان كتابا تاريخيا فى شكل مذكرات لواحد من اقطاب جمعية العلماء ، يذكر فيه بالتفصيل كيف ان عبد الحميد بن باديس عقد اجتماعا هاما فى قسنطينة مع كبار العلماء ، وكيف كان « عبابسة » الجامع الاول لهذه اللجنة التحضيرية وفى انتظار نشر هذا الكتاب قريبا ان شاء الله ، نشرنا فى القسم الاول من هذا الكتاب فقرات من هذه المذكرات تحت عنوان : « الرواد الاوائل لجمعية العلماء » فليراجع .

وما يدرينا أن ادارة الشهاب هى التى أوعزت اليهم بتكوين اللجنة التحضيرية ما دام توفيق والعاصمى فى الشهاب فى ذلك العهد (1) ، ثم ما كان يضر الاستاذ توفيق لو قال : « كنت الرأس المفكر فى اللجنة التحضيرية التى انبثق عنها تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أليس يكفيه هذا شرفا وفخرا ؟

أليس فى دعواه التفكير فى هذه الحركة اعتداء على الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى فكر فى المشروع ، ودعا اليه على صفحات العدد الثالث من جريدة الشهاب ، واعتداء على الشيخ المولود الحافظى الذى لبى الدعوة فى العدد التاسع من جريدة الشهاب سنة 1925 ، واعتداء على الشيخ البشير الابراهيمى الذى استشاره الشيخ عبد الحميد فى الموضوع سنة 1924 ، وربما كان غيرهم من العلماء كتبوا فى الموضوع ، ولم نقف على ما كتبوه ، ومهما يكن من شيء ، فلو كان غير الاستاذ توفيق ادعى هذا الادعاء لعذرناه وقلنا خامل يريد ان ينبه ذكره ، اما الاستاذ توفيق فغنى بمآثره ومفاخره التى لا ينازعه فيها أحد ، كموافقه وأعماله فى الحزب الدستورى القديم تلك المواقف التى لم يرض فيها بالدنية،ولم يجنح فيها الى التقية ، وكمقالاته التى كتبها فى الجزائر ضد التجنيس والمتجنسين ، وكمساهمته فى كل دعوة الى الاتحاد بين الهيئات والاحزاب كلما سمحت الظروف أو دعا الى ذلك داع ، وهو حريص دائما على رضا الجميع ولم يتحيز لأي حزب أو هيئة حتى جمعية العلماء التى كان من اعضاء اللجنة

---

(1) لا يا أستاذ حمزة ، ان الاستاذ توفيق لم يكن متفقا بعد مع ادارة الشهاب للكتابة فيه باجر معلوم ، لذلك لم يكن ضمن كتاب جريدة الشهاب، فمعذرة على هذا التصحيح التاريخى !!

التحضيرية لتأسيسها ، فلم يكن من الاعضاء العاملين فى صفوفها الا فى الزمن الاخير بعد ان هدأت الزوابع ، وانفصل الاستاذ توفيق عن حركة الشيخ الطيب العقبى .

2) ـ الشيخ الطيب العقبى :

عندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادى الترقى سنة 1931 كان الشيخ الطيب العقبى من أعضائها البارزين فاسندت هيئة الجمعية وظيفة الكاتب العام للاستاذ محمد الامين العمودى ، ونيابة الكاتب العام للشيخ الطيب العقبى ، وكان الرجلان يقيمان ببسكرة وهما على وفاق تام ، وقد كان جماعة نادى الترقى فى حاجة الى محاضر ومدرس فاتفقوا مع الشيخ الطيب العقبى على ان يكون محاضرا بالنادى ولم ينظر الاستاذ أحمد توفيق المدنى الى اتفاق جماعة النادى مع الشيخ العقبى بعين الرضا .

جاء الشيخ الطيب العقبى الى الجزائر وحاضر بنادى الترقى ، ودرس بمساجدها الى ان اصدرت الحكومة قرار منع العلماء الاحرار من التدريس بالمساجد الا برخصة ، وكان المقصود أولا وبالذات من ذلك القرار هو الشيخ الطيب العقبى لما احدثه من الاثر العظيم فى العاصمة وضواحيها وكان الرجل على جانب عظيم من العفة والنزاهة والتقوى والدين الصحيح ، داعية الى الله ولا يستطيع احد أيّ كان ان ينكر ذلك حتى الاستاذ أحمد توفيق فى مذكراته يعترف بهذه الحقيقة بعد غمزات وطعنات ربما تعرضنا لها بعد .

فلقد قال الاستاذ توفيق : « أقول هذا واشهد انه كان الى جانب حياته العامة الاخيرة وهى كما علمت عفيفا نظيفا ، نقي اليد متصلبا فى دينه داعية الى الله بشدة وبقوة ،

وبعنف ، وقد أفاد العامة فى مدينة الجزائر وضواحيها افادة دينية تذكر وتشكر ، الا انه كان الى جانب ذلك معجبا بنفسه مفرطا فى عشق ذاته (1) أراد ان يكون دون استعداد - كل شيء فقالت له الحياة لن تكون شيئا ، وهكذا عاش وهكذا مات » هذه شهادة رجل واحد من معاصرى الشيخ العقبى ، وهو الشيخ أحمد توفيق الذى لم ينظر لاتفاق جماعة النادى أول يوم مع الشيخ العقبى بعين الرضا ، كما قدمنا ، والذى يبدو ان سبب هذا ، ان توفيقا قبل مجيء العقبى كان خطيب المجتمعات ، وكانت خطبه فى مناسبات معدودة محدودة ، وله تأثير على العوام ، ولما جاء العقبى وسمع الناس خطبه أخذ بمجامع قلوبهم بفصاحته وصراحته (2) .

جاء العقبى الى الجزائر فأقبل عليه الشباب ، ولا سيما طبقة العمال منهم فكون منهم « جيشا أزرقا » يتبعه اينما حل وارتحل .

وكانت الاستدعاءات تتهاطل على العقبى من المدن القريبة من الجزائر كالبليدة والقليعة ، ومليانة ، وغيرها فكان انصاره يتبعونه اينما ذهب ، وفى كل بلدة يدخلها ، يترك خصوما ، وانصارا ، خصوما من الخرافيين ، وانصارا من المتنورين ، وكانت العلاقة بينه وبين الاستاذ توفيق ، علاقة مجاملة لا علاقة عمل ، الى ان وقعت حادثة مقتل الشيخ محمود كحول رحمه الله التى قال عنها الاستاذ توفيق فى مذكراته

---

(1) عجبا ؟! توفيق المدنى يقول هذا عن الشيخ العقبى ؟ ان المثل السائر : رمتنى بدائها وانسلت !! ما وضع فى الامثال العربية الا لمثل هذه الصفاقة!!

(2) وهذا بعض الاسباب لا كلها ، وهى أسباب كونت فى نفس توفيق حفيظة وموجدة، ولم يستطع ان ينفثها الا بعد موت العقبى وامثاله الاحرار.

صفحة 255 ، تحت عنوان الشيخ الطيب العقبى يتهم ويسجن : « وجيء بعكاشة للنادى ، ومعه رجال السلطة فأراهم المكان الذى اتفقوا على ان يكون محل المؤامرة وقال لهم : ان هذا هو الذى كان مع العقبى عند تسليم الخنجر ، وهو الذى حثنى معه على القتل واشار الى السيد عباس التركى فألقت السلطة القبض على الشيخ العقبى وعلى الصديق عباس التركى وسيقا مقيدين بالحديد الى سجن باربروس ، اجتمعنا حالا فى النادى ، مع من كان حاضرا من رجال جمعية العلماء وقررنا ...الى ان يقول في صفحة 257 : وبعد اشهر قليلة قيل لنا انها وقعت مجابهة بين العقبى وعكاشة وان العقبى اثر فى عكاشة بلسان الدين والقرآن فرجع عكاشة الى الحق ، واعلن انه كذب عند ما اتهم العقبى وصاحبه، عندئذ اطلقت الحكومة سراح العقبى وصاحبه سراحا مؤقتا .

الذى يقرأ هذا الكلام يستنتج منه ثلاث مسائل :

أ ـ ان الشيخ العقبى ، والسيد عباس تركى القى عليهما القبض فى مكان واحد ، وفى يوم واحد وهذا غير مطابق للواقع ، لان الشيخ الطيب العقبى سجن قبل السيد عباس التركى والقى القبض عليه بنادى الترقى، عندما جيء بعكاشة الى النادى ، وبعد سجن الشيخ العقبى ، قام السيد عباس بأعمال ، منها تهيئة سفر الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والدكتور سعدان الى فرنسا لفضح مكيدة اغتيال الشيخ كحول ، واعتقال الشيخ العقبى لدى الدوائر العليا ، والصحافة الحرة ، وقد كان الاستاذ محمد الامين العمودى بقي بباريس ولم يرجع الى الجزائر مع وفد المؤتمر ، وعندما بلغه خبر اعتقال العقبى كتب مقالات بصحافة باريس حمل فيها

على ادارة الشؤون الاهلية ، وبرأ العقبى مما اتهم به رغم ما كان بينه وبين العقبى من جفاء .

استدعى جماعة من المصلحين ـ ممن كانت لهم بالعقبى علاقات ـ الى قصر العدالة وكان من بين المستدعين السيد عباس التركى ، واخرج عليهم قاضى التحقيق المتهم عكاشة وسأله اين الرجل الذى كان مع العقبى عندما اتفقت معهما على قتل كحول ؟ فأشار الى السيد عباس التركى من بين الجماعة فالقى عليه القبض وسيق الى سجن باربروس حيث سجن العقبى من قبل .

ب ـ يقول الاستاذ توفيق « فور القاء القبض على العقبى اجتمعنا حالا بنادى الترقى مع من كان حاضرا من أعضاء جمعية العلماء وقررنا » ... وعد خمس نقط مما قرر !!

لست أدرى والله مع من اجتمع بالنادى بعدما ألقى القبض على العقبى ، وضرب الحصار على النادى ، وما فك الحصار على النادى الا بعد غلقه ووضع الاختام عليه وبقي النادى على هذه الحالة الى ما بعد اطلاق سراح العقبى (1) ؟

ج ـ يقول الاستاذ توفيق فى صفحة 257 « وبعد اشهر قليلة قيل لنا انه وقعت مجابهة بين العقبى وعكاشة .. الخ » .

بينما لم يمكث العقبى بالسجن سوى ستة أيام بلياليها ، ولست أدرى هذه الاشهر القليلة من اين آتى بها الاستاذ توفيق (!!) ؟

ورغم ما لنا من ثقة فى الاستاذ توفيق فانه لا يمكننا ان نقره على باطل ولا سيما فى قضية كنا من شهودها ، فنحن

(1) هذه هى « الاوهام » ؟ وهذا هو المؤرخ الذى يكتب للتاريخ (بنزاهة) ؟!

عندما حوصر نادى الترقى ، واخرج من كان فيه سوى الشيخ الطيب العقبى كنا بغرفة الاستاذ الشيخ البشير الابراهيمى فى نزل قصر الشتاء ننتظر ما يسفر عنه حصار النادى،والجماعة هم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والشيخ البشير الابراهيمى والشيخ محمد خير الدين والشيخ فرحات ابن الدراجي ، والشيخ محمد العيد ، وكاتب هذه السطور ، وبعض الاخوان من أعضاء الجمعية ، هنالك فوجئنا بأن الشيخ الطيب العقبى سيق الى السجن ، وبعد خروج الشيخ الطيب العقبى والسيد عباس التركى من السجن نشرت جريدة البصائر فى عددها 32 المؤرخ 28 أوت 1936 وعددها 33 المؤرخ 4 سبتمبر مقالا بقلم الاستاذ الشيخ محمد البشير الابراهيمى تحت عنوان مقتل الشيخ كحول ، جاء فيه : ليسجل التاريخ ولتشهد الاجيال المقبلة . تحقيقات وتفصيلات مهمة . الكيد لجمعية العلماء ، اعتقال الشيخ الطيب العقبى ستة ايام بلياليها السود فى سجن بربروس ، تفتيش نادى الترقى ، تفتيش ادارة البصائر وجمعية العلماء ، والجمعية الخيرية حجز دفاتر وأوراق تلك، الادارات كلها ، ضرب الحصار على النادى بقوات البوليس ، والحرس المدنى ، والجاندرمة ، والجيش الاسود !!

ويقول الاستاذ توفيق عن الشيخ العقبى بعد خروجه من السجن : « رأينا رأي العين كيف ان العقبى غير لهجته وطور دروسه » ويقول : « كنت اشترك معه فى تحرير جريدة الاصلاح الى ان تعرض الى جمعية العلماء فسحبت مقالى » . ويقول فى صفحة 260 : « انعقد مجلس الجمعية الخيرية تحت رئاستى فذكرت كارثة تونس وحاجتها للعون واقترحت امدادها بعشرة آلاف فرنك فصادق الجميع ، لكن الشيخ العقبى عندما علم بالامر انزعج وقال : ان الحكومة تتصدق علينا

فكيف نتصدق نحن بمالها ؟ وجمع المجلس من جديد وحملهم على الرجوع عن هذا القرار ، فبعثت باستقالتى وغادرت الخيرية كئيبا لانى كنت اعتقد العمل فيها جهادا » .

يحاول الاستاذ توفيق بهمز ولمز الشيخ الطيب بعد وفاته اخفاء معالم الجناية ان لم أقل الجريمة التى ارتكبها توفيق بمشاركته للشيخ الطيب فى كثير من اعماله عند انفصاله عن جمعية العلماء ليظن من يقرأ تحامله على الشيخ العقبى انه برىء منه .

والحقيقة ان توفيقا مسؤول عن أعمال الشيخ الطيب العقبى ، لانه عندما عطلت جمعية العلماء جريدة البصائر ، ومجلة الشهاب ، وقررت السكوت ايام حرب 39 ـ 40 لان الصحف التى كانت تصدر ايام الحرب تخضع للرقابة ولا تنشر الا ما ترضى عنه الحكومة ، وتريده ، وكان الشيخ الطيب العقبى منفصلا عن جمعية العلماء ، فأصدر جريدة الاصلاح ، فكان ساعده الايمن فى تحريرها الاستاذ توفيق ، فبماذا نعلل هذا (1) ؟

وهل حالة الطوارىء التى تعيشها البلاد تسمح للكتاب الاحرار كالاستاذ توفيق ان يدلوا بآرائهم ؟

وقد استمر الاستاذ توفيق مشاركا فى تحرير الاصلاح الى ان استقال من الجمعية الخيرية التى كان يعتقد العمل فيها جهادا !!

---

(1) الحقيقة الناصعة فى هذا الامر ، هى التى جابه بها السيد (مصطفى كاوى) أحد أعضاء النادى واحد أعضاد الشيخ العقبى فى نادى الترقى ، يوم 16 أفريل 1978 ، أثناء الندوة التاريخية فى المركز الثقافى الاسلامى من ان توفيق المدنى هو الذى أشار على الشيخ العقبى بضرورة اصدار « الاصلاح » راجع مقال هذه الندوة من هذا الكتاب فى القسم الاول منه .

وفى سنة 1947 ، بعد ان هدأت زوابع 8 ماى 1945 اصدرت جمعية العلماء السلسلة الثانية مـن جريدة البصائر تحـت اشراف رئيس الجمعية الشيخ البشير الابراهيمى ، فرأت لجنة تحرير البصائر ان تعهد الى الاستاذ أحمد توفيق بتحرير فصل فى السياسة العالمية ، ومن ذلك الحين أخذ يكتب تحت امضاء (أبو محمد) .

وفى سنـة 1951 ، جددت جمعية العلماء مجلس ادارتها ، فكان الاستاذ توفيق من بين المنتخبين ، واسندت اليه الكتابة العامة ، هذه حقيقة نذكرها للتاريخ .

حمـزة بوكـوشه

التخـريف والتحـريف (1)

أسـاس التـزييـف

في «مذكـرات» توفيق المـدني

بقلم : **محمد الطاهر فضلاء**

في غرفة الانتظار للمعاينات الطبية بمستشفى « كوشان » بباريس فتحت اربع رسائل وردت علي من الجزائر ، وحملت الي احداها قصاصة لمقال بقلم الاستاذ حمزة بوكوشة في العدد 4435 من جريدة الشعب .

وانا مع شكرى العميق لهؤلاء الاخوة المراسلين ، على حسن تفهمهم لنبيل مقصدى من مناقشة الاستاذ توفيق فى كتابه ،

---

(1) نشرت بجريدة الشعب الوطنية بتاريخ 7 ربيع الثانى 1398 هـ ـ 16 مارس 1978 م .

فان لى بعض تعليقات أو توضيحات حول مقال الاستاذ حمزة بوكوشة المنشور بجريدة الشعب وقبل ذلك وبعده ، لابد من هذه المقدمة :

المجاملة فى الجناية جريمة :

هكذا يقول رجال القانون فيما أظن يا أستاذ حمزة ، وانت الحقوقى الخبير - كيف سمحت لنفسك ان تجامل فى الجناية ؟ ألانه هو توفيق المدنى ؟ ؟ ان كان كذلك فانا أكثر احتراما له وتقديرا ، لانى اعتبره دائما وما ازال - فى مقام الاخ الاكبر، ولكنى مع هذا ، لا أستطيع مجاملته فيما اعتقد موقنا انه الحق الذى تركه أو حاول النيل منه ،،، ألم تقرأ الحديث الشريف - القائل : فو الذى نفسى بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، أو لقطع محمد يدها ، (أو كما قال صلى الله عليه وسلم) ؟

ثم انك تعتقد جيدا - كما اعلم - انه لا يمكن ان نجامل ايا كان ، متى عرفنا ان هذه المجاملة ستجر معها سلسلة من الاضطرابات العقلية ، والفكرية ، والنفسية ، والخلقيـة ، فى نفوس اجيالنا الذين سيتم تأريخ تاريخنا على أيديهم .

وعلى هذا الاساس ، ينبغى ان ننطلق جادين فى شجاعة الحق وصراحة العادل الذى لا يحابى ولا يدارى ، ولا يطلب رضا الناس فى سخط الحق والعدل . اما الصلات الاخويـة والودية التى جمعت بيننا وبين الاستاذ توفيق منذ أكثر من ثلث قرن ، فانها ستبقى كما هي فى مقامها الاعلى متى رجع الى الحق والعدل ، ومحا باحدى يديه ما كتبته الاخـرى من التخريف والتحريف ، لا سيما بالنسبة لرواد نهضتنا الذين أخذنا ألوية « الامامة » من أيديهم النظيفة التى لم تتلوث بأوضار الدنيا الدنيئة .

على هذا الاساس سنمضى فى مناقشة الاستاذ توفيق حول كل ما جاء فى كتابه .

الثـــورة والثـائـــر :

ان الذى نعلمه ـ علم اليقين ـ ويعلمه معنا كل الجزائريين وحتى ذلك « الجيش الازرق » الذى ذكره الاستاذ حمـــزة بوكوشة فى مقاله ـ هو ان الآستاذ توفيق المدنى لا يكون أبدا حيث تكون الثورة، ولا تكون الثورة حيث يكون هو «مختارا».

ان الثورة كما هي فى فقه اللغة الوطنية والسياسيـــة والسلوكية ـ مجموعة مغامرات وصراعات ، تكون نسبـــة النجاح فيها ضئيلة جدا ، وهو الامر الذى يقرأ له الاستاذ توفيق ألف حساب وحساب !!

ولكى لا نجاريه فى التحامل والمبالغة فى التهويل نرجو من القراء ان يتفضلوا بمرافقتنا فى رحلة ذهنية قصيرة عبر قوائم المضطهدين من إخوانهم الماضين معتقلين وسجنـــاء ، ومحاكمين ـ ولا نقول شهداء ومعدمين ـ من رجال وشبـــاب الاحزاب والهيئات والمنظمات ، ثم من المعلمين الاحرار ، ومن تلاميذ وأولياء المدارس والمساجد والنوادى ، ثم من اعضاء الجمعيات الفنية والرياضية ، ممثلين وموسيقيين ومطربين ، ورياضيين ، لنقرأ منها قراءة سريعة اسماء الذين عــذبوا وسجنوا وشردوا وحوكموا فى مختلف المحاكم العسكريـــة والجنائية وغرموا غرامات باهضة دفعوها من دمائهـــم فى أعمال شاقة ، أو دفعها أولياؤهم مرغمين مكرهين عن طريق ديون ربوية أرهقتهم طوال حياتهم .

ثم لا نتحدث فى هذه القوائم عـــن الذين قتلوا تحـت التعذيب وعن الذين حوكموا محاكمة صورية واعدموا فى

ظرف يوم وليلة من اعتقالهم ، ولا عن الذين عاشوا بعاهاتهم حتى الآن صابرين محتسبين .

وفى كل هذه السجلات والقوائم ، هل نجد اسم الاستاذ توفيق المدنى يأخذ مكانه من بين هؤلاء المضطهدين المعذبين منذ نزل بالجزائر ــ مبعدا ــ سنة 1925 ؟!

ــ اننا نعتقد جازمين انه ليس هناك من أحد يستطيع ان يحرجنا أو يحوجنا الى مثل هذا التحرى والاستقصاء لنفي أو اثبات التزييف حول الاحداث والاشخاص فى كتاب الاستاذ توفيق ، فى حال ان كتابه نفسه هو الذى يتولى الكشف عن المدى المهول لمبالغاته العديدة «الدونكيشونية» والا فما معنى مثل هذه الكلمات : يوم الهول الاعظم ، يوم الطامة ، يوم ولا كايام الناس ... وغير هذا ، وما فى معنى هذا يطلقها الاستاذ توفيق على خطبة حماسية يلقيها فى قاعة « لاليــر » وهى قاعة ما تزال قائمة حتى الآن ، ولا تحمل من الجلوس والوقوف من الناس أكثر من مائة شخص ، نضاعفها نحن تجاوزا واشفاقا على الخطيب ــ الى مائتين مــن الحاضرين أغلبهم من تلاميذ وتلميذات مدرسة الشبيبة وآبائهم وامهاتهم، وهو ما فعله في خطبة أخرى ألقاها بين جماعة من النواب الذين أرادوا بحكم الضيافة والقرابة العائلية ان يكرمــوا وفادته وينظموا له حفل تكريم ، وكل هذا نقرأه فى كتابه وفى صفحات عديدة لا استطيع الآن تحديدها ، وليس معى كتابه الذى لم أجد له أثرا فى هذه البلاد ، لا فى المكتبات المختصة ، ولا عند الاشخاص المثقفين .

ولكننا سنترك هذا الى حين ، لنذهب مع مبالغات الاستاذ توفيق ومع احلامه النرجسية التى لا تفارقه حتى أيــام الكوارث ، فقد روى لنا فى كتابه انه كان يوم « 8 ماى 1945 »

فى عربة القطار ، وهو فى طريقه الى تونس ، وفى احدى مدن الشرق الجزائرى توقف القطار فى المحطة وفيها شاهد الاستاذ توفيق حركة غير عادية ، اذ كانت المحطة غاصة بالجنود وهم على اهبة الحرب، وبفرق مدنية من المستوطنين والمعمرين وفى أيديهم الاسلحة أيضا ، ثم لم يلبث ان دخلت الى القطار حيث هو ـ فرق أو مجموعات من الجيش والشرطة ، ووقفوا حيث الاستاذ توفيق مع جماعة من الاوروبيين ، وسألوا (مجرد سؤال) : هل يوجد هنا معكم (انديجان) أى أهلى ؟ فأجاب الجميع بالسلب ، ثم ذهب الجنود والشرطة حيث يوجد الاهالى الجزائريون ليفتكوا بهم وليضمخوا تربة بلادهم بدمائهم ..؟

ونحن هنا لا نتحدث عن الروح الثورية التى تلازم الاستاذ توفيق ويلازمها،ويحبها وتحبه ، (ويحب ناقتها بعيره) ، ولا نسأله ـ مجرد سؤال ـ عن طربوشه التركى الذى لا يكاد يفارق رأسه ، **ولكننا نقول له : كيف امكنك ان تنكر انك عربى جزائرى ؟ وكيف أمكنك ان تتبرأ من الثورة ، وقد جاءتك تسعى برجليها حتى عربة القطار ؟ وأنت من أنت ، لا تكون الا حيث تكون الثورة ولا تكون الثورة الا حيث تكون أنت ؟ !**

مقالة الاستاذ حمزة بوكوشة :

بالرغم مما تطفح به هذه المقالة من المجاملات ، فان فيها كثيرا من الحقائق المجلوة التى تصحح للقراء معالم ومفاخر نهضتهم ، الا أن فيها نقاطا ينبغى توضيحها أكثر ، حتى لا تضيع الحقيقة بين « لباقة » الاستاذ توفيق فى هجومه « ولياقة » الاستاذ حمزة فى دفاعه .

مؤسسة جمعية العلماء :

كان يجب على الاستاذ حمزة بوكوشة ، ان يكون صريحا كل الصراحة فى تبيان كل الحقائق فى هذا الموضوع ، لا سيما وقد ذكره الاستاذ توفيق فى كتابه مثنيا عليه ، ولكنه وضعه مكان الجهاز الاليكترونى مما يسمى اليوم بالاعلام الآلى ، حيث كان فى نادى الترقى ملازما للمجتمعين بقصد امداد الاستاذ توفيق – وهو فى مكتبه المشرف على شارع لالير – بكل التفاصيل مما يتم فى الاجتماعات المتواصلة لبحث الكيفيات والحيثيات والظروف لانجاز التأسيس المطلوب لجمعية العلماء ، التى يؤكد الاستاذ توفيق فى أسلوب لا يقبل التأويل – انه وحده المؤسس لها ، والداعى اليها ، والدماغ الذى تمخض عن فكرتها ، واليد التى تناولت كل أسباب التنفيذ فى انجازها ... وهو أمر ليس له أي نصيب من الصحة ...!

لقد سلك الاستاذ توفيق فى سلسلة واحدة – كل العلماء الاحرار الذين فكروا فى تأسيس جمعية العلماء ، وهيئوا كل الظروف الملائمة له ، ووضعهم كلهم فى آخر القوائم من الذين وصلتهم منه الدعوة الى الحضور ، ثم وضع نفسه فى مقدمة المفكرين والمنفذين ، وساق معه جماعة من المغمورين المحرومين ، وفى مقدمتهم السيد « عمر اسماعيل » الذى كان يمثل فى حياته اليومية دور « المثرى النبيل » من مسرحية موليير .

الحقيقة الاولى :

اما الحقيقة فليست كذلك من قريب أو من بعيد ، وما توفيق المدنى ، وعمر اسماعيل ، والعاصمي ، وعبابسة

ـ الا أداة تنفيذ لا غير وقـــد كانوا كذلك بمحض ارادتهم واختيارهم ، وهو فضل ـ لو علم الاستاذ توفيق ـ عظيم في سجل أعمالهم متى صلحت النية وحسنت العاقبة .

وقد كان على الاستاذ حمزة بوكوشة ان يبين هذا بصراحة المؤمن بالحق ويبين معه كيف ان الادارة الفرنسية في كـل المناطق الجزائرية قد ضربت الحصار على كبار علمائنـــا ومفكرينا ، تتبع تحركاتهم في كل مكان يحلون به ، وهـم لهذا حين فكروا وعزموا على تأسيس جمعية العلماء رأوا من من الحكمة ان لا تظهر اسماؤهم على بطاقات الدعوة الى ذلك، والا فمئال العمل الاخفاق والتعطيل لا محالة ، ولنا على هذا وثائق مكتوبة من مختلف الادارات ومختلف المسؤولين عنها في مراكز السلطة الفرنسية وهي بين أيدينا تحت الطلب (1).

ثم كان على الاستاذ حمزة بوكوشة ان يبين انه لما تأسست جمعية العلماء ، وقبض العلماء الاحرار على اعنتها ـ ادركت الادارة الفرنسية عامة وادارة الشؤون الاهلية بالولايـــة العامة خاصة ـ ان الامر قد فاتها وانها قد خسرت المعركـة بفوات المبادرة فيها ، لهذا أوعزت الى السيد (عمر اسماعيل) ومن لف لفه من الانتفاعيين والطرقيين المرتزقين ان يعملوا عـــلى تمزيق وحـــدة الجمعية وتشتيت شمل اعضائها ، وحتى باستعمال الوسائل الدنيئة والاجرامية ، فلم يمض عام واحد على تأسيسها ، حتى اجتمعت هذه « الفئـــة الباغية » وعزمت عـــلى الفتك بكـــل الاحرار مـــن أعضاء جمعية العلماء الكبار والصغار ، ليتم لهم التنفيذ الحرفي لاوامر اسيادهم ، وعـــلى رأسهم « ميرانت » مدير ادارة الشؤون الاهلية بالولاية العامة

(1) انظر بعض هذه الوثائق ، بنصها الفرنسي ، والنصوص التي عربناها منها . وذلك في قسم اللواحق من هذا الكتاب .

فيتحقق بذلك تحريف آية الله الكبرى وتحويل جمعية العلماء الى « مجمع الاوراد » مـــن مريدى الطرق المبتدعة ومشائخة المستغلين الاذلاء ، وبهذا يتـــم لهم تأبيد الحـــذاء الاستعمارى القذر على رقاب الامة كلها !

غير ان هؤلاء العلماء الاحرار ، كانوا يقظين حذرين فى مستوى مسؤوليتهم ففوتوا هذه الفرصة المطبوخة على الادارة الفرنسية واذنابها ، ومنهم هذا الغـــر الامى المدعو « عمـــر اسماعيل » وخرجت جمعية العلماء من هذه المحنة منتصرة ، وطاش سهـــم اعدائها ومناوئيها حيث وجدوا انفسهم خارج النادى وخارج الجمعية وعن طريق الانتخابات الشرعية .

هذا هو السيد (عمر اسماعيل) وصحبه ومن لف لفـــه ، ذكرناه بما هو أهله واذا كان هناك من اثم فى ذكره بما ذكر ــ وهو ميت فان الاستاذ توفيق هـــو الذى سيبوء بهذا الاثم لانه هو الذى وضعه ــ حيث لا تصل قامته ، فأبى الله الا ان يفضـــح الباطل بالحق ، ويكشف عن الحقيقـــــة كمـــا هى ، ولو كره الحانقون ، والمخالفون اجمعون ! !

الحقيقـــة الثانيـــة :

كان على الاستاذ حمـــزة بوكوشة ان يقـــول صراحة : ان الاستاذ توفيق لم يحضر اللجنة التأسيسية نفسها ، وقد كان يرأسها الاستاذ الابراهيمى حتى قبـــل الاعلان عنها ، وكان يساعده فى تنظيم الاجتماعات التى جـــرت بالنادى وتحديد أسلوب النقاش بين المجتمعين . ثلة من العلماء والادباء امثال : الشيخ العقبى ، والشيخ الحافظى ، والشيخ أبـــو اليقظان ، والاستاذ العمودى ، وغيرهم .

ثم كان على الاستاذ حمزة ان يذكر بان الاستاذ توفيق لم يحضر في هذا الاجتماع التأسيسى منذ بدايته حتى نهايته ، كما انه لم يحضر ـ بعد عام من التأسيس ـ في الاجتماع الذى تآمرت فيه الادارة الفرنسية على الجمعية بواسطة عملائها المذكورين آنفا ، فأخرجهم الله منها مذمومين مدحورين .

كما ان الاستاذ توفيق الى جانب كل هذه المواقف الحرجة التي تفاداها ـ كعادته في تفادى كل المآزق ـ لم يشارك في جمعية العلماء حتى مجرد اشتراك رمزى باعتباره من الكتاب والادباء وأهل العلم ،،، واننا نتحدى كل من يقول غير هذا ان يستظهر ولو بوصل واحد من اشتراك واحد أداه لكيس الجمعية ليكون له حق الانتخاب على قائمة أعضاء المجلس الادارى في المؤتمر السنوى ، وذلك منذ تأسيسها سنة 1931 الى حيث رشحه لعضويتها الاستاذ الشيخ الابراهيمى في آخر سنة 1951 واستطاع ان يقنع المعارضين من زملائه العلماء وفى مقدمتهم الشيخ العربى التبسى عليه رحمة الله .

فكيف امكن للاستاذ توفيق في قرابة نصف قرن من الزمن ان يدّعي ما ليس له ؟ ثم يضع نفسه (فوق) مقامات هؤلاء العلماء ، ويزعم انهم انما جاؤوا الى الجمعية بدعوته ؟.. ثم تبلغ به الجرأة الى حد الوقاحة حين ادعى ان عبد الحميد ابن باديس وهو الكاتب البليغ والخطيب الابلغ كما يعلم جميع الناس،طلب منه وبالحاح ـ ان يكتب له خطبة الافتتاح لاول مجلس لجمعية العلماء !!! فيا للصفاقة ؟!

هذا هو التخريف ، وهذا هو التحريف ، الذى جر الاستاذ توفيق وجرفه الى تزييف الحقائق حول تأسيس جمعية العلماء كما جرأه على نبش القبور وبعثرة عظام الموتى ، وفى مقدمتهم العالم العامل المخلص الشيخ الطيب العقبى الذى هو ـ بصراحة

الحق ـ ولى نعمة الاستاذ توفيق فى المجتمع الجزائرى ، وهو الذى بقى الاستاذ توفيق تحت حمايته أكثر من عشرين عاما من عمر الزمن ، لا يخطب الا تحت جناح « برنسه » ولا يتصل بالجماهير الا اذا قدمه هو الى هذه الجماهير .

هذا هو الشيخ العقبى الذى ناقض الاستاذ توفيق نفسه مناقضة صريحة ، حين اثنى على كفاءته ونزاهته ، وعفته ، وايمانه ، ثم اصدر ادانته عليه ، ادانة لا تمحوها « عبادة اربعين عاما » ما لم يعلن توبته منها قبل ان تطلع الشمس من مغربها !!

وهو الامر الذى اخطأ فيه الشيخ حمزة بوكوشة عندما وضع الاستاذ توفيق أمام مسؤولية الجناية أو الجريمة فى ممالئته للشيخ العقبى وملازمته له ، وكتابته فى صحيفة (الاصلاح) التى اصدرها تحديا لقرار جمعية العلماء بتعطيل صحفها عند اعلان الحرب العالمية الثانية .

نعم ان الجناية ثابتة على الاستاذ توفيق كما قال الشيخ حمزة فى مقاله ، ولكن هذه الجناية لا يشترك فيها الشيخ العقبى لان الشيخ العقبى لم يلتزم بقرار جمعية العلماء . اما الاستاذ توفيق الذى ادان ويدين العقبى ، على خروجه من جمعية العلماء وتحديه لقراراتها ، وجهره بعدم الموافقة على مناهج أعمالها ـ هو وحده من يتحمل مسؤولية الجناية أو الجريمة كما قال الشيخ حمزة ـ عندما بقي مع العقبى وتحت رئاسته فى الجمعية الخيرية ، يحضر جلساتها ، ويخطب فى احتفالاتها ، ويشارك فى النادى وغير النادى فى شتى مهرجاناتها ... ثم يكتب مقالاته (المأجورة) فى جريدة الاصلاح ، فى وقت كانت الجرائد فيه تحت رحمة المراقبة الاستعمارية !

ومجموعة جريدة الاصلاح لهــذا الفترة ــ وفيها مقالات توفيق المدنى ــ بين ايدينا نضعها بين ايدى القراء عند الطلب **ليتبين الجميع ان تحامل الاستاذ توفيق على الشيخ العقبى ، لم يكن من أجــل العقيدة ، ولا فى سبيل المبدّا ، وانما هو مــن قبيل الاساءة للمحسن تبــعا لاضغان علقت بالنفس فعجزت السنون والمنون على ازالتها ومحوها من نفس الاستاذ توفيق ، وعجزنا نحن على مجاملته فيها على حساب الحق والعدل بالنسبة للتاريخ وبالنسبة للشيخ الطيب العقبى رحمه الله فى العلماء الخالــدين .**

ولنا عودة الى كتاب الاستاذ توفيق متى دعانا داعى الواجب الى العودة اليــه ، ولكن الــذى نرجوه مخلصين مــن الاستاذ توفيق ان لا يندفع بعد اليوم فى الرد على ناقديه ومناقشيه حتى لا يترتب عن ذلك ما لا نريده له ، ولا نرضاه مختارين .

محمد الطاهر فضلاء



«مـن غـربل النـاس نخلـوه» (*)

نظرة عامة خاطفة في كتاب (حياة كفاح)
للاستاذ أحمد توفيق المدنى

بقلم : محمد الصالح رمضان

في بدايـة هذا المقال القيـم مقدمة لكاتبه نعتذر على حذفها والاستغناء عنها بالمقال نفسه

كنا فى انتظار كتابه الثانى ، الخاص بحياته فى الجزائر من سنة 1925 الى قيام ثورة التحرير 1954، بعد ما قرأنا له الجزء الاول منه ، الخاص بحياته فى تونس ، فى الربع الاول مـن هذا القرن ، ورأينا طريقته فى تناول الاحداث التى عاشها فى القطر الشقيق ، والاشخاص الذين عرفهم واتصل بهم ، فاحببنا الاطلاع على الجزء الثانى منه لعلاقته الوثيقة بنا .

(*) هذا هو المقال الطويل الذى كتبه الاخ الاستاذ محمد الصالح رمضان، ونشر فى حلقات بالصحف الوطنية طلبناه من صاحبه ليكون ضمن مواد الكتاب ، فقدمه الينا مشكورا ، ونشرناه ممنونين لصاحبه ، ومؤكدين بـه كل ما تناولناه من نقد لتحريفات وتزييفات « حياة كفاح » لتوفيق المدنى .

ومما زادنا تشوقا اليـه وتشوفا ، ذلك العرض الشائق المغري الذى قدمه به صاحبه فى (المركز الوطنى للدراسات التاريخية) بالعاصمة ، أمام جماعة من زملائه أعضاء المركز ونخبة من أساتذة التاريخ ، وأهل الثقافة والادب ، ثم (فى المركز الثقافي الاسلامي) بالعاصمة ، كذلك أمـام جمهور المهتمين من مختلف الطبقات . ونقلته أجهزة الاعلام الوطنية ونوهت بـه الصحافة والاذاعة والتلفزة ، فزادنا كـل ذلك ترغيبا فيـه وتشويقا اليـه ، وهكذا قامت وسائـل الإعلام وقاعات العرض بواجبها نحو الكتاب وصاحبه،وبقي علينا نحن القراء واجب الاطلاع وابداء الرأي،وفى ذلك ما فيه مـن التنويه والتعريف بالانتاج الثقافي الوطني وتقييمه .

وقد قال الاستاذ توفيق فى ذلك العرض ، من جملة ما قال عـن كتابـه :

« **انه ليس مجرد تسجيل مذكرات شخصية عاشها ، وعاينها بل يشمل تاريخ الحركات الوطنية وتسجيل الحقائق التاريخية منها ، ويعتبر نفسه المسجل الامين لها** ، ويذهب الى أنه مثل **ابن خلدون ، ونابوليون وغيرهما من العظماء الذين قـدموا مذكرات هامـة عن حقائق التاريخ** الذى عاشـوه ، ودخائل الحوادث التى مـرت بهـم ». ويؤكد ان كاتـب المذكرات : « **يجب ان يكون نزيها الى ابعد حـد ، لان الامانة التاريخية مقـدسة** » يقول : ان هذا مـا حاول ان يقـوم به فى كتابة مذكراته ، فى هذا الكتاب الذى تعرض فيـه لاوجه النضال المختلفة ، والرجال الذين ساهموا فى المرحلة التاريخية التى كتب عنها ، وعن أهم الحركات والمنظمات الوطنية مثل تكوين (جمعية العلماء) ، وتأسيس الحركات الوطنية الاخرى مـن (نجم شمال افريقيا) ، الى (حزب الشعب) ، و (انتصار

الحريات الديمقراطية) ، ومن (كتلة النواب المسلمين) ، الى (حزب البيان والحرية) ، ومن (المؤتمر الاسلامي الجزائري) و (شباب المؤتمر) ، الى (الجبهة التى ضمت الاحزاب والهيئات الوطنية الجزائرية) ، ثم الحرب العالمية الثانية ، وحوادث ماى الدامية سنة 1945 الى قيام ثورة التحرير ، يعرف بالرجال الذين كونوا تلك الحركات والمنظمات ، أو شاركوا فيها (سلبا وايجابا) ، يلاحظ عليهم أو يعطى رأيه فيهم وفي أعمالهم، يقع الكتاب الثاني فيأكثر من 400 صفحة من القالب الكبير ، يتناول الفترة ما بين سنة 1925 الى قيام ثورة التحرير المباركة سنة 1954 .

فهو سجل هام لفترة حاسمة من تاريخنا يهم كل جزائرى الاطلاع عليه ، وابداء رأيه فيه على الاقل لكيلا يبقى رأى الكاتب أو المؤلف ـ بلغ ما بلغ ـ هو الرأي الوحيد ، ولكيلا يكون حكمه على التاريخ والاشخاص هو الاول والاخير فى الموضوع ، بل لابد من ابداء الرأي فى الآراء الخاطئة وتقديم الملاحظات على الاحكام المغلوطة ، من كل من له المام بذلك العهد ، ويمكنه أن يدلى برأيه فى بعض القضايا التى يعرف حقائقها كما هى ، ما دامت حرية الرأي مكفولة ، والديمقراطية فى التفكير مطلوبة ، وما دام (كبار الحومة) ما يزال منهم عدد ، يستطيع ان يعطى رأيه فى كل ما قيل ، أو تقول به عن تاريخنا ورجالنا ، فالامر هنا فى الجزائر وفى هذا الجزء الخاص بها ، يختلف تماما عن تونس وعن الجزء الخاص بها ، (حيث ان كبار الحومة) هنالك انتهوا أو فى حكم الانتهاء ، فلا أحد يرد عليه اذا أخطأ فى حق الدستور ورجاله مثلا من قدماء وجدد ، وخاصة الذين عمل معهم الاستاذ فى الحقل السياسى والصحافى من الثعالبى الى أحمد

الصحافى وصالح فرحات والقليبى ومن اليهم . فليسمح لى الاستاذ بنقـد كتابه ، وليفسح لى صـدره أناقشه فى بعض المسائل لامحص معه الحقائق التى أرى أنه أخطأ فيها ، وكذلك بعض الاحكام التى أصدرها على التاريخ ورجاله ، لننظر مدى مطابقتها للواقع ، ومدى موافقتها للحقيقة ، ولا يتألـم اذا ما خالفته الرأي فى بعضها ، فـ (كلكم راد ومردود عليه) كما هو معلوم عندنا . سننظر مدى التزام أستاذنا ومؤرخنا للمبدا المقدس الذى ذكـره : **(الامانـة التاريخية) و (النـزاهة الشخصية)** ومدى احترامه لهذه الخطة التى اعلن عنها ، والزم نفسه بها ، **هل كان نزيها الى أبعد حد** ـ كما قال ـ **؟ أم الى أقرب حـد ممكن** ـ كما كنا ننتظر منـه ـ ؟ وهـل صحيح **ان مذكراته تقدم المادة الخام لكتابة تاريخنا ؟** كما أعلن عن ذلك فى مقدمة الكتاب ، وهـل هى من **(الامانة والقـوة)** بحيث يوثق بها ويطمأن اليها ؟ كما ورد ذلك أيضا فى ظهر كتابه الاول حيث قال : « **مذكرات تـوفيق المـدني وثيقـة تاريخية قوية في أمانتها** أم هى مجرد مذكرات شخصية تشيد بصاحبها ، وتذكـر مواقفه **ومناقبه ، ومـدى فاعليتـه فى الحوادث والاحداث** أو تفاعلـه معها ، دون ان يذكر سلبياته واخطاءه مثـلا ليكون ثقـة عنـد القراء ويحـوز رضاهم ، فالمنصف من يذكر ما له وما عليه ليثق به الناس ويطمئنوا الى كتاباته . لـو كانت مذكراته شخصية خاصة به ، لا تتناول رجالنا وقضايانا القومية والوطنية ، لما انتقدناها ، ولما حفلنا بها الا بمقدار ، ولكنها كما تتناول حيـاة صاحبها ، تتناول حياة شعب كامل ووطن كامـل أيضا وبروح غريبة ، فهـى بقدر ما ترفع الاولى تضع الثانية ، وبقدر ما تستهين بهذه أو تهينها أحيانا ، تشيد بتلك وتتباهى بـها ، مـما لا يتناسب وكرامة المرء ، وخاصة الذى يكتب للتاريخ .

ان من يقرأ مذكراته الخاصة بحياته في الجزائر (من سنة 1925 الى سنة 1955) يخرج بهذه الصورة القاتمة والمشوهة وهي : ان الجزائر كانت خلوا من كل حركة حية ، لا تشعر بشيء من معاني العروبة والاسلام والوطنية ، الا في صور وأشكال باهتة وخيالات وهمية ، فيصف شعبها باليأس والقنوط ، وعدم الثقة في نفسه ، والاستسلام لعدوه ، حتى نفخ فيها هو من روحه، فكانت وطنا قويا، وكان شعبها قويا عبقريا ، وانتشر فيها العلم والمعرفة ، ودبت فيها الحياة بمساعيه ، كان لم يكن فيها قبله أحد من الرواد ، لا مستصرخ في واد ولا نافخ في رماد ، وكان لم تكن مهد الامجاد البطولات والامجاد ، فهو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ... وسبحان الله العظيم ... ولا حول ولا قوة الا بالله ...

هو المؤسس والمكون للحركات والمنظمات ، والمرشد والدليل لكل عمل جليل،وكل الساسة والقادة والمفكرين الذين ظهروا على مسرح الاحداث ، في عهده أو قبله بقليل ، كانوا معينين له ومساعدين ، يعملون بتوجيهه ، ويتحركون باشارته ، ولا حول ولا قوة في الجزائر الا به . فيا له من رجل عظيم !

فهل كان حقيقة هو الموجه والمرشد لرجالنا ؟ وهل كان حقيقة هو المكون أو الدال على تكوين تلك المؤسسات والحركات ؟ ولو لم يكن مشاركا ولا مشتركا فيها ، كما كان الشأن مع (جمعية العلماء) مثلا ومع جميع الاحزاب والمنظمات الوطنية الجزائرية ، ما عدا مشاركته في (نادى الترقى والجمعية الخيرية) في العاصمة فقط ولا غير .

حسبى اليوم ان ابدأ (الدردشة) فى نقط معينة ، لأظهر للقارىء الكريم جانبا مهما من نفسية الكاتب ، وطريقته فى الكتابة ، ليكون على بصيرة من أمره ، ولألفت انظار المهتمين والمتخصصين بالخصوص من باحثين ودارسين للتاريخ وغيره الى ما فى هذه المذكرات مـن خلط وتشويه ومسخ لأدق وأخطر فترة من تاريخنا المعاصر .

وما عليّ لو حاسبت أستاذنا الكبـير بنفس حسابه للناس ـ كما يقول الاستاذ عباس محمود العقاد ـ وأنا من أعـز أصدقاء الاستاذ تـوفيق ، واحب الناس اليـه (وليس بينى وبينه علم الله والناس ما يكدر الصفو) ، وكنت وما أزال اكن لـه الحب والاحترام ، وأقدر فيـه النشاط والحيوية ، ونباهة الفكر ، وخفة الروح ، واللباقة الفائقة ، وغير ذلك مما هو معروف به لدى الخاص والعام ، الى ان ظهرت مذكراته هذه فادهشنى فيها تحامله على تاريخ شعب بأكمله ، وطمس معالمه ، ونبـز رجاله . فالقضية القومية والوطنية عنـدى فوق كل الاعتبارات الشخصية والعلاقات الودية والصداقات والمجاملات ونحو ذلك ، وأفضل نقده ، ما دام حيا حتي يمكنه الرد عـلي اذا ما جانبت الصواب وأخطأت التقدير أو أسأت الفهـم .

قال عباس محمود العقاد ـ بعد ذكر ثلاثة من كبار كتاب السير والتراجم ، هم : (ليد فنج) و (موروة) و (ستراشى): «ماذا لو حاسبنا هؤلاء بحسابهم...لقد قضوا زمانا في الكشف عن الناس من وراء الستار ، فماذا يجرى لـو كشفنا الستار عنهم ، ونظرنا الى واقع أقوالهم من حياتهم كما نظروا هم الى مواقع الاقوال والافعال من حياة الابطال والعظماء ؟ اليس هذا عدلا ؟ أليس فيه فائدة ؟ » (1) .

الكتـابة مـن الـذاكرة :

بلغ أستاذنا من الكبر عتيا وما يزال يتمتع بنشاط وحيوية دائمين ، لا نجدهما في كثير من شباب اليوم ، الذين ألفـوا الراحة والدعـة والسكون ، متعه اللـه بشبابه وحيويته الى ما شاء الله ، وقد قال وهو يتحدث عن نشاطه وحيويته ـ في محاضرة القاها بالمركز الثقافي الاسـلامي بالعاصمة (أنـا شاب بلغت سن العشرين أربع مرات) . فهل يعني ان نشاطه وحيويته يعادلان نشاط وحيوية أربعـة شبان ؟.. قـد يكون ذلك ، مـع كثير من المبالغة والتجاوز ... ولكن الثمانين هي الثمانون ... رغم الشيوخ والعجائز الذين لا يعترفون بعامل الزمن ولا يقرون بعجزهم وشيخوختهم وقد عبر عنها الشاعر العربي قديما فقال :

ان الثمـانـين وبلغتهـا * قد أحوجت سمعي الى ترجمان

وأستاذنا لم يسأم الحياة ، كما سئمها ابن أبي سلمى في هذه السن التي هو فيها :

سئمـت تكاليف الحيـاة ومـن يعـش
ثمـانـين حـولا لا أبا لـك يسـأم

فهو جادٌّ في مواصلة كتابة مذكراته الى ان تبلـغ أربعة أجـزاء ، كما اخبرنا بذلك في المحاضرة المذكورة آنـفا ، وسيخصص الجـزء الثالث لحـرب التحرير ، والجزء الـرابع للاستقلال ، اعانه الله ووفقه وسدد خطاه .

ونحن نتساءل هل سيكتبها بنفس الروح والطريقة التي كتب بها الجزأين الاولين ؟ أم بروح جديدة جدية ، وبطريقة أخرى نزيهة ؟ نرجو مخلصين ان يكون فيهما جادا منصفا ، وان يكون أكثر تحريا وترويا .

فالملاحظ عليه في المذكرات التي قرأناها لـه ، **اعتماده الكثير على ذاكرته** ـ والذاكرة قد تخون صاحبها ولو كان في عز الشباب ـ من غير ان يستعين بالوثائق والمستندات ، الا في القليل النادر ، ثقـة منـه في ذاكرته واعتمادا عـلى شبابه المتجدد الذى بلغه أربع مرات ، وهـو سـاع في بلوغه مرة خامسة ان شاء الله ، **بينما نحـن لا نذكر اليوم ما وقـع لنا بـالامس ...**

ومما يؤخذ عليه في هذه المذكرات : **انه يكتب اليوم عن خمسين سنة خلت بروح اليـوم لا بروح الوقت الذى يكتب عنه ، لذلك فنحن لا نطمئن لهذا النوع من الكتابة ما لم يكن معززا بالدليل القاطع والبرهان الساطع** ، فقد ورد في كتاب الله العزيز عن سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام قوله تعالى : « **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي** » صدق الله العظيم ، فلئن صدقنا أستاذنا في كثير مما قال ، فان قلوبنا لا تطمئن لروايته الا اذا عزرها بالحجج والمستندات التي لا تدع مجالا للشك ، ومن المآخذ ـ زيادة عن الكتابة من الذاكرة ، وبروح اليوم لا بروح الوقت الذى يكتب عنه ـ **كتابة التاريخ بـلا تاريـخ** ، تأخذ كتابه الثاني مثلا فتجده يذكر دخوله مدينة عنابة لاول مرة في حياته ، وكذلك مدينة قسنطينة ومدينة الجزائر ، وغيرها مـن المـدن والقرى الجزائرية ، في شرقي البلاد وغربها ، من غير ان يذكر اليوم ولا الشهر ولا السنة ، وهكذا يسجل ذكرياته ورحلاته في هـذه المذكرات ، يكتبها للتاريخ دون ذكر للتاريخ، كما سأذكره فيما بعد ان شاء الله .

عقــدة العظمــة والتــعالي :

الدارس لكتابه يشعر بعقدة العظمة والتــعالى فيــه كان الرجل تقمص روح رب السيف والقلم (المتنبى) مالىء الدنيا وشاغل الناس ، ذلك الذى يقول : (فما احد قبــلى ولا احد فــوقى) ، ويقول :

(سيعــلم الجمــع ممــن ضــم مجلسنا
بانــنى خــير مــن تسعى بــه قــدم)

أو تقمص روح العربى الاسطورى (عنترة بن شــداد العبسى) ، أو الشاعر الشعبى صاحب الاغنية المشهورة (أنا التارقى ولد التارقية) ... فهو لا يفتأ يذكر القارىء لكتابه بقيمته وأمجاده ماضيا وحاضرا ، ما كان منها وما لم يكن ، فما من أحد من آبائه واجداده الا وهو بطل ومجاهد وتقي وصالح ... الخ . واذا ذكر اخاه (الهادى المدنى) مثلا وصفه بالشاعر العملاق والشاعر الجبار ، وغير ذلك من الاوصاف التى قد لا يتحملها أخوه ولا غير أخيه ، وكذلك يضفى على أقاربه ومعارفه من النعوت والصفات ما يستحقون ومــا لا يستحقون . واما حديثه عن نفسه واشاداته بكتاباته وخطبه فحدث عن البحر ولا حرج ـ كما يقول الاقدمون ـ ويذكر فضله على كل حركة ، وعلى الرجال القائمين بجميع الحركات والمنظمات والاحزاب فى الجزائر ، وتأثيره فى الاوســـاط والمجتمعات من جميع الطبقات ، كأن يقول مثلا عن أوساط العاصمة لما خالطها لاول مرة : « **أدخلت فيها حديث الوطن ، والمطالب ، والحقوق ، والاستقلال ، وآفــات الاستعمــار ، ومصائبه ، حتى فكّت أقفال الألسنة ، وانشرحت القلــوب لإول مرة** » (2) ، فهذه الامور ـ فى زعمـــه ـ لم يعرفهــا

الجزائريون قبله ، ولا كانوا يتحدثون فيها قبل مجيئه ، فهو الذى (**فتح أقفال القلوب ، وهو الذى اطلق ألسنة النـاس لتلهج بالمطالب والحقوق ، وتتحدث عن الاستقلال والحرية ، وتذكر مساوىء الاستعمار ، ومصائبه وويلاته**) .

وعن متجره الصغير المطل على نهج (لالير) بالعاصمة ، الذى أصبح مدرسة وطنيـة للتكوين في نظـره ، يقـول : «**يقصدنى هنالك جماعة، كان لهم فيما بعد الحظ الأوفر فى نجاح الحركات التى كونتها ، والتى شاركت فيها** » (3) **نعم الحركات التى كونها ؟ والتى شارك فيها ؟ ويذكر من رجاله الذين كونهم ، وكان لهم الحظ الاوفر فى نجاح حركاته التى كونها :** ابن مرابط ، ابن ونيش ، المانصـالى ، رودوسى ، العاصمى ، عبابسة ، عمر اسماعيل ، مصطفى حافظ ، عمار وزقان ، وعشرات من أمثالهم ، والغريب انه لا يذكر منهم الا الاموات أو من فى حكمهم ، لكيلا تقوم عليه حجة مـن الاحياء.ثم يقول : « **وأصبحت أفكر فى تكوين حركة سياسية تكون عمودا فقريا لما يأتى بعدها** » (4) ، كما قال قبل ذلك في مقدمة الكتاب عن جهاده : « **لا أعتقد ان رجلا حقق فى الحياتين : العامة والخاصة ما حققه أبوكم هذا** (يعنى نفسه) **بجهاد مضن ، وعمل متواصل ، وتضحيات جمة ، وفكرة نيرة صحيحة ، ومبدأ أساسى قويم** » (5). وعـن كتيبـه الصغير (قرطاجنة فى أربعة عصور) يقول : « **اخرجت للناس كتابى الذى كان حدا فاصلا بين الحق والباطل والـذى كان نشره ضربة حاسمة قصمت ظهر المضللين الكاذبـين ، واخمـدت أصواتهم الى الابد** » (6) . ويذكره فى مكان آخر ، فيشير الى رواجه قائلا : « وما انتهى الشهران الاولان حتى كان عـدد المشتركين يكاد يغطى **عدد النسخ المطبوعة ، ذلك أمر لم يتأت**

لاحد من السابقين أو من اللاحقين » (7) ، بهذا الاطلاق وهذا الاغراق حتى لا يظن ان أحدا فى الدنيا يلحقه أو يسبقه ، وينسى ان عدد القراء محدود ومعدود في الجزائر وقتئذ ، الا أن يكون عدد نسخه لا يتجاوز بعض مئات ، وفي هذه الحالة يكون صادقا • ويقول من كتاب آخر له : « **ولا أغالى ولا أغرق ، لقد كان (كتاب الجزائر) فتحا مبينا ، نزع عن الشعب كل الشعب غشاوة الجهل المطبق** ... وكشف زيف الاستعمار الخبيث ... **وقد اطلقت لقلمي العنان ، دون مواربة ودون حذر . فاذا بى – ولا فخر – أقيم صرحا شامخا للحق واذا بى احطم أساطير فاجرة ، الخ** » (8) **هكذا و (بلا مغالاة) و (لا اغراق) و (لا فخر) (ينزع كتابه غشاوة الجهل المطبق عن الشعب كل الشعب)** الشيء الذى لم تستطع دول العالم الثالث تحقيقه في شعوبها ، حققه الاستاذ توفيق بكتابه هذا في الجزائر ، فرفع عنها عار الجهل ووصمة الامية بكتاب واحد !! فأين منه (جمعية العلماء) بجميع مدارسها ومعلميها ؟ وأين منه بقية المدارس الحرة الاخرى ؟ وأين منه الزوايا ومعاهدها والاحزاب وأعمالها ؟ ولا غرو أن يدعى هذه الدعاوى من يقول فى مقدمة كتابه (حياة كفاح) : « **لا أعتقد ان رجلا حقق فى الحياتين ما حققه هو** » (كما تقدم آنفا) .

ويقول مثل ذلك عن رواية وضعها للمسرح الجزائرى ، والاذاعة الجزائرية ، الخاضعين للرقابة الاستعمارية والسلطة الفرنسية فيصفها فى نحو أربع صفحات من كتابه ، نأخذ منها هذه الفقرة : « وياليت القارىء كان حاضرا تمثيل المسرحية ، ليرى ذلك التأثير الحاد الذى أحدثته الرواية ، لا في الجزائر فحسب ، بل في كل اقطار المغرب العربي .

هكذا تمثل الرواية في مسرح بمدينة الجزائر ، ويراها الناس جميعا في اقطار المغرب العربي في رأي استاذنا ، ثم يقول : وقد تناولتها اذاعة لندن العربية ومثلتها باتقان مرارا ، فسمعها العرب في كل أصقاعهم (كأنهم كانوا جميعا على موعد معها) ثم يقول : (طبعتها بعد ذلك ، فانتشرت وذاعت، ومثلت في الجزائر وتونس أكثر من مائتى مرة) (9).

هكذا يعلن الاستاذ عن جميع انتاجه الكتابى حتى الكتاب المدرسى الابتدائى (10) ، وكل مقالة من مقالاته ، ويقول بصفة عامة عن كتابته الصحفية : **(كنت أكثر الناس صراحة ، وأشدهم جرأة ، وأقدرهم على محاربة الظالمين والخائنين الخ)** (11) . بهذا الاطلاق وهذا الشمول حتى لا يحسب أحد ان هنالك من كتّاب العربية والفرنسية السياسيين وغير السياسيين ، من كان صريحا شديد الجرأة قادرا على محاربة الظلم والظالمين مثله ؟.. لا عجب اذن أن يلوح بسيفه أو بقلمه (متنبى زماننا) ، مع (المتنبى الحقيقى) صائحا أو صارخا :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ونحن نتساءل هل صادرت له الحكومة الاستعمارية شيئا من ذلك الانتاج الضخم الخطير ؟ ـ كما يصفه صاحبه ـ لا . ولماذا ؟ كلنا نعلم لماذا ؟...

المبالغة والتهويل ؟

لنترك اشهاره واعلاناته عن كتبه وكتاباته ، ولننتقل الى نوع آخر من اعلاناته عن نفسه .

المبالغة : المبالغة عند أستاذنا تكتسى طابعا مميزا له كلما يكتب أو يخطب ، فهي عنده نوع من البلاغة يؤثر به

على قرائه ومستمعيه ، دون أن يفكر في مقتضياتها ومعطياتها مع ان **البلاغة في الاصل هي مراعاة مقتضى الحال** ، ولكن صاحبنا لا يراعى شيئا فى بلاغته (أى مبالغته) سوى التهويل والتعظيم والتفخيم ، فتؤدى به أحيانا الى التقول على التاريخ وعلى الناس ، بما لم يعهد فيهم وما لم يعرف عنهم ـ ربما عن غير قصد ـ وهذا شر ما يتصف به المؤرخ بالخصوص .

فهذه المبالغة تجنى عليه وعلى قرائه ، كما تجنى على حقائق التاريخ ، والامثلة على ذلك كثيرة ، اكتفى بذكر بعضها كنماذج من كتابه الذى بين يدى كدليل على ما أقول .

يقول مثلا فى مقدمة الكتاب التى يفتتحها بهذه العبارة ـ بلا تمهيد وبلا فخر ولا اغراق فى رأيه ـ فيقول : «**خلقت ثائرا حيثما تكون الثورة أكون ، وتكون ثورة حيثما أكون**» هذا نصها بالحرف الواحد ، ثم يقول كذلك بالحرف الواحد : « **منذ فتحت عيني ... وجدتنى مندفعا اندفاعا جارفا جريئا ثائرا على كل ما يحيط بى من أوضاع** » ، ويعدد أنواع ثوراته فيقول : « **ثائرا على** مجتمع مهلهل ، **ثائرا على** اخلاق ظاهرها النفاق ، **ثائرا على** دراسة رتيبة ، **ثائرا على** نظم فاسدة ، **ثائرا على** تقاليد بالية ، **ثائرا على** من ادعوا الزعامة ، **ثائرا على** مظالم وآثام ، **ثائرا على** كل عدوان ... الخ » . ولا يذكر دليلا واحدا على ذلك .

ويقول فى مكان آخر : « **انا الثائر ابن الثورة ، انا موقد النار ، والمصطلى بلهبها** » (12) **واذا سلمنا انه ثائر ، فلا نسلم انه ابن لأية ثورة من الثورات** ، واذا افترضنا انه أوقد النار فلا نعترف انه اصطلى بلهبها ، يردد هذا التهويل ، وكلمة الثورة بالخصوص فى ثنايا كتاباته وخطبه ، ولئن جازت هذه

المبالغات والتهويلات فى الخطب المنبرية ، وفـى الكتابات الحماسية ، فلا أحسبها تجوز فى الكتابة التاريخية ـ وكتابه هـذا كتاب تاريخ بالدرجة الاولى وهـو يصرح انـه وثيقة تاريخية هامة (13) ويؤكد فى ظهر كتابه عـلى ان مذكراته وثيقة تاريخية قوية فى أمانتها .

هكذا يلح الاستاذ توفيق على قارئه وسامعه **انـه بركان ثائـر** ، لا يهدأ ولا يستكين ، يقذف بحمم القول تحرق كـل شيء ، ويرمى بصواعق العبارات النارية المـدوية كالـرعد القاصف والريح العاصف ، تلقى الـروع والفزع فى كـل قارىء أو سامع ، لماذا كـل هذا التهويل والمبالغة يا ترى ؟ وما عهدنا الاستاذ توفيق فى الحقيقة إلا مسالما وديعا ، يكره العنف والحـدة والمجابهة ، ويتحاشى الوقـوع فيما لا تحمـد عقباه ، ولذلك فهـو يميل الى جناح السلامة ، وكلما هبـت عاصفة حنى لها رأسه لتمر بسلام ، أو يسايرها حتى ولـو كانت فى غير اتجاهه ، ويرى من الحكمة الا يعاكسها ، لانه من الذين يدينون (**بالتقية**) ولـو لم يكن شيعيا ـ فيما نعلم ـ ولا اباضيا ، واذا ثبت ما قاله مرة لاحد السياسيين وقد لامه على تبديل موقفه ـ فأجابه : « **أنا مع الواقف** » . يكون قـد عبر عن حقيقته في موقف حرج ، ليتخلص من النقد والمؤاخذة و (رب عذر أقبح من ذنب) .

التـقـيّـة :

اما عن (تقيته) وتحاشيه الوقوع فى المزالق ، فذلك ديدنه وهجيراه، من يوم عرفناه، وهو مسلكه في الجزائر على الاقل من يوم دخلها فى سنة 1925 ، وكل الذين خالطوه وخبروه من قريب أو من بعيد عرفوه بالتقية المفرطة ، وهو نفسه يعترف بذلـك

ضمنيا بالوثيقة السرية للاقامة العامــة الفرنسية بتونس ، لما اثبتها في ختام كتابه الاول الخاص بتونس (14) ، وما نشرها الا وهو يؤمن بأهميتها وصدقها، ظانا انها شهادة له ، بينما هي شاهدة عليه خاصة بعدما توجها بهذا العنوان : (**والفضل مــا شهدت به الاعداء**) ، وكاتب الوثيقة ـ بلا ريب ـ خبير فرنسي بمعرفة الناس في تونس ، دارس لنفسياتهم ، عارف لحقائقهم وخفاياهم ، ولولا ذلك لما كلفته حكومته بتولى هذه المهمة الشاقة الــدقيقــة .

قال كاتب الوثيقة في الاستاذ توفيق : « **انه دبلوماسي ماهر يتحاشى الوقوف في الورطات ، بل انه من نوع من السمك الذى لا يسهل صيده** » (14) هذه هى الصورة الحقيقية التى عرف بها في الجزائر بأجلى المظاهر ، لا يكاد يجهلها فيه أحد ، **وهى التى كانت دريئة يتقى بها التعرض** للمخاطر (كحــرز مرجانة عند عامتنا) التعويذة التى صانتــه مــن السجون والمنافى ، ومــن التشريد والتغريم في نصف قرن كامل من حياته في الجزائر ، مما لحق العامة والخاصة ، ولم يكد يسلم منه أحد من الجزائريين الذين هــم دونــه أهمية و (ثورية) ، اما تكفي هذه المــدة الطويلة يعيشها في الجزائر الفرنسية سليما معافى من كــل سوء أو مكروه (هذا الثائر ابن الثورة موقد النار والمصطلى بلهيبها) للتدليل على ما قلناه ويقوله فيه الناس ؟ وما ذكــره كسجن لــه في الجزائر ، ان هو الا تحقيق بوليسى عادى في وقت الحرب العالمية دام يوما أو بعض اليوم ثم خرج منه سالما كما وقع لجميع الناس بلا فرق .

مع الواقف دائما :

رأي الشيخ توفيق في الشخص ذى المكانة ما دام حيا يرزق ذلك الشخص : انه عظيم وجليل ، وكل ما يصدر عنه مفيد

وجميل ، وما شاكل ذلك من الشكر والثناء والاطراء و ...
و ... فاذا مات ذلك الشخص الممدوح المبجل ، فان لمؤرخنا فيه رأيا مخالفا تماما لآرائه السابقة فيه ـ وينسى المقولة الحكيمة المعروفة (اذا كنت كذوبا فكن ذكورا) ، ونحن نقول له : اذا كنت منافقا فكن حاذقا ، ولو لم تكن صادقا . ومن قراءة (حياة كفاح) بجزئيه ، والالمام اليسير بحياة صاحبه مع أولئك الرجال بالخصوص تتجلى هذه الحقائق عريانة فيما كتب عن شخصيات تونس والجزائر بعد مماتهم ، مع أنه لم يكن يستطيع أن يبس ببنت شفة فيهم عندما كانوا أحياء .

ترى لماذا ينظر هذا المؤرخ (الكبير الخطير) للشخص الواحد بنظرتين مختلفتين ؟ نظرة تقدير واحترام وتبجيل ما دام الشخص حيا يرجى ، وقادرا على النفع والضر يرغب ويرهب ونظرة ازدراء واستخفاف واحتقار ، اذا مات وانقطع نفعه وضره ، وخصوصا اذا لم يكن له من ذويه ومريديه من يثأر له وينافح عنه ، وينسى أو يتناسى التربية الاسلامية التى تدعو الى احترام الاموات الذين أفضوا الى ما قدموا ، فلا ينبغى أن يذكروا بما يسوؤهم ويؤذى الاحياء من ذويهم واتباعهم . فعن ابن عمر قال : « قال رسول الله (ص) : اذكروا محاسن موتاكم ، وكفوا عن مساوئهم) وفى حديث آخر : (اذا مات صاحبكم فدعوه) .

لماذا يا ترى يقف مؤرخنا ذلك الموقف ؟ لا نحاول البحث والتفلسف ، ولا نجهد أنفسنا فى معرفة ذلك ، فقد أراحنا هو نفسه بما صرح به مرارا من أنه **مع الواقف دائما** . ولما ناقشته فى مبدئه هذا أجاب قائلا **أتريدنى أن أكون مع القاعد ؟ والله تبارك وتعالى لا يحب القاعدين !** واستدل على مبدئه هذا بمثل قوله تعالى : « **وَفَضَّلَ ٱللَّهُ**

أَلْمُجَاهِدِينَ عَلَى أَلْقَاعِدِينَ أَجْـرًا عَظِيمًا » و ... و ... الخ . ليبرر تزلفه للواقفين من أهل الحول والطول كرجال السلطة والسيادة ، أو ذوى المكانة المرموقة فى المجتمع الذين قـــد يفيدونه وينفعونه .

أي رواغ ؟ وأي نفاق ؟ وأي تزلف ؟.. وأى تأويل لكلام الله العزيز ؟..!

فعين الرضا من مؤرخنا كليلة عن كـل عيب وسوء يمكن أن يكون فى الشخص ما دام حـيا . فاذا مات : فعين السخط تبدى لصاحبنا ما كان وما لم يكن فى ذلك الشخص نفسه من مساوئى وسيئات ، وغير ذلك من الهنات والحزازات ، وسبحان الله ولا حول ولا قوة الا بالله .

أما رأي توفيق فى أسرته وأقاربه وأصدقائه فرأي ثابت لا يتغير بموت ولا بغيره فكل واحد منهم ماجد ، مجاهد ، عظيم مستقيم، طاهر ، نقـــي ... الخ . ويظفى عليهم ما شاء مـــن عبارات التجلة والاحترام والتقديس استحقوه أم لم يستحقوه كرأي الصبيان فى والديهم تماما .

الغــرور وزخــرف القــول :

فما معنى قـــوله اذن (خلقت ثائرا) ؟ وما معنى قـــوله (أنا الثائر ابن الثورة) ؟ (وأنا موقد النار) أى نار يا ترى ؟ و (المصطلى بلهبها) أين ومتى اصطلى بلهبها ؟ أفى الحلم أم فى اليقظـــة ؟

وفى حديث له مع الشيخ مبارك الميلى بقسنطينة فى أول زيارته لها يقول : « **أنا (أجاهد) حيثما وجدت (المجاهدين) ـ ولا يكتفي بهذا بل يزيد عليه : ـ بل (أجاهد) من أجـــل**

(تكوين المجاهدين) ثم يقول : والذى يهمنى هـو (استمرار جهادى) ، وأداء هذه (الروح الثائرة) لواجبها عـلى الـوجه الاكمل الى آخر نسمة من وجودها » (15) .

أما قوله : « **حيثما تكون ثورة أكون** » فليسمح لى أقول : ان لم يكن هذا تخريفا فهو ضحك على أذقان الناس ، فقـد قامت ثورات كثيرة فى الدنيا ، وفى عصرنا هذا بالخصوص ، ولم يكن فى أى واحدة منها ، قامت ثـورة الامير عبد الكريم الخطابى فى الريف والتحق بها كثير من الجزائريين ، والاستاذ شاب متحمس وقتها ــ ولم يكن فيها ، كما كانت حرب طرابلس الغرب فى ليبيا الشقيقة ضد الايطاليين على مقربة منه وهو فى تونس ، ولم يشارك فيها ، وكانت ثورات فى كينيا عنـد الماوماو ، وفى مدغشقر عند الملغاش ، وفى الهنـد الصينية عند الفيتنام والفيتمنه ، وثورات : فى كوريا وكمبوديا وفى كوبا وفلسطين وجنوب افريقيا وشرقها وغربها ، وفى أمريكا اللاتينية وفى كل مكان ، ولم يحضر ثائرنا أي واحدة منها .

وقوله : « **وتكون ثورة حيثما أكون** » يكفى أن أقول له : اقمت فينا ربع قرن (من سنة 1925 الى سنة 1955 . ولم تقم ثورة فيالبلاد بالمعنى الكامل للثورة، فلما قامت انتفاضة ماى الدامية سنة 1945 **وجدنا صاحب « الحاسة السادسة » التى تجعله يعرف توقيت الثورات والانتفاضات قبل اعلانها (16) يمتطى القطار ليلا الى تونس ليصبح من الغد يتفرج على حوادث سطيف وقالمة وما بينهما ، من نافذة القطار مع ثلة من الاوروبيين ، وهو يقرأ جريدة المعمرين ، الإيكُو دَالْجِى) (17) .**

نعم خرج الثائر ابن الثورة الذى حيثما يكون تكون ثورة وحيثما تكون ثورة يكون .. خرج لِواذاً متسترا بجناح الليل

البهيم ، ليلة الحادث بالذات ، بدعوى القيام بمهمة وطنية ... ومن غير دليل ولا بينة كالعادة ، ومع ثلة من الاوروبيين ، كما روى ذلك بنفسه ، ولكيلا أتقول عليه أو أتزيد أتركه هو يصف هذه الرحلة ، التي لا يسع المرء الا ان ينعتها (بالرحلة المشبوهة) في تلك الليلة المشؤومة على الجزائر والجزائريين . قال كاتب المذكرات – وهو هنا شاهد عيان – لعله صادق فيما يروى ، دقيق فيما يصف ، ولعله لا يكتب من الذاكرة هذه المرة ، ولا يندفع بالعاطفة المشبوبة ، والخيال المجنح كما ألفناه ، انما هي العين ترى ، والاذن تسمع ، والفكر أو القلم يسجل (وليسمح لى القارىء الكريم اذا أطلت عليه بالنقل ، ففى هذا النقل حجتى على الرجل من كلامه وبقلمه) قال :

« تجهزت وامتطيت القطار يوم 7 ماى 1945 على الثامنة ليلا ، وكنت عندما أصبح الصباح . اشعر كلما تقدم القطار نحو الشرق بحركة غير عادية فى المحطات ، تزداد شدة وحدة ، حتى اذا وصلنا مدينة الخروب (قرب قسنطينة) ، وجدنا المحطة محتلة بمختلف فرق الجيش ... ورأيتهم تحت نافذتى يفتشون بدويا بكل احتقار ، وانهالوا عليه ضربا بالايدى ، ورفسا بالارجل ، ثم أخذوه بقوة الى ما وراء القطار ، وسمعت طلقات نارية ، وتأوّها خافتا ، وانتهى كل شىء ، كنت حاسر الرأس بين أربعة من الاوروبيين ... وكنت منهمكا فى قراءة جريدة (الإيكوُ دَالجِى) للمرة الثانية ... ثم ركب معنا احد المستعمرين ، واخذ يقص علينا انباء الصباح الرهيب بسطيف وما حواليها ، وأن مذبحة شرسة اشتعلت (كذا) بكامل الناحية، وان الفرنسيين قد تمكنوا من ناصية الحالة ، بعد التخلص من أكبر عدد من الاعداء ، وان البقية سيتم القضاء عليها لا محالة ... ولم أكن أتوقع هذا أصلا ، الى ان وصلنا الى

مدينة قالمة فكنا في حالــة حرب حقيقية .. كانــوا يحتلون المحطة ، وكانوا يحرسون جمعا كثيرا من الرجال والشيوخ ، جلسوا عــلى الارض ، واحاط بهم الزبانية من كــل مكان ، وكنا نسمع أصوات وصراخ استغاثة ممزوجة بانــين الالــم يأتينا من ناحية المدينة ، ومكث القطار هنالك نحو الساعتين ، كنت أرى خلالها مــن الشباك طائرات حربية صغيرة الحجــم تطلق قنابلها المحرقة وكنت أرى ألسنة اللهب تتصاعد اثــر كل قنبلة ، وكنت أسمع مــن بعيد أصوات الاستغاثة والبكاء والنحيب ... كانت مذبحة رهيبة فظيعة ، لا أعتقد انه وقع مثلها في اتساع نطاقها ووفرة عدد ضحاياها في أى قطر من الاقطار .. الخ ... الخ » (18) .

ثم يذكر عن أصحابه في الجزائر ، انهم سيقوا الى السجن كلهم ، وهكذا **يلقى القبض دائما على الذين يشترك معهم في الاعمال النضالية الوطنية ، ويســلم هــو بقــدرة قــادر ؟؟** يقول في ختام وصفه لتلك المشاهد المأساوية : « **ففي نفس الوقت ، ألقي القبض في الجزائر على فرحات عباس ، والشيخ البشير الابراهيمي ، وثلة غفيرة مــن أنصار البيان والعلماء وسيقوا الى السجن ، والحقت بهــم تهمــة المؤامرة الكبرى ، وكانوا يريدون اعدامهم لا محالة** ، لكن الحق لا يعدم أنصارا فتعالت صيحات الاحتجاج والاستنكار ، ســواء بالجــزائر أو بفــرنسا ... » (19) .

لنــدع هذه الحوادث المؤلمة الفضيعة للتاريخ ، ولنعــد الى (ثائرنا) نسأله ماذا فعل في المهمة الوطنية ؟ التى زعم انه سافــر مــن أجلها الى تونس ، في تلك الليلة الليلاء ، التى افتقدنا فيها بدرنا الساطع المنير ، وبتنا نتخبّط ولا ندرى أين نسير ؟ (وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر) قال ـ وبكل هدوء

وبساطة ـ : « **أما بتونس فكانت النفوس متهيجة ، والافكار مشوشة ولم أستطع ان أعمل عملا ، أو أقوم بمسعى بعد سجن الجماعة بالجزائر** الذين بقوا في السجن الى شهر مارس مـــن السنة الموالية ، وقد كان الارجاس الادناس **من المستعمرين ، يريدون ان يوقعوا مثـــل ذلك بتونس خـــلال اقامتي بـــها ، وراجت اشاعات عـــن اعتزام التونسيين القـــيام بمظاهرات صاخبـــة » (20) .**

لم يقم ثائرنا بعمل ، لان الجماعة سجنوا بالجزائر .. هل هذه حجة في عدم القيام بعمل ؟ لعل سجن الجماعة من أقوى الاسباب للقيام بعمل ما ، ولو لم يكلف بأى شيء من طرفهم ، واما حوادث ماي بالجزائر ، فقد اهتزت لها الدنيا بالاحتجاج والاستنكار ، حتى مـــن الفرنسيين أنفسهم في الجزائر وفي فرنسا ــ كما يشهد هو بذلك ــ فما هو عذره يا ترى في عدم القيام بعمل ؟ أى عمل كان ؟ حتى ولو كان من اضعف الايمان ؟ ومـــا هو عـــذر حزبه العتيد في تونس ؟ **ذلك الحـــزب الذى يقول عنه ان لـــه تأثيرا عاصفا في الجزائر الشرقية ، وهذه المنطقة بالذات هي المبتلاة بالحوادث، فلماذا لا يتعاطف معها الحزب كما تعاطفت معه ؟ ولكن الاستاذ المكلف بمهمة وطنية في تونس ، قام بعمل آخر معاكس تماما لما كان ينتظر منه ، اذا كان حـــقا مكلفا بمهمة وطنية ، لقـــد قام بمنع الشعب التونسي من اظهار عواطفه نحو شقيقه المبتلى في الجزائر ،** واعـــلان تضامنه معـــه ، باستنكار الفضائع التى ارتكبت ، والمجازر التى وقعت ــ بعد ان استنكرها العالم اجمع بما فيه الفرنسيون ــ واستعان الاستاذ (المكلف بمهمة وطنية) عـــلى ذلك المنع بالحزب الدستورى بحجة الخوف على الشعب التونسى من ان يُنكَّل به كما نُكِّلَ بالجزائر ، قال الاستاذ محذرا ومثبطا

لرجال الحزب الدستورى : « ألاَ تفعلوا شيئا لاتقاء ما يــراد بكم من بلاء عظيم ؟ قالوا : **انما سنسعى جاهدين لتحطيم هذه المؤامرة** » (21) . وأما عن الجانب الاستعمارى الفرنسى فقال عنه الاستاذ (المكلف بمهمة وطنية) ـ وقد أتتك بخائن رجلاه ـ « جاء الى منزل شقيقى ـ (حيث يقيم استاذنا) **ـ رجل من الكتابة العامة للدولة يدعى مسيو « سيمونى » وكان صاحب نفوذ ، وشغل منصبا ساميا فى السفارة الفرنسية ... طلب مقابلتى فلبيت ... وبعد مجاملات سطحية ، قال لى ، أعرف عنك من قبل انك رجل صراحة واخلاص ، وأسألك الآن : ان تقول لى ما هى الحقيقة عن المظاهرة التى ستقع يوم 18 ماي ؟ ... فقلت له : اننى اتصل وثيقا (كذا) برجال الحزبين ، واتصل متينا (كذا) بمختلف طبقات الشعــب ، واننــــى استطيع ان أقسم لك بالله وبشرفى ، ان هــــذه المؤامــرة لا وجود لها اطلاقا ، ولا يفكر فى القيام بها احد ... فقال :** كن على ثقة اننى سأقوم بكل واجباتى كرجل يرجو الوفاق والسلام » (21) ثم يقول : « ورأينا السلطة تسحب جندها وسلاحها ، وهدأت الخواطر » .

هذه مساع حميدة قام بها استاذنا لفائدة تونس كما يرى هو ، **فأين (المهمة الوطنية) التى كلف بها من طرف اخوانه فى الجــزائر كما يــزعم ؟** أيــن (المهمة الوطنية الثورية) يا ترى ؟ اترك هذا للتاريخ يجيب عنه ، أو للقراء يستنتجون منه ما شاءوا .

وأعود الى **(ثائرنا)** الذى خلق **(ثائرا)** من يوم ولدتــه أمه ، وبقى **(ثائرا)** طول حياته ، **فحيثما يكون تكــون (ثورة) وحيثما تكون (ثورة) يكون** .. أسأله كيف خانته (ثــوريته) ؟ ...

وأقول ماذا لو عدلنا عبارته هذه التى افتتح بها مقدمة الكتاب ؟ هكذا « **خلقت مسالما وديعا ، فحيثما تكون (ثورة) لا أكون ، وحيثما أكون لا تكون (ثورة)** » ... « أليس هذا أصح وانسب وأقرب لحقيقته وواقعه ؟ لو كان قاله لكان اصدق مع نفسه، ومع قرائه، ومع التاريخ ؟.. ولو كان قاله لاراح الناس من الاشتغال به ... ولو كان قاله لسلم ـ ربما ـ من النقد والتجريح ... ولو كان قاله لكان لمقدمته القيمة التي تستحقها ... ولو كان قاله لجاء على حقيقته .

ان كلمة (الثورة) لتفقد معناها الحقيقي فى استعمالات استاذنا ، لكثرة ما يحملها من معان ومفاهيم ومدلولات ، هي أبعد ما تكون عنها ، وانها لتبتذل من كثرة استعماله لها ، ومثلها كلمات : النضال ، والكفاح ، والجهاد ، والقداسة ، والعظمة ، وما الى ذلك من الكلمات الفخمة الضخمة التى لا تكاد تخلو منها فقرة أو صفحة من مذكراته ، الا ان تكون (المبالغة) والتهويل نوعا من (بلاغة) التعبير والتحرير كما اشرت الى ذلك سابقا .

فذكر ان نفعت الذكرى :

سأترك المجال لغيرى الآن ليعطى الرجل درسا فى التواضع والتربية الاسلامية وحسن السلوك ممن هم أعلا وأعلم منى ومنه ، وأكتفى باثنين قديم وحديث عل فى كلامهما ما يفيد :

(الاول) : ابن القيم الجوزية فى كتابه (زاد المعاد فى هدى خير العباد) فصل صغير من بضعة فصول فى الالفاظ المكروهة التى يحسن اجتنابها وعدم استعمالها فى الكتابة أو الخطابة أو فى الحديث والمحاورة ، وعلى الخصوص طغيان الأنانية وحب الذات ، جاء فيه ما يلى :

« وليحذر كل الحذر من طغيان (أنا) و (لى) و (عندى)، فان الالفاظ الثلاثة ابتلى بها (ابليس) و (فرعون) و (قارون) ، فكلمة « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » لإبليس ، وكلمة « لِي مُلْكُ مِصْرَ» لفرعون ، وقوله «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي» لقارون. وأحسن ما وضعت (أنا) فى قول العبد : أنا العبد المذنب المخطىء ، المستغفر المعترف ، ونحوه . و (لى) فى قول المرء : لى الذنب ، ولى الجرم ، ولى المسكنة ، ولى الفقر والذل ومثل ذلك . و (عندى) فى قول الانسان : « اغفر لى هزلى وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى » اهـ (22) .

(والثانى) : الدكتور مصطفى السباعى رئيس قسم الفقه الاسلامى ومذاهبه فى جامعة دمشق ، وأستاذ الاحوال الشخصية فى كليتي الشريعة والحقوق فى احدى مقدمتى كتابه « السنة » وهو يناقش أحد المغرورين بعلمهم والمعجبين بنفسهم (أبى رية) قال :

« ثالثا : انه أطرى كتابه بقوله : « وهذه الدراسة الجامعة التى قامت على قواعد التحقيق العلمى ، هى الاولى فى موضوعها ، لم يتسج أحد من قبل على منوالها ... الخ » . فيعقب عليه السباعى بما يلى :

« ونحن نعلم أن **من أبرز صفات العالم تواضعه ، ومن أبغض صفاته عند الله وعند الناس تفاخره بعلمه وجهوده ،** ومن قواعد شريعتنا أن تفاخر الانسان بعمله يحبط أجره ، ومن أخلاق علمائنا أن يعترفوا فى مقدمة كتبهم باحتمال الخطإ والزلل ، وان يطلبوا ممن يطلع على الخطإ فى كتبهم

أن يصلحها ويستغفر لمؤلفها . ولا أريد أن اتحدث عن مغزى اطراء المؤلف لكتابه من الناحية النفسية ، فالاستاذ — على ما يظهر — عليم بالتحليل النفسي أيضا ، ! ولكنني أذكر هنا كلمة لابن عطاء الله السكندري رحمه الله : (**لان تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه ، وأي علم لعالم يرضى عن نفسه ؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ؟** » اهـ (23) ويا سبحان الله ما أشبه صاحبه بصاحبنا .

وصدق الله العظيم اذ يقول في كتابه العزيز : « **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** » .

هوامش هذا الفصل الاول

1 ـ ساعات بين الكتب والمجلات ، ص 466 .

2 ـ حياة كفاح ، الجزء الثانى ، ص 37 .

3 ـ » » ، ص 37

4 ـ » » ، ص 38 .

5 ـ » » ، ص 19 .

6 ـ » » ، ص 107 .

7 ـ » » ، ص 198 .

8 ـ حياة كفاح ، الجزء الاول ، ص 8 .

9 ـ حياة كفاح ، الجزء الثانى ، ص 392 .

10 ـ » » ، ص 395 .

11 ـ » » ، ص 276 .

12 ـ » » ، ص 32 .

13 ـ حياة كفاح ، الجزء الاول ، ص 342 .

14 ـ » » ، ص 342 .

15 ـ حياة كفاح ، الجزء الثانى ، ص 411 .

16 ـ » » ، ص 380 وما بعدها .

17 ـ » » نفس المكان .

18 ـ » » ، ص 382 .

19 ـ » » ، ص 383 .

20 ـ » » نفس المكان .

21 ـ » » ، ص 384 .

22 ـ ج 2 ، ص 102 طبع السنة المحمدية بتحقيق حامد الفقى

23 ـ كتاب السنة ومكانتها من التشريع الاسلامى ، ص 56 ، طبعة أولى .

نقد الفصل الاول من الكتاب

لنترك الجزء الاول من (حياة كفاح) للاخوة التونسيين ، فهم به وبشؤونهم ادرى ، ولنهتم بما يهمنا نحن ، وهو الجزء الثاني الذى يتعلق بحياة الاستاذ توفيق المدنى فى الجزائر .

فليسمح لى الاستاذ اقف معه وقفة متأنية فى فصل « أيام قسنطينة » الذى لا يتعدى ثمان ورقات ، لاصحح بعض الاخطاء ، واقدم بعض الملاحظات والتعقيبات .

1) ـ مذكرات بلا تاريخ :

يبدأ الكتاب هكذا : « كانت أيامى بقسنطينة سعيدة وان لم تكن مديدة ، لم اقض بها أكثر من أسبوع واحد ، الا انني خلال ذلك ، رأيت من الرجال، وتبادلت من الاحاديث (كذا) ما جعل لذلك الاسبوع قيمة اشهر من العمل الصالح » (1) ويستمر هكذا بدون ذكر للتاريخ ، لا اليوم ولا الشهر ولا السنة ، وهو يدخل بلاداً لاول مرة فى حياته ، وكذلك فعل فى دخوله لمدينة عنابة ، ثم فى العاصمة الجزائرية ، وفى رحلاته لشرقى الجزائر وغربها فى جميع المدن التى زارها وتجول بها ، يذكر ما اكتشف فى الوطن من معالم واعلام ، وما شاهد من وقائع واحداث ، يذكر كل ذلك بتفصيل ولكن بلا تاريخ ، قد يشير الى الساعة والدقيقة والثانية ، ولكنه لا يذكر اليوم ولا الشهر ولا السنة ، واحسب ان ذكر التاريخ أساسى فى كتابة التاريخ ، وفى كتابة المذكرات بالخصوص .

2) ـ مدرسة الشيخ مبارك الميلى :

زار الاستاذ هذه المدرسة مرات ، اجتمع فيها بنخبة المثقفين فى المدينة ، وتداول معهم فيها الرأي ، وهي أول

مدرسة عربية حرة للحركة الاصلاحية بقسنطينة ، يذكرها عرضا دون ان يشير الى اسمها الحقيقي الذى عرفت به وهو (المكتب العربى) ، ودون ان يصفها ، أو يذكر مكانها فى المدينة ، ولا مكانتها فى المجتمع ، أو يحدد تاريخ ظهورها ، خاصة وهي مدرسة جديدة رائدة فى التعليم العربى عندنا ، وصاحبها من اساطين الحركة الثقافية والاصلاحية ، ومن روادها الاوائل فى الجزائر ، وهو من الاصدقاء الكبار البارزين للاستاذ الكاتب ، فالمدرسة ومديرها جديران بالتنويه ، ولكن صاحب المذكرات أهمل الاشادة بها وان نوه بعض الشيء بالشيخ الميلى الذى يعرفه من قبل فى تونس ، ولا احسب الاستاذ تعمد هذا الاهمال ، انما هو سهو منه لا غير ، وسواء كان سهوا أو اغضاء فلا يجمل بالمؤرخ ابدا ان لا ينتبه لمثل هذه الامور التى لها آثارها وتأثيرها فى المجتمعات وفى الاجيال الصاعدة ، وقد خلفتها (مدرسة التربية والتعليم الاسلامية) التى تعتبر المدرسة الأم في تلك النواحى لكثرة فروعها فى القطاع القسنطينى ، التى تخرّج منها أجيال وأجيال من ناشئة البلاد ، والتحق بعضهم بمدارس الشرق والغرب وأصبحوا من حملة الثقافة العربية وحاملى لواء العروبة والاسلام فى الجزائر ، ولكن استاذنا المؤرخ يكتفى بالاشارة العابرة اليها ، فيقول : « وافترقنا على موعد اللقاء ليلا مع ثلة من الاخوان **بالمدرسة الحرة التى يديرها** (يعنى الميلى) ويبث فيها للناشئة روح العمل والامل » ... ثم يقول : « وجن الليل ، فسرت صحبة الاخ عبد الحفيظ بن الهاشمى صاحب جريدة النجاح قاصدا **مدرسة مبارك الميلى** ، كان هنالك جمع صالح لست انساه ... الخ » (2) .

3) ـ الدستور التونسى (وتأثيره العاصف) :

يذكر الاستاذ (الدستور التونسى) فى ثنايا الكتاب فى مناسبات كثيرة ، وأحيانا بغير مناسبة ، ولعل هذا من وفائه له أو من حنينه اليه ، وهو على كل حال جميل ما لم يجن على الحقيقة والواقع ، أو يتنافى مع الموضوعية العلمية والامانة التاريخية ، وأنا أكتفى بما أشار اليه فى هذا الفصل فقط ، يقول عن تلك النخبة التى اجتمع بها فى المدرسة : ... **« تداولنا الحديث حول الكفاح الدستورى التونسى ، وما كان له من تأثير عاصف بالناحية الشرقية من البلاد الجزائرية »**(3)، ... ويعيد ذكره في آخر هذا الفصل ـ أثناء حديث له مع ابن باديس والكتابة فى الصحف بلا امضاء ـ فيقول : ... **« حتى لا تأخذ الحكومة من ذلك ذريعة لاتهام الحركة الناشئة بانها جزء من الحركة الدستورية التونسية أو انها تعمل بوحي منها »** (4) ، وهكذا يذكره فى مواضع كثيرة من الكتاب ، بما يشعر القارىء ان لهذا الحزب ـ أو لصاحبه الذى حل بالجزائر ـ من التأثير والقوة فى الجزائر والجزائريين ما ليس لغيره من الاحزاب والاشخاص ؟

أقول ـ وأنا من تلك الناحية الشرقية من البلاد الجزائرية ـ : لا أعرف أيّ تأثير للحزب الدستورى فى الحياة الجزائرية ، بتلك الناحية أو بغيرها ، فى هذه الحركة أو تلك من حركاتنا القومية والوطنية ، والذى أعرفه ويعرفه الناس جميعا فى الجزائر ، هو تأثير جامع الزيتونة فى تلك النواحى بالخصوص وهو يتمثل فى المصلحين عموما ، وفى مثقفى اللغة العربية والمتخرجين من ذلك المعهد الاسلامى العظيم الذى جنى عليه الاستقلال والحزب الدستوري فعطلاه عن تأدية رسالته

المقدسة ، مع العلم بأني لست من خريجيه للاسف ، ولا ممن تشرفوا بولوج رحابه ولا مرة .

اما مثقفو اللغة الفرنسية عندنا في ذلك العهد فقبلتهم باريس لا تونس ، والسياسيون منهم ، يقتفون آثار الاحزاب الفرنسية ، وغيرها من الاحزاب العالمية المعتدلة منها والمتطرفة ، واما تأثير الحزب الدستورى ــ مع احترامنا له ولرجاله ــ فتأثير محدود لا يتعدى حدود بلاده مثل تأثير احزابنا الوطنية الجزائرية ، وتأثير الاحزاب المغربية .

4) ــ زواج ابن باديس :

يذكر زواج الشيخ عبد الحميد بن باديس في أربعة سطور ، يقحمها اقحاما بلا داع ولا مناسبة ، في وصف أول اجتماع له به في قسنطينة ، فهو لم يصادف تزوج ابن باديس لا في هذه الزيارة ولا في غيرها ، كما لم يصادف طلاقه لامرأته ، حتى يسجل هذا الحدث الهام في مذكراته للتاريخ ، وهو لا يتصل بصاحب المذكرات من قريب ولا من بعيد .

قال الاستاذ توفيق : « **لقد تزوج ابن باديس ، أو زوّجه أبوه بعبارة اصح** ، فكانت زيجة (كذا) **غير صالحة ، وغير موفقة ، أسرع بوضع حد لها بطلاق مبكر** ، ولم يرزق منها بولد » (5) ، ترى ما فائدة هذا الكلام ؟ وما الداعي له ؟ وأي صلة له بموضوع الكتاب أو بالكاتب ؟ وليس فيه فائدة تذكر للقارىء أو تسجل للتاريخ ، بل ما قيمته من الصحة والواقع ؟ هذه اسئلة اطرحها على المؤلف وعلى القارىء معا ، ولا اظن انها تجد جوابا مقنعا .

والحقيقة التي أعرفها ويعرفها كل من عاشر قسنطينة في ذلك الوقت أو بعده بقليل ، وكان على اتصال بابن باديس ،

أو بالحركة الاصلاحية عموما : ان ابن باديس تزوج ببنت عمه (أو زوجه أبوه بها) أى عيب فى ذلك ؟ وكانا على توافق تام دام أكثر من ربع قرن ، وحقيقة أخرى يعرفها الكثير ممن ذكرت وهي ان ابن باديس لم يتزوج بعدها ــ لما اجبر على الطلاق ــ الى ان لحق بجوار ربه، ولا تزوجت هي بعده، الى ان توفي رحمه الله مما يدل على تراضيهما ووفائهما لبعضهما ، وحقيقة ثالثة ، هي انه رزق منها بولد كان يدعى اسماعيل ، عاش حتى ادرك وحفظ القرآن ، ثم مات فى حادث مؤلم ، وهو ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ، فأين أنت يا أستاذ توفيق من هذه الحقائق والوقائع ؟ وهذا ابن باديس نفسه يذكر وفاة ولده فى معرض الاعتذار لقراء مجلته (الشهاب) عن متابعة الكتابة فيها ، لاشتغاله بحضور جلسات محاكمة الشيخ الطيب العقبى والسيد عباس التركى فى العاصمة اللذين اتهما ظلما وعدوانا ، فى قضية اغتيال مفتى العاصمة الشيخ ابن دالى كحول ، تلك القضية التى اهتزت لها الجزائر كلها ، وعلى الخصوص (جمعية العلماء) التى كانت مقصودة بالذات فى تلك المؤامرة الدنيئة للقضاء عليها والتخلص منها ، وكان كبش الضحية فيها المفتى الاكبر بالعاصمة ، والمبتلى بالسجن الشيخ الطيب ورفيقه .

قال الشيخ ابن باديس فى اعتذاره لقرائه : « ... انشغل بالى عن تتميم (مجالس التذكير) (6) ... **ولقد مات ابنى الوحيد** ، ومات أخ لى عزيز فما شغل ذلك بالى مثل اليوم ، ولا منعنى عن دروسى وأعمالى لان هذه القضية اليوم قضية الاسلام والعربية والجزائر ، لا قضية فرد أو جماعة » (7) .

فمن أين للاستاذ توفيق ما قاله وادعاه ؟ والرأي الصائب الحكيم يقول :

« والدعاوى ما لم تقيموا عليها * بينات فأهلها ادعياء »
وأنا لنربا بالاستاذ توفيق ان يكون منهم . واما زواج الاستاذ المؤلف صاحب هذه المذكرات فيصفه بالزيجة الموفقة (كذا)، ويطنب في ذكره والاشادة به في نحو ست صفحات كاملة ، يقول في بعضها : «...» **ولم تكن العادة يومئذ ان يتصل الخطيب بخطيبته ولا ان يراها ولو خلسة** » ... (8) ، هذه العادة مقبولة عند مؤرخنا ، ما دامت تتصل به ... اما عادة تزويج الاب لابنه بمن يحب ويعرف من بنات عمه ، فغير مقبولة لانها لا تتصل به هو،ولو تعلقت بالشيخ ابن باديس. ثم يقول : « وكنت أمني نفسي ان أجد الكمال الحسي والمعنوى الذى كان يصوره لى الخيال » ... (8) ، الى ان يقول في زهو وتبجح ظاهرين ـ بعد ذكر الحفل البهيج ، والوليمة الفاخرة **(المثالية التى لم يسبق اليها)** ، وبعد ذكر الضيوف المدعوين من الشرق والغرب (تونس والجزائر) ، وبعد ذكر الخطباء والشعراء ، و ... و ... الخ ، يقول بعد ذلك كله :

ـ « وما رأى الناس جمعا منتقى كذلك الجمع ، فيه أعيان القوم ، وفضلاء الشعب ، ومندوبون عن كل هيئة ، ومن كل جماعة ، (بهذا الاطلاق وهذا التعميم ليشمل كل من هب ودب في العاصمة من هيئات الجزارين والحدادين والفحامين ، وجماعات الحمالين والنشالين والمشردين ... الخ) ، ورجال المجلس الشرعى (ولو لم تعرف الجزائر مجلسا شرعيا في عهدها الفرنسى (9) ، ونخبة من كبار العلماء ، ورجال السياسة .. » ويختم وصفه هذا بذكر عرسه هكذا :

« وجدت والحمد لله كثيرا فوق ما وصفوا ، جمالا وكمالا وأدبا ، وسبحت منذ تلك اللحظة في بحر من السعادة ، يغمرني طوفان من الحب والاخلاص ، **وفتحت أبواب شهر**

عسل ما اتيح لأحد من قبلي ، لم يدم شهرا ولا سنة بل دام عمرا كاملا ... » (10) ، هكذا كان عرس اللاجيء السياسي ، فأين منه عرس ابن باديس أو غيره من أبناء كبريات الاسر والعائلات القسنطينية والجزائرية وغيرها ؟ هذا ما يتصوره القارىء العادى لهذه المذكرات اذا ما عقد مقارنة بينهما .

5) ـ مفتي قسنطينة (المولود بن الموهوب) :

يصف الاستاذ توفيق مفتي مدينة قسنطينة الشيخ المولود ابن الموهوب بالملاك الطاهر المقدس ، وينعته بانه ذو لهجة صادقة ، وايمان قوى ، وخلق متين ، وانه موقر محترم من العامة والخاصة ... الخ ، ثم يقول : « **لو كان الملائكة يمشون على الارض ، ويختلطون بالناس ، ويغشون المجالس ، لكان الشيخ المولود بن الموهوب واحدا منهم لا محالة ، اتذكره دوما ولا انساه ابدا ، أتذكره ملاكا في شخص رجل ، الخ** » (11) ثم يسلكه في زمرة المؤمنين الصادقين الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى : « **وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَنِ ٱلذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** » الآية ، الى آخر ما كال له من ثناء ومدح واطراء ، والحال ان هذا الرجل عميل استعمارى معروف ومطية من مطايا الولاية العامة الفرنسية ، كان من بين من حرض الحكومة الفرنسية على غلق المساجد في وجوه العلماء المسلمين لكيلا يقوموا بدروس الوعظ والارشاد فيها (12) وكان من اشد اعداء الشيخ ابن باديس،والحركة الاصلاحية وجمعية العلماء المسلمين ، هذا الملاك الطاهر المقدس عند الاستاذ المؤرخ الكبير توفيق المدنى ، فقد كان أول من عارض تعيين الشيخ ابن باديس للتدريس بالجامع الاعظم الذى يشرف عليه هو بقسنطينة ، رغم ان ابن باديس كان يحمل رخصة تمكنه من التدريس فيه استخرجها له أبوه

من والى العمالة اذ ذاك (اليريفى) ، فكان الشيخ الملاك الطاهر (المفتي) ذو:اللهجة الصادقة والايمان القوى والخلق المتين ، المحترم الموقر من العامة والخاصة ـ كما يصفه الاستاذ المؤرخ توفيق ـ **كان يأمر اعوانه بالمسجد الجامع باطفاء الاضواء كلما انتصب الشيخ ابن باديس للتدريس فيه** ، حتى غضب الشيخ ابن باديس،وترك المسجد والمفتي والجزائر، الى الشرق للتجوال فيه ، واستطلاع احوال المسلمين واداء فريضة الحج ، فزار مصر والحجاز والشام ، وأقام بتلك الربوع بضعة شهور ، حتى ينسى ما لحقه في بلده من المفتى الملاك الطاهر ، كان كل ذلك قبل الحرب العالمية الاولى ، وتوفيق يعرف كل ذلك ، لسابق معرفته بابن باديس فى تونس ثم فى الجزائر ، ونصلته الدائمة به من خلال صحفه التى يكتب فيها . وهناك رواية تقول : ان ابن باديس عزم على الهجرة والالتحاق باستاذه ابن الونيسى ، لولا ان الشيخ الفيض أبادى الهندى منعه من ذلك وقال له : عد الى بلادك واخدمها فهى فى حاجة الى خدمتك .

ولما عاد الشيخ ابن باديس من الشرق هيأ له أبوه منصبا آخر للتدريس الحر برخصة أخرى رسمية تمكنه من التدريس الحر فى (الجامع الاخضر)،أحد المساجد الثلاثة الكبار بقسنطينة ، وواصل الشيخ رسالته التعليمية فيه من ذلك الوقت ، فأخرج للجزائر منه الرجال كالجبال ـ كما يقول البشير الابراهيمي ـ وواصل المفتى (الملاك أو المملوك) مهمته فى السعاية والكيد لابن باديس وللاصلاح والمصلحين ، وماذا يرجى منه ومن امثاله غير ذلك ؟ **ولكن الاستاذ توفيق ينعت وظيف الافتاء بالغل فى رقبة صاحبه ، عندما يتكلم عن المفتين ويصفهم بالاذناب فى مواضع من الكتاب** ،وتلك هي

الحقيقة بلا استثناء لهذا المفتى أو ذلك ، **فيصف مفـــتي العاصمة مثلا بان الحكومة طوقت جيده بحبل من مسد** (13) ، وينسى ملاكه الذى فى قسنطينة ، والذى انعمت عليه الحكومة **الاستعمارية** ــ بعد ذلك الطوق بنياشين الشرف والافتخـار الفرنسية التى يتباهى بها فيعلقها فى صدره ويظهر بها فى الحفلات والاستعراضات الرسمية بلا حياء ولا خجل ، تلك النياشين والاوسمة التى لم ينلها مفتى العاصمة ولا غــيره، وانما نالها (الملاك المملوك) ، ولماذا نالها ؟ الله وعبـــاده يعلمون ، وحتى الاستاذ توفيق يعلم قيمة هذه الاوسمـــة ، وقيمة من يستحقها من رؤوس عملاء الاستعمار واذنابه فى الجزائر، وقد نشر لملاكه هذا صورة فى أحد كتبه ، والنياشين الاستعمارية تلطخ صدره كما نشر له الاستــاذ الهـــادى السنوسى ، صورة كذلك فى (شعراء الجزائـــر ، ج 2) ، وللشاعر الجزائرى الاستاذ محمد بن جلواح قصيد شهير فى وسام المفتي المولود بن الموهوب نشر سنة 1922 فى جريـدة (الاقدام) . فهذه النياشين والاوسمة حبال من عسجد لا من مســـد .

6) ــ الدكتـــور مـــوسى :

اما هذا الرجل الوطنى الجرىء الشجاع، الذى كان من جماعة الزعيم الامير خالد رحمه الله ، ذلك الرعيل الاول من رجال السياسة الوطنية في الجزائر ، فيصفه الاستاذ توفيق بانــه مرموق ثم يقول عنه : « **رايت فيه نوعا من الخفة هى أقرب الى الجنون منها الى العقل** (14) ، فهو عنده مجنون ؟ وقـــد ادركته أنا بعد عشر سنين من الوقت الذى قابله فيه الاستاذ توفيق ، فوجدته ملء السمع والبصر ، ومحل اعجاب وتقدير الجزائريين والفرنسيين **يهابونه ويخافونه لا لكونه مجنونا**

ـ كما يقول الاستاذ توفيق ـ **بل لمكانته من نفوس الشعب ، والشباب المتحمس له بالخصوص ، الذى يقلده في ملبسه وفي مشيه ، لحميته ووطنيته ، ولمواقفه المشرفة بعد نفى الزعيم الامير خالد ، وبقائه وفيا لمبادئه** ، ولكن مؤرخنا الاستاذ توفيق لا يرضى على هذا الصنف من الرجال فيصفه بالجنون والطيش وقلة العقل ، ويرضيه ذلك المفتى الخائر أحيانا ، والجائر أحيانا أخرى .

7) ـ المنتقد والشهاب :

ذكر الاستاذ توفيق ان الشيخ ابن باديس افضى اليه في هذه الزيارة (أواسط جوان 1925) : «انه يريد انشاء جريدة أسبوعية ، ربما كان اسمها (المنتقد) وان لم تتهيأ أسبابها بعد ، كما كان يرجو ان ينشىء (مجلة شهرية) باسم (الشهاب) ... » (15) . مع ان جريدة (المنتقد) كانت جاهزة وأسبابها مهيئة ، فقد برزت بعد أيام فقط من زورته هذه (فى بداية جويلية 1925) ، واما (مجلة الشهاب) فلم يفكر فيها ابن باديس الا بعد أربع سنوات كاملة من ذلك الوقت ، أي بعد ان صادرت الحكومة صحيفته الاسبوعية (المنتقد) لشدة لهجتها ، وبعد صدور 17 أو 18 عددا منها فى ظرف أربعة شهور أو خمسة، منذ ذلك فكر في انشاء صحيفة أخرى تخلفها ، فكانت (جريدة الشهاب الاسبوعية) ، وبعد بروز هذه الجريدة بنحو أربع سنين ، أنشأ (مجلة الشهاب الشهرية) سنة 1929 التى عمرت عشر سنين ، وتوقفت سنة 1939 لاعلان الحرب العالمية الثانية .

هكذا كان خيال مؤرخنا يسبق الحوادث بسنين كثيرة ، لانه يكتب هذه المذكرات بسرعة ، ولا يكلف نفسه بالبحث والتثبت والمراجعة والتحقيق في المسائل التاريخية ، التى

لا يمكن ابدا ان تستوعبها ذاكرة مهما أوتيت من قوة الخزن والوعي والتذكر ، فقد اشتبه على مؤرخنا الكبير (الشهاب الاسبوعي) بـ (الشهاب الشهري) ، فلم يفرق بين (جريدة الشهاب الاسبوعية) التي خلفت (جريدة المنتقد) ، وعاشت أربع سنوات ، وبين (مجلة الشهاب الشهرية) التي جاءت بعدها، وعمرت عشر سنين، وهو يحسب انه من أكبر كتابها .

8) ـ الشرك ومظاهره :

ذكر الاستاذ توفيق ان الشيخ مبارك الميلي اطلعه على كتابه (الشرك ومظاهره) في زيارته الاولى الى قسنطينة (في صيف سنة 1925) ، فقال : « اطلعني على فصول كان يحررها ويجمعها ، لينشرها ضمن كتاب يحمل اسم (الشرك ومظاهره) وكنت مؤيدا له من حيث المبدأ ، **انما انتقدت بصراحة ما في الكتاب من غلو فاحش وقلت له ضيقت واسعا، فوعد بمراجعة ما كتب وتخفيف اللهجة** » (16) ، والحال ان موضوع هذا الكتاب بدأ يظهر مقالات في جريدة (البصائر) سنة 1936 ، أي بعد الوقت الذي ذكره الاستاذ توفيق بنحو اثنتي عشرة سنة ، ولم يلبث ان ظهر (كتابا) بعد ذلك ببضعة شهور ، بناء على اقتراحات من قراء (البصائر) ، فلعل اطلاع الاستاذ توفيق عليه كان في زيارة أخرى له في أواسط الثلاثينات ، وليس في أواسط العشرينات .

يقول الشيخ مبارك في المقدمة التي نشرت له في افتتاحية (مجلة الشهاب) قبل ان يطبع الكتاب : « ... **وبها (يعني البصائر) نشرنا سلسلة مقالات تحت عنوان (الشرك ومظاهره) ، وما ابرزنا حلقات ، حتى أخذت الرغبات** تتوارد على تجريد تلك المقالات ، وجمعها في رسالة ، فاستصوبنا الاقتراح ... **وأعلنا استعدادنا لتنفيذ**

مقترحهم » (17) ، ويعلق (الشهاب) على هذه المقدمة بما يلي : « **الاستاذ المؤلف جاد في تحرير الرسالة** ـ (هكذا في تحرير الرسالة) ـ على وضع غير الوضـــع الـــذى نشرت به في (البصائر) ، ولكن تمثيلها للطبع لم يزل ، وبدل الاشتراك فيها لم يحدد ، وسنعلن للقراء ذلك عندما نتصل ببيانه من المؤلف » (18) .

فأي الرجال نصدق ؟ هل نصدق المؤلف وهو اعرف بانتاجه وأولى بالتصديق ؟ أم نصدق ابن باديس المعروف بامانتـــه العلمية ، وبتحريه الصدق فيما يقول ويكتب ؟ أم نصـــدق كاتب المذكرات الذى رأيناه يكتب بسرعة من الذاكرة عـــن نصف قرن مضى من الزمن دون ان يكلف نفسه بالتثبـــت والتروي ، وبالتحقيق والتدقيق في المسائل التاريخيـــة ، ما هكذا يا سعد تورد الابل ...

أما الميلي وابن باديس فمتفقان على ان الكتاب ما حـــرر وجمع الا في سنة 1937 ، وأما الاستاذ توفيق فكشأنه دائمـــا يلقي الكلام جزافا ، ولا يتروى ولا يتحرى فقد يكون توهم تأليف الكتاب في سنة 1925 بدلا من سنة 1935 مثلا . وانهـــاء لهذا الموضوع أزيد فاثبت ما ذكره المؤلف في نهاية كتابه ، كما اثبت شيئا من مقدمته لتعزيز ما ذهبت اليه ، وتدعيـــم رأيي بمزيد مـــن الادلـــة والحجج القطعية ، قال المؤلف في خاتمة كتابه المطبوع سنة 1937 : : « **وقد انتهينا من تحرير هذه الرسالة في ذى الحجـــة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف** » (19) ، وهي تصادف السنة الميلادية 1937 .

ومن نقد هذا الفصل الاول القصير من (حياة كفـــاح) لأستاذنا المؤرخ الكبير الشيخ توفيق المدني يستطيع القارىء ان يحكم على بقية الكتاب ، وان كان ما في صلبه ادهى وأمر ، وأكثر وأخطر ، وسلام على من تعاظم وتبختر .

هوامش وتعاليق الفصل الثانى

1 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 7 ٠

2 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 10 ٠

3 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 10 ٠

4 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 22 ٠

5 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 12 ٠

والـزيجة : لفظ غريب عن العربية ، فمن اين جاء به الاستاذ ؟ والمعروف منـه (الزيج) بالتذكير ، وهو لفظ معرب من الفارسية ، ويطلق عـلى الجداول الفلكية ، كما يطلق على خيط البنائين الذى يمدونه على الحائط وقت البناء ليراقبوا استواءه واستقامته ٠

6 ـ (مجالس التذكير) : هو عنوان افتتاحيات (مجلة الشهاب) الدائم ، يتناول فيـه الشيخ ابن باديس تفسـير القرآن الكريم ، وشرح الحديث النبوى الشريف ٠

7 ـ (مجلة الشهاب) ، ج 1 م 15 ، ص 254 ٠

8 ـ (حياة كفاح) ، ج2 ، ص 144 ٠

9 ـ ما عـدا ادارة الشؤون الاهلية ، بالولاية العامة الجزائرية ، وجميع موظفيها فرنسيون غير مسلمين ، فهل هذا هو المجلس الشرعى الذى يعنيه الاستاذ المؤرخ ؟

10 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 148 ٠

11 ـ (حياة كفاح) ، ج 2 ، ص 19

12 ـ راجع فى ذلك مثلا (عرض حال الديانة الاسلامية) الذى قدمه الى لجنة الاصلاحات الاهلية هذا المـلاك الطاهر عند أستاذنا المؤرخ الكبير ، وكان ذلك فى شهـر جويلية من سنة 1934 ، وهـو منشور بكاملـه فى (مجلة الشهاب) فى ركن (أخبار جزائرية) جزء 12 مجلد 10 ص 543 وما بعدها (1) ٠

---

(1) انظر نص الوثيقة بكاملها كما نشرت فى (الشهاب) فى قسم اللواحق من هذا الكتاب (م ط ف) ٠

توفيـق المــدنى
مع ابن باديس والشهاب وجمعيـة العلماء

لا يسعنى اليوم متابعة نقد (حياة كفاح ، ج 2) فصـلا فصلا ، كما فعلت فى المقدمة ، وفى الفصل الاول منه ، فتلك عملية تطول وتستدعى مقابلة الكتاب بكتاب آخر (*) ، وكل ذلك يقتضى وقتا طويلا ، ونحن بحاجة الى تقديم ملاحظات عجلى لصاحب الكتاب ما دام حيا ، ليتداركها أو ليرد علينا اذا كنا مخطئين ، وبذلك يتحصحص الحق ويظهر وجه الصواب ، ولا نفعل مثله لنتركه حتى يموت ، ثم نتكلم فيه وفى كتابه بما نريد ، ومثل هذا العمل لا يشرف صاحبه ، ولذلك سأكتفى اليوم بالوقوف عند نقط معينة أحسب انها أكثر أهمية من غيرها ، وانما اقدمها كنماذج لا غير ، واذا مد الله فى العمر واطال بقاء الاستاذ توفيق ، فستكون لنا معه وقفات اطول وأعمق ، والله الموفق والهادى الى الصواب .

لمن الكلمات الصريحة الفصيحة فى (الشهاب) ؟

بعد اجتماع اللجنة الوزارية الاسلامية الفرنسية بباريس للنظر فى الشؤون الجزائرية سنة (1936) ، وبعد قيام بعض النواب والاعيان والموظفين الجزائريين يزعمون : ان الجزائر مجمعة على اعتبار نفسها فرنسية بحتة ، لا وطن لها الا فرنسا ، ولا غاية لها الا الاندماج التام فى فرنسا ، نشرت مجلـــة (الشهاب) لابن باديس مقالا بلا امضاء بعنوان (كلمـــة صريحة) (1) ، كانت الرد المفصح الحاسم على أولئك الذين

(*) كان الرأى المتفق عليه بعد الندوة التاريخية المنعقدة فى المركـز الثقافى الاسلامى ، هو ان يقول كل من الاخوين : محمد الطاهر فضـلاء ، محمد الصالح رمضان ، باعداد ردودهما ومناقشتهما لكتاب حياة كفاح فى كتابين اثنين . ولكن الظروف الحالية لم تسمح الا بهذا الكتاب ، وهو أول القطر ، ثم ينهمر ان شاء الله .

ينعقون بذلك الزعم الآثم ، من جملة ما جاء فيها هذه العبارات الصريحة الواضحة : « **هذه الامة الجزائرية ليست فرنسا ، ولا يمكن ان تكون فرنسا، ولا تريد ان تصير فرنسا، ولا تستطيع ان تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها وفي اخلاقها وفي عنصرها وفي دينها** » .

ثم نشرت (الشهاب) كلمة أخرى بعنوان (حول كلمتنا الصريحة) (2) ذكرت فيها مجيء أحد أولئك النواب الى ابن باديس ، واجتماعه به في (ادارة الشهاب) بقسنطينة ، وتبادله الرأى معه في موضوع (الكلمة الصريحة) وكيف رجع الى الحق ذلك النائب ، بعد ما اقنعه ابن باديس بحقيقة الشعب الجزائرى التى كان يجهلها ، و (الرجوع الى الحق فضيلة) ، والقليل القليل من الناس من يتحلى بمثل هذه الفضائل العالية ، فالنائب لم تأخذه العزة بالإثم لما انتقدته (الشهاب) .

ابتدئت الكلمة بهذه العبارات : لقد احدثت (الكلمة الصريحة) التى نشرناها بالعدد الاسبق من الشهاب اثرها المطلوب ، وكان لها الدوي العظيم الذى كنا نتوقعه لها ... »
ثم يأتى فيها ما يلى :

« ان (كلمتنا الصريحة) قد وضعت الكثير من الرجال على المحك ، فمنهم من ظهرت نفسه من درٍّ مكنون ، ومنهم من انطوت نفسه على حمأ مسنون،واننا لنشهد ان من أكمل الرجال الذين رأينا فيهم بهذه المناسبة الهمة العلية وشرف النفس ، وطهارة الضمير : الاستاذ عباس فرحات الصيدلى والعضو البلدى والعمالى بسطيف ، كان هذا الرجل الأبي من أهدافنا ... قلنا له ولمن معه : انكم عندما تسعون وتحبذون

(الاندماج والتجنيس) لا تمثلوننا ولا تتكلمون باسمنا ، وانكم في واد والامة في واد آخر ، فالسيد عباس فرحات لم يتألم ولم يتكدر ، وسلك مسلك كبار رجال السياسة ، الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة الحق ، فـزار (ادارة الشهاب) وأكد لها تقديره لجهوده ، وجرت له مع صاحب الشهاب محادثة دلت على سمو أدبه وعلو مقامه في عالم السياسة والتفكير ... » ! هذه (الكلمة الصريحة) التي تركت كل هذا الدوى العظيم والاثر الكبير في الاوساط الجزائرية والفرنسية الحرة منها والرسمية ، **تبناها الاستاذ توفيق المدني تبنيا غير شرعي ، فنسبها الى نفسه في كتابه(3) بعد حوار (مفتعل) مع ابن باديس خلاصته : ان توفيق المدني كان أشجع من ابن باديس في الصدع بالحق ! ؟ ...**

كما تبنّى غيرها من الكلمات والمقالات التي نشرت في (الشهاب) بلا توقيع ، والمعروف عند الخاص والعام ان كل ما نشر غفلا من الامضاء هو لصاحب الصحيفة ومحررها ، فهو المسؤول عنه والمحاسب عليه أولا وأخيرا لدى القانون وعند الرأي العام ، ومن ادعى شيئا من ذلك فليثبت دعواه ببينة ، ففي احكامنا الشرعية : (البينة على المدعى واليمين على من أنكر) ، ومعلوم كذلك عند الخاص والعام ان الاستاذ توفيق لم يكن مالكا لمجلة (الشهاب) ولا كان رئيس تحريرها ولا صاحب امتيازها ، ولا أى شيء فيها ، فبأي حق يتبنّى ما نشر فيها بلا امضاء ؟ ! بعد وفاة صاحبيها الشرعيين : ابن باديس وبوشمال رحمهما الله رحمة واسعة !!... الا يخشى ان يحاكمه ورثتهما ؟

وكل من اطلع على تلك (الكلمة الصريحة) أو سمع بها اعتقد انها لابن باديس ، لانها تتناسب وطبيعته وتنسجم مع

ما عرف منه من مواقف وتصريحات فيما يتعلق بالشخصية الجزائرية ، وخاصة بعد الاحتفال المئوى باحتلال الفرنسيين للقطر الجزائرى ، وبعد تأسيس جمعية العلمـــاء ، وطغيان موجات التفرنس والتجنس ، وبعـــد دعايات : الجزائـــر الفرنسية ، والوجود الفرنسى ، وبعـــد المؤتمر الاســلامى الجزائرى ، فابن باديس هو المشهور بالحفاظ على الشخصية الجزائرية ومقوماتها، التي كرّس لها جميع أوقاته قولا وعملا، مما لا يشك فيه أحد ، لذلك شاعت تلك الكلمة وذاعت انها لابن باديس لا لغيره ، وحفّظها الاساتذة والمعلمون لطلبتهم وتلاميذهم ، والآباء والامهات لابنائهم وبناتهم ، فى مدى نصف قرن تقريبا ، على انها من الكلمات الخالدة العظيمـة لابن باديس ، وليس « المسيو أندري جوليان وحده هو الذى نسبها له فى كتابه الشهير (الشمال الافريقى يسير) كمـا يقول الاستاذ توفيق .

وهذا نص الاستاذ توفيق المدنى الذى ينسب فيه (الكلمة الصريحة) الى نفسه ، بعد ان اثبتها برمتها فى كتابه ، قال : « **كتبت المقال فى** (الشهاب) ، ونسبه العلامة (شارل اندري جوليان) فى كتابه المفيد (الشمال الافريقى فى سيره) ، كما نسبه الذين اتبعوه من بعده للشيـــخ ابن باديس ، لان مقالى كان خلوا من الامضاء ، كي لا يقال : انه مـن تأثـير (حزب الدستور التونسى) ... » (3) .

هكذا وبدون أي بينة شرعية ولا أي وثيقة رسمية ، تثبت دعواه هذه ، سوى كون المقال خلوا من الامضاء ، أما تأثـير (الحزب الدستورى) فى الجزائر الذى يذكره فى كل مناسبة فقد فندته في المقال (السابق الخاص بفصل (أيام قسنطينة)

ـ وأنا اعلم انه لا يعنى بالحزب الدستورى سوى نفسه ـ ويقول قبل ذلك متبجحا وممهدا السبيل لابتلاع تلك المقالة وغيرها : « **اما فى السياسة الداخلية فكنت أكثر النـــاس صراحة ، واشدهم جرأة ، واقدرهم على محاربــة الظالمــين والخائنين والمفسدين ...** » (4) **ومادح نفسه يقرئكم السلام ويخص نفسه بالتحية والاكرام !! .**

هكذا وبكل سهولة يتبنى الاستاذ توفيق كلام الغير وانتاجه وينسبه الى نفسه ، زاعما ان كل ما كتب فى ركني : (الشمال الافريقى) و (الشهر السياسى) من مجلة الشهاب هو بقلمه، ونحن ـ وان سلمنا ان ركن «الشهر السياسى فى عالمى الشرق والغرب » ـ كان يكتبه الاستاذ توفيق المدنى مقابل أجــر معلوم ، كما كتب من بعد فى جريدة (البصائر) ركن (منبر السياسة العالمية) ـ لا نسلم أبدا ان كل ما كتب فى ركنى **السياسة الداخلية بمجلة الشهاب مثل : ركن (فى الشمال الافريقى) أو ركن (شؤون جزائرية) هو للاستاذ توفيق، لان الكتابة فيهما ليست بأسلوب واحد** ، وليست بروح واحدة ، كما هى فى ركن (الشهر السياسى) مثلا ، ولان الكتابة فى السياسة الداخلية الفرنسية سواء كانت فى الجزائر أو فى شمالى افريقيا شائكة وليست سهلة كما فى السياسة الخارجية، يتحاشاها المبعد من تونس ليكلا يقع فى المحضور مرة أخرى، فيبعد من الجزائر أيضا ومن شمالى افريقيا كما نفي سابقا من تونس لنفس السبب (والحذر مطلوب) كما تقول عامتنا، وصاحب (التقية) يعرف هذا جيدا ويعمل به دائما ، لذلك كان يؤثر الكتابة في السياسة الخارجية على الكتابة في السياسة الداخلية المحلية لانها أسهل وآمن .

أسهل من جهة كونها مجرد ترجمة وتلخيص لاخبار وكالات الانباء الاجنبية والصحف الفرنسية التي يختارها ويطمئن اليها ، ولا شيء غير ذلك ينقلها من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية بطريقته الخاصة ، وقد برع في ذلك وتمكن رغم ضعف ثقافته الفرنسية ، فهو مترجم لكلام الغير ، وناقل لتلك الانباء والمعلومات ، له فضل الترجمة ونقل الاخبار والافكار من الفرنسية الى العربية لا غير .

آمن من جهة كون السلطات الاستعمارية الفرنسية لا تؤاخذه على ذلك ولا تشتغل به ، وهذا موقف معقول منه ومقبول يتناسب وطبيعته التي عرف بها ، فهو يعمل بهذه (التقية) فرارا من مزالق السياسة الداخلية في الجزائر أو في شمالي افريقيا ، ولان صاحب (التقية) يعمل بالقول المأثور « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » ! . واذا جاز وكتب فيها في بعض الاحيان ، فانه لا يكتب حتى يفكر ويقدر وحتى يقرأ لذلك ألف حساب وحساب . ولا يقدم اذا أقدم الا اذا آمن السلامة والملامة من جهات معينة ، أو تحصل على حصانة ما من المخابرات ، أو من بعض أصحابه ولاة الامور (الحكام العامين) « فيوليت أو سوستال » أو اعطيت له اشارة الضوء الاخضر من مديري الشؤون الاهلية : « ميو ، أو ميرانت أو بيريك » وفي هذه الحالة لا يكتب الا ما يرضيهم ، ولعلي لا أذيع له سرا أو أكشف سترا اذ أذكر صلاته بهم ، أو صلاتهم به ، فقد ذكر ذلك صراحة وتلميحا في غضون كتابيه : الاول والثاني من مذكراته في تونس والجزائر .

والكل يعلم أن أي دولة استعمارية لا تقبل أي لاجيء سياسي – فضلا عن المنفي – في مستعمرة من مستعمراتها ، الا مقابل شروط معينة تمليها عليه ، ولا تكون الا في صالحها

بطبيعة الحال ، وما على اللاجيء أو المنفي الا القبول والرضوخ ، والسير في الخطط المرسومة له ، واذا استطاع ان يفلت من حمأة العمالة فانه لا يستطيع ان يكتب ما لا يرضيهم .

ونعود الى كلمات ابن باديس ومقالاته التي تبناها الاستاذ توفيق ، وهذه المرة (كلمة مُرَّة) بضم الميم ـ نشرت في افتتاحية الشهاب ضمن كلمات أربع لابن باديس ، تحت عنوان : (كلمات صريحة) كلها بامضاء ابن باديس الصريح وفيها اشارات واضحة الى ان (الكلمة المرَّة) هي الثالثة في ترتيب الكلمات الاربع الصريحة ، ويفتتحها ابن باديس بهذه الفقرة : « ان تربيتنا العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة واجلائها على ما هي عليه ، جعلتنا لا نستطيع شيئا من الموارية والتلبيس » (5) . ترى من عرف عندنا **بالتربية العلمية الدراسية المبنية على بيان الحقيقة الناصعة واجلائها ؟** ومن اشتهر بالمواقف الصلبة الجريئة في الحق أمام طغيان الاستعمار الفرنسي وجبروته **اصحفي مزدوج الجنسية ممزق الشخصية ؟** كما يشهد على نفسه ـ يتوارى بالحجاب خلف الابواب كلما جد الجد واقتضى الامر الثبات والاقدام ؟ ام امام مقدام زعيم همام ، كابن باديس المعروف بامانته العلمية وشجاعته الادبية ، الذي لا يخشى في الله لومة لائم ولا سطوة ظالم ؟

ويستمر ابن باديس في كلمته هذه مشيرا الى تلك (الكلمة الصريحة) المتقدمة قائلا : « نعرف كثيرا من ابنائنا الذين تعلموا في غير احضاننا ينكرون تاريخنا ومقوماتنا ، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا وكنا نرد عليهم بالقول في كل مناسبة تبدو منهم هذه البوادر السامة الخاطئة ،

ووقع مرة ان كتب بعضهم ــ وهو ممن له قيمة معتبرة عندنا ــ ما هو صريح أو كالصريح فى ذلك الضلال المهلك ، **فرأينا من الواجب علينا ان نرد عليه بـ (كلمة صريحة) نعرب بها في يقيننا عن الحقيقة التى يعتقدها الشعب الجزائرى فى صميم نفسه » .. ويختم هذا المقال بقوله : « فجلونا بكلمتنا هـذه الحقيقة مكشوفة فى وضح النهار ، وقطعنا الطريق على كـل متقـول بالباطل ، وارحنا كـل باحـث ومتردد مـن بحثـه وتـردده » اهـ (5) .**

ايمكن ان تكون هـذه الروح الابوية المشعـة ، والفكرة الواضحة النيرة ، والاسلوب القوى الرصين ، لغير ابن باديس العظيم ؟ أيصح ان تكـون تلـك الكلمة لصحفى ، مـرتزق يتوارى عن الانظار في رابعة النهار ؟ ويـؤثر ان يبقى في الظل دائما ، لكيلا تتسلط عليه الاضـواء الكاشفة ، بسبب ازدواج شخصيته **كما يقول هـو عـن نفسـه : « كان هـذا الازدواج فى الشخصية السياسية مرهقا لى بصفة لا تحتمل »** (6) . ومع ذلك تحملها ومثلها احسن تمثيل ... ويقول في مكان آخر عن شدة حذره وحدة حساسيته : « **كانت الحاسة السادسة دقيقة جـدا عندى** » (7) هذا وصفه هو لنفسه من غير ان يطلبه منه أحد ، أو يتجرأ باتهامه به شخص آخر ...

ايمكن ان يكون مثل عباس فرحات ــ المقصود فى كلمـة ابن باديس ــ بذى القيمة المعتبرة ــ **من ابناء توفيق المدني الذين تعلموا في غير حضنه** ، وهو فى مثل سنه ؟ فقد شهد بذلك توفيق عنـد كلامـه عـن عباس فرحات حيث قـال : « **اننا من مواليد سنـة واحدة** » (8) أيكون النـد فى منزلة الابن ؟ لا ، لا ، يا أستاذ توفيق ليس المقال لك ، خاصة وهو بامضاء صاحبه ، وفي افتتاح العدد المذكور من مجلته .

بعد هذه القرائن والادلة ، هل يمكن القول بان (الكلمة الصريحة) و (الكلمة المرّة) اللتان نشرتا في الشهاب من مقالات الاستاذ توفيق المدني ؟ ونكتفي بهما عن غيرهما من مجموع نحو أربعين مقالة سلخها صاحب المذكرات من (مجلة الشهاب) ، واثبتها في كتابه (حياة كفاح ، ج 2) (9) كلمة غير منقوصة ، وعلى فرض انها كلها له فهل من (فن كتابة المذكرات) أن يعيد الانسان نشر مقالاته في (مذكرات حياته) ؟

من يدرى لعله سيأتي يوم يعيد فيه الاستاذ توفيق طبع (الشهاب) على انه له ؟ ما دامت حجته الوحيدة هي انه كان يكتب في الشهاب بلا امضاء ، فكل ما في الشهاب بلا توقيع فهو حق ثابت للاستاذ توفيق المدني لا ينازعه فيه أحد ... فقد قال في تقديم ما نقل من مقالات الشهاب في كتابه (حياة كفاح) (10) ما يشعر بانه متأسف لعدم نشره كل شيء حيث قال انه : « **لا يستطيع نشر كامل تلك المقالات في كتاب يكون سجلا وطنيا صادقا » لأعماله وجهاده (11) .**

اذا كان مؤرخنا يسير على قاعدة (الحي يغلب ألف ميت) فليعلم ان ابن باديس حي بآثاره فينا وفي أعقابنا ــ ان شاء الله ــ لم يمت ولن يموت ، لانه اخلص أعماله لله ولشعبه ووطنه ، لا يريد جزاء ولا شكورا من احد فكافأه الله بحسن الاحدوثة وخلود الذكر في الدنيا ، ولجزاء الآخرة أكبر وأبهر. والشيخ توفيق يشهد له بالخلود حيث يقول : « انه خالد لا يموت موجود في كل قلب ، انه حي في كل فكر ، انه حاضر في كل ضمير ، انه الشمس المشرقة التي لا تغيب » ... الخ (12) فكيف تسنى له ان يسلبه حقه ، ويغتصب آثاره بعد موته ؟

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

اما عـن هذه الجمعية العتيدة العظيمة ، فيزعم الاستاذ توفيق المدني أنـه : أول من فـكر في تكوينها ، وسعى في تأسيسها (13) ، وأنه هو الذى خطط منهاجها العملى ، ووضع قانونها الاساسى (14) ، وان ابن باديس طلب منه ان يكتب له خطبة الافتتاح ليلقيها فى الاجتماع العام (15) ، ثم كيف وضع الاستاذ توفيق الجمعية فى مدارها الطبيعى (16) ــ كأن الجمعية كانت منحرفة ، أو كانت فى غير وضعها الطبيعى ــ وينسى انـه هو الذى كونها (فى زعمه) وخطط منهاجها ، ووضع قانونها ، وكتب خطبـة الافتتاح لرئيسها الجليـل ، فكيف خرجت عن مدارها الطبيعى ؟ « أليست من صنع يده ؟ ثم يزعم أنه كان يشارك رجالها بعد ذلك بالرأي ، وبتهيئة البرامج ، وانه المدبر ، والمشير ، والمؤيد والنصير (17) الى غير ذلك من المزاعم التى لا تعتمد على أساس يطمئن اليـه الانسان غير الادعاء بلا سند كالعادة » .

والمعروف الذى يشهد به رجال الجمعية الذين ما يزال عدد منهـم حيا ، ان الاستاذ توفيق لـم يحضر أي اجتماع مـن اجتماعات الجمعية الخاصة أو العامة فى العشرين سنة الاولى من حياتها ، ولم يشارك أو يشترك فيها بنقير ولا بقطمير .

وفكرة تأسيس الجمعية كانت سابقة لمجيء الاستاذ توفيق الى الجزائر ، فقـد نشرت فى الصحف الـوطنية الجزائرية ، وكانت حديث المجالس العلمية ، والاوساط المهتمة بالثقافة الاسلامية ، وشاعت وذاعت فى الطبقات الواعية من شعبنا ، وليست من ابتكارات الاستاذ توفيق ، ولا من اختراعاته التى يمن بها على الجزائر . ذكـر ذلك مثلا العلامة الشيخ البشير الابراهيمى فى (سجل مؤتمر جمعية العلماء) ، فقال : « ان

ابن باديس زاره بسطيف سنة 1924 م ، وأخبره أنه عازم على تأسيس (جمعية للعلماء) تجمع شملهم وتضم شتيتهم (18) ، ومجيء الاستاذ توفيق المدني الى الجزائر انما كان في شهر جوان من سنة 1925 فقط ، فهل فكر فيها بتونس قبل أن يخطر بباله المجيء الى الجزائر ؟

وقبل سعي الاستاذ في تأسيسها — كما يقول — بست سنوات ، كان ابن باديس قد نشر في جريدته الاسبوعية (الشهاب) — « **دعوة العلماء المصلحين** » — بهذا العنوان ، جاء فيها ما يلي : « ... اننا نرغب من كل من يستحسن هذا الاقتراح ، ويلبي هذه الدعوة من أهل العلم ، ثم من كل محب للاصلاح أن يكاتبنا لادارة الجريدة ببيان رأيه ، حتى اذا ما رأينا استحسانا وقبولا من عدد كاف شرعنا في التأسيس والله ولي التوفيق » (19) كان ذلك في نوفمبر من سنة 1925.

وكان من بين من لبى (هذه الدعوة الكريمة) ، الشيخ المولود الحافظي رحمه الله ، الذى نشر مقالا مسهبا في (الشهاب) بعنوان : « **حول اقتراح تأسيس حزب ديني اصلاحي** » (*) (20) ، ختمه ببعض البنود أو الاصول التي تقوم عليها هذه الهيئة ، وتكون المادة الاولية لقانونها الاساسي .

هكذا كانت الاصداء تتجاوب وقتها هنا وهناك في الصحف وفي المجالس ، حول موضوع تكوين الجمعية ، قبل ان يفكر فيها الاستاذ توفيق المدني بعدة سنوات .

وقد تناول هذا الموضوع أخيرا في جريدة الشعب استاذنا الشيخ حمزة بوكوشة ، في رده ، على بعض مزاعم الشيخ

(*) انظر هذا المقال كاملا في قسم اللواحق من هذا الكتاب .

توفيق المدنى ، بطريقة موضوعية ، نزيهة ، مدعمة بحجج وبراهين لا تقبل النقض ، لازم فيها الحياد ، وقد أجـــاد وأفاد ــ وهو الذى استشهد به الاستاذ توفيق فى دعـــوى تبنيه تأسيس الجمعية ــ وليس لى ما أزيد عليه سوى اثبات أقوال صاحب هذه المذكرات الغريبة هنا ، ملخصة من كتابه (حياة كفاح ، ج 2) ، ليطلع عليها القارىء الذى لم يقرأ الكتاب بعد ، فيوازن بينها وبين هذه الاقوال التى أثبتناها آنفا لمشائخنا الاعلام : الابراهيمى وَابن باديس والحافظى رحمهم اللـــه .

بعد ما ذكر الاستاذ توفيق احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم للجزائر ، وما قاموا به من تطبيل وتزمير ، قال : « أخذت من تلك الساعة الرهيبة أستعد لثلاثة أعمال قــوية جسيمة : « أولها » **انشاء جماعة اسلامية** صادقة قوية هادفة تحيى امجاد الجزائر ... الخ ، و « ثانيها » تأليف كتاب كبير يسجل تاريخ الجزائر قديما وحديثا ... ينفخ فيها روح الامل واليقين ، و « ثالثها » تأليف كتاب آخر ينفى عن الجزائـــر وصمة اللصوصية ــ (يعنى القرصنة البحرية التى اتهمنا بها الغربيون) ــ ، ونجحت المشاريع الثلاثة ... **اما الجماعة الصالحة فكانت جمعية العلمــاء المسلمـــين الجزائريـــين** ، واما العمل الثالث ، فكان كتاب (عثمان باشا) ... الخ (21).

ثم يذكر (قصة الماجدين الثلاثة) ــ كما يصفهم ــ وكان هو رابعهم ، أولئك الذين اجتمعوا بنادى الترقى فى يــوم لا يعلمه أحد (**حتى صاحب المذكرات بلا تاريخ**) !! ولــم يرهم فيه أحد سوى صاحبنا توفيق !!!

والى القارىء الكريم نعت الاستاذ توفيق **(الماجديه الثلاثة) :** « اما أولهم (العاصمى) فيصفه بانه **كثير الالوان ، يسير**

مع كل قوم حسب هواهم !! ... واما ثانيهم (عمر اسماعيل) فيقول فيه : عامي طموح قليـل المعلومات ، غني حـرب ، اثرى بالتجارةفي السوق السوداء !!! ... واما ثالثهم (محمد عبابسة) فينعته بانه : شاعر متحمس يلقي به الحماس في متاهات بعيدة » اهـ (22) ـ لعل متاهات عبابسة لا تبلـغ نصيف متاهات صاحب المذكرات ـ ولله في خلقه شؤون ،،، هؤلاء هم (الماجدون الثلاثة) الذين أسسوا مع الاستاذ توفيق (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ؟ وللقارىء ان يحكم عليهم وعلى صاحبهم بما يشاء .

ثم يقول : « ... وقد أولنا نحن الاربعة في الامر ، وأخيرا هدانا التفكير الى وجوب جمع علماء المسلمين ـ في الارض الجزائرية ... وتأسيس جمعية اسلامية عالية تأمر بالمعروف وتنهى من المنكر ... وكانت جمعية العلماء » (23) ، الى آخر ما يحكى من قصته التي لا يعرفها أحد سواه !!

كتابة القانون الاساسى للجمعيـة :

أريد هنا ان أقف عند دعوى كتابة القانون الاساسى لجمعية العلماء ، يقول الاستاذ توفيق : « كلفني الجماعة ـ يعـنى ماجديه الثلاثة ـ بايجاد قانون أساسى للجمعيـة ... وقـد اعتكفت في مكتبي ثلاثة أيام سطرت فيها للجمعية قانونها الاساسي ... وبعد انشائه قدمته لهيئتنا الرباعية (الماجدة) فأقـرتـه (24) .

هكذا يدعى كتابة القانون الاساسى للجمعية بلا دليـل ، سوى ما يحكيه بعد موت الماجدين وغير الماجدين من أصحابه، وما يصحب ذلك من قصص وروايات تمهد لما يريد تبنيه !! وسننظر في ما يلي مصداق دعواه ، ومدى صحة ما يقول :

لقد أسلفت ما ورد في (الشهاب) من كتابة الشيخ الحافظي للبنود الاولى للقانون ، والاصول التي يمكن ان تعتبر المادة الاولى الخام لقانون الجمعية ، وقد نشرها في الشهاب كما تقدم سنة 1925 .

وذكر الشيخ البشير الابراهيمي في (سجل مؤتمر جمعية العلماء) المذكور سابقا : **انه هو الذى كتب قانونها الاساسى** ، وهذه الدعوى قد تقبل من عضو ادارى مؤسس للجمعية كالشيخ البشير ، اما قبولها من شخص اجنبي عن الجمعية ، لا علاقة له بها ، كالاستاذ توفيق ، فموضوع شك كبير ، ودعوى تحتاج الى دليل .

لان المعروف عن الاستاذ توفيق انه لم يكن عضوا عاملا ولا عضوا شرفيا ، ولا حتى عضوا عاديا مشتركا في (جمعية العلماء) من يوم ظهرت للوجود سنة 1931 الى سنة 1951 ، أي طيلة عشرين سنة كاملة من حياتها العامرة بجلائل الاعمال ، وسط الزعازع والاهوال ، ولما هدأت العواصف واستتبّت الامور ، واستقرت الجمعية في نفوس الشعب الابى ، وانتشرت في جميع أرجاء الوطن الجزائرى : شعبها (فروعها) ومدارسها ونواديها ومساجدها ، من أقصى قرية أو (دشرة) في الجبال وفي الصحارى الى ادنى مدينة في شرقى البلاد وغربيها ، عند ذلك فقط (جيء) بالاستاذ أحمد توفيق المدنى من مكتبه في نهج (لالير) سابقا ، أو من قاعة (سينما دنيازاد) بالعاصمة ــ التي كان يديرها أو يشرف عليها في وقت مّا ــ قلت جيء به ليلتحق بالجمعية وينضم الى العلماء العاملين ، ولم يكن هذا الالتحاق برغبته هو ، انما كان منا نحن شباب جمعية العلماء وقتها ، الذين عز عليهم ان يبقى هذا المثقف اللبق خارجا عن صفوف ذلك الجمع المبارك من

مثقفي العربية فرغبنا وطالبنا بالحاح من شيوخنا الكبار : الابراهيمي ، والتبسي بالخصوص فنزلوا عند هذه الرغبة الملحة ، ورشحوه لانتخاب سنة 1951 فنجح وعين عضوا في الهيئة الادارية لجمعية العلماء من ذلك الوقت لا غير ، أي قبل اندلاع ثورة التحرير بنحو ثلاث سنوات فقط ، هذا هو كل تاريخه في جمعية العلماء التي يقول : « **انه هو الذي فكر في تكوينها وسعى في تأسيسها ، وخطط منهاجها ، وكتب قانونها ، وهيأ لرئيسها خطاب الافتتاح ، ووضعها في مدارها الطبيعي ، وكان يشارك رجالها بالرأي الصائب ،** وبتهيئة البرامج ، وغير ذلك ، وانه هو المدبر ، والمشير ، والمؤيد والنصير ، الى آخره » .

وأعود الى دعوى كتابة القانون الاساسي ، فأقول : من غريب المفارقات والمتناقضات ان الشيخ البشير الابراهيمي لما عين عضوا عاملا في (مجمع اللغة العربية بمصر) سنة 1961 ممثلا للجزائر ، طلبوا منه ان يكتب لهم ترجمة حياته ففعل ، **وذكر من جملة ما ذكر من جمعية العلماء انه كتب قانونها الاساسي** ، ثم لما توفي الشيخ الابراهيمي ، رأى (مجمع اللغة العربية) ان يخلفه شخص آخر من الجزائر ، وكان الشيخ توفيق المدني هو الذي خلفه ، ولما طلب منه (المجمع) كما طلب من سلفه ـ وكما يطلب من كل عضو ينخرط فيه ـ كتابة ترجمة حياته ، ذكر هو الآخر انه هو **الذي كتب القانون الاساسي** لجمعية العلماء !!! والمطلع على هذه النقطة بالذات في ذلك (المجمع) الموقر المحترم ، يقف محتارا بين هذين الممثلين لشعب الجزائر الثائر ، هل يصدق الاول أم الآخر ؟ ... أو هل يصدقهما معا أم يكذبهما معا ؟.. وقد يحكم على ان الجزائريين جميعا كذابون لا يوثق بهم ، اذا كان مثقفوهم بهذا الشكل !!!

وأنا اتساءل : هل للجمعية قانون واحد أم قانونـان أم قوانين ؟ وما قيمة هذا القانون الاساسى الاول للجمعيـة ؟ **وأي فائدة تحصل للقارىء من معرفة كاتب هـذا القانون الاساسي للجمعية ؟ حتى نتهالك على ادعاء كتابته ؟ والمعروف عندنا جميعا ان الحكومـة الاستعمارية الفرنسية هي التي وضعت القوانين العامة لتأسيس جمعيات الاهالى الجزائرية سنة 1881 ، وعلى من يريد تأسيس أي جمعية خيرية أو دينية أو رياضية أو غير ذلك ان يأخذ من تلك القوانين المسطـرة ما يناسب مشرب جمعيته ولا يخرج عنهـا** ... وكفى اللـه المؤمنين القتال !! .

ولو كان لى ان أعطى رأيي فى هذا الموضوع لقلت : ان الامين العمودى هو أقرب وأولى من توفيق المدنى فى وضـع هذا القانون للجمعية ، أو أخذه من تلك القوانين العامة التى سطرتها الحكومة الفرنسية لرعاياها الجزائريين ، لأن الأمين العمودى (أولا) رجل قانون فهو أدرى بهذا الجانب من غيره، و (ثانيا) مزدوج الثقافة بل هو أحذق للغة الفرنسية مـن صاحب المذكرات (بشهادة توفيق نفسه) ، و (ثالثا) هو عضو ادارى مؤسس ، و (رابعا وأخيرا) هو الكاتب العـام الاول لجمعية العلماء لعدة سنين من حياتها الاولى برئاسـة ابن باديس رحمهما الله رحمة واسعة .

وأخيرا ــ ولعله ليس آخرا ــ ألفت نظر القراء الشبـان بالخصوص الى ان رجال جمعية العلماء ما يزال منهم عـدد لا بأس به حيا يرزق ، بوسعهم ان يراجعوهم فى هذه الامور ليتحققوا منها اذا شاءوا ، وفى العاصمة وحدها يوجد منهم نحو عشرة اعضاء اداريين ، يمكن ان يكونوا شهود عيان ، وليس بعد العيان بيان .

هوامش هذا الفصل الثالث

1 ـ مجلة الشهاب ، ج 1 ، م 12 ، ص 42 .

2 ـ مجلة الشهاب ، ج 3 ، م 12 ، ص 141 .

3 ـ حياة كفاح ، الجزء 2 ، ص 63 .

4 ـ حياة كفاح ، الجزء 2 ، ص 275 .

5 ـ مجلة الشهاب ، ج 9 ، م 13 ، ص 398 .

6 ـ حياة كفاح ، ج 2 ص 180 .

7 ـ » » ص 411 .

8 ـ » » ص 57 .

9 ـ » » ص 275 الى 330 .

10 ـ » » ص 276 .

11 ـ » » ص 276 .

12 ـ » » ص 275 .

13 ـ » » ص 172 .

14 ـ » » ص 177 .

15 ـ » » ص 179 .

16 ـ » » ص 197 .

17 ـ » » ص 407 .

18 ـ سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ص 46

19 ـ جريدة الشهاب ، العدد الثالث .

20 ـ جريدة الشهاب ، العدد السابع .

21 ـ حياة كفاح ، ج 2 ص 172 .

22 ـ » » ص 173 .

23 ـ » » ص 174 .

24 ـ » » ص 178 .

وجهـــا لـوجــــه ...

نشرت بجريدة المجاهد الاسبوعى اللسان المركزى لحزب جبهة التحرير الوطنى ، فى 24 مارس 1978

أثار كتاب السيد توفيق المدنى « حياة كفاح » موجة من ردود الفعل لدى بعض أساتذتنا الفضلاء أمثال المشائخ محمد الصالح رمضان ، الطاهر فضلاء ، بوكوشة ، انعكست علـى مناقشة الحقائق التاريخية التى أوردها توفيق المدنى عبـر فصول كتابه بالرغم من انه حاول ان يسبغ عليـه طابـع المذكرات الشخصية .

وعندما يكون الموضوع متعلقا بالتاريخ فان الامر يأخذ طابعا آخر ، ذلك ان التاريخ ملك للاجيال ، والتشكيك فى حقائقه يتسم بالخطورة فما بالك بالتزييف ؟

لهذا من واجب مؤرخينا ومن عاصروا هذه الاحداث ان يقطعوا برأى فى هذا الموضوع واذا كانت الحقائق الواردة فى كتاب « حياة كفاح » بعيدة عن الصحة كما أشار اليهـا بعض الذين ناقشوه ، فالواجب الوطنى يدعونا الى مراجعة الكتاب ان لم أقل مراجعة طرحه فى الاسواق وتداوله بـين الشباب !!

لحظـــة تأمـــل ؟
أسئلـة تبحث عن أجوبة

نشرت بجريدة الشعب فى 19 فيفرى 1978

ـ أثار الجزء الثانى من مذكرات المؤرخ توفيق المـدنى نقاشا ساخنا فى أوساط جيله ، مثلما بعث فى نفوس الجيل الجديد ، رغبة كبيرة في التعرف على مرحلة حاسمة من تاريخنا المعاصر ، وما كابده أسلافنا فى سبيل الحفاظ على شخصية الجزائر ، وصيانتها من محاولات الذوبـــان فى الكيانـات الدخيلـــة .

ـ على ان ثمة اسئلة تطرح نفسها بالحاح على كل قارىء لهذا الجزء الثانى من مذكرات توفيق المدنى ، وقد تفتـح اجابتها آفاقا جديدة أمام المؤرخين :

السؤال الاول : هو لماذا لم تصدر المذكرات قبل اليـوم عندما كان جل الدين استشهد بهم المؤرخ ، أو انتقد مواقفهم احياء يرزقون ؟

ـ **والسؤال الثانى :** يتعلق بموقف السلطات الاستعمارية من توقيف المدنى نفسه ، حيث لم يشر الكاتب ـ الذى يمكن

وصفه ، من خلال مواقفه كمتطرف عصره ـ الى اعتقاله من طرف السلطات الاستعمارية ، أو تعذيبه ، مع انه كان يعيش فى الجزائر ، ونشاطه كان حتما موجها ضد هذه السلطات ، ومع ان المعتدلين فى الحركة الوطنية ، عذبوا ، وسيقوا الى السجون فما بالك بالمتطرفين المتصلبين منهم ؟

ـ **اما السؤال الثالث** : فهو يخص واقع الجزائر قبل اكتشافها من طرف صاحب المذكرات فلكأن بقارىء هذه المذكرات يستنتج بان بلادنا ، كانت راضية بالاحتلال الاستعمارى ، الى ان جاء توفيق المدنى من تونس فنفخ فيها روح الوطنية وبث فى ابنائها الشعور بالكرامة ، وكان له الباع الطويل فى تفجير ثورة نوفمبر الخالدة ؟

ـ هذه الاسئلة لا تنقص أبدا من قيمة مذكرات توفيق المدنى ، ولا من قيمة صاحبها الذى كانت له ـ دون غيره من معاصريه ـ الشجاعة الادبية الكافية ، للتأليف ، وتسمية الاشياء باسمائها رغم ما يتطلبه مثل هذا العمل الجبار من جهد جهيد فى البحث وتسجيل حوادث مرت عليها عقود بأكملها (1) .

(خليفه)

(1) تعليق صغير : التأليف ، عمل شاق طبعا ، ويتطلب جهدا مضنيا ما فى ذلك شك . ولكن التأليف يتطلب من المؤلف أيضا : تحرى الصدق والحق والامانة والنزاهة ، حتى لا تكون عاقبة أمره خسرا .. فلا يغتر المتحذلقون بما آتاهم الله من ملكات القول بفصيح الكلام ، والكتابة بسحر البيان ، فقد يكون ذلك امتحانا لهم أو استدراجا ، والله تعالى يقول : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » (81 ـ 182 ـ الاعراف) .

مذكرات ـ حياة كفاح ـ
بين غموض الرؤية وانتظار الاصلاح

نشرت بجريدة النـصر في 15 مارس 1978

تعتبر المواقف النقدية النزيهة احدى المميزات الاساسية في دفع عجلة التصحيح نحو خط مستقيم سيما اذا كانت هذه المواقف متعلقة باختيارات تربط بين ماضى أمة وكيان شعب ضرب أروع الامثلة على مر العصور متحديا كل أنواع المخاطر بفضل عزيمة رجال التزموا كل ما تعلق الامر بمصلحة البلاد بالصمود والتصدى والجرأة والدهاء والحكمة متمسكين فى ايمان وعظمة بالمبادىء وانقيم الاخلاقية والروحية المملاة من واقع هذه الامة ذاتها .

وفى هذا السياق فان ما نستعرضه فى هذه العجالة ليس تدعيما لما جاء فى سلسلة المقالات النقدية لكل من الاستاذين محمد الطاهر فضلاء ومحمد الصالح رمضان اللذان سلط فيها كل منهما بعض الاضواء والحقائق حول ـ مذكرات ـ حياة كفاح ، للاستاذ توفيق المدنى ، أو الوقوف ضد هذا الاخير ، الا اننا نكون جديرين بالوقوف الى جانب من يعمل على اثارة

الحقائق اذا كانت هناك حقيقة لا مفر من الرجوع اليها قصد ان يصاغ تاريخ هذه الامة على طبيعته بكل التزام وامانة لانه يعطى بذلك الصورة الحقيقية لوجود هذا الشعب الابى ، ولئن كنا نحن جيل الثورة أو ما قبلها بقليل لم نعاصر هذا الرعيل الاول من المناضلين والمصلحين الذين كانوا محور اهتمام ـ مذكرات ـ الاستاذ توفيق فنحن وبالرغم من ذلك جيل واصل العمل من أجل تحقيق الرسالة الشريفة التى ضحى من أجلها هؤلاء ، ومن حقنا الدفاع عن كل تأويل أو تزوير يهدف للمس بحقيقتهم وما قدموه لنا من نموذج بطولى واصلنا الدرب على سيره وها نحن منتصرين ، ان سلسلة المقالات النقدية التى نشرت بلا شك قد استرعت انتباه الاستاذ توفيق ليستعيد بذاكرته ما استعرضه فى مذكراته غير ان ذلك يفرض علينا طرح العديد من التساؤلات والاستفسارات التى نستخلصها فيما يلى :

ـ ما هو الحل اذا وقف الاستاذ توفيق على الحقيقة ، وهل سيتواصل توزيع الكتاب وبيعه أم يحجب من السوق ، أو يستسمح معاصريه لعدم التأكد فيما كتب ، أم يعيد كتابة المذكرات من جديد ؟

لقد وعد بان يرد على نقاده وان وعد الحر دين ، ان المتفق عليه والمسلم به لدى أغلب المؤرخين والعلماء هو ان التاريخ مرآة الامة ، وكان لا داعى للسرعة ذلك لأن في التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

(لعروسى)

حـول حيـاة كفـاح

متى يرد توفيق المدني ؟

نشرت بجريدة النـصر في 19 مارس 1978

ـ النقد البناء هو : تصحيح الاخطاء ، وتقويم الاعوجاج، وهداية الضال ، بل هو : المرشد الى الحـق والصـواب ، والهادى الى الصراط المستقيم !

وعلى كل منتقد ان يتقبل ـ النقد البناء ـ بصدر رحب ما دام النقد البناء يهدف الى :

ـ الحق والصواب ، والى تصحيح الهفوات ، أو تحسـين الاعمال . . !

ـ لقد طالعتنا صحيفة النصر الغراء هذه الايام على نقد أو تعقيب لكتاب ـ حياة كفاح الجزء الثانى ـ للاستاذ المؤرخ ـ أحمد توفيق المدنى ـ من طرف زميليه الاستاذين : محمد الطاهر فضلاء ـ ومحمد الصالح رمضان انها لمبادرة طيبـة وشجاعة أدبية في : « قول الحق ولو كان مرا » وقد سبقـت هذه المبادرة : (رد الدكتور عبد الله شريط ـ على مقـالات

وزير التربية حول التعريب فى الجزائر) وهذه المبادرات ان دلت على شيء فانما تدل على ان في الجزائر المستقلة الاشتراكية ـ حرية الرأى والتعبير ونشر كلمة الحق ـ احقاقا للحق وافادة المواطنين واثباتا للديمقراطية الحقة .

ـ أنا كمواطن لى الحق فى ابداء رأيى فيما قرأت وفهمت، ان تعقيبات الاستاذين ـ فضلاء ـ رمضان ـ على كتاب المؤلف ـ وان كانت فى محلها ـ ولكنها تبدو لى قاسية نوعا ما على المؤلف (توفيق) فاذا كان فى الكتاب اخطاء واغلاط ـ فهو لا يخلو من المحاسن والصواب ـ على كل حال المؤلف اجتهد فى التأليف « فان أصاب فله أجران وان اخطأ فله أجر واحد » كما جاء فى الحديث الشريف .

وبتعبير آخر أقول : فلولا هذا الكتاب ما تحركت السواكن، ولا انتفع القراء بهذه الحقائق التى يجهلها الكثير وخاصة الشباب الناشىء .

ـ أريد أن أقول : ان النقد البناء لا يشتم منه رائحة المساس بكرامة المؤلف ، أو الفنان، أو الاديب، وانما يوجه النقد الى (الكتاب) أو (الاثر الفنى) لتحسينه وتصحيح اخطائه ، ليسعى المنتج فى تحسين انتاجه وأجادة فنه .

كما قال توفيق الحكيم : « الناقد الذى يحترم شخصى ، ويهدم عملى لا يغضبنى » !

ومما لاحظته فى قساوة النقد ولذع كلماته على سبيل المثال : فالمؤلف وصف نفسه ـ ثائرا مكافحا ـ فقيل له فى النقد : « بل أنه مسالم ، وحيثما تكون الثورة لا تكون » ... الخ .

— فى رأيى لو يكتفى الناقد بكشف الاخطاء بأدلة ثابتة وبراهين قاطعة ، ويترك الحكم للقارىء أو السامع ! .

وفى الختام : لست مدافعا عن الكاتب ، ولا ضد الناقدين، وانما احترم الكل واشكر ألجميع واقدر آراءهم ومجهوداتهم فى سبيل تنوير الشباب الناشىء .

وحبذا لو تستمر هذه البادرة النقدية ، وتشمل جميع نواحى الحياة عندنا فى جزائر أم الثورات الثلاث فبالنقد تتصحح الاخطاء وتسير الاعمال من حسن الى أحسن وأقول للكاتب المؤرخ — الاستاذ توفيق — ان يتقبل كلمات زميليه بصدر رحب وان يتفضل بالرد عليهما ليعترف بالهفوات ، وليفند ما يرأه ليس صحيحا لان الاعتراف بالخطأ لا ينقص من المقام الرفيع ، كما قال توفيق الحكيم :

« الاديب لا يموت مقتولا ، بل يموت منتحرا » .

المواطن : رحماني صالح

أستاذ : بمتوسطة الامير

عبد القادر — عين مليلة

بـــادرة فضـــلاء ،
هــل تتبعهــا بــوادر أخــرى ؟!

بتاريخ 15 فيفــرى 1978
نشــرت بجــريــدة « النصــر »

تكرمت جريدة النصر بنشر سلسلة مقالات للاستاذ فضلاء المعروف بنشاطه فى عــدة من الميادين الفنيــة والفكرية ، تكرمت بنشر مقالاته الهادفة التى ناقش فيها بعض ما جاء فى كتاب الاستاذ توفيق المدنى وكلا الكاتبين يعتبران فيما أرى من أساتذة هذا الجيل ، اذ كل منهما قدم ما استطاع للادب والفكر والثقافة الجزائرية بصورة عامة فضلا عن نشاطهما الآخر المشهود والملحوظ .

واذا كنت لا أذهــب لا الى هــذا الطــرف ولا الى ذلــك بخصوص وجهات الخلاف ، مــع تفضيلى لعدم النبش عــلى الخصوصيات البعيدة المنال خصوصا بالنسبة للاموات ، أقول وان كنت لا أفضل الذهاب مع هذا الطرف أو ذاك مؤمنا فى نفس الوقت بان جمعية العلماء أدت دورها كما ينبغى مــع مراعاة الظروف التى خلقت لها ، والجو الذى عاشت فيــه ، والاحداث الجسام التى تتابعت فى فترتها ، والمحاصرة العلنية

والسرية التى رافقتها ، مع كل ذلك فالاهم عندى هو ان هذه المقالات قد خلقت جوا غير عادى ، أساسه الاطلاع على أشياء كثيرة كنا نجهلها ، فضلا عن تحريكها للسواكن ، وايجاد ما يبقى الانسان المحب للثقافة منتظرا للجريدة من أجله .

الى جانب تقديم صفحات اعتبرها مشرقة من جهود جمعية العلماء ومن نضالهم ومن مراميهم البعيدة وحتى اذا اتسم بعضها بالخلاف فيما بين أعضائها فان ذلك لا يدل سوى على الصحة التامة الكاملة والتى لا افسرها بغير وعي ويقظة هؤلاء .

اذن هذه المقالات ذات وزن لا شك فى عالمنا الثقافى والفكرى ، فلماذا لا يتحرك باقى كتّابنا من معاصرى تلك الفترة لازاحة الستار عليها حتى نستفيد منها من جهة ، وحتى نتعرف على مسيرة الاوائل من آبائنا . فنمكن المدرس من المادة التى هو فى أمس الحاجة اليها من جهة والدارس من المعلومات التى لابد من امتلاكها ، وحتى نوجه طلابنا الى موضوعات من هذا النوع لتناولها بالبحث والتنقيب ، وبالتالى حتى نعطى ثقافة للجميع عن هذه المرحلة .

على اية حال اننا شاكرون فضلاء عن خدمته هذه التى قدمها للحقيفة من جهة ، وللثقافة من جهة أخرى .

(العربى دحو)

حـول حيـاة كفـاح

توفيـق المـدنى يـــرد ...

نشرت بجريدة النـصر فى 22 مارس 1978

نشرت جريدة النصر خلال شهـر فيفرى وبداية الشهـر الحالى دراستين نقديتين حـول الجزء الثانى من كتاب حيـاة كفاح للمؤرخ الجزائرى الكبير الاستاذ أحمد توفيق المدنى ، وكانت الدراسة الاولى للاستاذ محمد الطاهر فضـلاء تحت عنوان « مناقشة الاستاذ توفيق المدنى فى كتابه حياة كفاح ، ج 2 » .

وقد نشرت فى 6 حلقات ابتداء من 2 فيفرى الى غاية الثامن منه ، وتناولت الدراسة مختلف اقسام وأبواب كتاب حياة كفاح وأبدى فيها الاستاذ محمد الطاهر فضلاء وجهات نظر عديدة مخالفة لتلك التى وردت فى كتاب ـ حيـاة كفاح ـ الامر الذى أحدث ردود فعل عديدة فى أوســاط القراء وخاصة المتتبعين لما يجد فى دنيـا الثقافة عمـوما والمهتمين بالكتابات التاريخية خصوصا .

اما الدراسة الثانية فقد كانت للاستـــاذ محمد الصالح رمضان نشرت من 28 فيفرى الى غاية 8 مارس فى 9 حلقات ، شملت هى الاخرى جوانب عديدة من نفس الكتاب وقد جاءت تحت عنوان رئيسى ـ هل التزم استاذنا بالامانة التاريخيـة المقدسة .

وطبعا ازداد الطين بلة وتحركت كل السواكن مطالبـــة الاستاذ أحمد توفيق المدنى بالرد على ما انتقد به ، بل ذهب الكثير الى اعتبار كتاب حياة كفاح ، كتابا مضللا وخاليا من كل قيمة تاريخية وان الدلائل والانتقادات التى وجهت الى صاحبه غير قابلة للتفنيد .

لكن مع ذلك التزم الاستاذ توفيق المدنى بالرد حيث وجه رسالته الى قراء جريدة النصر ووعدهم فيها بالرد على الهجوم الذى عرفه كتابه المذكور وذلك عندما يتم شفاؤه من المرض الذى كان يعانى منه على اثر زيارة الى مدينة اسطنبـول ، وبالفعل وردنا مؤخرا هذا الرد المنتظر من طرف الجميـــع وسنشرع فى نشره ابتداء من يوم السبت .

وبهذه المناسبة تتقدم جريدة النصر الى الاستاذ أحمـــد توفيق المدنى بالشكر الجزيل على تلبيته لرغبة قرائها وتقدم تشكرها كذلك الى الاستاذين محمد الطاهر فضلاء ومحمـــد الصالح رمضان على مساهتهما القيمة فى القاء الاضواء على ما يتعلق بتاريخ بلادنا المجيد والمناقشة الفكرية الهامة التى أثاراها على صفحاتها .

فموعدنا اذن يوم السبت مع رد الاستاذ أحمـــد توفيـق المـــدنى .

(النصر)

حــول حيــاة كفــاح (1)

صحيفــة النصــر :
الاربعاء 16 جمادى الاول 1398 هـ الموافق لـ 26
افريل 1978 م ، العدد : 2033

اقتراحــات : **بقلم : محمد الطاهر فضــلاء**

في مقالي المنشور بجريدة الشعب بتاريخ 16 مارس 1978، وفيه وضعت تعقيبا مصححا لما ورد في مقال الاستاذ حمــزة بوكوشة في الرد على الاستاذ توفيق في نقطتين هامتين مــما ورد في كتابه من التحريف والتزييف حولهما .

وقلت في نهاية هذا المقال ما نصه بالحرف :

« ولنا عودة الى كتاب الاستاذ توفيق متى دعــــانا داعي الواجب الى العودة اليه ، ولكن الذي نرجوه مخلصين مــــن الاستاذ توفيق ان لا يندفع ــ بعد اليوم ــ في الرد على ناقديه ومناقشيه حتى لا يترتب عن ذلك ما لا نريده له ولا نرضاه مختاريــن » .

واتفق ـ بمحض الصدفة ـ ان نشر العدد المذكور من « الشعب » رد الاستاذ توفيق على الاستاذ حمزة بوكوشة ، وبجانبه فى نفس الصفحة التاسعة مقالى المذكور الذى كان شديدا فى لهجته ، ولكنه كان لينا الى ما دون الاعتدال ، بالنسبة للتزييف التاريخى ، والتهويل السردى اللذين يزخر بهما كتاب الاستاذ توفيق منذ الصفحة الاولى منه .

وقد قرأ القراء أجوبة الاستاذ توفيق المدنى عن مقالات : حمزة بوكوشة ، ومحمد الصالح رمضان ، ومحمد الطاهر فضلاء ، فعرفوا جميعا ان هذه الردود ما هي الا تخليط ، يعقبها تغليط ، كان القصد منها تمييع النقاش المركز ، ودفعه الى الهامشيات والحساسيات الشخصية ، ليبقى ما ورد فى الكتاب قائما باعتباره مصدر من مصادر التاريخ الوطنى.

ولكى لا يتم هذا التخليط والتغليط من ردود الاستاذ توفيق المدنى ولكى يعرف القراء ، (كل القراء) ومنهم اساتذة التاريخ فى مواكب الشباب ، ان ما جاء فى كتاب « حياة كفاح » الجزء الثانى الخاص بالجزائر ، وقبله الجزء الاول الخاص بتونس انما هو تهويل ، ومبالغة ، وتصفية حسابات شخصية ، وتقرير أوهام خيالية رومانطيقية ، وتزييف لحقائق التاريخ، وبناء صروح من التعالى والادعاءات على اجداث الاموات ، من رواد النهضة الوطنية فى اقطار المغرب العربى عامة وفى الوطن الجزائرى خاصة ... نطالب بما يلى :

أولا : ترك باب النقاش مفتوحا على صفحات الجرائد الوطنية عملا بالمبدأ الصحفى فى حرية النشر ، وعملا بمبدأ بنود الميثاق والدستور فى النقد الذاتى والنقد الموجه ، وعلى هذا الاساس ، سنتابع مناقشة كتب الاستاذ توفيق المذكورة

مناقشة هادفة متزنة مركزة على وثائق لا تقبل النقض وعلى منطق الحق الذى لا يتلجلج امام العواطف المميعــــة الـتى استعملها الاستاذ توفيق فى ردوده على مناقشيه .

ثانيا : جمع وتنسيق كل المناقشات والانتقادات الموجهة الى هذه المقالات المذكورة ، وطبعها فى كتاب يخطط لـــه تخطيطا منهجيا علميا ، يكون مرجعا لكتاب التاريخ الجزائرى فى الحاضر والمستقبل ، على ان تتولى الشركة الوطنية للنشر والتوزيع طبع هذا الكتاب فى أسرع الآجال ليكون فى رفوف المكتبات مع كتاب الاستاذ توفيق المدنى .

ثالثا : تنظيم عدد من الندوات فى شتى اجهزة الاعلام الجزائرية (الاذاعة،والتلفزة ، والصحافة) توضع فيهـــا المناقشة الحرة موضع التنفيذ ، حتى يعلم الجميع ان كتـب الاستاذ والتى تحمل عنوان « حياة كفاح » انـــما هي فى معظمها أوهام فى التاريخ لا حقيقة لها فى الواقع » .

وأخيرا ، وقبل تحقيق كل هذه المطالب مجزأة أو مجموعة، نرجو من صحفنا الوطنية ان تفسح المجال للرد على ردود الاستاذ توفيق المدنى المميزة هذه المرة بالتخليط والتغليط ، حتى يتبين الجميع حقيقة التزييف الذى يراد تغرير الناس فيـــه .

---

(1) العنوان الاصــلى لهذه الكلمة هــو : التخليط والتغليط فى ردود الاستاذ توفيق المدنى .

حـول حيـاة كفـاح

الى القـــراء (1)

كان من المقرر كما وعدنا قراءنا الاعزاء ان تشرع جريدة النصر ابتداء من اليوم فى نشر سلسلة من المقالات للاستاذ أحمد توفيق المدنى ردا عما تلقاه كتابه (حياة كفاح) من انتقادات وجهت اليه من طرف الاستاذين محمد الطاهر فضلاء ومحمد الصالح رمضان على صفحات الجريدة .

ونظرا لكثرة المادة وغزارة النشاطات التى نعيشها على المستوى الوطنى والدولى الامر الذى يمنعنا من نشر تلك المقالات بانتظام وبالكيفية المطلوبة ، فقد تقرر تأجيل نشرها حاليا واعدين قراءنا الاكارم بأنهم سيطالعون رد الاستاذ أحمد توفيق المدنى فى أقرب الآجال على صفحات النصر .

---

(1) نشرت بجريدة النصر ، فى 15 ربيع الثاني 1398 هـ ــ 24 مارس 1978 .

فى انتظار الــرد (1)
مع الاستاذ محمد الطاهر فضلاء
فى هجومه على كتاب (حياة كفاح)
لاحمد توفيق المدنى

رجعة مـن مدينة اسطامبول ، حيث كنت اجرى خلف الوثائق العثمانية المتعلقة بالبلاد الجزائرية ، واجمع ما بقى على جمعه منها ، انما رجعت احمل معى مرضا عضالا واعانى الآماجمة ، جعلتنى الازم الفراش مكرها ، ثم اغدو واروح الى معامل التحليل المختلفة ومراكز التصوير الباطنى ، وما الى ذلك .

وفى (23 فيفرى) عرض عليّ احد الاخوان الكرام مجموعة مقالات كتبها الاستاذ محمد الطاهر فضلاء ، شملت كل باب من أبواب القدح ، والشتم ، والطعن ، والاتهام السافر ، مما شمل الكتاب وصاحب الكتاب وانا لله وانا اليه راجعون .

سأجيب بحول الله وقوته ، فوق صفحات النصر الزاهرة على كل نقطة مـن النقط التى تناولها الاستاذ فى هجومه

(1) نشرت بجريدة النصر يوم 10 ربيع الاول 1398 ـ 20 مارس 1978 م .

العنيف وسيكون جوابى (طبعا) بغير تلك اللهجة ، وبغير ذلك الاسلوب وانما ارجو ان يكون جوابا مقنعا حاسما ، تطمئن لــه قلوب المؤمنين الذين يبحثون عــن الحقيقة ، ولــم تنطو أنفسهم على غير الخــير والصلاح والجري خلف ما ينفــع هذا الشعب الطاهر الكريم فى حاضره وفى مستقبله .

فالى لقاء ارجو ان يكون قريبا جــدا ، بعد زوال وطــأة المرض ، وانتهاء الاوجاع والآلام .

وتحيتى المخلصة لعائلة ـ النصر ـ الزاهرة ، ولاخوتى واصدقائى وابنائى من قرائها الاكرمين (2) .

أحمد توفيق المدنى

(2) وانتظرنا ردود الاستاذ كما وعــد ‥ وعندما جاءت الــردود ، كانت على حد المثل : تمخض الجبل فولد فأرا ‥ فكانت ردوده على كل مناقشيه هروبا عن الموضوع ، وتمييعا لحقائقه ، فلم تكن الردود ردودا على المناقشة ، ولكن لكي يقول الناس : انه رد ، وهو عين التحريف .

لحظة تأمل

ما للتاريخ للتاريخ (1)

— 1 —

اعتقد ان كل شخص ـ ذكر أو أنثى ـ برز فى مرحلة من مراحل التاريخ ، وكان له تأثير ما على سير الاحداث الا كانت له جوانب عظمة تشفع له ، وتبرر فى نفس الوقت بروزه وتأثيره .

ومن مزايا التاريخ ، الانصاف وعرفان الجميل ، فلا يمكن ان ينسى أولئك الذين كان لهم فضل فيه بشكل من الاشكال .

وعلى ضوء هذه الحقيقة تتجلى عبثية جهود كل من يحاول طمس مآثر اناس ساهموا بتضحياتهم ومواقفهم فى صناعة التاريخ ، لانهم يشكلون حلقات لا غنى عنها فى بنيانه المرصوص .

هب ان احد «مؤرخينا» شطب اسم مصالى من تاريخ الحركة الوطنية ، بدعوى انه خان الثورة المسلحة : لا شك أن قيمة ما يكتبه ستكون هزيلة جدا لسببين على الاقل :

(1) جريدة الشعب الوطنية ، فى 19 محرم 1402 هـ ـ 16 نوفمبر 1981 م .

1 ـ ان الحركة الوطنية فى مراحلها الاولى لا يمكن فصلها عن مصالى أو فصل مصالى عنها .

2 ـ انه من الخطا الحكم على مرحلة بمنظار مرحلة تختلف عنها كل الاختلاف .

لذا لا داعى لان يركب الانسان رأسه أمام التاريخ ، ولا مناص من الاعتراف بالحق لذويه ، وهكذا يمكن ان نسجل تاريخا خاليا من الثغرات ، اذ يكفينا ما بتاريخنا من ثغرات !

م ـ عباس

لحظة تأمل

حتى لا يطمع الطامعون (1)

ـ 2 ـ

من البديهى ان الكتابة عن التاريخ ، لا يمكن ان تعوض المشاركة فى احداثه ووقائعه ، شان القول الذى لا يغنى عن الفعل بحال من الاحوال ..

لكن يخيل الى أن هناك من يتناسى هذه البديهية ، فيحاول توظيف مقدرته على الكتابة فى التسلل الى التاريخ والبحث عن مكانة غير مستحقة !..

لقد كانت الساحة الوطنية منذ الحرب العالمية الاولى ، تعج بالسياسيين ، لكن قليلا من كان منهم له تأثير على الاحداث ، فكثيرون هم الذين كانوا يضربون الريح بالهراوة ! أى « يناضلون » على هامش حركة التاريخ أو ضدها ..

ولسوء الحظ ان هذا النوع هو الذى كان وما يزال لديه الفراغ الكافى والمقدرة على الكتابة ! لانه عندما كان

---

(1) جريدة الشعب الوطنية في 20 محرم 1402 هـ ـ 17 نوفمبر 1981 م .

« الصحاح » يضحـون ويسجنون ويموتون ، كـان هـؤلاء يتفرجون ويسجلون ، بل ينتقدون دونما حرج !..

والمشكلة هنا أن مساعى هؤلاء المتفرجين ، يمكن أن يكون لها شأن ، ليس بسبب الفراغ فحسب ، بل لكون الكتابة تدخل كعامل هام فى صناعة التاريخ ..

لذا فالغيرة على تاريخنا عامة ، وعلى ثورتنا المباركة بصفة خاصة ، تدعونا الى اليقظة فى هذا المجال ، حتى لا يطمـع الطامعون ، وتهدر حقوق من لهم الحق والفضل فى الاحداث وفى التاريـخ .

م. عباس

القسم الثـالث

لــــواحــق

النــواة الأولى لجمعيــة العلمــاء

دعــوة الشهاب الجــريدة :

نشرت جريدة (الشهاب) في صائفة سنــة 1925 ــ بيــانا ضمنته اقتراحا دعت فيه الى تأسيس « حزب ديني اصلاحي » يضم نخبة العلماء والفقهاء من المسلمين الجزائريين ، يتولى مهمة تصحيح العقيدة الاسلامية في الامة ، وتوجيه العمــل الجاد نحو الاهداف المثلى في النهضة الوطنية ... وذلك بعد ان استكملت الحركة الاصلاحية وسائــل هذه النهضة مــن تكوين طلبة العلم ، وتجنيد الكتائب الاولى من خريجي المعاهد الاسلامية داخل البلاد وخارجها في اطار تنظيمي وزعت فيه المهام الاولى لرواد هذا الحزب الديني الاصلاحي على المستوى الوطني من حدوده الشرقية الى كل مناطقه الغربية ، واستقر هؤلاء الرواد في أماكنهم من المدن والقرى ، وكان منهم من يعلم تفاصيل مهامه العاجلة والآجلة ، ومنهم من لا يعلم من أمره الا انــه عالــم ، عليه واجب التعليم والتوجيه الديني حسب مواهبه ومعلوماته .

وتوقيت هذا البيان في الدعــوة الى تأسيس حــزب ديني اصلاحي لم يكن هكذا مجرد صدفة ، وانما هي خطة مدروسة كشف عنها تصدير الشيخ الابراهيمي لسجل مؤتمر جمعية

العلماء سنة 1937 وابرزتها مختلف الوثائق المبثوثة فى مقالات ومحاضرات ومؤلفات الرواد الاوائل للحركة الاصلاحية فى الجزائر .

وفيما يلى نثبت مقالا واحدا من جملة المقالات التى نشرت فى ذلك العهد البعيد ، وهو يدل دلالة واضحة ان « جمعية العلماء » لم تتفتق عنها الذهنية التوفيقية ولم تكن نتيجة التفكير العبقرى (للجنة الرباعية) التى كان الاستاذ توفيق المدنى احد أطرافها ... وانما كان ذلك بفعل أولائك الابطال الابرار الذين رابط كل منهم فى مكانه : عبد الحميد ابن باديس فى قسنطينة ، ويتنقل دوما بين مدن وقرى الوطن .. والطيب العقبى فى بسكرة ، ثم فى العاصمة ... ومبارك الميلى فى قسنطينة ثم فى الاغواط ، ثم فى ميلة ... والبشير الابراهيمى فى سطيف ثم فى تلمسان ووهران ... ومحمد خير الدين فى بسكرة والصحراء ، وغيرهم .

والمقال الذى نثبته هنا لأحد علماء الجزائر من الذين تخرجوا من « الأزهر » وعادوا الى الوطن للمساهمة فيه ضمن هذه الحركة ، وهو الشيخ المولود الحافظى من منطقة القبائل الصغرى التى اسهمت بقدر وافر فى حركة المحافظة على الشخصية الوطنية طيلة ايام الاحتلال .

مقال الشيخ المولود الحافظى :

ومقال الشيخ المولود الحافظى هذا ، يغنى عن بيان جريدة الشهاب ، لأنه جواب عنه .

ففى العدد التاسع من جريدة الشهاب ، بتاريخ 21 جمادى الثانية 1344 ــ 7 ديسمبر 1925 نشر هذا المقال بعنوان :

حـــول اقتـــراح

تأسيس حـزب ديـنى اصـلاحي

قال كاتب المقال فى الصفحة الافتتـاحية ما نصه :

ـ نشر الشهاب بالعدد (الثالث) نداء للعلماء الجزائريين فحواه تأسيس حزب دينى يكون الغرض منـه محاربة البدع وتطهير وجه الدين الحنيف مما التصق به وليس منه .

فنعـم اقتراح هذا ومرحبا بـه ، نـود ان يتوفق رجالنا العلماء الى هذا من زمن بعيد ، اذ حالتنا الدينية قد أصبحت فى آخر نقطة من الانحطاط وداخلتنا البدع من حيث لا نشعر منذ زمن ليس بقليل فطال عليها العهد حتى أصبحت محـل اعتقاداتها من الدين فى كثـير مـن العوام ، ومحـل تهاون وتقصير فى كثير من العلماء ، بحكم سريان القوة الغالبية من السواد الاعظم عليهم ، ولا نريد بهذا دفع الملام عنهم لانهم فى الواقع وكذا غيرهم الا من عصمه الله ـ مسؤولون أمام الله وأمام الضمير وأمام الانسانية وأمام العدالة .

وهذه البدع الضالة التى شوهت دين الاسلام ومعتنقيه لم تكن فى وقت من الاوقات مقصورة بمشائخ الطرق وارباب الزوايا كما نراه من سهام الملام وألسنة التعنيف والتنديد من أقلام الكتّاب فى هذه الايام ، بل هى فى الواقع اذا انصفنا أنفسنا تجسمت بكامل الصورة فى كل طائفة من الطوائف الجزائرية من غير فرق بينها الا من عصمه الله وقليل ما هم . فـلم تترك هذه الحوادث المستجدة التى اصطبغت بالصبغـة الدينية وليست منها ـ بيوت الافتاء ، ولا دور القضاء ، ولا مجالس العلماء ، ولا دروس المدرسـين ، ولا حلقات الوعظ والارشاد ـ فـاذا كانت الطوائف العلمية هـذا شأنها فكيف

الحال بالطوائف الاخرى المتأثرة بتأثيرين عظيمين احدهما جهلها بالحقائق الدينية ، والثاني تقليدها للهيئات العلمية فيما ليس من الدين ، وفي التهاون بالواجبات وارتكاب المحرمات ، فمن اتسم بسمة العلم أو قلد وظيفة دينية ثم يتظاهر في أقواله وفي أفعاله بما هو مخالف للشرع الشريف مخالفة بينة ، كيف يسعه بعد هذا « وهو يبذر الفساد » ان يلوم غيره عن متابعته ، على فرض انه يقر بعدم الاستقامة . فكم يكون الحال اذا كان يخالف المشروع بأي وجه ، وهو يظن لسوء فهمه انه محسن في أعماله ، وفي عموم الاحوال فهو مسؤول أمام دين الاسلام ، عليه وزره ووزر من قلده في مفاسده الى يوم يلاقي ربه – وحيث ان الشارع الحكيم شدد في المسؤولية على الطوائف العلمية بجعل وزرها ضعفين « باعتبار انها محل للتقليد والا فغيرها مثلها » – نرى ان الاصلاح بمعنى الاستقامة والوقوف عند حدود الشارع وطرح ما ليس منه طرح النواة ، يجب ان يكون مبدؤه من المنتسبين للعلم لانهم أساس الدين وحماة الشرع ، فمتى كان الاساس واهيا والحامي نائما ، فقل على الاسلام السلام . فمثل من يطالب العامة بالاستقامة قبل الخاصة كمثل من يبتغي استقامة الظل والعود أعوج – وعلى فرض ان هناك بعض الاعذار يتمسك بها فريق أهل العلم من تبليغ الدين الصحيح للعامة ، فانه ليس هناك من الاعذار بحال في تهاونهم بالواجبات الدينية في خاصة انفسهم – ويدخل في أهل العلم كل من فيه أهلية العلم ، ولو في جزئية خاصة ، لا فرق في ذلك بين قاضي ومفتي ، وعالم ، ومدرس ، وفقيه ، وخطيب ، وواعظ وشيخ طريق ، وإمام ، والذين هم مظهر من مظاهر الشريعة الاسلامية السمحة .

فهؤلاء المحترمون ومن فى معناهم اذا تأملوا فى عظيم تقصيرهم فى الامانة المنوطة بهم ، أو أعاروا نظرة واحدة للحالة الدينية ، أو التفتوا التفاتة واحدة الى السواد الاعظم الذى أصبح غريقا فى بحر متلاطم الامواج من البدع الضالة يستغيث ولا يغاث – لا يجدون بدا ولا مناصا من مبادرة اجابة نداء الشهاب الى تأسيس حزب دينى يقوم بواجب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر – ولا نظن ان أحدا ممن تأخذه الغيرة الدينية بعد ان ظهر للعيان انحطاط الامة الفضيع فى أمر دينها – ان يتخلف عن اجابة هذا النداء الى حياته الدينية التى هى اعز عزيز لديه – اللهم ان كان التباطؤ يتقاعس بكثير من اخواننا ، فان الظن بهم ان لا يبلغ منهم التقصير المقوت الى التقاعس عن الواجبات العينية ، غير انى اضم اقتراحا آخر الى هذا النداء وهو بيان الاسلوب والبرنامج الذى يتخذه هذا الحزب فى الوصول الى مراميه الاصلاحية والذى آراه بصفتى احد المحبذين لهذه الفكرة – ان تكون اعمالنا فى هذا الخصوص على ما يأتى :

1 – تأليف الهيأة الادارية من سائر العناصر وفى مقدمتها اخواننا الاباضيون .

2 – تأسيس قانون لهذا الغرض تبين فيه أعمال الحزب ويكون محترما أمام الهيأة وينشر فى الجرائد بين آونة وأخرى ليطلع عليه الجمهور .

3 – ان يكون من أصول هذا القانون جمع ما تيسر من الزكاة بأنواعها من أهل الفضل والخير من الجمهور بواسطة أعضاء منتدبة من الادارة .

4 – ان تتأسس مدارس ابتدائية ومكاتب قرآنية لتعليم النشء الحديث – الدين الصحيح بالطرق التى تبين في القانون

مع ما تيسر من اللسان الفرنسوى بواسطة ما يجتمع من أموال الزكاة والمتبرعين .

5 ـ ان تتأسس فروع في المدن والقرى مع ملاحظة تقديم الاهم على غيره تكون تابعة للادارة العامة للحزب التى سينظر فى مركزها المناسب باحدى العاصمتين قسنطينة ـ والجزائر.

6 ـ ان يستعان فى نشر الدعوة الاصلاحية الدينية بين طبقات الامة بواسطة طبع الكتب تؤلف خصيصا لهذا الغرض، ونشر مجلات علمية فى مباحث دينية ، ومحاضرات اخلاقية، وخطب منبرية ، مع توسيع دائرة الوعظ والارشاد بالطرق الفنية ، بحكم الترغيب والترهيب والنفور عن جرح الاحساسات والعواطف للذين اعتادوا التقاليد العتيقة .

7 ـ يبتعد الحزب عن الاشتغال بالمسائل السياسية التى من شأنها ان تعود على الحزب بالضرر والابطال .

8 ـ ان يكون لهذا الحزب نفس الامتيازات التى تتمتع بها الاحزاب الدينية الغير الاسلامية من المسيحيين والاسرائيليين والاروام التى تعيش تحت سلطان الجمهورية الفرنسوية .

وهذه هي الاحوال التى أرجو ان تصادف قبولا من اخواننا المحبذين لهذه الفكرة الاصلاحية الدينية .

المولود بن الصديق
الحافظى الازهرى

في المجتمع الجزائرى :

هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء (1)
فينال جائزة مالية ، مع تخليد ذكره

اننا كثيرا ما وقفنا أمام هذه المسألة موقفا يبعث على الاعتقاد بان المسؤولين من العلماء وذوى الكلمة المسموعة عن أحوال البلاد الدينية والاجتماعية بالخصوص ينتبهون بكل وسيلة الى جعل حد للخطر الداهم ، بل طالما ذهبنا الى مدى أبعد ، اذ عملنا على اقناع النفس بانهم ، ان لم يعملوا من ناحيتهم على طمر الهوة التى تفصل بيننا وبين ماضينا الزاهر أو حاضرهم السعيد فعلى الاقل ، ان يعملوا ويواصلوا السعى لكيلا يدعوا تلك الهوة واسعة سحيقة ، وان ينسجوا على منوال المسؤولين فى الامم المتحضرة فى تأسيس الجمعيات بمثل السهولة والهدو اللذين يجدهما هؤلاء المسؤولون فى أوساطهم الحية . وان يبثوا روح النشاط فى أرباب الثراء لتعزيز المشاريع المفيدة ، وان يعمل أولئك المثرين بعد ذلك من ناحيتهم على تنشيط العلماء ولو بطرق الاستهواء والاغراء المادية .

(1) مجلة الشهاب ، جزء 1 مجلد 7 ـ رمضان 1349 هـ ـ فيفرى 1931 م .

ولكثرة ما ضربنا على هذا الوتر الحساس ، على بلادنا تتأثر بذلك تأثر كثير من الشعوب به ، التى كانت تغـط غطيط من أخذ النوم بمعاقد اجفانه ، فأصبحت بعـد ذلك التأثر ما بين غمضة عين وافتتاحها من اعز الامم واقواها ، بل لعل علماءنا المفكرين على الاقل يتأثرون بذلك ، حيث انه لا محيد لهم ، سيما فى هذا العصر من التأثر وحكايـة الصدى ، فيخلقون لبلادهم وهيئتهم ما يكوّنه ويكيّفه زعيم ، ومن فرصة يخلقها مفكر .

واذا اهبنا بعلمائنا المفكرين واثريائنا الشاعرين بعظـم المسؤولية بتلك الصورة فلاننا نعلم اننا ما احلناهم الا على معلوم لهم ، بل ما اتيناهم بجديد ، وانما قصارى الامر انهم لم يتعودوا بطريقة عملية السير على المناهج التى سار عليها الناهضون فى بداية الشعور الذى أخذ ينبث فى نفوسهم ، ويكفى فى التدليل على هذا اننا ما باحثنا عالما مفكرا فى هذا الصدد ، لنقف على فكره ورأيه الا وأبدى موجبات لمّ العلماء شعثهم فى هذا الظرف بالاحرى ، وادلى بآرائه وافكـــاره المحبوكة ما يجعلنا أسارى تعليماته ودلائله التى لا تدحض بحال ، ومثل هذا الاثر هو ما يتلمسه مستطلع آراء الافراد أرباب التفكير كلما انفرد باحدهم ، لكن هذا الاثر لا يلفيه من أراد تلمسه فى مجموعهم ، ومتى ظن ان الفرصة قـــد اتاحت لاتصال الافراد بعضهم ببعض ، وتوحيد جهودهم فى سبيل العمل الاجتماعى المثمر ، وهذه القوة التى نجدها فى الفرد ولا نجدها فى المجموع هى التى تذكرنا دائما بكلمة خالدة قالها شاعر النيل حافظ ابراهيم « لم أر كالشرقيين رجالا تكمن القوة فى افرادهم ويظهر الضعف فى مجموعهم » ، ويا ليت الافـراد خرجـوا مـن هـذا التفكـير الفـردى ،

وربطوا حبل الاتصال بين بعضهم البعض ، فنفعوا وانتفعوا، وسبقوا الامة فقالوا لها ــ ان ابت الا التنكب عن نصحهم وتأييدهم ــ ما قاله الامام الاستاذ محمد عبده، «يا ويح الرجل الذى ليس له أمة » ، قبل ان تقول لهم الامة ، يا ويح الامة التى ليس لها رجل .

أجل ، وان كان هذا التفكير الفردى ، أو العمل الصامت هو ما يتطلبه الظرف الحالى لكثرة المتألبين على العاملين، فاننا نريد ان نزيح عن العقول الاسباب التى دعت الافراد الى ذلك النوع من التفكير أو العمل، وذلك، باقناع كل فرد من العلماء والمفكرين بانه لم يعد ذلك الضعيف الوديع المهين بعد تدعيمه بطائفة من العلماء والمفكرين ونفوذهم القوى ، ووحدتهم المتراصة التى لا تغالب .

ان الحوافز الى جمع العلماء شتيتهم كثيرة ، وان الوقت قد حان للوئام لمصلحة عامة وخاصة وان الواجب الآن تأكد للمبادرة لسد الثغرات التى أحدثها فى صفوفهم التشتت ، الذى لا يضم اشواكه غيرهم وغير بلادهم ، والذى ينميه الآخرون للاستثمار .

ان حرية الاجتماع والتفكير فيما يخص الاصلاح الاجتماعى الذى يتفق وتعاليم الاسلام الصحيحة وما الى ذلك لمن أجل الفوائد ، لكن تقاعس المسؤولين اضاعها كلها ، بل نجم عنه ما هو اخطر ، الا وهو ، شعور المستعدين للمجاهرة بافكارهم بالضعف والجدير اذا بالعلماء ، بل المفروض عليهم تدعيم مركزهم، وانماء قواهم، وتكوين جبهة يمكن لهم بها تشجيع ضعفاء الارادة ، واحياء ما كمن من الشجاعة الادبية فى النفوس المستعدة المجبولة على مصادمة الباطل متى ألفت وسطا كفيلا باثارة عناصر تلك القوة الكامنة الغريزية .

ان العلماء هم قادة الامة ومبعث هداها ومصدر سعادتها، وموضع احترامها وعزتها وشرفها ، وانهم لكذلك متى عرفوا تكييف تلك القوة وطرق استغلالها، لكن سرعان ما ينقلبون وبالا على الامة وعلى انفسهم وهدفا للسهام التي يرسلها مسمومة كل من تصدى للنقد ، ومضغة في أفواه العموم متى تنكبوا عن الصراط السوي ، وذلك باعمال ما لهم من نفوذ معنوي واضاعة ما في اجتماعهم من قوة أدبية عتيدة . هذه هي عناصر الفساد التي كانت وما زالت وما تزال تفت في عضدهم .

وما عليهم – ان شاءوا استرجاع ما اضاعوه من الوحدة التي خولها الاسلام واياهم – الا ان يجمعوا شملهم تحت اسم « جمعية العلماء » ، وان يعلنوا برنامجهم الاصلاحي الديني، وان يراعوا قبل كل شيء ذلك البيت الخالد الذي قاله شاعر كبير :

وحيث كنا معا نرمي الى غرض * فحبذا فاضل منا ومفضول

وان ينسجوا – اذا شاءوا ان يبرهنوا على انهم بمعزل عن الانانية وحب الرئاسة الزائقة وعن العناية بتلك الحكمة الخالدة – على المنوال الذي نسجت عليه جمعية اساتذة الكتاتيب الفرنسية ، اذ اقتصرت على تسمية الكاتب وأمين المال ، واما الرئيس فانها تعينه فقط مؤقتا متى انعقدت الجلسة ، وان يستمدوا برنامج المؤسسة من التعاليم الدينية الصحيحة ، وان تعلن به الجرائد المحلية طبق ما أعلنت به الجمعية بجلاء ووضوح ، لان العارفين الذين يعتقدون ان الوحدة الاسلامية محت كل الحواجز الجنسية وما اليها لا يقبلون تعمية كل وضوح ، وابهام كل جلاء كما انهم لا يقبلون ما وراءها من غوض أو تعصب جنسي .

والداعى الى اعادة بحث هذا الموضوع الهام ، ان أحد الفضلاء الممتازين المولعين باستطلاع أحوال الامم الناهضة والمتدلية اقترح علينا ذلك ، والتزم بدفع ألف فرنك كجائزة لمن يوفق من العلماء لتأسيس جمعية تحت اسم « جمعية العلماء »، ويضع ألف فرنك أخرى فى كيس الجمعية، بمجرد الاعلان بها والفراغ من تنقيح قانونها الاساسى ، وقد اقدم على ذلك بعد محادثة بيننا وبينه ، صادفنا ما كمن بين جوانحه من الهوى المبرح لأمته وقد سألنا فى خلالها هذا السؤال ، ما هى أسباب تأخرنا فكأنما بث بسؤاله هذا فى فكرنا روحا جديدة فقلنا له :

اننا بصفتنا أمة هى فى بداية حبوها بحثنا كما بحث كل من يهمه أمر البلاد فى اسباب تأخرنا فأسفرت جميع البحوث عن نتيجة صحيحة ، الا وهى ، ان من أقوى الاسباب تقاعس العلماء عن أداء الواجب نحو أنفسهم وأمتهم ، اما الواجب نحو أنفسهم فهو تعارفهم واجتماعهم واستثمار مواهبهم ، واحكام الرابطة الدينية التى تدعم مركزهم ، وتجعل كلمتهم مسموعة وجانبهم محترما ، وأما الواجب نحو أمتهم فهو اجماعهم دون شذوذ أحد على انهاضها بارشاداتهم ونصائحهم الغالية ، وانكم لا ترتابون بانهم قد أخلوا بالواجبين معا ، فحينئذ ، ففوضى العموم السائدة تابعة لفوضى العلماء الذين هم فى نظر العقلاء بمنزلة الرأس من الجسد والراعى من الرعية ، على أن أنجع علاج لهذا المرض الفتاك جمع كلمة العلماء المفكرين، وتأسيس جمعية منهم وتحت اشرافهم هدفها اسداء النصائح الدينية للعموم بعد تمحيصها واجماعهم عليها ، وتأديب كل من شذ عنهم ممن يمتهن مهنتهم الشريفة . وهنا انفتح ما فى جبينه من أسارير وتجعدات ، كونها التفكير

العميق فى أسباب تأخر البلاد ، فاقترح ما اقترح ، والتزم ما التزم ، طالبا اخفاء اسمه ، وافترقنا بعد ما أبدى كلانا للآخر شكره على ما اسدى واجدى .

ومع هذا كله ، لا نتكهن اذا قلنا اننا نضمن لعلمائنا النجاح والفلاح فى مهمتهم المفروض عليهم القيام بها ، وقصدنا وقصد الملتزم بدفع الجائزة بث روح التشجيع فى نفوس العلماء ، أو تحديهم ، ان أبوا الا تأويل مثل هذه التنشيطات .

الى العمل ، أيها العلماء المتنورون فها هي امتكم تنشد معونتكم ونعرتكم الدينية ، والى اللقاء أيها الموفق الى تأسيس الجمعية المنشودة فى ادارة الجمعية نفسها بحول الله .

تعليق :

نشرنا هذا البيان كما نشرته « الشهاب » رغم ما فيه من أفكار مختلطة ، وعبارات متداخلة ، وهو المقال الذى قال عنه توفيق المدنى ، بان كاتبه هو « العاصمى » ، ونحن نتساءل : لماذا لم يكتبه توفيق ؟ ولماذا لم يعمل على تصحيحه ضمن لجنته الرباعية ؟ التى كان لها فضل التفكير ، والدعوة، والتكوين ، حتى اذا تكونت الجمعية ، فر الاربعة منها ، ولم يكن فيها الا « ثري الحرب » فى لجنة خارج ادارتها ، ثم لم يلبث ان ظهر على حقيقته فتولى « منهزما » مثل بقية اعضاء لجنته الرباعية ؟ ! وتلك عاقبة المتطفلين المتطاولين ... !

الجلســة التمهيديــة

لجمعيــة العلمــاء المسلمــين (1)

على الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ذى الحجة الحرام عام 1349هـ الموافق للخامس من ماى سنة 1931 ، اجتمع بنادى الترقى بعاصمة الجزائر اثنان وسبعون من علماء القطر الجزائرى وطلبة العلم فيه اجابة لدعـــوة خاصة من لجنة تأسيسية متألفة من جماعة من فضلاء العاصمة عميدها السيد عمر اسماعيل(2)احسن الله جزاء الجميع وغرض الدعوة هو تحقيق فكرة طالما فكر فيها علماء القطر فرادى وهي تأسيس (جمعية العلماء المسلمين) وقد لبى الدعوة كتابة بالقبول والاعتذار نحو الخمسين عالما .

كان اجتماعهم بصفة جمعية عمومية لوضع القانـــون الاساسى للجمعية وعينوا للرياسة المؤقتة الشيـــخ ابا يعلى الزواوى وللكتابة الاستاذ محمد الامين العمودى ووضـــع القانون (3) وتلاه كاتب الجلسة على رؤوس الاشهاد فأقرته

(1) مجلة الشهاب ، جزء 5 مجلد 7 ـ محرم 1350 هـ ـ ماى 1931 م .

(2) هذا هو العميد اذن ؟ والكاتب هو العاصمى ؟ فما هي مهمــة توفيق المــدنى ؟!

(3) واضع القانون الاساسى اذن ، هــو الاستاذ الامين العمودى ، فأيــن ادعاء توفيق المدنى بانه هو واضع هذا القانون الاساسى ؟

الجمعية العمومية بالاجماع وانفضت الجلسة على الساعة الحادية عشرة وعلى الساعة الثانية بعد زوال ذلك اليوم أعيد الاجتماع العمومي لانتخاب الهيئة الادارية طبقا لمنطوق مادة من القانون الاساسي وحيث كان الانتخاب لا يمكن بطريقتيه السرية والعلنية لتوقفه على الترشيح ولاعتبارات أخرى لاحظتها الجمعية فقد سلكت الجمعية طريقة الاقتراح فألقي عليها اقتراح باختيار جماعة معينة ووقع الاجماع على اختيارها ، وهذه أسماؤهم،الاساتذة : عبد الحميد بن باديس محمد البشير الابراهيمي ـ الطيب العقبى ـ محمد الامين العمودى ـ مبارك الميلى ـ ابراهيم بيوض ـ المولود الحافظي مولاى بن الشريف ـ الطيب المهاجي ـ السعيد اليجرى حسن الطرابلسى ـ عبد القادر القاسمي ـ محمد الفضيل اليراتني ـ وأعلنت الجمعية لهؤلاء المشائخ ان عملهم الآن مقصور على انتخاب رئيس لهم،ونائب رئيس،وكاتب عام، ومساعد،وأمين مال،ومساعد،وان يعيدوا النظر فى القانون الاساسي ويقدموه الى الحكومة للتصديق .

وانفضت الجلسة على الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم.

وعلى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم أيضا اجتمعت الهيئة الادارية خاصة ما عدا الاستاذين بن باديس والطرابلسى الغائبين فانتخبت للرياسة الاستاذ عبد الحميد ابن باديس وللنيابة عنه الاستاذ محمد البشير الابراهيمي وللكتابة العامة الاستاذ الامين العمودى ولمساعدته الاستاذ الطيب العقبى ولامانة المال الاستاذ مبارك الميلى ـ ولمساعدته الاستاذ ابراهيم بيوض . وبقية الاساتذة المذكورين للعضوية والاستشارة وانفضّت الجلسة على الساعة التاسعة والنصف مساء وعلى الساعة الرابعة من مساء يوم الاربعاء الثامن عشر

من ذى الحجة الحرام 1349هـ الموافق للسادس ماى سنة 1931 ، عقدت الهيئة الادارية أول جلسة بنادى الترقى برياسة الاستاذ محمد البشير الابراهيمى حضرها جميع الاعضاء ما عـدا الاستاذين ابن باديس والطرابلسى واعادت النظر فى القانون الاساسى فأقرته بالاجماع وقررت ترجمته باللغة الفرنساوية وتقديمه للحكومة طالبة منها التصديق عليه .

وانفضت الجلسة على الساعة السادسة مساء .

وعلى الساعة الثامنة والنصف من صباح يـوم الخميس الموالى عقدت الهيئة الادارية جلسة برياسة الاستاذ عبد الحميد ابن باديس وعرضت عليه الاعمال السابقة فوافق عليهـا وانفضت الجسة على الساعة التاسعة صباحا .

وعلى الساعة الثالثة بعد زوال ذلك اليوم أقامت اللجنة التحضيرية حفلة شاي فى نادى الترقى دعت اليها جميـع الضيوف الذين حضروا وأعضاء الجمعية الدينية وجماعة من النواب الاهليين وهيئة ادارة النادى واعلن رئيس النجنـة التحضيرية السيد عمر اسماعيل انه استدعى جناب مديـر الامور الاهلية المستشرق السيد ميرانط فاعتذر عن الحضور.

وبعد ان غص النادى بالمدعوين من جميع الطبقات ارتجل(1) الاستاذ عبد الحميد بن باديس خطابا بدأه بشكر اللجنـة التحضيرية على ما قامت به من الاعمال وبذلته من الجهود فى هذا السبيل واثنى على السادة العلماء الذين قاموا بواجب تلبية الدعوة وثنى بشكر رجال النادى الذين فتحوا أبواب ناديهم فى وجوه العلماء وقابلوهم بكل تجلة واحترام ـ ثم

---

(1) واين ما ادعاه توفيق المدنى من انه هو الذى كتب الخطاب بطلب من عبد الحميد بن باديس ؟

عمم الشكر لجميع اعيان العاصمة على ما اظهروه من الابتهاج والعطف على مشروع العلماء وما تلطفوا به من تمهيد المثوى واكرام الوفادة وانهم خلدوا للعاصمة ذكرا مجيدا واعادوا لنا ذكرى تلمسان وبجاية وتاهرت وغيرها من واصمنا العلمية الزاهرة في التاريخ ، ثم اثنى على المستشرق السيد ميرانط بما يستحقه رجل مثله خبر الشؤون الاهلية واكسبته معارفه العربية ذوقا لطيفا به عرفنا وبه عرفناه .

ثم افاض الاستاذ في الاعتذار لنفسه على عدم حضوره في اليومين الاولين وصرح انه قد فاته بفوات ذلك خير عظيم وتأسى بواقعة ابي خيثمه واعتذاره للنبي صلى الله عليه وسلم وناشد اخوانه العلماء ان تكون لهم اسوة بالنبي صلى الله عليه وسلم في قبول عذر أبي خيثمه .

ثم تكلم على الجمعية ومقاصدها فذكر من تاريخها انها فكرة قديمة دعا اليها الكتّاب في الصحف العربية الجزائرية وتداولها المفكرون بالبحث في المحافل الخاصة والعامة وكتب فيها كتاب الشهاب عدة مقالات محتاجة الى رجل أو رجال ذوي ارادة واقدام يخرجونها من القول الى الفعل حتى قيض الله لها هؤلاء الفضلاء (أعضاء اللجنة التأسيسية ، فكان فضل العمل مدخرا لهم (1) كما كان فضل التفكير والقول لكل من فكر في الموضوع وقال) .

وذكر من مقاصدها جمع شمل هذه الطائفة المتفرقة لتتعاون على ما هي مهيأة له من نصح الامة وارشادها لما ينفعها في دينها ودنياها وان من الثمرات الباكرة لهذا الاجتماع

(1) فضل العمل يا سي توفيق ؟ وهكذا يحدد العلماء تعبيرهم ليتحدد المعنى بالضبط !! أليس هذا هو ما قلناه لك ، فانكرته علينا ؟؟ وقد أعذر من أنذر !!

تعارف ابناء هذه الاسرة النبيلة ذلك التعارف الذى طالما نشدناه فما وجدناه ـ ولقد كان امنية فى النفوس وهوى فى الضمائر فأصبح حقيقة واقعة وأمرا ملموسا ولقد كان هما معتلجا فى القلوب وخواطر مختلجة فى الصدور فأصبح اليوم صوتا جهيرا وأذانا بالحق عاليا ولقد كان موكولا الى الصدف والحظوظ والاتفاقات فأصبح اليوم ملكا فى ايدينا ـ وان من مقاصد الجمعية توكيد عرى الاخاء بين ابناء هذه الطائفة وحملهم على نبذ أسباب الشقاق واطراح دواعى التفرق بينهم ونسيان كل ما هبت به الافكار مما يدعو الى فرقة أو عصبية وليقدروا انهم خلقوا خلقا جديدا .

ثم وجه الخطاب الى العلماء وحضهم على مؤازرة الجمعية وتشهيرها وتحبيبها للعامة ليكون لها من النفع بمقدار ما يكون لها من السلطان على النفوس وانما هو سلطان كتاب الله وسنة رسوله وان يكون شعار الجمعية التواصى بالحق والتواصى بالصبر وقد اطال الاستاذ فى اسداء النصائح النافعة فليبلغ الشاهد الغائب .

وختمت الجلسة بما قام به تلاميذ المكاتب القرآنية من تلاوة آيات من الذكر الحكيم وانشاد قصائد ومقاطيع شعرية ومحاورات أدبية بأسلوب روائى وقد كان لذلك المنظر روعة ووقع وتأثير لا يأتى عليها الوصف .

عن جمعية العلماء المسلمين
نائب الرئيس

محمد البشير الابراهيمى

مجالس التذكير :

خطبتان

لصاحب المجلة

في اجتماع (العلماء المسلمين) بالعاصمة (1)

في الجزء الماضي نشرنا ـ كما نشرت الزميلات الاخرى ـ المحضر الرسمي لجلسات الجمعية وقد لخص فيه أخي الاستاذ البشير الابراهيمي الخطاب الرئيسي الذي ارتجلته أحسن تلخيص ثم رغب مني جماعة ان أنشر لهم نفس الخطاب فاعتذرت بانني لم اكتبه قبل القائه فاكتفوا بنشر ما بقي بذهني منه . فأنا انشر بغاية التحري ما كنت القيته . وهذا نص الخطبة التي القيتها في الاجتماع الاخير الذي كان حفلة شاي دعي اليها الاعيان والنواب وعدة من طبقات الناس .

الخطبة الاولى :

الحمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

باسم جمعية العلماء المسلمين افتتح هذا الاجتماع واقدم الشكر الى أهل العاصمة اجمعين الذين احسنوا وفادة الجمعية واكرموا ضيافتها فبرهنوا على انهم أهل لان تكون العاصمة

(1) مجلة الشهاب ، جزء 6 مجلد 7 ـ صفر 1350 هـ ـ جوان 1931 م .

بهم رأس القطر وقلبه . وانهم باعتنائهم بالعلم واكرامهم لعلماء احيوا لنا ذكرى عواصمنا العلمية الزاهرة في التاريخ مثل تلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بنى حماد .

ثم اقدم الشكر لرجال نادى الترقى الذين فتحوا أبواب ناديهم للجمعية وفسحوا لها مكانا رحبا فيه وجعلوه لها موئلا. فلله هذا النادى الذى هو فى العاصمة كالعاصمة فى القطر .

ثم اقدم الشكر للسادة الشيوخ الذين لبوا دعوة اللجنة المؤسسة واقبلوا من جميع جهات القطر .

ثم اشكر السيد عمر اسماعيل الساعى فى تأسيس الجمعية والعامل على تكوينها وان شكرى له شكر لجميع الذين ايدوه وآزروه من أعضاء اللجنة التأسيسية وغيرهم من رجال العاصمة .

ثم اقدم الشكر للسيد ميرانت لحسن قبوله لرئيس اللجنة المؤسسة السيد عمر اسماعيل يوم زاره ودعاه لحضور حفلتنا هذه ورياستها فاعتذر بغيابه وتلطف جنابه فطلب من السيد عمر اسماعيل ان ينوب عن جنابه فى ابلاغ اعتذاره الى الجمعية الموقرة . ولا عجب فى هذه الاخلاق العالية والآداب اللطيفة من ذلك الرجل الادارى العظيم الذى يعرف ان المسلمين الذين برهنوا على حسن سلوكهم دائما فى جميع المواطن يجب ان يعاملوا اليوم بغير ما كانوا يعاملون به أمس ـ وذلك المستشرق العالم بالعربية اذا، لا شك ان ذلك يجعل له عطفا خاصا على ابنائها .

ثم اقدم الشكر لكم أيها السادة الذين لبيتم الدعوة وشرفتم الجمع ثم اعرفكم بما تمّ من أعمال الجمعية فى جلساتها هذه الثلاثة الايام فقد عرضت القانون الاساسى على

الاعضاء الحاضرين كلهم فأقروه وعينت مجلس الادارة على الصورة الآتية :

الاستاذ : عبد الحميد بن باديس	رئيس
الاستاذ : محمد البشير الابراهيمي	نائبه
الاستاذ : محمد الامين العمودى	كاتب
الاستاذ : الطيب العقبى	معاونه
الاستاذ : مبارك الميلى	أمين مال
الاستاذ : ابراهيم بيوض	معاونه
الاستاذ : المولود الحافظى	مستشار
الاستاذ : مولاى ابن الشريف	مستشار
الاستاذ : الطيب المهاجى	مستشار
الاستاذ : السعيد اليجرى	مستشار
الاستاذ : حسن الطرابلسى	مستشار
الاستاذ : عبد القادر القاسمى	مستشار
الاستاذ : محمد الفضيل اليراتنى	مستشار

كل أعضاء الجمعية في العضوية وفي حق الاشراف والمناقشة سواء وانما عين هؤلاء الشيوخ ليتحملوا مسؤولية الادارة .

ولما كان أعضاء مجلس الادارة من جهات متفرقة والعمل بالمركز بالعاصمة لابد ان يكون له من يباشره باستمرار لزم تعيين لجنة للعمل دائمة تكون من سكان العاصمة أو ضاحيتها فعينت على هذه الصورة :

السيد : عمر اسماعيل	رئيس
السيد : محمد المهدى	كاتب
السيد : آيت سى أحمد عبد العزيز	أمين مال
السيد : محمد الزمرلى	عضـــو
السيد : الحاج عمر العنق	عضـــو

اما غايـــة الجمعية فهى اصـــلاح الفاسد وتقويم المعـــوج وارشاد الضال بالهداية والحكمة فى دائرة المحبـــة والوئام ، واصلاح شؤون أهل العلم ولمّ شعثهم وتنظيم هدايتهم ، فهى تسعى في ازالة كل شر يحرمه الشرع والقانون مما هو منتشر فينا ويضيق المقام عن تعداده ونشر كل نفع وخير .

هنا قد انتهيت من بيان ما يجب ان يعرف عن الجمعية ، ثم أوجه الآن خطابى لاخوانى من طلبة العلم :

أيها السادة لقد انجزتم أمرا عظيما وأسستم مستقبلا عظيما ولقد جئتم من انحاء القطر ملبين داعى الاجتماع ناسين كل أسباب الافتراق فبرهنتم على ان علماء الجزائر متصفون بما يجب ان يتصف به العالم الحقيقي الذى صار العلم لـــه صفة روحية وحياة قلبية من سعة الصدر والتسامح ونسيان الفكر الخاص أمام الصالح العام . ان ما أسسناه يكفى فيه اجتماعنا هذا فعلينا ان نوالى الاجتماع مهما دعينا اليه وعلى كل واحد مـــنا ان يكون داعية للجمعية بقوله وعمله وان يكون ممثـــلا لفكرتها في الاتفاق والتآخى ونشر الخير وان يطرح كل واحد منا فكره الخاص عندما تجيء مصلحة الجمعية . حسبنا ما مضى كفى ما تقاتلنا على الكلمات،فكلمة (فرق) قد ماتت من بيننا وما بقي الا العمل على الوفاق والوئام لنبلغ غاية المرام .

اخواني انني قد تخلفت عن جمعكم العظيم اليـوم الاول والثاني فحرمت خـيرا كثـيرا وتحملت اثما كبـيرا ولعلكم تعذروني لـما لحقت في اليوم الثالث . واذكـر [illegible]تكم ما تعلمونه من قصة أبي خيثمه الانصاري ، لما تخلف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك ثم لحقه فقال الناس هذا راكب يرفعه الآل ويضعه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كـن أبا خيثمة ! ثم أقبل أبو خيثمة واعتـذر فقبـل عـذره ودعا لـه بخـير . ومثلكم مـن كان لـه في رسول الله (ص) القدوة الحسنة . ثم اعتذر لكم عن زميـلي وصديقي الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي مدير النجاح فانه ما تخلف الا لعذر علمت انه لا فسحة فيه .

والآن أيها الاساتذة نحمد اللـه الذي يسر لنا هذا الجمع المبارك ونسأله تعالى كما اذاقنا حلاوة هذا النعيم ان يديمه لنا به.والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ثم عقدنا اجتماعا بعد تمام الاحتفال من خصوص أعضاء مجلس الادارة ولجنـة العمل الدائمة فالقيت عليهـم هـذا الخطـاب :

الخطبـة الثانيـة :

الحمد للـه ، والصلاة والسلام على رسول اللـه ، وآلـه وصحبه ومن والاه . اخواني انني ما كنت أعد نفسي أهـلا للرياسة لو كنت حاضرا يوم الاجتماع الاول فكيف تخطر لي بالبال وانا غائب لكنكم بتواضعكم وسلامة صدوركم وسمو انظاركم جئتم بخـلاف اعتقادي في الامريـن فانتخبتموني للرياسة وانا غائب ، اخواني انني كنت اعـد نفسي ملـكا للجزائر اما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى،فالله اسأل

ان يقدرني على القيام بالحق الواجب ، اخواني انني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي وانما أردتم ان تشيروا بانتخابي الى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا : **الاول** انني قصرت وقتي على التعليم فلا شغل لي سواه فاردتم ان ترمزوا بانتخابي الى تكريم التعليم اظهارا لمقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثا لجميع الاعضاء على العناية به كل بجهده ، **الثاني** ان هذا العبد له فكرة معروفة وهو لن يحيد عنها ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن ، فمن قبلها فهو أخ في الله ومن ردها فهو أخ في الله،فالاخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد،فاردتم ان ترمزوا بانتخابي الى هذا الاصل : وهو ان الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الاخوة في الامر العام. فماذا تقولون أيها الاخوان ؟ (فأجابوا كلهم بالوفاق والاستحسان).وقال أخي الاستاذ العقبي اما الوصف الاول فاني اسلمه للاخ الرئيس،واما الوصف الثاني فهو لنا كلنا نقول أفكارنا مع المحافظة على الاخوة والوداد . فقلت : بكلمة الاستاذ العقبي كان الختم الرسمي على هذا الكلام . ثم رفعت الاكف للدعاء والابتهال للكبير المتعال .

حقق الله الآمال وسدد الاقوال والاعمال آمين .

هذا ما بقي بذهني مما قلته وقد ندت جمل عن الذاكرة لطول العهد .

في مأدبة نادي الترقي لجمعية العلماء (1)

خطاب الشيخ الابراهيمي في المأدبة

تعليـق الشهـاب :

طلبنا من الاخ البشـير الابراهيمي ان يلخص لنا خطبته التي ارتجلها في المأدبة التي اعدتها ادارة نادي الترقي العامر لمجلس ادارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد انفضاض الاجتماع العام ، فكتب لنا ما وعته ذاكرته منها ، وها نحن ننشرها على قراء الشهاب تخليدا لها وحرصا على جمع أكثر ما قيل في هذا الاجتماع ، وهذا نص ما كتب :

الخطـاب :

أيها الاخوة الكرام ،

ان هذه الامة الجزائرية أمة واحدة ولا كلام ، ربها اللـه وامامها القـرآن ونبيها محمـد ولغتـها العـربية ودينـها

(1) اقامت جمعية نادي الترقي مأدبة عشاء تكريما لاعضاء جمعية العلماء منذ نشأتها الاولى ، حضرها كل المدعوين للتأسيس ، وكل المناصرين لها .
وفي هذه المـأدبة ، ألقيت كثـير مـن الخطب والقصائد ومنها خطاب الاستاذ عبد الحميد بن باديس ، وخطاب الاستاذ محمد البشير الابراهيمي (مرتجلين) والقصيد الرائع لشاعر الجزائر الكبير محمد العيد آل خليفة ، ومطلعـه :

علـى الرحـب حلـوا أجمعين عـلى الرحـب
فانتـم ضيوف في حمـى اللـه والشعـب !!

ونشر كل ذلك في حينه بمجلة الشهاب .

الاسلام (2) ، وانها تحمل ما تحمله الامم من المقومات الكلية ، وان كانت لا تحمل ما تحمله الامم من المؤهلات للحياة . وقد أخذت تشعر بنقائصها الاجتماعية وأخذت تتلمس سبل الهداية لسد تلك النقائص ، وتجلى هذا الشعور فى رغبتها الصادقة فى التعارف والاجتماع – ومن الشواهد التى لا تنكر ، والبينات التى لا يكابر فيها على هاتين الرغبتين ، ما رأيتموه باعينكم فى هذا النادى من اجتماع علماء الامة ومتعلميها ومؤيدى العلم فيها ، وما سمعتموه بآذانكم من الصرخات الداوية في رحاب هذا النادى .

أيها الاخوة ،

ان اخوف ما نخافه على هذه الامة – وهى فى الخطوة الاولى من نهضتها – ان تتشابه عليها السبل ويضيع صوابها بين تفاؤل المتفائلين وتشاؤم المتشائمين – وان تكبو فى غبار هذه المشادات القائمة وفى ميدان الانظار المختلفة فى أي الطرق هى أقرب للغاية وامكن منها وأشد ملاءمة لروح الامة.

ان اختلاف الانظار فى أوائل نهضات الامم ضروري وطبيعي ، ولكنه قد يطغى فيه غير المعقول على المعقول فيكون ذلك عائقا للسير ومطيلا للمدة وقطعا عن التقدم ، ومميتا للشعور .

أيها الاخوة ،

ان المهمة التى تقوم جمعية العلماء بادائها – وهى السير بهذه الامة الى الحياة من طريق العلم والدين – هى أقوم الطرق

(2) ومن هذا – وغيره كثير – نتبين ان الشعار الذى نهبه الاستاذ توفيق المدنى وادعاه لنفسه ، ووضعه مع عناوين كتبه ، وبثه بين ثنايا سطورها ، وهو : الاسلام ديننا ، العربية لغتنا ، الجزائر وطننا ... ليس هو من ابتكاراته واختراعاته ، وانما هو من صنع هؤلاء الرواد الاوائل من كبار أعضاء الجمعية ومؤسسيها .

وأمثلها واوفقها لمزاج الامة ، وسيأتى يوم توضع فيه الموازين القسط للعاملين ، وستتبين الامــة الاوفياء مــن الغادرين ، والنصحاء من الغاشين ، وستجزى هداتها تكرمة وذكرا في الآخــرين .

أيــها الاخــوة ،

أنا لا اعتد من هذه الامة بملايينها الستة وهي على الحالة التى نراها عليها من التفكك والتخاذل وضعف البصائر فى دينها ودنياها ، ولا اعتد من عناصر الحياة فيها الا بهذا العنصر الذى بدأ يتكون حول عقيدة واحدة ومبدإ واحد ، معتصما بالحــق متسلحا بالصبر والثبات متدرعا بالفضيلة عالمــا ان الحياة فى الدنيا للعاملين ، وان العاقبة فى الآخرة للمتقين ، وان سنة الله كفيلة بذوبان العنــاصر الضعيفــة كلهــا ، وسيغتالها الجهل العقلى لانها لم تعلــم ، وسيغتالها الجــوع البدنى لانها لم تعمل ، فلا يبقى الا هذا العنصر المستعــــد للبقـــاء .

فعلى العاملين من قادة هذه الامة وهداتها ان يتعهدوا هذا العنصر الناشئ بالعناية وان يحوطوه بالرعاية وان يأخذوا بيده الى الكمال الذى استعد له ، فلا يمضى زمن حتى تتكون لنا أمة صحيحة العقل ، صحيحة التفكير ، صحيحة الابدان ، صحيحة الاخلاق .

تلك هى الامة التى نرجوها ونعلق عليها الآمال ، تلك هي الامة التى تمحو سيئاتنا بحسناتها ، ونتكل عليها ان تثأر لنا من الزمان ، وان الاتكال على الضعيف ضعف ، وان الاتكال على القوي قوة ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

تعريب ترجمة عرض حال الديانة الاسلامية
الذى قدمــه السيد (بن الموهوب) المفتى بقسنطينة
الى لجنة الاصلاحات الاهلية
اثناء شهــر جويليــة 1934 (1)

مجلــة الشهــاب :
جــزء 12 مجلد 10 بتاريخ 9 نوفمبر 1934

النص الكامل للتقرير :

كلفتنى لجنه الاصلاحات الاهلية التى انشأها السيد الوالى العام للقطر الجزائرى ان أعرض فى تقرير جامع ، الاصلاحات والتغيرات التى مــن المستطاع مباشرتها فيما يتعلق بتنظيم الجمعيات الدينية الاسلامية و بتعيين من يقوم بشؤون المساجد وان أشير بعــد السعى فى الكشف عن سائــر العيوب الى ما يذهب بها و يزيلها .

الايمان أمر مقدس ، والامم تحترم الدين غاية الاحترام وتسمح بتأدية ما سنه وفرضه بالرغم عــن كونها لا دينية ،

(1) انظر تعليقنا على هذا التقرير فى قسم (حقائق واوهام) من هذا الكتاب

فان حكومة الجمهورية الفرنسوية تعتنى بذلك الى حد حملها على القيام نحو رعاياها المسلمة بواجب المحافظة التامة على عقائدها واخلاقها وعوائدها حتى فيما يخص الحياة المدنية ، وهذا التسامح الاحسانى قد رفعت شأنه الى درجة القانون فليس فى مقدورنا ان نقول لها كم هي أهل لاجمل شكرنا ؟ وكم هى عميقة محبتنا لها (!!) .

لقد لقيت دائما أصواتنا صداها فى قلوب رجال الجمهورية العظام وطلباتنا أحسن قبول من طرف أبناء فرنسا الاحرار المنصفين واليوم نرفع نداءنا لفخامة الوالى العام راغبين منه ان يساعدنا على العمل الذى تناولناه بجهوده الثمينة ، وان يضيف الى مساعينا تلك المساعى الجليلة التى قام بها كلما اقتضت الظروف تحسين حالة الاهالى ، فنقدم له راجين منه مشاطرة امانينا بضعة اقتراحات بدت لنا لياقتها بتنظيم الجمعيات الدينية وقد اختصرنا مضمنها كما يلى :

الفصل الاول :

لا يسوغ للجمعية ان تتعدى الى حقوق غير التى تمنحها اياها الحكومة ولعل هذا النهي يجعلها بعيدة عن نقد كل شانيء ويزداد بها اعضاؤها مكانة واحتراما .

الفصل الثاني :

تؤسس بكل عاصمة عمالية جمعية تدير وحدها بالمدينة (حيث مركزها) وبالعمالة شؤون الدين وأموره .

الفصل الثالث :

كل جمعية تكون مؤلفة من سبعة أعضاء ، الكاتب العام المكلف بالشؤون الاهلية ، وقاضى العاصمة ، ومدرسين ،

واماميں ، وان اقتضت الحاجـة أعضاء آخرين فانهم يعينون زيادة على الاولين .

الفصـل الـرابع :

بعد تأسيس الجمعية ـ حسب النمط الآنف الذكر تعترف الحكومة بوجودها رسميا وتعضدها عند اولى الامر الذين هم ينيطونهـا بسـائـر فصـول التصريـف فى ـ مسـاجـد الدولة ـ (1) (..!؟) .

الفصـل الخـامس :

يجب قبل كل شيء على ذوى الوظائف الدينية توفر شروط خلقية وكل ترشيح للامتحانات الدينية يقع قبله بحث مخزنى فتبحث دار العمالة حـول طلب المترشح ولها ان تقبلـه أو ترفضه (2) .

اما الامتحانات الواقعة على يـد الجمعية فانها واجبة على كل طالب كائنا من كان .

فتكون حسب الرتب المطابقة لها ، وعلى كل حال مركبة من كتابة ومشافهة .

الفصـل السادس :

ينبغي ان يكون ترتيب درجات الفائزين مناسبا لما يبدونه من المقدرة ، ومثل هذا الترتيب مقرون بحق الافضلية فى التسمية ، لا تنعقد لاجـل الامتحان جلسات اعتيادية ، بـل

---

(1) هكذا يقول (ملاكك) يا سيد تـوفيق ، فيضع مكان قوله تـعالى : « **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ** » قوله هو : (مساجد الدولة) !!

(2) التزكية فى نظر (ملاكك) يا سيد توفيق ، لا تكون بالاهلية العلمية والخلقية ، وانما هى بـ « الدوسى البوليسى » !!

لا يستطاع افتتاحها قبل ان تنفد جريدة الفائزين المرتبين ، هذا وانه يجب مع ذلك وجود وظائف شاغرة .

الفصــل السابــع :

اجتنابا لما يلحق المترشحين للوظائف الدينية من مصاريف وانتقالات متتابعة فان الفائزين فوق العدد اللازم لا يفقدون ما ستمدهم به شهاداتهم ، الامر الذى يمتاز بكونه لا يوهن العزائم ولا يردها عــن السعي فى التحصيل عــلى مثل تلك الوظائف .

الفصــل الثامــن :

لا يسوغ لأى موظف دينى ان يرغب فى نيابة سياسية أو يتداخل فى المسائل السياسية أو يبذل جهدا مّا ، سواء بنفسه أو بواسطة غــيره فى المعارك الانتخابية أو يعمل لفــوز أي مترشح ولو كان من ذويه ، كما انه ممنوع على كل رجل من الساسة والشخصيات البارزة استعمال مــا لــه مــن المكانة والسلطان ليجبر الموظف الدينى على الانتصار بفكرته وآرائه ومن خالف ذلك من أعضائها فللجمعية ان تجري عليه العقوبة التى استحقها .

الفصــل التاســع :

حفظا للنظام واجتنابا لكل حادث من شأنه ان يمس بحرية الدين فان أعضاء الجمعية الدينية ، الائمــة بنــوع عــام ، والمفتيين خاصة ، لهم ان يتفقدوا سير الامور الدينية بالمساجد واعمال المكلفين بذلك ، فيستطيعون اسناد ما لهم من التصريف الى من يعينهم رئيسهم ، وعليه لا يسوغ لغيرهم ان يعظ ، أو يؤسس درسا ، أو يلقي خطابا بأي وجه كان اللهم الا اذا كان بيده اذن خصوصى من طرف اولي الامر ، وعند الحاجة يجب

على الحكومة ان تتلقى من المفتي رأيه بعد اطلاعه على موضوع الخطاب أو الدرس المأذون بـه كما ينبغي لها ان تتمكن من موافقة عضوين على الاقل من الجمعية (؟) (1)

الفصل العاشر :

ان القرآن عند المسلم والمسلمة أثمن من روحهما ، فيتعلمه أولاد المسلمين بالمدن والبادية تحت نظر الحكومة الجمهورية كما في الماضى ومنذ الاحتلال .

اما أنا فاني من بين المسلمين الذين يعتقدون ان رجال الجمهورية كرجال الماضى وكرجال المستقبل ، لا يفكرون أصلا ان يحرموا أمة عظيمة مخلصة من تعلم لغتها وأحكام الكتاب العزيز ينبوع ديانتها وآدابها ومعلوماتها الحديثة ، ذلك الكتاب الذى انزل الى رسولها وقد سرى سره الى أعماق روحها وذهنها ، فإنا كأهل الكتاب من اليهود والمسلمين وتحت ظل اللواء الفرنسى ، نتمتع بحرية تامة من تلك الناحية .

ان التعليم لمن الواجبات التى يقام بها نحو الحرية الدينية ورجال الجمهورية يستاؤون لكل فعل ماس بها وحسبنا ما اخبرنا به التاريخ اذ قال عن الشهم (مكماهون) انه نازل بحدة وغيرة سائحا حاول اثناء ايام بؤس شديد بعث كثير من يتامى المسلمين على اعتناق دين المسيح ، فصده عن القيام بما يعاكس مبادىء السياسة الاستعمارية الفرنسية .

اما نحن أهل الحكمة والتمييز من بين المسلمين فانا نعترف بان رؤساء الحكومة ما فتئوا يتبعون ذلك الخط السياسى

(1) وفى هذا اصرار على الاثم من السيد (الملاك) . فبعد ان عمل على منع عبد الحميد بن باديس من التدريس بالجامع الكبير سنة 1924 ، كتب هذه المريضة وهو يظن انها تؤبد له « منصب المفتى » الذى انتقل منه وبه الى الله ، حيث لا ينفع جاه ولا منصب . فهل هذا ملاك يا سيد توفيق ؟

ويقفون اثر مكماهون . اذن فلا سبيل الى اتهامهم بما عسى ان يتعاطاه فى هذا الوطن أي شخص من الاشخاص .

الفصل الحادي عشر :

ان الازمة الاقتصادية ومطالب الادارات المغرمية وأصحاب الديون مع غلاء المعيشة لمن النائبات والظروف الضارة بجميع الناس ، غير ان اصابتها المسكين والمستخدم الضعيف كالحزاب والمؤذن والبواب ، أشـد مـن اصابتها غيرهم ، ولكن رأفـة الحكومة ولطفها بهم يحملاننا على ان نطلب لهم زيادة المرتب على الاطلاق وايلائهم مثل المفتيين والائمة حـق الانفاق على العائلة ، تلك مساواة تؤتى (مساعدى الحكومة) شيئا من الخير والسعة فيحيوا بفضلها حياة شريفة .

اذكر فى هذا الفصل ما كنت القيته على مسامع سمو السيد (ڤاسطون دوميرڤ) رئيس الوزراء المالى ورئيس الجمهورية سابقا اثناء محادثتى معه فى سابع ماي سنة 1930 نص ذلك :

سيدى رئيس الجمهورية :

أتشرف بان أقـدم لـكم بالنيابة عـن أصحاب الوظائف الدينية تحياتى الاحترامية ، فهذه عواطف املاها علي الدين الاسلامى الذى فرض على معتنقيه الانقياد لكل حكومة تحترم عقائدهم وعوائدهم واخلاقهم وتعمل بما امكنها من الجهود لتهذيبهم بالتربية والتعليم فاشهـد ان الحكـومة الفرنسوية قائمة غاية القيام بتلك المأمورية ومن هذه الوجهة يجب على المسلمين ان يمدوها بما يستطيعون من اعانة ومساعدة كما اشهد ان فرنسا منذ احتلالها الوطن أي منذ قـرن لم تقصر فيما التزمت به فلذلك استطيرت الامة المسلمة فرحا وسرورا لما زارها أول موظفى الجمهورية بمناسبة الاحتفال المئوى (؟)

مائة سنة استيلاء ! مائة سنة جهودا مثمرة ! (؟)

اليس فى ذلك دليلا حاسما لكل مراء على ان الحكومة الفرنسية تغذى أكرم العواطف نحو المسلمين الذين هم يعتبرون أنفسهم من جملة أبناء أم الوطن ؟

هذا وان مسلمي الجزائر رغبة فى المثابرة والاستمرار على العمل السعيد المشروع فيه يتشوق بكل سرور السعي فى زيادة المدارس الفرنسوية والعربية والمدارس الصناعية وتأسيس التعليم الاجباري وتجديد نظام المدارس (الفرنسوية العربية) وزيادة عدد « البورسات » وتحسين حالة أهل الشرع الاسلامى واعانة واسعة للديانة الاسلامية التى هى تحت سلطان الحكومة الفرنسية تلك امانى التى اتشرف بعرضها عليكم .

لتحيى فرنسا !

لتحيى الجزائر الفرنسية (!!) .

(ابن الموهوب)

تعليق : وترك التعليق على « الملاك » تعليق شديد اللهجة على صاحبه (توفيق) ؟!

حول كلمتنا الصريحة

لقد احدثت الكلمة الصريحة التى نشرناها بالعدد الاسبق من الشهاب اثرها المطلوب ، وكان لها الدوي العظيم الذى كنا نتوقعه لها . فتلك كانت أول مرة فيما نعلم ، جوبهت فيها الحكومة وجوبه فيها رجال السياسة بحقيقة ناصعة ، هى عين الحقيقة التى تعتقدها الامة ، وفيها بيان لعواطف واحساس وشعور الاغلبية المطلقة من سكان هذا الوطن الجزائرى .

فاما الذين طهرت سريرتهم وخلصت نيتهم فقد حبذوا خطتنا وشكروا لنا صراحتنا ، وحمدوا لنا هذا الموقف الذى وقفناه ضد محاولات التجنيس الخائبة ، ومحاولات هدم القومية واللغة والدين المجرمة ، اذ بينا فى جلاء ووضوح اننا مع احترامنا للسلطة الفرنسية ، واطاعتنا لقوانين الجمهورية ، نريد ونستطيع ان نحافظ على ذاتيتنا الخاصة ، وما فيها من مميزات اللغة والدين والاخلاق والثقافة ولا نريد بأي حال من الاحوال ولا نستطيع ان ننسلخ طوعا واختيارا أو كرها وجبرا على تلك الذاتية ، وما فيها من مميزات ، وما لها من حقوق .

(1) نشرت بمجلة الشهاب ، جزء 3 مجلد 12 ـ صفر 1355 هـ ماى 1936 م

واما الذين فى قلوبهم مرض ، والذين نسوا الله فأنساهم انفسهم ، وانكروا ما لهذه الامة من مجد ، وما لها من تاريخ ، وما لها من روابط تجعل منها أمة متحدة متجانسة ، لها من الاتحاد والتجانس ما لاكثر الامم تجانسا فى كل بلاد الارض ، فأولئك قوم فزعوا من مقالنا كما تفزع الخفافيش عندما ينبثق نور الفجر ! ومنهم من انتقد ومنهم من رد . ومنهم من افحش واقذع ، وان الى الامة التى انكروها أيابهم ، وان عليها مهما تجاهلوها حسابهم !!.

ان كلمتنا الصريحة قد وضعت الكثير من الرجال على المحك . فمنهم من ظهرت نفسه من در مكنون ، ومنهم من انطوت جوانبه على حمإ مسنون .

وانا لنشهد ان من اكمل الرجال الذين رأينا فيهم لهذه المناسبة ، الهمة العالية ، وشرف النفس ، وطهارة الضمير ، الاستاذ فرحات عباس الصيدلى ، والعضو البلدى والعمالى بسطيف .

كان هذا الرجل الابي من أهدافنا فى مقالنا « كلمة صريحة » وهو الذى اخذناه عن مقاله « فرنسا هى أنا » وقلنا له ولمن معه أنكم عندما تسعون لسياسة الاندماج ، وتحبذون التجنيس ، وترضون ضياع حقوقنا الاسلامية مقابل حق الانتخاب ، وتريدون خلافا للطبيعة ــ ان يصير جمهور المسلمين بهذه البلاد جمهورا فرنسيا بحتا ، لا يختلف عن الجماهير الفرنسية فى شىء انكم عندما تسعون وتحبذون هذا لا تمثلوننا ولا تتكلمون باسمنا . وانكم فى واد والامة فى واد آخر .

فالسيد فرحات عباس ، لم يتألم ولم يتكدر . وسلك مسلك كبار رجال السياسة الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة

الحــق ، فزار ادارة الشهاب ، وأكــد لها تقديره لجهودها ، وجرت له مع صاحب الشهاب محادثة دلت على سمو أدبه وعلو كعبه فى عالم السياسة والتفكير .

ثــم نشر مقالا فى جريدة « لاديفانس » الصادقة الثابتة الجسورة يبين فيه نظريته ، ويشرح فيه فكــرته الاجتماعية التى بنى عليها سلوكه السياسى وسيجد قراؤنا تعريب هــذا المقال اثر فصلنا هذا .

☆ ☆

ولقــد تولــت بعض الدوائر مهاجمتنا ، مستترة وراء جريدة النجاح ووراء ورقة تدعى «صدى الصحافة الاسلامية» ولقد كنا ننتظر مــن تلك الدوائر التى هاجمتنا ، مناقشــة هادئة تتناسب مع وقارها ، وكنا ننتظر منها نضالا بأسلحة حادة لكن خاب أملنا فى الامرين ، فالمناقشة كانت صبيانية الشكل والموضوع ، والاسلحة كانت عتيقــة مفلولــة ابلتها كثرة الاستعمال .

☆ ☆

فاما السلاح الذى استعمل ضدنا فى النجاح ، فهو أسئلة وضعها رجل كبير ، وامضاها رجل صغير ، وقد حسب الذين قدموا لنا هذه الاسئلة انهم يحرجوننا بوضع البحث فـــوق ميدان الاستقلال كاننا قد رفعنا علم العصيان، ونادينا بفصل الجزائر عن فرنسا من الآن (؟!) .

فهو يسألنا أولا : متى كانت حدود الجزائر عــلى ما هي عليه الآن ؟ واننا نجيبه : لنفرض ان حدود الجزائر لم ترسم على صفتها الحالية شرقا وغربا الا منذ نحو مائة عام ، فهل له ان يجيبنا متى كانت حدود فرنسا وألمانيا وايطاليا والنمسا

والمجر ورومانيا ويوغوسلافيا واليونان وبلغاريا كما هي الآن ؟ وهل لم تتغير المرات العديدة خلال هذه المائة عام ؟

ثم يسألنا : متى كانت بلاد الجزائر مستقلة ؟ ونحن نقول له : ان ضربنا صفحا عن الدول الاسلامية المستقلة التى نشأت وازدهرت بالقطر الجزائرى ، وسلمنا بان القطر الجزائرى بصفته الحالية لم يكن مستقلا فى وقت من الاوقات ، فهل لحضرة السائل ان يجيبنا : متى كانت دولة تشيكوسلوفاكيا مستقلة ؟ والى أي عهد يرجع استقلالها ؟

ويسألنا أخيرا ، ما هى وحدة اللغة التى تكلمنا عنها فى كلمتنا الصريحة ؟ فهل هى اللغة العربية ، والحال ليس كذلك. كما يقول ، أم ماذا ؟ فهل نستطيع ان نجيبه بان لغة هذا الوطن ليست عربية بدليل ان جريدة النجاح تنشر بلغة الصين ، وان الجريدة الرسمية الحكومية تنشر الى جانب نسختها الفرنسية نسخة بلغة النبط والكلدانيين ؟ أم نقول له ان الواقع يثبت بانه لا يوجد فى أرض الجزائر الا واحد فى المائة فقط من السكان المسلمين لا يتكلم العربية . ثم نسأله : هل لا توجد فى فرنسا الى جانب اللغة الرسمية الفرنسية ، لغات أخرى ذات آداب ولها صحف سيارة ويتكلمها الملايين من الناس ، وخاصة بالالزاس ، وبجهات الفلاندر ، وببلاد ابروتانيا التى يقوم أهلها بحملة تكاد تكون ثورية لاجبار الحكومة على تعليم لغتها بالمدارس ، وببلاد البروفانس وضواحى مرسيليا ، وبجزيرة كورسكا ؟

وهل توجد وحدة اللغة ، كما توجد بالقطر الجزائرى ، فى رومانيا ، ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، ان لم نتكلم الا عن هذه البلاد ؟

☆ ☆

واما السلاح الذى استعمل ضدنا بصدى الصحافة الاهلية، والذى خرج من معمل جريدة « الهك » القديمة وكتب باقلام محرريها ، ونحن لا نشرفهم بذكر اسمهم ، احتقارا لا جهلا ، فهو ذلك الشتم البذىء الرقيع سلاح الاسافـــل العاجزين فصاحب الشهاب عند أولئك السادة : احمق. مجنون . أخرق . جاهل غبى . مجرم . وهو: بوحمارة الخارجى الذى أثـــار افريقيا قصد تأسيس دولة فوق الخرائب ، ولم يتورع الكاتب ــ شلت يمينه ــ عن نبش قبر عبد المؤمن بن علي قدس الله روحه ، لتبشيع سياسته والحط بكرامته .

ثم يصف ذلك الكاتب الامة الجزائرية بكل أوصاف الجهل والفوضى ، والتهديم والتخريب ، حتى ليكاد الانسان يعتقد ان ذلك الرجل الذى استؤجر لينال منا ، انما استؤجر لكي يقول للناس فى العالم أجمع : انظروا كيف اصبحت حالـة المسلمين الجزائريين بعد ان حكمت فرنسا بلادهم نيفا ومائة من السنين !

لو كنا نستطيع ان ننحط الى تلك الدركة السافلـــة ، ونجارى أولئك المحررين فى أسلوبهم لقلنا لهم انهم أنذال ، سفهاء ، ليس لهم ضمير ، ولا يعرفون شهامة ولا كرامة ، لكننا لا نقول لهم هذا ، ولا نوجه لهم مثل هذا الكلام ، فلنا من آدابنا الاسلامية ، ولنا من شهامتنا العربية ما يمنعنا عن الانغماس فى مستنقعهم النتن .

فدعهم ، هم والذين يملون عليهم تلك السخافات الرقيعة، يقفون أمام الرأى انعام بهذه البلاد ، ولننظر كيف يكون حكمه عليهم قاسيا أليما .

☆ ☆

اننا أكدنا فى « الكلمة الصريحة » رغبتنا فى الاحتفاظ بكياننا العربى الاسلامى ، فوق أرض هي لآبائنا واجدادنا ، مع احترامنا التام للسلطة وخضوعنا لقوانين البلاد .

لكن خصومنا ، كما قلنا آنفا . أرادوا ان يفهموا من كلامنا اننا نريد الاستقلال ورأوا انهم يحرجوننا اذا وضعوا البحث على بساط الاستقلال . حتى اذا زل بنا القدم فوق هــذا البساط الاملس استنزلوا علينا نقمة الحكومة وطلبوا ان نعامل معاملة الثائرين المهيجين ، وان نذهب ضحية قوانين (رونى) وما سبقها .

لكن خابت آمالهم فنحن قوم لا نتأخر عن الخوض فى مثــل هذه الميادين وانهم لا يزعجوننا ان جرونا للبحث فى مسألة الاستقلال .

ان الاستقلال حق طبيعى لكل أمة من أمم الدنيا ، وقد استقلت أمم كانت دوننا فى القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون ان حالة الجزائر الحاضرة ستدوم الى الابد فكما تقلبت الجزائر مــع التاريخ فمن الممكن انها تزداد تقلبا مع التاريخ ، وليس من العسير بل انه من الممكن ان يأتى يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادى والادبي وتتغــير فيــه السياســة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة ، وتسلك فرنسا مــع الجزائر مسلك انكلترا مع استراليا وكندا واتحاد جنــوب افريقيا ، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا . تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر .

هذا هو الاستقلال الذى نتصوره لا الاستقلال الذى يتصـوره خصومنا المجرمون . استقلال النــار والدماء ــ وهــذا هــو

الاستقلال الذى نستطيع ان نحرز عليه مع الوقت ، وباعانة فرنسا وبارادتها . واننا لا نخشاه ولا نخشى البحث فيه .

(انتهى النص)

☆ ☆

تعليقنـــــا :

فهل بعد هذا البيان بيان ؟ وهل يصر الاستاذ توفيق المدنى بعد هـــذا البيان ، على انه هو الذى كتب «الكلمة الصريحة» وتوابعها ؟ بعد هذا التفصيل الذى كتبه الامام ابن باديس بأسلوبه المعروف جدا ، وبطريقته الصريحـة الشجاعة ، لاسيما وهو يذكر فيه زيارة الاستاذ فرحات عبـاس الى ادارة مجلة الشهاب واعتذاره له عما سبق ان نشره ، واعلانه الرجوع الى الحق ؟

ولو ان الاستاذ توفيق ، يقف اليوم هذا الموقف الصريح الشجاع فيعترف بالخطأ ويتوب من الذنب ـ والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ـ فاننا سنكون أول من يهنئه على شرف الموقف وعلى سلامة الاوبة الى الحـق .

والا ، فنحن ماضون فى تفنيد مزاعمه وادعاءاته ، وفى الكشـف عـن تحريفاته وتزييفاته ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمـين .

وبالمنـــاسبة :

فى محاضرة ألقاها السيد «عبد الله بن طوبال» يوم الاحد 31 جـــانفى المنصرم بالجزائر العاصمة، ذكر انه ـ شخصيا ـ لم يعرف ان «جمعية العلماء» لها منظور «الاستقلال» فى اعمالها واهدافها ، سواء فى عهد رئاسة الشيـخ ابن باديس لها ، أو فى عهد رئاسة الشيخ الابراهـيمى .

وبما انى آليت على نفسى ان أرد على محاضرة السيد «بن طوبال» بمحاضرة مثلها ـ ان أنسأ الله فى الاجل ـ فانى أحيله ، وأحيل الذين صفقـوا لـه ـ وهم قليلون جدا ـ على هذا المقال ، وعلى غيره من مقالات هذا الكـتاب ووثائقه (الفرنسية) ، ليعرف ويعرفوا ، من هى جمعية العلماء فى منظور الاستقلال الوطنى ، والعمل من أجل هذا الاستقلال الوطنى ؟ ! !

وثـائـق سريـــة
مــن
الادارة الاستعمــاريــة

فى حفل ذكرى وفاة العلامة الشيخ الابراهيمى عليه رحمة الله المنتظم بقاعة ابن خلدون سنة 1972 ـ بعث الي الاستاذ عبد الحميد بن اشنهه مدير الجريدة الرسمية آنذاك (رحمه الله) هذه الوثائق التالية ، ويقول لى فى رسالة خاصة بأن أحد الموظفين الجزائريين عثر على هذه الوثائق فى أحد مكاتب قصر الحكومة ، وهو القصر الذى كانت تشغله مختلف المصالح الادارية التابعة لديوان الوالى العـــام (ممثـــل فرنسا) بالجزائر ... ويرجو تقديم ما امكن منها فى حفل الذكرى ليعرف الحاضرون من شبابنا ، كيف مرت هذه الفترة القاسية على هذا الوطن ، ومدى معاناة ابنائه من الحكم الاستعمارى الغاشم ، لا سيما رجال الاصلاح الدينى الذين مهدوا للنهضة وكانوا روادها ، وأعدوا للثورة فكانوا وقودها .

وقد قمنا آنذاك بتقديم ملخصات لهذه الوثائق أمـــام الحاضرين فى الحفل ، ووعدنا بالعمل على نشرها فى الوقت الملائـــم .

وعندما قرأنا كتاب توفيق المدنى « حياة كفاح » الجزء الثاني الخاص بالجزائر ، ووجدناه يضع نفسه حيث لم تضعه المقادير من المقامات النضالية بالنسبة لأولئك الرواد الاحرار ، حيث عمل على تحريف حقائق التاريخ وتزييف الوقائع والوسائل والنتائج ، وحاول في غير ما مكان من كتابه هذا ان يشوه رجال النهضة الوطنية ، والانتفاضة الاصلاحية ، والاحزاب السياسية ، ليضع نفسه فى مقام الرائد الزعيم الذى استقطب كل الاعمال واحتوى كل الابطال ، وقاد كل حركة الى اهدافها ، منذ وصوله الى الجزائر فى جوان 1925 الى يوم الناس هذا ... دهشنا وتعجبنا ، وأصبنا بالذهول ... ثم حاولنا مراجعته فيما كتب وفيما ادّعى ، وسقنا له من الحجج والوثائق ما يجعله يراجع نفسه ، وينفض يديه من اخطائه ، ويعلن على الناس ندمه على ما اقترف فى حق الاموات بنبش قبورهم والطعن فى ذممهم وعقائدهم ووطنيتهم ... ولكنه أبى واستكبر وأصر على كل أقواله واتهاماته واداناته ... مستهينا بالاموات ساخرا من الاحياء .

لهذا ، وجدنا أنفسنا مضطرين الى مجابهته بكل ما يبين تزييفه وتحريفه وتصحيفه ، سائرين على نفس الاسلوب الذى ارتضاه لنفسه فى العدوان ... وعذرنا فى ذلك قائم لا غبار عليه ، من مثل قوله تعالى : « **... لاَ يُحِبُّ اُللَّهُ اُلْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ اُلْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ** » . (الآية 148 ـ النساء) .

وعلى هذا الاساس ننقل الى قراء هذا الكتاب ، هذه الوثائق بنصها ، ثم ننقل لهم معانى الكلمات معربة ، ليتضح الامر ويدرك الكل ان الذى فتح باب المواجهة مع الاستعمار ، وفتح الاستعمار فى وجهه ميادين الاستعلامات والاضطهادات

والسجون والمحتشدات ـ ليس هو السيد أحمد توفيق المدني المبعد من تونس الى الجزائر ، ومن حين وصوله اليها ، أصبح فيها الفتى « المدلل » من طرف « الولاية العامة » بالجزائر ، عن طريق اصدقائه فيها امثال :

« فيوليت » ـ « ميرانط » ـ « ميو » ـ « بيرك » « شون » « شاتينيو » ـ و « سوستيل » وغيرهم .

وانما الذى كان في مواجهة الاستعمار حقا منذ بداية العشرينات أو قبلها بقليل حتى بداية الثورة التحريرية، هم :

ابن باديس ـ الابراهيمى ـ العقبى ـ الميلى ـ خير الدين التبسى ـ دردور ـ الزاهرى ـ السنوسى ـ الجلالى ـ العمودى محمد العيد ـ الفضيل الورتلانى ـ الهادى الزروقى ـ سعيد الصالحى ـ ناصر الدين ناصر ـ وغيرهم وغيرهم ، من الذين كانوا فى الصفوف الاولى من الانتفاضة التاريخية ، والذين اضطهدتهم السلطات الاستعمارية وابتلتهم بكل أنواع البلاء، فما ضعفوا وما استكانوا ، ولكنهم آمنوا بربهم وصبروا وصابروا ، فزادهم الله هدى ، بان ختم لهم بالسعادة والشهادة ... فجاء السيد أحمد توفيق المدنى أخيرا ، فنبش قبورهم ، ورماهم بما عجز زبانية الاستعمار عن ايذائهم به ، وهو التشكيك فى عقائدهم ومبادئهم ووطنيتهم ... فالى الله نشكوه ، واليه تصير الامور ... ولكننا مع هذا سنقف اليوم فى وجه كل تشويه وتصحيف ، وفى مواجهة كل تزييف وتحريف ، ندمغ الباطل بالحق حتى يزهق ، ونمحو الشك باليقين حتى يفتضح الشاكون المترددون ، الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ، ويقفون « مع الواقف » حتى وان تحدى جميع القيم والاعراف ، هكذا عشنا منذ نشأتنا الاولى ، وهكذا سنلقى الله ان شاء الله .

فالى القراء هذه الوثائق التالية ، فهى من جملة الوثائق التى نهبتها أيدى الجبارين المستكبرين ، فخرجت من الجزائر لتستقر فى مكتبات : « ايكس انبروفانص » وغيرها ونصبح نحن ـ بدونها ـ نبحث عن تاريخنا فى مكتبات تركيا منذ عصور الانحطاط ، لنعرف من منا من سلالة « الكروغليين » ومن منا يتصل نسبه ، « بماصيينيصا » و « يوغورطة » ولنعرف من منا الصريح ، ومن منا الهجين ...!؟

مع ان تاريخنا يبدأ بيننا عندما وعينا رسالة الله الى أهل الارض ، وكل ما يهمنا قبل هذا انما هو رفاهية وبذخ ، ندعه بين ايدى الباحثين المختصين لا غير .

واذا كان للمغرمين بالبحث عن « الوثائق التركية » رغبة فى ملء صحائف من تاريخنا ، فان التاريخ الحق فى نظرنا هو الذى كتبه عقبة ، وحسان ، وأبو المهاجر ، وموسى ، وطارق ، وغيرهم ، وأخذه عنهم من جاء بعدهم كما يأخذ الجندى راية الكتيبة من ضابطه وقائده ، وليسلمها هو بدوره الى من يليه حين يسقط فى ساحة الشرف هاتفا بشهادة « لا اله الا الله » !!

ومعذرة الى قراء هذا الاستطراد من هذه الصفحة ، فهى من صميم الموضوع الذى لابد له من مثل هذه المحطات القصيرة .

اما الآن ، فالى قراءة هذه الوثائق التى لم يجف مدادها بعد على صفحات واقعنا لتلك الفترة ، مع أولئك الاحرار الابرار الذين يجب علينا جميعا ان نمجد مواقفهم ونذكرهم فى مواطن الذكرى كما يذكر الزعماء المجاهدون الشجعان .

وقديما قيل :

ان الزعامة والطريق مخوفة * غير الزعامة والطريق أمان ؟!

(1) ـ الوثيقـة الاولى :

الولاية العامة للجزائر
مديرية الامن العام
رقم ب 10.306
أ.س. للاتحاد الثقافى والعلمى
المؤسس بالقاهرة

الجمهورية الفرنسية
الجزائر فى 10 افريل 1928
الوالى العام للجزائر
الى السيد ،
عامل عمالة قسنطينة

ســـري

لى الشرف ان ابعث اليكم ـ لإعلامكم ـ بالنسخة المرفقة لمذكرة تتعلق بتأسيس جمعية اسلامية ثقافية وعلمية بالقاهرة تحت اسم : « اتحاد توجيه الوعي الاسلامى » .

وأكون ممنونا لكم لو توافوننى باخبار هذه الجمعية فى حالة ما اذا كانت لها علاقات مع بعض المثقفين من الاهــالى بولايتكــم .

عن الوالى العام
مستشار الحكومة المفوض
التوقيع : لوموان
نسخة مطابقة معلنة للتنفيـذ الى الســـــادة المتصرفـــين والمساعدين المنتدبين .
الى السيد رئيس الامن العمالى عن طريق السادة نواب العمالة مرفق بنسخة من المذكرة .

الشؤون الاهلية
رقم : 6.644
قسنطينة فى 27 افريل 1928
عن الوالى :
الكاتــب العــام

Gouvernement Général de l'Algérie

Direction de la Sécurité Générale

N° 10.306 B

A.S. de l'Union intellectuelle et scientifique fondée au Caire

République Française

Alger, le 10 Avril 1928

Le Gouverneur Général de l'Algérie

à Monsieur le PREFET de Constantine

SECRET

J'ai l'honneur de vous transmettre, pour votre information, la copie ci-jointe, d'une note relative à la création au Caire, d'une société musulmane intellectuelle et scientifique dénommée "Union de direction de conscience musulmane".

Je vous serai obligé de vouloir bien me tenir au courant dans le cas où cette société aurait noué des relations avec certains intellectuels indigènes de votre Département.

P. le Gouverneur Général
Le Conseiller de Gouvernement délégué

signé : LEMOINE

AFFAIRES INDIGENES

N° 6.644

Copie Conforme Notifiée pour exécution à MM. les Administrateurs & Adjoints détachés - à M. le Chef de la Sûreté Départementale - (S/C. de MM. les Sous-Préfets).

Ci-joint copie de la note.

CONSTANTINE, le 28 Avril 1928
Pour le PREFET,
Le Secrétaire Général

(2) ـ الوثيقــة الثانيــة :

الجزائر في 12 افريل 1928

استعــــلامــــات

لاتحاد المثقفين من القاهرة ،

ان « اتحادا ثقافيا وعلميا » قد أنشىء بالقاهرة في 12 من رجب 1346 (5 جانفي 1928) تحت اسم : « اتحاد توجيــه الوعي الاسلامي » ويعقد جلساته في محل مؤقــت ، وهــو عبارة عن منزل قائم في 4 سبع قاعات بحرية ، شارع السكة الجديدة ، وهدفه هو تعليم الاسلام بكل ما يهمه ثقافيا عــن طريق المحاضرات والخطب والوعظ والارشاد ، الى غير ذلك من التظاهرات المنصوص عليها في قوانينه .

وقد أرسل أمين هذا الاتحاد : تقرى جاس استاذ بالجامع الازهر ، بنصوص هذه المحاضرات والخطب لجريدة «الوزير» (التونسية) وتنوى هذه الجريدة نشر مجموعة منها، واسندت الرئاسة الفعلية لهذا الاتحاد ، **الى الشيــــخ محمــد الخضر ابن الحسين** .

وهو تونسي أصله من الجريد ، استاذ سابق بجامع الزيتونة الكبير واستاذ بالجامع الازهر حاليا ، وهو وطني مشهـــور **ومفرط في كراهية فرنسا** .

وكتب في ظهر الورقة ما يلي :

رقــم 1929

ينقــل الى السيــد المتصرف ، سكيكــدة في 4 مــاي 1928 نائب عامل العمالة **القل** رقم 65 س وصلت في 7 ماي 1928 ،

Alger, le 12 Avril 1928

R E N S E I G N E M E N T S

A.S. D'une union intellectuelle du Caire.

Une "Union intellectuelle et scientifique" s'est fondée au Caire le 12 Redjeb 1346 (5 Janvier 1928). Elle s'est appelée "Union de direction de conscience musulmane" Elle tient ses assises dans un local provisoire, une maison située au 4 Sabâa Kaât Bahria (Boulevard de la Nouvelle ferrée). Son but est de renseigner l'Islam sur tout ce qui peut l'intéresser intellectuellement par les conférences, des discours des sermons et exhortations et autre manifestations prévues par ses statuts.

Son Secrétaire, Takri Jas, professeur à l'Université d'El Azhar a envoyé au journal "El Ouazir" les texes de ces conférences et discours. "L'El Ouazir" se proposerait d'en publier une partie. Cette union a été placée sous la présidence effective du Cheikh Mohamed Lakhdar ben El Hossein, tunisien originaire du Djérid anciennement professeur à la grande mosquée "Zitounia" aujourd'hui professeur, à El Azhar, nationaliste notoire et excessivement francophobe.

n° 1929

Commis Monsieur

l'Administrateur

Collo

Collo
N° 65.S
arrivé, 7. mai 1928

4 mai

[signature]

(3) ـ الوثيقـة الثالثـة :

دار عمالة قسنطينة
قسم الشؤون الاهلية
رقم : 4278
الى السيد :
نائب عامل العمالة

سـري

الموضوع : مراقبة سياسية للاهالى
جمعية العماء المسلمين
الرئيس : السيد ابن باديس حاج عبد الحميد ، من قسنطينة.
وجاء فى الحاشية :
الاستـلام
فى 25/3/32 رقم 645
أعيد النص الاصلى
فى نفس اليوم .

يشرفنى ان احيطكم علما انه بناء على المعلومات الواردة بان جمعية العلماء المسلمين تنوى توظيف دعاة (مبشرين) من بين (الطلبة) يقوم كل منهم اثناء جولاته بمنطقة محددة، بمهمة محاربة البدع والخرافات من جهة ، ومقابلة النفوذ الفلسفى للمبشرين الفرنسيين والاجانب من جهة أخرى .

فنشاط هؤلاء الاخيرين ، يرمى فعلا الى حمل الاهالى على اعتناق دين مخالف لدين الاسلام .

ان معلمى القرآن المنخرطين (فى جمعيـــة العلمـاء) سيتقاضون أجورهم من الجمعية ، وسيجوبون خاصة منطقة القبائـل .

وهذه الجمعية تأسست بالعاصمة فى أفريل (1) 1931 مقرها الرئيسى بنادى الترقى ـ ساحة الحكومة .

ويتكون مجلسها الادارى كما يلى :

الرئيس : السيد بن باديس حاج عبد الحميد ، استاذ علم التوحيد (؟) ومدير صحيفة الشهاب، يقيم بقسنطينة .

نائب الرئيس : السيد البشير الابراهيمى ، استاذ اللغـة العربية بسطيف .

الكاتب العام : السيد الطيب العقبى ، معلم القرآن سابقا ببسكرة صحافى ـ داعية ، يسكن حاليا بالقبة بالجزائر العاصمة حيث يديـــر الجريدة العربية « المرصاد » (2) .

---

(1) وهذا خطا من الاخطاء الكثـيرة التى تقـع فيها الادارة الفرنسية ، وتترتب عنها تصرفات خاطئة أيضا ، اما تأسيس جمعية العلماء فوقع فى بداية شهر ماى 1931 م وبالضبط فى 5 ماى .

(2) هكذا كان الاداريون الفرنسيون يديرون سياسة فرنسا بالجزائر بتصرفاتهم وأوهامهم ، ثم لا يهتمون لاحكامهم وتصرفاتهم الخاطئة . فقـد خلطوا فى الامر وقلبوا الوضع . فالكاتب العام للجمعية انذاك هو الاستاذ الامين العمودى باعانة الشيخ العقبى .

أما جريدة المرصاد « فأسسها الشاعر الجزائرى محمد عبابسة الاخضرى ومثلها جريـدة الثبات » ، وكلتاهما عطلتها الادارة الفرنسية بقرارات تعسفيـة .

نائب الكاتب : السيد الامين العمودى ، وكيل شرعى ببسكرة .

أمين المال : السيد مبارك الميلى ، معلم القرآن بالاغواط

نائب أمين المال : السيد ابراهيم بيوض ، معلم القرآن بالقرارة (مزاب) .

المساعدون :

حاج حسن ، معلم القرآن بعنابة .

الشيخ المولود الحافظى ، معلم القرآن فى بوقاعة .

ابن الشريف ، معلم القرآن بسيدى علي ، قرب مستغانم .

الطيب المهاجى ، استاذ اللغة العربية بوهران .

الشيخ السعيد ، معلم القرآن بايجر ، حوز عزازقة المتزجة .

محمد الفضيل ، معلم القرآن باربعاء نايث ايراثن .

الشيخ العربى بن بلقاسم ، تاجر بتبسة (1) .

---

(1) العلامة الاصولى المحدث الشيخ العربى التبسى ، عندما عاد الى وطنه من مصر ، اشترك مع اخوته وابناء عمومته فى التجارة ليكسب عيشه ، وليتفرغ بعد ذلك للجهاد بالدعوة الاسلامية بين عشيرته أولا ، وفى وطنه الكبير ثانيا ، فكون فى تبسة بالذات مسجدا حرا ومدرسة حرة كانت وما تزال مركز الاشعاع الاصلاحى والوطنى . ثم التحق بركب العلماء الاحرار فى درب الجهاد الذى لازمه حتى لقى ربه شهيدا .. وأخيرا يأتى « توفيق المدنى » ليدينه فى مذكراته ، لانه وقف في وجهه ورماه بدائه ، وعارض انتسابه لجمعية العلماء بحجة لا تقبل النقض ، وهذا هو التاريخ فى عرف توفيق المدني .

أكون جد ممنون لكم لو تفضلتم بمراقبــة نشاط هؤلاء الدعاة عن كثب ، وان تفيدونى عند اللزوم ، بكل عمـــل يحتمل أن ينير الادارة عن الاتجاهات الحقيقية لهذه الجمعية .

عن عامل العمالة فى اجازة
الكاتب العــام
الامضاء (لانريل)
لنسخة مطابقة
المتصرف : بـ ، بال

PREFECTURE DE
CONSTANTINE

Section des Affaires Indigènes

N°: 4278

OBJET : Surveillance politique des indigènes

Association des Erudits Musulmans

Président : M. BENBADIS Hadj Abdelhamid, de CONSTANTINE.

Constantine, le 15 Mars 1932.

Le PREFET du Département de CONSTANTINE

à Monsieur le SOUS-PREFET

PHILIPPEVILLE.

SECRET

arrivée 25/3/32
N° 645

original classé f. 8. le même jour

J'ai l'honneur de vous faire connaitre qu'il résulte de renseignements recueillis que l'Association des Erudits musulmans se propose de recruter parmi les talebs des missionnaires qui, en parcourant chacun une région déterminée, auront pour mission de combattre, d'une part, les préjugés et la superstition et de contrebalancer, d'autre part, l'influence philosophique des missionnaires français et étrangers.

L'activité de ces derniers tend, en effet, à faire embrasser aux indigènes une religion différente de celle de l'Islam.

Les Instituteurs coraniques ainsi recrutés seraient rétribués par l'Association. Ils visiteraient surtout la Kabylie.

Cette Association constituée à ALGER, en Avril 1931, y a son siège social au Cercle " Naddi-Ettaraki ", Place du Gouvernement.

Son Conseil d'Administration est composé de la façon suivante :

Présidents : M. BENBADIS Hadj Abdelhamid, Professeur de théologie et Directeur du Journal " ECH-CHIHEB ", demeurant à CONSTANTINE;

Vice-Président : M. BACHIR IBRAHIMI, Professeur d'arabe à SETIF.

Secrétaire Général : M. TAIEB-EL-OKBI, ex-Taleb à BISKRA, publiciste, demeurant actuellement à ALGER-KOUBA, où il dirige le journal arabe " EL-MOURSAD ".

Secrétaire-Adjoint

Secrétaire-Adjoint : M. LAMINE EL-HAMOUDI, Oukil Judiciaire à BISKRA.

Trésorier : M. EMBAREK EL-MILI, Taleb à LAGHOUAT.

Trésorier-Adjoint : M. BAYOUD BRAHIM, Taleb à GUERARA (M'Zab) .

Assesseurs : HADJ HASSEN, Taleb à BONE; CHEIKH EL-MOULOUD EL-HAFIFI, Taleb à LAFAYETTE; IBN-CHERIF, Taleb à CASSAIGNE; TAIEB El-MOUHADJI, Professeur d'arabe à ORAN; CHEIKH Saïd, Taleb Idjir, Commune Mixte d'AZAZGA; MOHAMMED EL-FOUDIL, Taleb à FORT-NATIONAL; CHEIKH LARBI BEN BELKACEM , commerçant à TEBESSA.

Je vous serais très obligé de vouloir bien surveiller de très près l'activité de ces missionnaireset me rendre compte, le cas échéant, de tout fait susceptible d'éclairer l'Administration sur les tendances réelles de l'Association en question.

P. le PREFET en congé:

Le Secrétaire Général :

Signé : LANDEL.

Pour copie conforme.

L'ADMINISTRATEUR Ppal :

(4) ـ الوثيقة الرابعـة :

الولاية العامة
مدير شؤون الاهالى
مصلحة الاحواز الممتزجة
رقم 7037 ـ احواز ممتزجة

الجزائر 8 أوت 1932

جمعية العلماء المسلمين ، للمدارس القرآنية :

الوالى العام على الجزائر ،

الى السيد عامل العمالة (شؤون الاهالى) قسنطينة

فى التاسع من شهر ماى المنصرم ، تحت رقم (س. م. 4.611) كنت اشرت لكم بالمجهودات البذولة من طرف جمعية العلماء المسلمين التى مقرها المركزى بالعاصمة ، من أجـل افتتاح مدارس خاصة ، حيث يعلم فيها فقط القرآن واللغة العربيـــة .

فأنا ممنون لكم سيدى العامل ، لو تتفضلون بالاجابة عن البلاغ المذكور سابقا .

فأيا كانت حذرة ومعتدلة ــ على الاقل فى الشكل ــ هذه الطرق التى تغطى بها جمعية العلماء المسلمين حاليا نشاطاتها وتظاهراتها ، فانه لا يخفى ان أهدافها الحقيقية تظل غامضة وانه يسمح باتهامها ــ باتجاهات ترمى فى النهاية ، من خلال الحضارة القربية ــ الى النيل واصابة القضية الفرنسية .

حقا ، انه من الممكن ان بعض المسيرين المغرمين بمثالية اسلامية متخلفة ، يبحثون عن الوسائل التى يقاومون بها تطور سيطرتنا على العناصر (الاهلية) حينئذ سوف تنقاد الاغلبية الساحقة الساذجة من المنخرطين ، للصوت التقليدى للتضامن الاسلامى ، بيد انه يمكننا من الآن فصاعدا ، الجزم بان الحركة المعنية تساهم بثلاثة عوامل ، تبدو غير خطيرة فى مبدئها ، الا انها قد تؤدى فيما بعد الى تطورات يجدر مراقبتها :

1 ــ **وطنية اللغة** ، عن طريق نشر واسع للغة العربية التى هى لغة النصوص الدينية ، والتى تعطى فى هذا السبيل على انها اللغة الاولى التى تفوق بغناها واناقتها كل اللغات .

2 ــ **اتحاد اسلامى** ، واخوة بين كل المسلمين الجزائريين مهما تكن مذاهبهم ومطامحهم وحالاتهم الاجتماعية .

3 ــ **الوهابية الجديدة** ، التى هي تحت ستار الرجوع الى الصفاء العقيدى...ان هى غالبا الا تحريض على كره الاجنبى أشد ما يكون صلابة ونقدا حادا للمؤسسات الدينية المحلية **كالزوايا التى يدين الكثير من رؤسائها بالولاء لسيطرتنا ونفوذنا (!!)**

حقا ، اننا لن نستطيع عرقلة تعليم اللغة العربية ما دام لا يستعمل كذريعة لدسائس ومغامرات غامضة ضد أعمالنا ... فان فرنسا لم تقصر فى شىء لجعل تعليم لغتها الام ، فى

متناول جماهير المسلمين الجزائريين ، الا انه لا يمكن السماح بدعاية مقنعة بالثقافة الاسلامية الكاملة ـ لاتجاهات مضرة، يكون رعايانا (الاهالى) أول من يتضرر بها .

فمن المؤكد انه لا يخفى عليكم سيدى العامل ، بان هذه الحالة تستدعى كل يقظتنا العاجلة واحتياطنا السريع ، فضلا عن العمل السياسى الذى ينبغى ممارسته طبقا لتعليمات هي بصدد الدراسة حاليا ، واظن انه من واجبى الآن، أن استرعي انتباهكم الى ضرورة تطبيق صارم لقانون 18 أكتوبر 1892 ، الباب الثالث ، الذى يضع تنظيما لتعليم (الاهالى) .

ان هذا النص المنظم يخول للادارة ، سلطات واسعة ، فيما يتعلق باختيار المحلات الممكن استعمالها (المادة 49) ، افتتاح واغلاق المؤسسات الخاصة (المادتان 49 و 50) ، المراقبة والتفتيش (المادة 48) قبول وعزل المعلمين (المادتان 51 و 54) ... الخ .

فالمرجو منكم ان تخضعوا المدارس الحرة المختلفة ، التى تم افتتاحها بمبادرة من جمعية العلماء ـ لهذه الاجراءات ، أو تقترحوا علي كل التدابير التى ترونها صالحة ، لاغلاق المؤسسات المخلة بالشروط المنصوص عليها فى القانون ، وكذلك (فى خصوص) عزل المعلمين الذين لا يقدمون كل الضمانات المرغوبة .

لا داعى لتذكيركم بان هذه الاجراءات يجب ان تتم بمنتهى الحكمة لتلافى كل انفعال لا مبرر له ، أو تفسيرات خاطئة لدى جماهير الاهالى للمستعمرة .

عن الوالى العام
الكاتب العام للولاية العامة
التوقيع : (بايروتون)

BA

Gouvernement Général
de l'Algérie — Secret

Direction des Affaires
Indigènes

Service des Communes
Mixtes

N° 7037 C.Mixtes

Association des Savants
Musulmans

Ecoles coraniques

ALGER, le 8 Août 1934

Le Gouverneur Général de l'Algérie

à Monsieur le Préfet

(Affaires Indigènes)

CONSTANTINE

Le 9 Mai dernier, sous le n° 4.5II C.M., je vous ai signalé les efforts effectués par l'Association des Savants Musulmans, dont le siège social est à Alger, en vue de l'ouverture d'écoles privées où sera exclusivement donné l'enseignement du Coran et de la Langue arabe.

Je vous serais obligé, Monsieur le Préfet, de bien vouloir répondre à ma communication précitée.

Quelques prudentes et modérées que soient au moins dans la forme les modalités dont la Société des Savants enveloppe actuellement ses démonstrations, il n'en est pas moins vrai que ses véritables buts demeurent obscurs et qu'il est permis de les suspecter de tendances qui, à travers la civilisation occidentale, se proposeraient en définitive d'atteindre la cause française. Il est possible en effet que quelques-uns des dirigeants, férus d'un idéal islamique rétrograde recherchent les moyens de lutter sournoisement contre les progrès de notre emprise sur les éléments indigènes, alors que la grande majorité des adhérents obéiraient naivement au souci traditionnel de la solidarité musulmane. On peut, toutefois d'ores et déjà, établir que le mouvement dont il s'agit participe de trois facteurs qui, sans paraître dangereux dans leur principe, sont susceptibles de prendre par la suite des développements qu'il importe de surveiller :

1° Nationalisme linguistique, par une intense diffusion de la langue arabe qui est celle des textes religieux et qui est donnée, à ce titre, comme la première, la plus riche, la plus élégante de toutes;

2° Union islamique et fraternité entre tous les Musulmans algériens, quelles que soient leurs doctrines, leurs aspirations et leur situation sociale;

/...

3° Néo-Wahabisme qui, sous le couvert d'un retour à la pureté dogmatique, n'est trop souvent qu'une excitation à la xénophobie la plus intransigeante, et la critique véhémente d'institutions religieuses locales, comme les confréries, dont beaucoup de Chefs sont sincèrement acquis à notre domination.

Certes, nous ne saurions entraver l'enseignement de l'arabe, quand il ne sert pas de prétexte à des menées ténébreuses contre notre action. La France n'a rien négligé pour mettre à la portée de la population musulmane de l'Algérie l'enseignement de sa langue maternelle. Mais il n'est pas possible de tolérer une propagande qui, sous le masque de la culture islamique intégrale, dissimule des orientations pernicieuses dont nos administrés indigènes seraient les premiers à souffrir.

Il ne vous échappera certainement pas, Monsieur le Préfet, que cette situation appelle notre plus active vigilance.

Indépendamment de l'action politique qu'il conviendra d'exercer pour contrebattre les agissements tendancieux de cette catégorie de propagandistes, suivant des directives actuellement à l'étude, je crois devoir, dès à présent, attirer votre attention sur la nécessité d'une application plus stricte de la Loi du 18 Octobre 1892, titre XII, organisant l'enseignement des indigènes.

Ce texte législatif laisse à l'Administration de larges pouvoirs, en ce qui concerne le choix des locaux devant être utilisés (article 49), l'ouverture et la fermeture des établissements privés (articles 49 et 50), la surveillance et l'inspection (article 48), l'agrément et la révocation des Maîtres (articles 51 et 54), etc...

Vous voudrez bien soumettre à cette procédure les diverses écoles privées qui se sont ouvertes sur l'initiative de la Société des Savants et prendre ou me proposer toutes mesures que vous jugerez utiles, à l'effet de prononcer la fermeture des établissements qui ne rempliraient pas les conditions stipulées par la Loi, de même que le licenciement des Maîtres qui n'offriraient pas toutes les garanties désirables.

Je n'ai pas besoin de vous rappeler que ces mesures doivent être conduites ~~par~~ avec une extrême circonspection, dans le but d'éviter une émotion injustifiée ou des interprétations inexactes parmi les populations indigènes de la Colonie.

P.le Gouverneur Général,
Le Secrétaire Général du Gouvernement,
Signé : PEYROUTON.

/.....

(5) ـ الوثيقــة الخامســة :

قسم شؤون الاهالى

رقم 14.382

لنسخــة مطابقــة ، واعــلان

ـ نواب عامل العمالة ،

ـ المتصرفون بالعمالة ،

ـ رئيس الامن بالعمالة .

لكل المقاصد المفيدة ، وبتوجيه العناية بصفة خاصة حول أهمية هذه القضية .

ان الاجراءات اللازم اتخاذها ، يكون تأثيرها فى المــدى البعيد الا انها تستدعى طابع السرعة .

من الجدير اذن ، منذ الآن ، محاربة كل مناورات دعــاة جمعية العلماء المسلمين ، محاربة فعّالـــة ، والذين ـ كما وضحت فى نشرة هذا اليوم ـ لا ينبغى مهما كان الامر ، أن يكونوا موضوع استقبالات رسمية .

ومن ناحية أخرى ، فان التسامح الكبير ، الممنوح لحد الآن، بخصوص تطبيق قانون 18 أكتوبر 1892 ، (الباب الثالث)

حول تعليم الاهالى ، سيلغى تماما ، فيما يخص المرشحين المقدمين من طرف هذه الجمعية .

ـ لن تفتح أية مدرسة ، اذا كان المحل لا يفى بدقة ، بشروط النظافة والمرافق الصحية المعينة .

ـ يجب آن تحترم مواعيد فتح واغلاق المدرسة بدقة وصرامة .

ـ يجب اختيار المرتادين (للمدارس الحرة) من غير تلاميذ المدارس الفرنسية ، اذ أن هؤلاء الاخيرين ، لا يقبلون الا فى خارج ساعات الدراسة .

ـ تنظم مراقبة وتفتيش هذه المدارس الخاصة بصرامة ، بموجب المادة 48 من القانون .

ـ أخيرا ، يجب ان يكون قبول المعلمين موضوع أشد تحقيق دقيق ، وخاصة من ناحية خلقهم وآرائهم السياسية ، ومواقفهم من حيث وجهة نظرهم الوطنى .

كما انه من المفيد ، تعيين المكان الذى زاول فيه المعلم دروسه .

أرجوكم ان تمتثلوا لتوصيات الفقرة ما قبل الاخيرة من اللائحة الحكومية ، والرجوع اليها ـ حاضرا ومستقبلا ـ من روح الفقرة الختامية .

قسنطينة فى 24 أوت 1932

عن عامل العمالة

الكاتب العام

وكتب فى ظهر هذا المنشور ـ خطا ـ البيان التالى :

ـ هناك منشور ثانى مؤرخ بـ 24 أوت 1932 تحت رقم : 14423 (شؤون الاهالى) ، والصادر من دار العمالة ، مأخوذ من نسخة مطابقة للاصل من رسالة بعث بها السيد الوالى العام الى عامل عمالة وهران بتاريخ 8 أوت رقم 7030 س.م والمتعلقة بنفس الموضوع .. يطلب السيد عامل العمالة الاخذ بعين الاعتبار ، توصيات الوالى العام المتعلقة بالطابع الغير الرسمى لجولات السيد بن باديس ، أو أي عضو آخر من جمعية العلماء المسلمين (!!)

ويضيف السيد عامل العمالة ، بانه من المفيد معرفة غرض السيد بن باديس من هذه الجولات ، وعدم اعطائها فى أية جهة من الجهات التى يتوجه اليها ـ الطابع الرسمى الذى قد يرفع من شأنه ويعززه فى أعين الجماهير (!؟)

ثم يستأنف السيد عامل العمالة قائلا :

فى الوقت الذى يستعد فيه بن باديس للقيام بجولته فى نواحى : شاطودان ـ سانت آرنو ـ سطيف ـ برج بوعريريج ـ بجاية .. وفى حين قيام السيد بشير الابراهيمى نائب رئيس الجمعية بزيارة الى : عين البيضاء ـ تبسة ـ خنشلة .. ادعو السادة نواب عامل العمالة ، ان يتصرفوا بدراية ، قصد احاطة البلديات المعنية علما بالامر ، لتفادى الخطا الذى وقع فى عمالة وهران .

سلمت هذه النسخة يوم 8/9/1932

للسيد (دوجاماپ)

Section des Affaires
Indigènes

N° 14.382 -

Confidentielle

Pour Copie Conforme et Notification
à MM. les Sous-Préfets du Département
MM. les Administrateurs du Département
M. le Chef de la Sûreté Départementale

Constantine

à toutes fins utiles et en appelant tout particulièrement leur attention sur l'importance de cette question.

Les mesures à prendre, dont les effets sont à échéance assez lointaine, présentent néanmoins un caractère d'urgence.

Il importe donc, dès à présent, de combattre efficacement toutes menées de propagandistes de l'Association des savants musulmans qui, ainsi que je le prescris dans une circulaire de ce jour, ne doivent en aucun cas être l'objet de réceptions officielles.

Par ailleurs, les larges tolérances accordées jusqu'à ce jour en ce qui concerne l'application de la Loi du 18 Octobre 1892 (titre 3) sur l'enseignement des indigènes, seront complètement supprimées, en ce qui concerne les candidats présentés par cette Société.

Aucune école ne sera ouverte, si le local ne remplit strictement les conditions d'hygiène et de salubrité prescrites.

Les heures de fermeture et d'ouverture devront être absolument respectées. La clientèle devra être uniquement choisie en dehors de celle des écoles françaises, celle-ci ne pouvant y être admise qu'en dehors des heures de classe.

La surveillance et l'inspection de ces écoles privées seront organisées d'une manière sévère par application de l'article 48 de la Loi.

Enfin, l'agrément des maîtres devra toujours donner lieu à une enquête des plus sévères notamment en ce qui concerne leur moralité, leurs opinions politiques et leur attitude au point de vue National. Il y aura également intérêt à préciser le lieu où le taleb a fait ses études.

Je vous prie de vous conformer aux Prescriptions de l'avant-dernier alinéa de la Dépêche Gouvernementale en vous inspirant tant à présent que pour l'avenir, de l'esprit du Paragraphe in-fine.

Constantine, le 24 Août 1932
P. le Préfet,
Le Secrétaire Général :

[signature]

5 SEP 1932
5164

Une 2ème circulaire datée de la Préfecture du 24 août 1932 N° 14423 (S. des aff. Indigènes) transmettant la copie conforme d'une lettre adressée par M. le G.G. à M. le Préfet d'Oran en date du 8 août N° 7030 C.M. fait suite à la présente et est relative au même sujet. M. le Préfet prie de prendre note des prescriptions de M. le G.G. en ce qui concerne le caractère non officiel des tournées de M. Ben Badis ou de tout autre membre de l'association des Ulémas musulmans.

M. le Préfet ajoute qu'il y a intérêt à savoir ce que M. Ben Badis recherche au cours de ses tournées mais qu'il convient de ne lui réserver nulle part un accueil officiel dont il pourrait se prévaloir aux yeux des masses. M. le Préfet dit :

"Au moment où il est sur le point d'entreprendre une tournée de la Région de Châteaudun (Tamantit, Sétif, B. Bou-Arreridj), Akbou, Bougie tandis que le sieur Bachir Brahimi – vice-président de l'association visitera celle de : Aïn-Beïda, Tebessa, Khenchela, je laisse le soin à MM. les sous-préfets de prévenir, avec toute la discrétion désirable, les municipalités intéressées d'avoir à ne pas tomber dans l'erreur commise en Oranie".

Cette circulaire a été transmise le 7/9/32 à Mr. l'admin. de Jemmapes.

التعليق على الوثائق ..

كنت أكتب تعريب هذه الوثائق بعد ان مهدت لها بكلمة قصيرة ، فأدركت ان التعليق عليها لتوضيح ما غمض منها أمر حتمي لا مناص منه ، ذلك أن شبابنا اليوم يقـرأ ما يقـرأ ـ بذهنية عصره وما تفرضه مـن السرعة ، وهـذه القراءة تنتج أول ما تنتج ـ فهما قصيرا وثقافة ضحلة ونظرة سطحية لا تكشف الـسر ، ولا تتعمق فى الفهـم والادراك .. وبهذا تضيع الحكمة المقصودة من نشر هذه الوثائق فى هذا الكتاب .

وقبل ان أبدا فى كتابة هذا التعليق ، قرأت فى صحيفة « الشعب » الوطنية بتاريخ 19 محـرم 1402 هـ ـ 16 نوفمبر 1981 م كلمة قصيرة تحت عنوان : « حتى لا يطمع الطامعون » تناول فيها .. « توفيق المدنى » واضراب توفيق المدنى مـن حيث يقصد أو من حيث لا يقصد .. وبعد الفراغ من قراءة هذه الكلمة قلت : مرحى ، هذا هو المعنى الذى أردته تعليقا على هذه الوثائق .

وفى اليوم الموالى ، قرأت فى نفس الصحيفة وفى نفس الحيز منها ، كلمة أخرى لنفس الكاتب تحت عنوان : « مـــا للتــاريخ للتــاريخ » ، فادركت ان الكاتب ، وهـو الاستاذ م. عباس ـ جاد فى الموضوع كل الجد ، فكتبت اليه بشكرى

واعجابى ، ورجوته أن يستمر فى كتابة هذا الجد الذى هو الحق والصدق .

وسأنشر المقالتين هنا مع هذا التعليق (1) تأكيدا للحق ومناصرة للجد ، بعد التوضيح المجمل لما جاء فى هذه الوثائق من القضايا القومية والوطنية التى تعبر ذهنية القارىء العصرى دون ان يحس لها وقعا .

☆ ☆

ان الاستعمار الفرنسى ، بدأ فى تنفيذ مخططاته التى اعرب عنها عدد من جنرالات الجيش المحتل فى مراسلاتهم ، واعرب عنها نابوليون نفسه فى توصياته وتوجيهاته .. وهي مخططات دينية ، وعسكرية ، وسياسية . ونحن حين نقرأ جملة هذه المراسلات ، ندرك ان الغرض الاول من اغراض الاحتلال ، انما هو صليبى حاقد يعمل من أجل التنصير أكثر مما هو شىء آخر .. ولكن هذا الاحتلال الصليبى تحول وتطور الى احتلال استيطانى ، يضع التراب الوطنى قطعة موصولة بالاراضى الفرنسية تربط بينهما مياه البحر المتوسط ، وبهذا عملت كل الدوائر المختصة للاحتلال ــ على الحيلولة دون اية صلة تربط هذا الوطن باية بقعة من أوطان العرب والمسلمين مهما تكن هذه الرابطة واهية ضعية لا اثر لها فى حياة الناس .. وقد دامت هذه الفرقة المفروضة على الجزائريين أكثر من قرن وثلث قرن حالت دون الاتصالات الاخوية المثمرة بين الجزائريين واخوتهم العرب والمسلمين فى كل انحاء المعمورة ، واذا كانت هذه المقاطعة المفروضة على الاخوة فيما بينهم قد أنتجت مقاومة وعنادا فى نفوس الجزائريين ، فعملوا بارادتهم وعزيمتهم على فتح أبواب ونوافذ للاتصال باخوتهم العرب والمسلمين ــ فان أمة العرب فى مختلف بلدانها ــ اكتفت

(1) انظر المقالتين المذكورتين فى قسم « المقالات » من هذا الكتاب .

بنفسها عن غيرها ، وشغلت بأوطانها الموزعة عن هذا الوطن ، فأثمر ذلك نوعا من الذاتية والانانية ، كان السبب المباشر في جهل غالبيتها الغالبة ، لكل ما كان يقع في هذا الوطن من المئاسي .

والاستعمار الفرنسي في الجزائر خاصة ، وفي المغرب العربي عامة ، هو الذى تولى بناء السد المفرق بين العشيرة والاخوة ، وهو الذى ضرب ستارا من حديد بين هذا المغرب العربي والمشرق العربي وجند لحراسة هذا السد ، كل « شياطينه » وامدهم بكل الصلاحيات والامكانيات التعسفية ، ليبقى هذا « الفصل » بين الاخوة قائما الى قيام الساعة ، وهو ما تشير اليه الوثيقة الاولى والثانية من هذه الوثائق التى كتبت قبل الاحتفالات القرنية التى جرت في يولية 1930 م .

اما الوثائق التى جاءت بعدها ، سنة 1932 ، فهى العدوان والطغيان والشراسة والوحشية في معاملة الاهالى (الانديجان) في عقيدتهم الاسلامية ، وفي لغتهم العربية وفي نهضتهم الملية والوطنية ... وهى استمرار لسياسة التنصير والاستذلال وابادة القيم والمقومات التى تضمن الثبات والاستبسال والنجاح .

فالاسلام في نظر هذا الاستعمار الفرنسي ــ وفي نظر كل استعمار صليبي ــ انما هو العقبة الكأداء التى يصعب اجتيازها ويعسر اعتلاؤها ، فهو لهذا يجند كل طاقاته و (اطاراته) لتعطيل هذه القيم والمقومات والحيلولة دونها في حياة المسلمين وتصرفاتهم في مختلف أحوالهم .. وهو الامر الذى أدى الى هدم المساجد والمعاهد ، وتحويلها الى كنائس وثكنات واديرة .. وما تبقى منها ، تحول الى مراكز للمخابرات والمؤامرات والمخابىء ، وضعها هذا الاستعمار ،

تحت اشراف فئة من المرتزقة الجهلة ، ومن الاذناب الاذلاء ، خربت ذممهم وتحنطت ضمائرهم ، فكانوا بعمائمهم و « برانيسهم » اشأم على الامة من الراهب الحاقد ، ومن الضابط الغاضب ، ومن المعمر المستغل .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة

على النفس ، من وقع الحسام المهند

واللغة العربية ، فى نظر هذا الاستعمار الفرنسى ـ هو السيف المهند الذى لا يفلّ حده ، وهو الترس القوي الذى يرد المعتدى خائبا ويصرعه عائدا .. فهو لهذا لم يتسامح معها ، ولم يسمح بتعلمها وتعليمها .. ثم بلغ به الحقد والاستهتار بها وبأهلها ان وضعها فى قوانينه وقراراته وتشريعاته : « لغة أجنبية » تعامل كما يعامل الاجنبى الدخيل الغير المرغوب فيه ...

ومن من الجزائريين يستطيع أن ينسى (قرار « ميشال ») بغلق المساجد في وجوه العلماء فى 27 فيفرى سنة 1933 ، ومن من الجزائريين ينسى قرار (8 مارس 1937) الصريح فى اعتبار اللغة العربية أجنبية عن (الجزائر الفرنسية) واعتبار معلميها جناة فى حق الوجود الفرنسى ؟

الامر الذى أدى الى فتح أبواب السجون والمعتقلات وتسليط أنواع من الاضطهادات الحقيقية ـ لا المزيفة ولا الادعائية ـ على عدد كبير من العلماء والمعلمين ، ثم محاكمتهم كالمجرمين فى مختلف المحاكم العسكرية والجنائية ، مثل ما وقع للمشائخ : الطيب العقبى ، والامين العمودى ، وفرحات بن الدراجى ، فى الجزائر العاصمة ، وعمر دردور فى الاوراس ، ومحمد خير الدين فى فرفار بالجنوب ، وعبد العزيز بن الهاشمى ، وعبد

القادر الياجورى ، وعلي بن سعد ، فى وادى سوف ، والهادى الزروقى فى بجاية ، والسعيد صالحي فى بنى يعلى ، والعباس ابن الشيخ الحسين فى سيدى مزغيش ، ومحمد العيد آل خليفة فى عين مليلة ، والبشير الابراهيمى فى تلمسان والجزائر العاصمة ، والعربى التبسي فى تبسة،وكاتب هذه السطور فى مدرسة الصادقية بصلانبى (المدنية)... وغيرهم بالعشرات والمئات والآلاف ، فتشت منازلهم المرار العديدة ، وأهينوا فى ذواتهم وأهاليهم ، واضطهدوا ، وعذبوا ، وسيقوا مكبلين الى زنزانات السجون ، والمعتقلات ، فى « باربا روس » بالعاصمة ، وفى « الكدية » بقسنطينة ، وفى مختلف المعتقلات والمحتشدات بمختلف الجهات .. وكل هذا لا مبرر له فى فنون الجرائم والجنايات ، بل كل ذنبهم أنهم دعاة الى الله بدين الله ، ومعلمون للغة العربية وهى لغة الدين ، وعاملون مناضلون فى المساجد والكتاتيب القرآنية .. هذه هى جريمتهم وجنايتهم التى يستحقون عليها التعذيب والاضطهاد والسجن والنفي والاعتقال والمحاكمة والتغريم .. ومع ذلك لم يكتب واحد منهم « مذكرات » يتبجح فيها بكفاحه ، ويمن بها على العالم بانه صاحب الفضل الاول فى فتح أبواب الجهاد والنضال ، فى وقت كان الناس فيه يستمتعون بالعيش الهني مع عائلاتهم وأهاليهم ، يؤلفون الكتب ويبيعونها قبل ان تطبع ، ويكتبون فى مختلف الصحف الوطنية بأجور شهرية قارة تتطور كسورها دوما ، فى تصاعد مطرد ؟!

فيا شباب الجزائر !!

اقرأوا تاريخ أمجادكم وبطولاتكم من مضانها الحقيقية ـ لا المزيفة ـ اقرأوها فى مختلف الصحف الوطنية والكتب الدينية والادبية والتاريخية ، التى خلفها لكم أولائك الرواد

الاحرار ، اطلبوها من خزائنها فى المكتبات العامة والخاصة ، وطالبوا بتوفيرها بينكم عن طريق اعــادة طبعهــا ونشرها وتوزيعها بــين كــل أجيالكم ومدارسكم ومعاهدكم .. ثــم انظروا أوليكم كيف قد سلفوا ، ثم اسلكوا فى المعالى أيــة سلكــــوا !!

فالمحيا محياهم ، والممات مماتهم .

خـطــــاب

الامــام الشيخ محمــد البشــير الابراهيمى
فى يــوم افتتاح أسبوع الجزائر فى العــراق
(مــاي 1957)

نشر أولا فى جريدة « المقاومة الجزائرية » عدد 33
بتاريخ 11 ــ 20 يونية 1957 ، الصفحة (10) .
ونشر ثانية فى مجلة « الثقافة » الجزائرية عدد 51
فى رجب 1399 هـ مايو ــ جوان 1979 م .

أيــها المــلأ الكريــم ،

هذه الكلمة القصيرة التى ستستمعونها مــن أخيكم ليست محاضرة للتعريف بالثورة الجزائرية وأبطالها ، ولا خطبــة تمجيد لزعمائها ، أو تأبين لشهدائها . لا هذا ولا ذاك ، لأن الوقت والمناسبة يأبيان ذلك . وانما هى صوت من الجزائر يجب ان يسمع فى هذا الوقت والجمع حافــل ، فعزيز عــلى الجزائر ان يقام لها فى العراق الشقيق أسبوع ثم لا يكون لها فيه صوت مرفوع .

ان ثورة الجزائر قد شبت عن طريق الاقوال ، واصبحت فى مرحلة لا غناء فيها للخطب وان طالت ، ولا للأقلام وان صالت وجالت . وانما الغناء فيها للإيمان الثابت ، يظاهره

العمل الصامت . ولزكاة الاخوة ، يؤديها عربي الشرق حقا ، ويأخذها عربي الغرب مستحقا ، فتنقلب في يده سلاحا يقتل به عدو الفريقين .. قد اعربت هذه الثورة عن نفسها ، وفرضت على العالم ان يسمع صداها ، ويتعرف مداها ، ويلمس آثارها ، ويتتبع أخبارها باهتمام وعناية . لان الدم الباقي من جسم الاستعمار ، يتردد اليوم في لهوات الجزائر . واعداء الاستعمار يتمنون ان تكون الجزائر له مقبرة . وانصاره يعللون نفوسهم بالاباطيل ، ويتمنون ان تكون الجزائر له دار نقاهة ، وموطن استجمام ، يعاود منه الكرة على الفرص المتخلفة في هذا الشرق . ولقد كان هذا الاستعمار في أول أمره استغلالا ومصلحة وتسلطا وقهرا ، فأصبح في آخر أمره وعمره مرضا وسعارا ، نهايته ان يقتل ويقتل ..

« وما دامت الاقوال لاغناء فيها للثورة الجزائرية ، فليرح خطباء العربية وشعراؤها وكتّابها ألسنتهم وأقلامهم من التغني بالثورة الجزائرية وأبطالها ، وليوجهوا عنايتهم الى التي هي أوفى بذمام الاخوة ، وهي مد الايدى لإعانة أولئك الابطال المجاهدين ، في سبيل العروبة التي هي أم الجميع ، والاسلام الذى هو دين الجميع . وانما تتكافأ الاعمال بالاعمال ، لا بالاقوال .. فان قالوا ففي فتح الابصار والبصائر على ما جرى وما يجرى في أرض الجزائر ، على ايدى الفرنسيين من أعمال وحشية ، وفي التحذير مما وراءها من عواقب مخيفة » ..

ان اخوانكم المجاهدين الجزائريين ، ومن ورائهم الشعب الجزائري كله ، قد وقفوا في مرحلتهم الاخيرة ، المتصلة بيومكم هذا عند دستور شوقي ، الذى سنه فقال :

فى الامر ما فيه من جدّ فلا تقفوا
من واقع جزعا أو طائر طربا

ضعوا الجهود وخلّوها مذكرة
لا تملأوا الشدق من تعريفها عجبا

أفى الوغى ورحى الهيجاء دائرة
تحصون من مات أو تحصون ما سلبا ؟

وآية تطبيقهم لهذا الدستور ، ان الجيش الفرنسى يعجز عن قتل المحاربين الجزائريين ، فيعمد الى القرى العامرة بالمستضعفين من النساء والولدان والشيوخ ، فيهدمها عليهم فلا يكاد ينجو من الموت أحد منهم . ولا ينزعج الاحياء من هذه المناظر المذهلة بل يفر من استطاع منهم الى مجالات الثورة ، مبشرا بما وقع ، مخبرا بما يهم من اتجاه العدو وحركاته .

أيها الاخوة الكرام ،

انّ اخوانكم ما ثاروا الا بعد ان آمنوا بأن الموت المعجل ومعه الشهادة ، أشرف من الموت البطىء يصحبه الذل والهوان وان الموت الشريف أكرم عند الله والناس من الحياة المهينة . وان هذه الحالة اذا طالت أكثر مما طالت ، بردت العزائم ، وماتت الهمم العربية ، والحمية الاسلامية . فهم حين يقاتلون الاستعمار ، ويقتلون أهله ، انما يقاتلون معه هذه المعانى الخبيثة ، التى ابتلاهم بها ، وشرها ضعف الاخلاق ، وخور العزائم ، وما كادوا يقتلون طائفة من عدوهم ، وتقتل منهم طائفة ، حتى تنبهت فيهم طبائع الآباء والاجداد ، ودبت فيهم الحمية التى نشرت دين اللـه فى أرضه وهانت عليهم الحياة الذميمة ، فى طلب الحياة الكريمة ...

أيــها الاخــوة الكــرام ،

ان الشعب الجزائري قد جمع الفضائل من أطرافها ، بهذه الثورة ، فهو يجاهد منذ شبت لظاها بالعزيزين النفس والمال وهو مصمم على هذه التضحية الثقيلة ، الى ان يفنى ، أو يحكم الله له بالنصر .. وقد اطّردت معه سنة الله فى نصرة الفئة القليلة ، على الفئة الكثيرة ، بما آمن وصبر وضحى . ولقد يناجز عدوه فيجرعه الغصص ، ويكايده فيفوّت عليه الفرص، غير ان الزمن طويل ، والحرب ليست مركب كل يــوم . فاذا كانت ذخيرة الشعب الجزائري من الايمان لا حد لها، ورصيده مــن الشجاعة والصبر لا ينفد . فان طاقتــه المادية معرضة للنفاد . والعدو لدود لئيم ، وله اعوان على الشر ، وصريخ قريب فى البر والبحر .. واخوانكم الجزائريون مفصولون عن بني العمومة فى هذا الشرق، باللجج الخضر، والفلوات الغبر، لا يجتمعون بهم فى صعيد ، ولا يأوون منهم الى ركن شديد ، ولا يعتضدون منهم بباع مديد ، أو برأي سديد ، أو بعــون مفيـــد ...

واخوانكم الجزائريون ينطوون عــلى اعتبارات موروثة ، تحل فى مستقر العقيدة من نفوسهم ، منها انهم اخوانكم في الدين ، تجمعهم بكم عقائده وشعائره وآدابه ، وتجمعهم بكم هذه اللغة التي غيرت التاريخ وبنت الحضارة الانسانية طبقا عن طبق ، وكانت لسانها المعبر احقابا مديدة . وتجمعهم بكم خصائص العروبة ، وشمائل العرب ، الذين انحدرتم جميعا مــن اصلابهم ، واتصلتــم جميــعا بانسابهم .. فهــم حــين يستصرخونكم ، انما يستصرخون فيكم هذه الوشائج والعروق والدماء والارحام !..

وتالله لو ان ذاهبا من العراق ، على هذه الصحارى المتصلة فانتهى به المطاف الى مخارم الاطلس الاشم ، ثم ارهف سمعه لما يحمله الاثير من قمم جبال الاوراس ، لسمع جميع الاصوات الا صوتين لم يركبا فى طبع الجزائريين ، هما صوت البكاء ، وصوت المكاء ، بكاء الهالع ، ومكاء الخالع ... ولكنه يسمع الحنين ، حنين الابطال ، الى النزال ، ويسمع الانـين ، أنـين العاجزين لخلو الراحة ، لا لألم الجراحة .. ويسمع هيمنـة التكبير ، عند النفير ، ويسمع صوت الاستصراخ لبنى العمومة فى هذا الشرق !..

ولعمر العروبة ومـا أنجبت ، انها لكلمات تنطوى عـلى ذكريات ، فلقد كان يستغيث بها الطفل العربى ، فتعقد لها المحافل ، وتجهز الجحافل . وتقولها المرأة العربية ، فيهيـج لها العرق الحر ، ويتأجج الحفاظ المر !..

أيـها الاخـوة الكـرام ،

ان ثـورة الجزائر فى حقيقتها العليا ذهبيـة فى تاريـخ العروبة الطويل ، وقبسة نورانية من مشرق الاسلام ، ونفحة علوية من أرواح الفاتحين الاولين : عقبـة ، وأبو المهاجر ، وحسان ، وموسى ، وطارق ... وان أعمال اخوانكم المجاهدين الجزائريين ، أعـمال وصلت أمـجاد العرب فى الآخـرين ، بأمجادهم فى الاولين . وان مواقف الشعب الجزائري فى هذه الثورة كلها حسنات ذهبت بسيئات العرب ، وكفرت عن جميع مـا اجترحوه مـن ذنوب فى جنب الاسلام والعروبة ، وان التعاون الذى ظهر بين أفراد الشعب الجزائري فى هذه الثورة هـو التفسير الصحيح ، لكلمة الاخـوة الاسلامية .. وجملة

القول من غير محاباة ولا غلو ، ان الثورة الجزائرية فصل غريب ، في تاريخ الانسانية ، قرىء قبل ان يكتب ، وفهم قبل ان يتم . وسيكون بعد ان يكتب بابا ممتازا في تاريخ الثورات التحريرية . يجد فيه الدارسون شذوذا في كل قاعدة من قواعد الثورات ، وهدما لكثير من النظريات الثورية السالفة في حياة الشعوب .

أيها الاخوة الكرام ،

اننا لا نعلمكم شيئا جديدا عن الثورات ، فقد سبقتمونا اليها وكنتم أئمتنا فيها ، ونلتم استقلالكم بالضحايا والدماء والاشلاء ، وما من قطر عربي أو اسلامي استقل بدون ثورة ، وانما هي بث من متعب الى مستريح ، وشكوى خابط في الدياجى ، طال ليله ، فطال ويله ، الى أخ كريم له ، قد اطلق سراحه ، وتبلج على نور الحرية صباحه ، فاعذروا اخوانكم الجزائريين اذا ألحوا ، واعذلوا اخوانكم العراقيين اذا هم بالنجدة شحّوا ، انكم لم تجتمعوا في هذا المكان والزمان لبناء بيت ، أو تكفين ميت ، وانما اجتمعتم لإحياء شعب من بني أبيكم ، حياته حياتكم ، وعزه عزكم ، وفي انتصاره انتصاركم، وفي اندحاره اندحاركم . وقد احالكم على الانساب ، وهي ارحام ، وعلى اللغة وهي قوام ، وعلى الخصائص وهي ذمام ، وعلى الدين وهو عروة اعتصام ، وانكم أسميتم هذا الاسبوع أسبوع الجزائر ، وجعلتم براعة استهلاله هذا اليوم ، وهذا الاجتماع الذي زاده حضور جلالة الملك الشاب بهاء واشراقا ، فأصبحت هذه الاضافات عقودا في اعناقكم ، يجب الوفاء بها على أكمل وجه ، يشرف العراق والجزائر . ويقوم بحق صاحب الجلالة ، الذي لم يكفه ان حضر حتى تكلم ، ولم يكفه ان تكلم حتى افتتح الاكتتاب !.. »

أيـها الاخـوة الكـرام ،

اجعلوا هذا الاسبوع ، كالينبوع ، يفـور ، ولا يغور .. وكماء دجلة يفيض ، ولا يغيض .. وكيوم الجمعة عند القانت الاواب ، تقل حركاته ، وتكثر بركاته ، وسـلام عليكم فى المـؤمنين الصادقين ، وسـلام عليـكم فى الباذرين للخـير والباذلـين !..

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ..)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

خـاتمــة :

ـ نشرنا هذا الخطاب القيم العظيم فى فحواه ومعناه ، ليعرف القراء ـ كل القراء ـ أننا لم نتجنَّ على السيد أحمد توفيق المدنى حين نقضنا غزله (غرزة غرزة) فيما كتبه من الاوهام ، وما سجله على نفسه من التحريف والتزييف لحقائق التاريخ ، والاحداث والوقائع، والاعلام ..

وحسبنا أننا أدينا أمانة الله ، فى مناصرة الحق وأهله ، وأمانة التاريخ فى تجلية معالمه وأعلامه ، وأمانة الأمــة (الجزائرية) فى الحفاظ على أمجادها ومقوماتها وبطولاتها وابرارها واحرارها ..

وهو عمل ندخره ليوم الهول الاكبر ، « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . يوم يبعث الله المؤمنين الصادقين ، « يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » ، ويحشر الجاحدين المعتدين « زُرْقًا يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ » عميا لا يهتـدون فى سيرهـم الى مصيرهم .

فاللهم يا مالك الملك ، خذ بأيدينا الى ملكوت رحمتك ، وجنبنا مزالق الاقوال والاعمال ، حتى تبلغنا آجالنا معافين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله



ـ المؤلف ـ

ـ من مواليد 1339 هـ بالصومام (القبائل الصغرى) .

ـ حفظ القرآن طفلا ، ودرس العربية والعلوم الشرعية على يد والده المدرس الفقيه .

ـ أخذ عن الشيخ ابن باديس فى الجامع الاخضر ، وعن مساعديه فى مساجد قسنطينة ومدرسة التربية والتعليم .

ـ ناضل معلما فى المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء ، وأوذى في ذلك بالسجن والمحاكمة والاعتقال منذ شبابه الاول .

ـ دعته مواهبه الفنية والادبية ككاتب وممثل الى تكوين فرقة مسرحية عمل بها فى الاذاعة والمسرح .

ـ ساهم في الحياة الثقافية عن طريق المسرح والاذاعة والصحف .

ـ طبع له من الكتب (3) ، وتحت الطبع (3) ، عدا هذا الكتاب .

ـ له برنامج اذاعي هام فى الاذاعة الوطنية .

ـ عضو اتحاد الكتاب الجزائريين .

ـ شاعر ، له ديوان شعر يخفيه ويأبى نشره ، لأنه لا يؤمن بشاعريته .

الفهـــــارس

كان فى النية وضع فهارس للاعلام ، تيسيرا للمراجعة وتحديدا للمهام · ولكن الظروف الزمنية والعملية حالت دون ذلك · ولعل ذلك يتيسر فى المستقبل باذن الله ·

الصـــور والوثـائـق

الصـــور :

1) ـ صورة تذكارية للاستاذ ابراهيم الكتانى مع اعضاء جمعية العلماء

2) ـ صورة تذكارية لجموع الشعب
(فى افتتاح مدرسة دار الحديث)

3) ـ صورة تذكارية لمؤتمر طنجة
(لزعماء المغرب العربى)

4) صورة للشباب المتطوع فى جيش التحرير الوطنى
(من المقيمين بالمغرب)

5) ـ صورة تذكارية لاعلان الاستقلال
(بعد مفاوضات افيان)

6) ـ صورة تذكارية لاعضاء اللجنة التنفيذية
(للمؤتمر الاسلامى الجزائرى)

الـوثـائـق :

1) ـ مخطوط ، بقلم الشيخ حمزة بوكوشة

2) ـ مصور ، من كتاب الحرب السرية بالجزائر

3) ـ مصور غلاف الكتاب

4) ـ مصور التعريف بالمؤلف

5) ـ وثيقة مخطوطة من أركان الحرب
(لجيش التحرير الوطنى)

6) ـ مصور ، اعتماد من جبهة التحرير الوطنى

7) ـ مصور ، لبطاقات زيارة

8) ـ وثائق سرية من الادارة الاستعمارية

الخطـوط والزخرفـة :

1) ـ غـلاف الكتـاب

2) ـ اهــــداء

3 ـ تاريخ الجزائر لا يكتبه الا الشرفاء

4) ـ التاريخ هو ذاكرة الامة وضميرها

5) ـ موقـف الابطـال

ـ هذه اللوحات الفنية :

بقلم وريشة الخطاط والفنان الجزائرى الاستاذ

عبد الحميد محمد اسكندر

(دبلوم فنى فى الخط والزخرفة)